برونيسواف كريستين فيجايسكي

حصون على الرمال

(تريبوليتانيا الليبية سنة ١٩٣٤)





ترجمة: ميخائيل عبدالله



برونيسواف كريستين فيجايسكي

حصون على الرمال

(تريبوليتانيا الليبية سنة ١٩٣٤)

ترجمة: ميخائيل عبدالله

منشورات الجمل

برونيسواف كريستين فيجايسكي: حصون على الرمال

برونيسواف كريستين فيجايسكي: حصون على الرمال، تريبوليتانيا الليبية سنة ١٩٣٤، ترجمة: ميخائيل عبدالله

Bronislaw Krystyn Wierzejski: FORTY NA PIASKU

الطبعة الأولى، جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس باللغة العربية محفوظة لمنشورات الجمل، بغداد ـ بيروت، ٢٠١٢

ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣، بيروت ـ لبنان

تلفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ٠١ (٠٠٩٦١)

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a.N . Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

العنوان الفرعي (بين قوسين): من وضع المترجم

الصُّوَر المرفقة في الترجمة العربية:

نظرا لعدم وضوح بعض الصور التي تتخلل النص وقلّة أهمّيّة بعضها الآخر أو تشابهها، قمتُ باختيار خمس وثلاثين من أصل سبع وخمسين، ومن الصُّوَر المستقلة وعددها تسع عشرة (أسماها الكاتب «لوحة») اخترتُ ثلاث عشرة ـ الصور المختارة يجدها القارىء في نهاية الفصول وبأرقام تسلسلية جديدة مع ذكر (بين قوسين) رقمها الأصلي كما جاء في النسخة البولندية. ونظراً للمصير المؤلم للمؤلف ارتأيتُ أن تتصدّر صورتهُ الغلافَ الأول للكتاب.

الصُّوَر الملغاة وأرقامها:

١٠، ١٢، ١٤، ١٧، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤١، ٤٢، ٤٧، ٥١، ٥٤، ٥٧.

اللوحات الملغاة وأرقامها:

٤، ٥، ١٠، ١٤، ١٧، ١٩.

قصتي مع هذا الكتاب

مع بداية عملي في قسم الدراسات الشرقية في جامعة آدم ميتسكييفيتش بمدينة بوزنان (سنة ١٩٩٣)[1] وردتنا عند نهاية الفصل الثاني الرسالة تلو الرسالة، مصدرها دار نشر ادّعت أنّها ليبيّة ومقرها لندن، تبحث عن مترجم بولندي عربي لترجمة كتاب عن ليبيا نُشر في بولندا سنة ١٩٣٥ . وللحقيقة أقول بأنني، ومعي زملائي، لم نعِرْ اهتماما بتلك الرسائل ولا بالاقتراح الوارد فيها، إذ كيف علينا أن نتعامل مع شخص لا نراه أو مؤسسة لم نسمع بها، وعلى أيّ أساسٍ؟! فأهملناها.

بعد مضي ما يقارب شهرين فوجئنا برسالة تحمل نفس الطلب موجهة لرئيس الجامعة. وهو بدوره حولّها لنا مع ملاحظة بخطّه لنأخذ الموضوع على محمل الجدّ.

وهكذا بدأ مشوار تبادل الرسائل بيني وبين دار النشر تلك.

كان عليّ أولا أنْ أتأكّد، هل الكتاب المنوَّه إليه متوفِّر، إذ نظراً لصدوره قبل الحرب العالمية الثانية قد تكون استعارته غير واردة في الحسبان.

تبين أن الكتابُ محفوظٌ في مخزونات الجامعة والحظْر المفروض على

---

(١) وهو القسم الذي نما بسرعة مذهلة وصار معهدا بفضل العاملين فيه من أصحاب الكفاءات العالية والأخلاق النبيلة والمواقف الإنسانية والعلاقات الواسعة في مجال الآداب الصينية واليابانية والهندية واهتماماتهم الجدّيّة بمسألة الأقليات.

المطبوعات الصادرة قبل انضمام بولندا لمجموعة دول المعسكر الاشتراكي قد رُفِع.

تنفستُ الصعداء!

موضوع الكتاب يدخل في إطار أدب الرحلات وأسلوبه شيّق وجذّاب. أما كاتبه، والحقُّ يُقال، فقد بذل جهداً لا يُستهان به من أجل تحقيق حلمٍ زاوله مُذْ كان صبيّاً: الوقوف على نمط حياة غيره من سلالة آدم وحواء وكشف أسرار الصحراء الخلاّبة. فكما في كوكبنا الواحد رمالٌ وصحارى، بحارٌ وغاباتٌ، كذلك بنو الإنسان الواحد يتميّزون بالهيئة واللون والمعتقدات وبنمط حياتهم. وكم مِنْ رحّالة أغنى معرفتنا بكتابٍ أو أكثر جعلنا نعيش قريبين من الذين يبعدون عنّا آلاف الكيلومترات! وكم مِنْ رحّالة كشف لنا تراث هذا القوم أو ذاك وحفظه من الضياع! رفوف المكتبات العامة والخاصة ترزح تحت ثقل مجلّدات لكتّاب قديرين تركوا بصماتهم في تاريخ البشرية، وصالات متاحف العديد من البلدان تزخر بمئات المكتشفات التي أنقذوها. المدنيّة مدينةٌ لهم.

بعد تبادل مملّ بعض الشيء للرسائل مع دار النشر تلك ومحاولة العاملين فيها إقناعي أن «الكلمة تُلزم الإنسان، سيما مَنْ ينحدر مِنْ منطقة عربيّة(!)، بدرجة أعلى من التوقيع على اتفاق مُصاغ كتابيا»، شمّرتُ عن ساعدَيَّ وبدأتُ الترجمة بسباق ماراتوني مع الزمن. كان مردودي اليومي سبع صفحات، لا أكثر.

أنهيتُ الترجمة مع بداية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٥ ثم حوّلتُ النصّ لتنقيحه لغويا. قام بهذا مشكوراً الكاتب والأديب والشاعر العراقي المعروف الأستاذ محمد حسين الأعرجي (آنذاك أستاذ مميّز في قسم الاستشراق وأهمّ أركانه). ثم طبعتُ النصَّ كاملا وسجّلتُه على قرص وأخبرتُ بهذا العاملين في دار النشر. ووفقا لاتفاقٍ مُسبق وعدتُهم بأنني سأمرّ على مكتبهم في لندن لإتمام الإجراءات، محدّدا اليوم والساعة. الوصول إلى مقرّ المكتب لم يكن صعباً حتى في مدينةٍ بحجم لندن. طرقتُ الباب فوجدتُه موصداً، وفعلتُ هذا بعد

عودتي من الأكسفورد ـ الباب موصدٌ للمرّة الثانية. «الكلمةُ تُلزم الرجال....»!

عدتُ إلى بولندا وفي رأسي تتزاحم علامات استفهام كثيرة لا أجد جواباً لها.

راسلتُ «أصحاب الكلمة» مرّةً ومرتين. جوابهم على رسالتي الثانية لم يحوِ كلمة «نأسف»، إنما طلبوا، وبصيغة الأمر، إرسال الترجمة، وبعد وصولها سيقرّرون ما الذي يجب القيام به.

طبعاً رفضتُ هذا الأسلوب في التعامل «لأصحاب الكلمة»، وبغضّ النظر عن الذي جرى اقترحتُ استعدادي على إرسال النصّ بعد الحصول على ضماناتٍ ما، مثلا من «المكتب الشعبي للجنة الشعبية للجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى» في وارسو.

مرّتْ عشر سنوات ولم أحصل على جواب من «أصحاب الكلمة».

أكاد لا أصدّق هذا التفسير أو ذاك لأكثر مِنْ صديقٍ، بينهم ليبيون أعزاء، مِمَّن يحترم الكلمة والعهد بكل أبعادهما ويخلص في مجمل علاقاته مع الآخرين، وبهذا يقدّم خيرَ خدمةٍ لبلده ويرفع شأنَ ومنزلةَ قومه، أن وراء هذا التصرّف غير الحميد لدار النشر تكمن ربّما أمورٌ لنسمّيها مجازا «سياسيّة محظورة»، كون الكتاب يحوي فقراتٍ، لا بل فصولاً، عن إثنيّات التقى الكاتب بها والآن غير معترف بوجودها، ومنهم الأمازيغ (يسميهم الكاتب «البربر») واليهود. فيما يخصّ اليهود فالكلّ يعلم أنّهم هاجروا الأراضي الليبية، بينما الأمازيغ فهم من السكان الأصليّين الذين حافظوا على ذاكرتهم ولغتهم وعاداتهم.

من أعطانا الحقَّ لننكر وجود ما هو موجود؟! أوليس هذا سؤال مشروع، وفي كل زمان ومكان...

في تحليلي لهذا التفسير أو ذاك تذكّرتُ الحادثة الطريفة التالية:

جاءني يوماً صديقٌ ليبيٌّ بغرض إنجاز ترجمة قانونية لشهادة ولادة ابنه المسجّلة في مكتب الأحوال المدنية بمدينة بوزنان. قمتُ بهذا في إطار واجباتي كمترجمٍ محلّف. بعد مرور لا أكثر مِنْ شهر جاءني مرّة ثانية وبنفس الغرض. عندما سألته مازحاً: «هل رُزقتَ بطفلٍ ثانٍ خلال شهر»؟ أجابني: «رفضتْ سلطات بلدي تسجيل إبني لأنه يحمل إسماً بربرياً. وأنا أقسم بأن اختياري لذلك الإسم لم يكن مقصودا، وحتى لم يكنْ لي عِلْم بأنه إسمٌ لقائد بربري في عصور غابرة». وما كان على صديقي إلا أن يبتكر إسماً جديداً لإبنه: «سيف الإسلام».

كلُّ شيءٍ على وجه الأرض يتغيّر، وليبيا اليوم ليست كما كانت عليه عندما زارها الكاتب البولندي قبل سبعين سنة ونيف. ورُبَّ سائل يسأل: هل يحقُّ للأجيال القادمة أن تنكر ما تشهده الساحة الليبية اليوم من إنجازات لأنها ليست إنجازاتها، بل إنجازات الذين سبقوها؟

مضتْ عشرُ سنواتٍ. خلال هذه الفترة بذل بعض الأصدقاء الليبيين مساعٍ مشكورة ومحاولات جادّة للقيام بشيء من أجل أن يرى الكتابُ الضوءَ، إلا أنهم، كما يبدو، لم يلقوا آذاناً صاغية. ففي هذه الحالة بقي أمامي خياران: نسيان الجهد الذي كرّستُه في الترجمة، أو نشر الكتاب على حسابي الخاص، وربما أوفَّق في الوصول إلى مؤسسات بولندية قد تدعم المشروع، وذلك للدوافع التالية التي سأطرحها أمامها:

١ ـ الكاتب بولنديٌّ ويحقّ لبلده استغلال هذه الواقعة في إطار نشر الأدبيات المكرّسة لشعوب أخرى بعيدة جغرافيّاً، والتركيز على الدوافع الإنسانية التي كانت المبرّر الوحيد ليتكبّل الكاتب عناء التجوال، ولمدّة أربعة أشهر، في مناطق يجهلها. وليست هذه إلا مساهمة منه ومن دار نشر كتابه في تشجيع غيره من البولنديين على القيام بمغامرات مشابهة وكشف مناطق وشعوب يجهلونها.

٢ ـ كان الكاتب طالبا جامعيا في روما، ومنها سافر إلى ليبيا باقتراح ودعم

من أصدقائه الإيطاليين. نشرُ كتابِه بالعربية يحمل مغازٍ عدّة، منها: أ ـ الشباب البولندي قبل الحرب العالمية الثانية كان مقتنعا بانتمائه للحضارة الأوروبية، ب ـ يؤكّد وجود تبادل ثقافي بين عواصم الدول الأوروبية، ج ـ يدلّ على ثقة الطالب الجامعي بنفسه وعلى الحرّية التي كان يتمتع بها في اتخاد قرار لا يخلو تحقيقه من المغامرة.

٣ ـ موضوع الكتاب محصورٌ بفترة زمنية حسّاسة في تاريخ ليبيا، تميّزت بتحريرها من التبعيّة العثمانيّة وإدخالها ضمن النفوذ الإيطالي الذي حولّها إلى مستعمرة استراتيبجية.

٤ ـ خلال فترة وجود الكاتب في ليبيا كانت الفاشيّة الإيديولوجيّة الرسميّة المعتمدة في إيطاليا وتمثّلت بموسوليني وأطماعه الاستعمارية، ومنها انضمامه إلى معسكر هتلر في سنوات الحرب العالمية الثانية. ولا يخفي الكاتب، وفي أكثر من مكان، قلقه من تبّعات هذه الإيديولوجيّة التي، كما نعلم، أسفرت فيما بعد عن احتلال بولندا وغيرها من الدول الأوروبية من قبل النازيّة التي تجسّدت بسياسة هتلر المُدمِّرة. تطبيق الإيديولوجيّة الفاشيّة بدأ في ليبيا وبعد أن نضجت بلغت أوجها في بولندا (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) التي شهدت المحارق الجماعية ومعسكرات الموت وأودت بحياة حوالي ستة ملايين من الأرواح البشرية. الكتاب توثيق حيٌّ لتلك الفترة من تاريخ ليبيا.

٥ ـ يحوي الكتاب معلومات عن بولندا وبعض رجالاتها وكتّابها ومعالمها الأثرية. وفي الترجمة كان من الضروري تعريف القارىء العربي بها من خلال العديد من الحواشي التي أوردْتُها في أسفل الصفحات.

٦ ـ يحوي الكتاب في نهايته معلومات إحصائية نادرة، وبالأرقام، عن الجزء التريبوليتاني من ليبيا، تشملِ كل مناحي الحياة ومعالم الطبيعة من جغرافيا وتعليم (المدارس بمختلف مراحلها) وثقافة (أسماء الصحف) ورياضة (أسماء النوادي) وتجارة وطُرق وثروة حيوانية ونباتية وإنتاج وحجم الإستيراد والتصدير مع تعداد

السكان وتوزيعهم وأصولهم. وهذه مصدر وثائقي مهمّ لمن يهتم أو سيهتم بليبيا. دراسة مقارنه كهذه ستعطي صورة عن وتيرة النمو في ليبيا خلال سبعين سنة.

ولعل الأهمّ من كلّ هذا هي الواقعة التالية:

شعرتُ بحاجة ملحّة لإغناء الترجمة العربية بتعريفٍ عن شخصيّة الكاتب، فبحثتُ في المصادر المتاحة ولم أعثرْ سوى على جملةٍ واحدة في الصفحة الإلكترونية لمؤسسةٍ حكومية رسمية مقرّها المركزي في وارسو تحمل اسم Rada Ochrony Pamieci Walk i Meczeństwa (اختصارها) ROPWiM (هيئة حماية ذكرى المعارك والشهادة). وتعنى هذه المؤسسة بجمع وتوثيق كل ما له صلة بالحركة التحرريّة البولنديّة في القرن العشرين. ولعل جُلّ اهتمامها يتركّز حول إعداد لائحة كاملة لأكثر من تسعة عشر ألف ضابط من ضباط الجيش البولندي مِمّن فُتك بهم غدراً، برصاصة في مؤخّرة الرأس، في منطقة تُدعى كاتين (تقع في أقصى غرب روسيا، بالقرب من مدينة سمولينسك) في سنة ١٩٤٠. وعلى الرغم من إلصاق تهمة ارتكاب هذه الجريمة البشعة بالألمان النازيين، تبيّن بأن أمر إبادتهم أصدرته السلطات السوفيتية العليا. أما جثث القتلى فقد أُلقيت في مقابر جماعية في إحدى الغابات. الكشف عن ملابسات هذه الجريمة خَلَقَ بعض التوتّر في العلاقات بين بولندا وروسيا، إلا أن تم الاتفاق (بعد التحولات التي جرت في روسيا) على تشكيل لجنة من قِبَل الطرفَين قامت بتحقيقات واسعة ووضِعت الأراشيف السرّيّة المتعلقة بهذا الشأن تحت تصرّفها. هذا، وقد بنتْ بولندا في تلك الغابة مقبرة كبيرة مسوّرة ومزوّدة بلوحات حُفرت فيها أسماء المغدور بهم. وبالإضافة إلى هذا فقد تأسّس في بولندا اتحاد يضم عائلات أولئك الضباط، له وزنه الاجتماعي والسياسي واعتاد أن ينظّم كلّ عامٍ احتفالات رسمية من أجل تخليد ذكرى الضحايا مع زيارات جماعية لمكان وقوع الجريمة.

ولا أخفي بأنه انتابني بعض الحزن عندما وقع نظري على لوحة في تلك المقبرة

حُفِر عليها إسم Bronisĺaw Wierzejski، إلا أنني لم أكن متأكدا هل هو إسم الكاتب الذي نحن بصدده، أم لشخص آخر (تطابق الإسم الفردي واسم العائلة لعديد من الأفراد ظاهرةٌ عامة، ولتجنّب حالات كهذه يحمل البولندي عادة إسمين)، فبالإضافة إلى الإسم الأول (Bronisĺaw) يستخدم الكاتب في كتابه إسمَه الثاني: Krystyn. والاسم الثاني هذا لم يرِدْ في تلك اللوحة. وبهدف توضيح هذا الغموض وجّهتُ في يوم ٣١/ ١٢/ ٢٠٠٧ رسالة مختصرة لتلك الهيئة مبرّرا الأسباب التي دفعتني للاتصال بهم، دونما أتوقع جواباً:

«هل برونيسواف فيجايسكي الوارد إسمه ضمن لائحة المغدور بهم في كاتين، لم يكن رحّالة ومؤلّف كتاب (حصون على الرمال) الذي يصف فيه ما شاهده خلال تجواله في تريبوليتانيا الليبيّة بين كانون الثاني/ يناير ونيسان/ أبريل ١٩٣٤؟ والكتاب من إصدارات دار نشر تشاسكا إفرت وميخالسكي في وارسو سنة ١٩٣٥، وقد قمتُ بنقله إلى العربية وأرغبُ أن أضيف في مقدمته تعريفا مختصرا عن الكاتب».

ملحوظة: في الكتاب بعد إسم برونيسواف يرد الإسم الثاني للكاتب: «كريستين».

في يوم ١٦/ ١/ ٢٠٠٨ وصلني الجواب التالي:

«جوابا على رسالتك الموجّهة يوم ٣١ كانون الأول/ ديسمبر من العام الفائت لا يسعنا إلا أن نشكرك جزيل الشكر على تبادلك معنا ببعض التكهنات، إذ المعلومات المتوفّرة حتى تاريخه في حوزة هيئة حماية ذكرى المعارك والشهادة المتعلّقة بالملازم برونيسواف فيجايسكي محدودة جدا. في لائحة سَوق الضبّاط من معسكر كوشيلسك المعدّة بتاريخ ١/ ٤/ ١٩٤٠ كان في الإمكان التأكّد فقط من تاريخ ولادته: سنة ١٩١٠ وإسم والده: فيتولد. بينما عند النبش في المقبرة الجماعية في غابة كاتين سنة ١٩٤٣ تم العثور على جثّة الملازم وإلى جانبها جواز سفره وبصعوية تمّ قراءة إسمه: فيج. . . . برونيسواف كريستين».

إذنْ يمكننا أنْ نحكم بأنّ برونيسواف فيجايسكي هو نفسه برونيسواف كريستين فيجايسكي. وما يؤسفنا هو أن ما عُثر عليه خلال فرز الجثث سنة ١٩٤٣ قد تمّ إتلافه من قِبَل الألمان في مدينة دريزدن سنة ١٩٤٥.

في الطبعة الثانية المعدّله من مجلّد «سجلّ المقابر» الذي يضمّ سيرة حياة الضبّاط المغدور بهم في كاتين سنغنني سيرة الملازم برونيسواف كريستين فيجايسكي. «فإذا توجد في حوزتك أي معلومات أو صور للملازم فيجايسكي، نطلب بإلحاح إرسالها على عنوان هيئة حماية ذكرى المعارك والشهادة».

قضى الكاتب حياته وعمره ثلاثون سنة، إلا أن إسمه لم يمتْ. هو حيّ في هذا الكتاب، وربما في كتب أخرى من تأليفه نجهلها. إنه حيٌّ في تلك اللوحة المحفورة في سور مقبرة كاتين وتحتها تُوقد كل سنة شمعة، وكذلك في «سجل المقابر» الذي ستغنيه هيئة حماية ذكرى المعارك والشهادة.

لبَّيتُ طلب الهيئة برحابة صدر. فاستعرتُ الكتاب من جديد، علما أن شروط استعارة الكتب تخضع الآن لترتيبات منظّمة أكثر من ذي قبل. وقمتُ بتصوير ما به من صور لبرونيسواف كريستين فيجايسكي، إحداها واضحة، وأرسلتها مع عشر صور أخرى، بينها تصويرة الغلاف الأول للكتاب مع غلاف لكتيّب آخر صغير لصاحب السيرة، عثرتُ عليه في المكتبة وعنوانه: «تنظيم الطلبة الجامعيين في إيطاليا الفاشيّة».

أنا على يقين بأن الوقائع التي سردتُها أعلاه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة سترفع من أهمية الكتاب للقارىء العربي وستساهم في خلق دوافع لإعارة اهتمام أكبر لهذا النوع من الأدبيات التي تربّتْ على قراءتها أجيال في أوروبا لنتمكن بالتالي أن نحكم على الصورة التي تكوّنت في أذهانهم عن مناطقنا وشعوبنا وتقاليدنا. وليس هذا الكتاب إلا غيضاً من فيض ما كُتب ونشر في بولندا عن الشرق الأوسط وبلاد المغرب منذ أكثر من مائة عام.

ميخائيل عبدالله / بوزنان في شهر نيسان سنة ٢٠٠٨م

[1]

في روما وسيراكوزا

كان على مارسيلو فارينا أنْ يقدِّمَ امتحاناً في مادَّةِ الرياضيات التجارية.

ولقد وُلِدَ مارسيلو هذا في نابولي، وهو بالفطْرة يتميز بصوتٍ رخيم ويحبُّ الغناءَ، أمَّا عَزْفه على الكمنجة أجملُ من صوته. ومن صفاته الأخرى أنَّه يشمَئز مِنْ كلِّ شيءٍ واقعي واعتيادي يخلو من عناصر الرومانسية والخيال والوهم. ولكنْ هل تُوجَد تحت الشمس مسائلُ تبعث الملَلَ في النَّفس وتفتقر لعناصر المتعة مثل الرياضيات التجارية؟

فلم يستطعْ مارسيلو أن يخرجَ من نطاق ذاتِهِ وينتصر على طبيعته. ومهما كانت علاقُتنا معه رقيقةً وناعمة، فعلينا أن نعترفَ أنَّ معلوماته عن الأرقام والتجارة كانت شبه معدومة. إلا أنَّ عقارب الساعة تدقُّ بدون توقُّف، وموعدُ الامتحان يقترب، شئْنا هذا أم أَبيْنا. كانت مدينة روما في تلك الأيام غارقةً في الضَّباب الكثيف والأمطارِ الغزيرة. وبما أنَّ لغياب الشمس تأثيرٌ مميت على نفسيَّة الإنسان الجنوبي، حيث ينزع منه طاقته ويفقِده الاندفاعَ الحيويَّ، فقد كان مارسيلو مهموماً، غارقاً في الغيبوبة، لا بلْ في وضعيةٍ مأساوية. وبينما هو كذلك تذكَّرَ فجأةً بأنَّ آخر ما يمكن أن يُنقذه من همومه هي تلك الشمعةُ الكبيرة الطويلة العملاقة التي قد يَقْبَلها منه القديس San Gennaro، راعي وحامي وشفيع نابولي، وهذا طبعاً إذا صلَّى له مارسيلو بخشوعٍ، مكرِّرا مقطوعة الصلاة ثماني عشرة مرة.

وعليَّ أن أوضِّحَ للقارئِ البولندي السرَّ الكامن في العدد ١٨ . عندنا في بولندا يعتمدُ المدرِّسون في تقييم الطالب في مختلف المراحل التعليمية: من الابتدائية حتى الجامعية، يعتمدون سلَّماً قوامه ستُّ درجاتٍ فقط: العلامة الدنيا هي «صفر» والقصوى هي «خمسة»[1]. بينما في إيطاليا، فسُلَّم العلامات واسعٌ: يبدأ بدرجة «صفر» وينتهي بدرجة «ثلاثون». وباعتبار أن الطليان يمتازون بخيال جامح، ترى المدرِّسين عندهم، أو مَنْ يكوِّنون طاقم اللجنة الفاحصة التي قوامها عادةً ثلاثة أفراد، تراهم غيرُ مقيَّدينَ بسلَّم ضيِّقٍ، بل يملكون حرية أوسع لاختيار علامةٍ أكثر دقَّة، تناسب معلومات الطالب المتقدم للفحص. لاحظْ كَمْ هي مرنة وميسرة هذه الطريقة!

لا أعلم بالضبط مدى جدوى الطلب الذي رَفَعَه مارسيلو لذلك القدِّيس السَّمِح، وهل بالتأكيد قُبلتْ دعواته وصلواته، أمْ تحققتْ فيه المقولة الرومانية القديمة: audaces fortuna iuvat ـ «حظُّ الشجعانِ قريب»، إذْ اجتازَ مارسيلو امتحانه. والأغربُ أنَّ الدرجة التي حصل عليها لمْ تكنْ بسيطة تافهة، بل ـ قُلْ ممتازة ـ ٢٧ من أصل ثلاثين.

نتيجة الامتحان التي نالها مارسيلو جَعَلَتْه يطيرُ فرحاً وسرورا. بهجتُه انفجرتْ مثلَ البركانِ ولا تعرفُ الحدودَ، كالأوقيانوس الواسع، سَطَع وجهُه طرباً كالشمس النابولية الأفريقية التي تَربَّى عليها. فهو قد شاهد نورَها فورَ ولادتِه تحت ظِلِّ فيزوفيوش (فيزوف)[2] في إيطاليا التي قضى فيها سنةً واحدة فقط،

---

(١) لم يطرأ على سلّم العلامات المعتمدة في تقييم الطلبة في مختلف المراحل الدراسية في بولندا إلا تغيير طفيف: أدنى علامة هي «٢» وأعلاها «٦».

(٢) أحد أشهر البراكين في البرّ الأوروبي وواحد من خمسة أخطر براكين العالم. يطلّ على خليج نابولي في الجهة الشرقية من مدينة نابولي. وتؤكد الأبحاث الجيولوجية أن أول انفجار للبركان حدث قبل ستة عشر ألف سنة وأكبر نشاط له رُصِد خلال السنوات ١٦٣١ ـ ١٨٧٢ . يبلغ ارتفاع قمته ١٢٨١ متراً فوق سطح البحر وعمق هوّته ٢٣٠ مترا. أما مخروطه الحديث فقد تَشَكل بعد انفجار ضخم في ٢٤/ ٨/ ٧٩ بعد الميلاد والذي قضى حينها على ثلاث مدن: بومبي، هيركولنيوم و ستاليه. تقع بقربه وعلى ارتفاع ٦٠٩ مترا فوق سطح البحر أقدم وأكبر محطة رصد=

كانت دَسِمة ومريحة ومرفهة. وبعدها استقرَّ بطرابلس لمدةٍ واحد وعشرين عاماً، حيث كان خالُهُ آنئذٍ موظَّفاً عاليَ المقامِ في مكاتب إدارة المستعمرات الإيطالية. إذنْ يمكن الحكمُ بأنَّ مارسيلو قد «تأفْرَقَ» بصورةٍ كاملة، حتى كاد لَوْنُ الدَّمِ الذي يجري في عروقه يغدوَ أسود مثل الحِبْر.

قرَّرْنا أنا ومارسيلو أن نلتقي لنُحْيي مناسبةَ اجتيازِه الإمتحانَ، أيْ لنقومَ «بِتَبْريك» نجاحه، فجلسنا في مقهى صغير على شارع Piazza Navona لنجرع كؤوساً من نبيذ «الفرموت» وننعش نظرَنا بمشاهدة تيارات الماء التي تتدفَّق برقَّةٍ ونعومة من نافورة «برنيني» (كَمْ هم متواضعون طلاب الجامعات الإيطالية، أليس كذلك؟). وإذْ نحن جالسون، راح مارسيلو فجأةً ينادي بصوت عال:

- أدعوك إلى طرابلس لِتقْضِيَ عندنا عطلةَ العيد. ستستقبلك عائلتي بصدرٍ رحب وستكون لك فرصةٌ لِلْتعرُّف على طبيعة عملنا في المستعمرات الأفريقية. هذا العمل ممتعٌ حقاً وجديرٌ بالمشاهدة. أما عن تكاليف سَفَرِكَ، فلا تهتمْ، ستكون عند الحدِّ الأدْنى: المطلوبُ أن تؤمّن فقط قيمة التذكرة إلى أفريقيا... ومقابل هذا، آمل أنك ستأخذني يوماً ما إلى بلدكَ بولندا لتُريني حقولَ الحبوبِ عندكم ومناجمَ الفَحْم والملح[1] وكلَّ شيءٍ عن بلدك تحبُّ الحديث عنه

= البراكين في العالم بُنِيت سنة ١٨٤١م بمساعي الملك فرديناند الثاني البوروني. آخر انفجار شهده كان في ٣١/ ٣/ ١٩٤٤م. وفي ٥/ ٦/ ١٩٩٥م أعلِنت منطقة البركان محميّة طبيعية، حيث تعيش فيها ٣٠٠ طائفة من الطيور البرية وينمو ٩٠٦ صنفا من النباتات، منها شجر البلوط والكرز والمشمس والخضروات مثل الطماطم وتعيش أنواع مختلفة من الحيوانات البرية.

(١) لعل الإشارة تخص منجم فيليجكا (Wieliczka) الشهير الواقع على مقربة من مدينة كراكوف (جنوب شرق بولندا). وهو المنجم الأثري الوحيد للملح في العالم من حيث استمرار تاريخه منذ القرون الوسطى حتى اليوم. يتألف من تسع طبقات تحت الأرض يصل عمقها إلى ٣٢٧ م تمثل مراحل تاريخه وتعكس بانوراما نمو تقنيات استخدام المناجم وإدارتها مع صياغة قانونية لحقوق العاملين فيها. ومنذ سنة ١٩٧٨م يعتبر المنجم من المعالم المحميّة من قبل منظمة اليونسكو كأحد أهم ١٢ موقع أثري في العالم. في طبقاته أشكال مدهشة من عشرات التماثيل الضخمة المحفورة في الصخور الملحية مع بحيرات ومعابد وأرصفة طولها ٣٠٠ م وشوارع بطول ٥،٢ كم تشقها سكة حديدية لنقل السياح بحافلات أثرية ومذبح بارتفاع ١٠ م وطول ٥٤ م وعرض ١٥ م وثريّا=

بإسهابٍ، كما لاحَظْتُ.

عند سماعي هذا انشرحَ صدري وكادت روحي تطيرُ فرحاً، فهيَ أُمنيةٌ كنت أحلمُ بها ولم أتوقَّعْ أنّها ستتحقَّقُ يوماً! أفريقيا، الصحراء، النساء العربيات، الواحات، الجِمال، بنات آوى والخ والخ.

ـ عال يا مارسيلو! أنت من عظماءِ الرجال، كُنْ في انتظاري في طرابلس.

وهكذا كانت بداية المغامرة...

الأيام التي تلَتْ لقاءنا كانت أيامَ تبادلٍ طويل للرسائل الدبلوماسية بيني وبين عائلتي النائية في بولندا. وذاتَ مساءٍ جميل، دافئ من شهر كانون الثاني/ يناير

= مصنوعة من بلورات الملح بطول ٥،١٥ م وقطر ٣ م تضيئها ٣٠٠ شمعة. أقدم مخطوط يحكي عن تارخ المنجم يعود لسنة ١٠٤٤م، حيث كان الملح حينها ذا أهمية نقدية عالية وباستخدامات واسعة في حفظ اللحوم والأسماك والسمن ودباغة الجلود وانتاج البارود ووصلت وارداته في القرن الرابع عشر إلى ٣٠٪ من مجمل واردات الدولة البولندية. ومن هذه الواردات تم تأسيس أول جامعة بولندية، جامعة الياغللونيين (Uniwersytet Jagiello?ski) بمدينة كراكوف وذلك بمساعي الملك كاجيميش الكبير (Kazimierz Wielki) الذي قام في سنة ١٣٦٨ بتنظيم إدارة المنجم وسن قوانين ملزمة للعاملين فيه وتنظيم الحسابات وتشكيل لجان تشرف على سلامة العمل وتزويد المنجم بالمرافق. ومنذ القرن الخامس عشر راح المنجم يستقطب الزوار برحلات سياحية شبه منظمة شجعت الملوك البولنديين على زيارة المنجم مع ضيوفهم من الأجانب. وكان المنجم في القرن السادس عشر من أكبر شركات الانتاج في أوروبا، حيث تم فتح مطعم فيه يقدم الوجبات النظامية للعاملين مع إحداث مستوصف تحت إشراف طبيب واعتماد نظام الرعاية الصحية والتقاعد، ومنذ تلك الفترة لوحظت المواصفات الطبية للملح المستخرج من المنجم ومنها في معالجة لدغة الأفاعي والقرحات والصداع المزمن وغيرها وصار منتجعا صحيا واستجماميا كذلك لمعاجة التهاب الرئتين وأمراض الحساسية. جماله مخزون تحت الأرض ولا يُرى من فوق الأرض. ومن الذين زاروه العالم البولندي كوبرنيكوس (MikoÍaj Kopernik) أول وصف للمنجم بلغة أجنبية تم في سنة ١٥٧٢م من قبل Jewan Choisnin مبعوث الملك الفرنسي. وشهد المنجم عصره الذهبي منذ سنة ١٧٧٢، حين احتلت النمسا بولندا الشرقية الجنوبية، حيث تم تزويده بالآلات وبأخصائيين وبجهاز توليد كهربائي وبناء مطحنة للملح وبأجهزة رفع تعمل على البخار مع ورشات تصليح ونجارة وتوسيع مدينة فيليجكا وربطها بخط حديدي بمدينة كراكوف. زار المنجم خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر القياصرة الروس والفرنسيين والألمان وأشهر الكتاب البولنديين، تاركين انطباعاتهم في سجل الزوار. في عام ١٩٥٥ زار المنجم ٢٠٠ ألف سائح وارتفع هذا العدد ليصل إلى حوالي مليون سائح سنويا.

(أي النار) [1] وجدتُ نفسي واقفاً عند شباكٍ في إحدى غرف عرَبات القطار الذي ينطلق من روما إلى ريجيو ـ كالابريا. على رصيفِ المحطة ثلَّةٌ من الأصدقاء المقرَّبين وهم يودِّعونني بحرارةٍ. وجدتُ بينهم جيوفاني بورسو ـ المفعم بالنشاط والحبّ والعارم بالحياة. وَقَعَ نظري على يروسو تانسياني ـ الشاعرِ الناشئِ الذي كُوفِىءَ بجائزتَيْن في مسابقاتِ الشعر. لاحظتُ كذلك كُلاً من ترافالي وأكاردو وبيبي كارتا ذا العيون البرَّاقة الذي ـ من يعرفُ ـ قد يُعيَّن في المستقبل القريب نائباً أوّلَ في السفارة الإيطالية بوارسو. لستُ حسوداً، وَمِنْ صميمِ قلبي أتمنَّى هذا لكلِّ بنات مدينة السِّيرينَه[2].

ـ أكْتُبْ! . . . متِّعْ نفسكَ! . ستذوقُ هذا وذاك، يا فاسد. . . ولكنْ ارجعْ بفتاةٍ عربيةٍ واحدة، على الأقلّ. ولا تنسَ أنْ تختصر فترة مكوثِك هناك، فامتحاناتُ دورةِ الربيع على الأبواب، وكأنها مثل الحذاء الذي طُوله سبعة أميال. اكتبْ! . . .

بدأَ السفرُ. خارج القطار يخيِّم ظلامٌ حالك وفي داخله ازدحامٌ قاتل وقطارنا يجْتازُ النفقَ تلو النفق. في نابولي التي تسبح في الأضواء أُفرِغَتْ عربتنا من المسافرين لتمتلىءَ في غمضة عينٍ بموجةٍ جديدة من الركاب الإيطاليين الذين ـ كعادتهم ـ لا يفارقهم الصَّخبُ ولا الثرثرة ولا السرعة الزائدة في كلِّ حركةٍ يقومون بها.

مع إطلالةِ الصباح وَجَدْنا أنفسَنا نعبرُ كالابريا، بمحاذاة بحرٍ أزرق داكن. رحلتُنا متعبةٌ. القطار يزحف ببطءٍ واهتزازاتُه المستمرة تبعثُ المرارة في النفس. إلى جانب خطِّ السكة الحديدية يمتدُّ طريقٌ إسفلتي تكاثرتْ فيه الحُفَرُ

---

(١) ارتأيت استخدام أسماء الأشهر المعتمدة في البلدان العربية الشرقية والغربية وكذلك التي اتخذتها ليبيا في الآونة الأخيرة، علماً أن استخدامها مازال محدودا.

(٢) بالبولندية Syrena وبالإنجليزية Mermaid ـ حورية الماء: مخلوقة خرافية لها جسد امرأة وذيل سمكة. هي رمز مدينة وارسو، عاصمة بولندا، ويقع تمثالها المجسّم في منطقة المدينة القديمة.

والأخاديد والفجوات، كأنّه في مكانٍ ما بعيدٍ في بولندا وليس في بَلَدِ البرتقال والقمصان السوداء والأوتوسترادات. تَناءى البحرُ خلفنا ووصلْنا إلى سهلٍ واسع لونُ سطحِه مائلٌ إلى الإحمرار، غطَّته بساتين الزيتون وداليات العِنَبِ الخالية حالياً من الأوراق. نجتاز بلدةً تُدعى سانتا ـ أوفيميا. ومن جديد تتراءَى أمامنا سفوحٌ جبلية لا تنتهي إلاّ عند شاطىءِ البحر. سواحلُ رمليةٌ لا تُرَى نهاية لها، بُنِيتْ فوقها صفوفٌ من الجدران الإسمنتية الضخمة. مُهِمَّتُها إبطالُ فعلِ الأمواج وابتِلاعُها أثناءَ هيجانِ البحر. وخلف هذه الحواجز أُسنِدَتْ بيوتٌ أحادية لِصيَّادي الأسماك. وبين مسافةٍ وأخرى تبدو للعيان بلدةٌ ما صغيرة. هطولُ الأمطار لم يتوقَّفْ طوال ثلاثة أيامٍ كاملة، مما أدّى إلى تشكُّل سيولٍ عارمة وصاخبة ملأَت الغدران المتدفِّقة نحو البحر لتزيحَ ماءَه الفيروزيَّ وتُفْرِغ فيه حمُولَتها، راسمةً على سطحِه بقعةً صفراوية شبه دائرية. ويبدو أنَّ هذه العملية قد اقتربتْ إلى النهاية، إذْ بعد ساعاتٍ معدودات لا بدَّ أن ينضب احتياط المياه في الجبال. حينها ستعودُ المجاري إلى حالتها الطبيعية بعد أنْ تجفَّ أو ستبقى فيها جداولُ نحيلة، سيُسمع خريرها وهي تشقُّ طريقها بين الأحجار الناعمة.

اقتربْنا مِنْ فيللا سان جيوفاني التي فيها سننزلُ من القطار وسنركبُ في باخرةٍ صغيرة لِتحملنا إلى مسّينا عبرَ مضيق سيللا الذي مازالت الحكايات المُرْعِبة عنه تَزْرعُ الخوف في نفوس الملاّحين. أمامنا جزيرة صقلية. تمخرُ باخرتنا بتأنٍّ عبابَ البحر. انعطافاتها الخفيفة نحو الجانبين تشيرُ إلى وجود تياراتٍ مائية ثابتة، قويَّة ـ التيارات نفسها التي اعْتُبرتْ يوماً العدوَّ اللدود للسفن الإيطالية. ولتفادِي شرِّها كانت هذه السفن تلفُّ مُجبرةً حول صقلية كلها. الأفضل أنْ يطولَ طريقها مِنْ أنْ تقع ضحيَّةَ المياهِ الغدَّارة.

على متْنِ الباخرة أرى حولي من كلِّ الجهات هيئاتٍ بشريَّةً نحيلة وعصبيَّة المزاج، بِشَعْرٍ أسود فاحم وعيونٍ برَّاقة ـ الملامحُ التي تُمَيِّزُ الإنسانَ الشرقي.

في وسط أرضية الباخرة أَلمحُ امرأتين ثخينتين تبيعان بمهارة الخضروات واللحوم الموجودة في سلالهما الموضوعة جانباً. أصواتٌ عالية تصاحب عمليةَ الاتفاق على السِّعْر، وأخيراً شِجارٌ وقتال.

وإذْ بإنسانٍ فاشيّ ضخم البنية، لابسٍ قميصٍ أبيض قد امْتثل في هذا المكان.

ـ ما هذا؟ Il permesso وأين الرُّخصة؟ ـ يصرخُ في وجه البائعتين.

تتظاهران أنهما تبحثان عن الرخصة في جيوبِهما، ثم تشرحان ـ على ما يبدو ـ أنّهما قد نسيتا الرخصة في البيت.

في البيت؟! غيرُ آبهٍ بتضرعات المسكينتين ولا بعلامات احتجاج الجمهور الواقف، بسرعةٍ ينتشل سلالهما ويلقي بها في البحر.

ـ لماذا هذا التصرف غير الإنساني ـ يتساءلُ أحد الواقفين.

ـ اللحم بدون ختْمِ الطبيب البيطري قد يكون مسموماً. على كل حال، هذه هي المَرَّة الثالثة لحكاية مزاولة التجارة هنا بطريقةٍ غير قانونية من قبلِهما، وسبق لي أن حذَّرْتُهما مرّتين والآن أُجْبرتُ على استعمال هذا الأسلوبِ الجاف. وإذا تكررَ هذا للمرَّةِ الرابعة ستُزَجَّان في السجن ـ يوجِّهُ تهديداتَه لهما وهما باكيتان.

نصلُ إلى الشاطىء. تمتدّ مسّينا بشريطٍ أبيض عند قاعدة جبالٍ رمادية خضراء. وبعيدا هناك، في وسط الهالات الجبلية، يبدو بياض الثلوج وهي تغطّي قمّة بركان إتنا، وأشعة الشمس تضفي عليها لوناً ذهبيا. يبدأ هجومنا على القطار الذي سيأخذنا إلى سيراكوزا، وما هي إلاّ لحظاتٍ حتى تكدَّسَ الناس مع حقائبهم في الحافلات كلّها. بأعجوبةٍ حصلتُ على مكانٍ في إحدى الغرف بجانب النافذة. أُحدِّقُ ببصري ولا أَرَى سوى الحجارة والغبار والنباتات الكئيبة المضمحلة. بهاء هذه الجزيرة ـ الحديقة سيبدو للعيان بعد أنْ نجتاز تاورمينا.

قرَّرتُ أن أقضيَ في تاورمينا بضعَ ساعاتٍ. تقع محطة القطار على شاطىء البحر تماماً، عند قاعدة صخرةٍ أفقية رمادية. ركبتُ الباص المملوءَ بحشدٍ من

الألمان. مؤخرات رؤوسهم حليقة وعلى عيونهم نظارات كبيرة. نصل إلى البلدة الرابضة فوق الجبل عبرَ طريقٍ في منتهى الجُودة، ملتوٍ، كثير التعاريج الحادة.

يا له مِنْ عشّ نسورٍ عجيب ماثل فوق صخرة عالية! أمامي لوحة فنية لا تُنسى: مِن تحتنا بحرٌ بلونٍ سماوي أزرق لازوردي وبياضُ الثلج ينعكسُ فوق بركان إتنا وشمسٌ وورود وآثار مسرحٍ إغريقي، وهناك، في الطبقات العليا، أسوارٌ لقلعة ساراسينية[1].

المدينة نظيفة تماما. بيوتها معزولة عن بعضها بأشجار الليمون والبرتقال بدأتْ ثمارها في النضوج، وجدرانها مكسوّةٌ بسجادٍ من النباتات المتسلّقة التي بدأتْ براعمها تتفتّحُ بورودٍ حمراء. وفي الحديقة العامة للمدينة، ومِنْها يمكنُ للمرءِ أنْ يمتّعَ البصر ببركان إتنا وبمنظرِ البحر، نُصِبَ تمثالٌ شكله يريح العينَ وهو يرمزُ إلى ضحايا[2] الحرب العظمى، أُحيطَ بأسوارٍ من الورود بمختلف الألوان.

يثير المشاعر حقا هذا التبجيل الذي يحيط به الطليان ضحاياهم. ففي كلِّ مدينةٍ وبلدة، وحتى في القُرى، تجد تماثيلَ تخلّدُ أسماءهم وذكْراهم. وكذلك من عادة كل شَرِكةٍ ـ مهما كانت صغيرة ـ أنْ تكرّسَ لوحةً تحفرُ عليها أسماءَ العاملين فيها مِمّنْ قُتلوا دفاعاً عن الوطن، ودَوماً تعتني بها وتحافظ على سلامتها ونظافتها وعلى الورود حولها.

سكان تاورمينا يتكلمون لهجةٍ غير مفهومة. في شوارعها عددٌ كبير من العَرَبات الملوَّنة المصنوعة محليّاً ذاتِ العجلتين والمزخرفة بمنحوتةٍ ما

---

(١) ساراسينية (عربية، مسلمة). تعبير محوَّر عن كلمة «شرقي» العربية شاع في أوروبا الجنوبية الغربية ثم اقتبسه الكتّاب في الدول الأخرى. يدل على كل ما هو شرقي أو مسلم، حتى «الكسكسي»، وهو منتج أمازيغي الأصل، كان يُعرف في كتاباتهم بـ «الدقيق الساراسيني».

(٢) يستعمل الكاتب عبارة «شهداء».

وبِرُسوماتٍ فنّيّة جميلة. تجرُّها بكبرياءٍ واضح حميرٌ هي أيضا مزخرفةٌ؛ عندما تتحرّك الحمير تهتزُّ ربطات الريش والشرائط الملونة المُعلّقة بها.

أتفرّجُ على فندق سان دومينيكو الفاخر وكان في السابق ديراً للآباء الدومينيكانيين[1]. فناؤه المرصوف بالحجارة يغصُّ بالورود وزُيِّنتْ جدران أروقته التاريخية باللوحات ذات الألوانِ القاتمة التي تكاد تنطق بلغة الشعوذات الصُّوفية. كهوف الرهبان ـ بعضها كبيرة ـ قد حُوِّلتْ إلى غرفٍ مريحة للضيوف، بينما حُجْرة الطعام بسقْفِها المقوَّس هي الآن مطعم فاخر. في هذا المكان الفاتن رغبتُ أن أتناول طعام الفطور (كولازيونه). ولِتلْطيف وقت السيّاح (إقرأ ـ ألمان)، عند جلوسهم حول المائدة، تُقدَّمُ رقصة صقَلِيَّة حَيَوِيَّة «تارانتيلله». يقوم بأدائها شاب وشابة جمالهما لا غبار عليه وهما يؤديان الرقصة برشاقة وحركات تموّجية متناسقة. في أذنَيْ الشّابة عُلِّقتْ أقراطٌ دائرية ويتكون لباس الشاب من سروالٍ أسود ضيّق ومنديلٍ أحمر ملفوف حول رقبتِه، وقد ارتديا خُفَّين ليّنين وجواربَ طويلة بخطوطٍ أفقية عريضة لونُها أبيض وأسود.

أنطلقُ نزولاً في طريق يؤدي إلى المحطة، وعلى جانبيه عددٌ كبير من الفنادق والبيوت الأنيقة التي تغصُّ بالخضار وتسبح في أشعة الشمس. الهواء عليلٌ ومنعش كالبَلْسَم. أشاهد سوراً عريضا يمتد على مسافة طويلة، فيه فتحات عديدة مستطيلة ـ يُقال أنه كان سابقاً مقبرة ساراسينية. نبات اللبلاب والورود

---

(١) رهبنة في الكنيسة الرومانية تأسست في القرن الثالث عشر على يد دومينيك غوزمان (١١٧١ ـ ١٢٢١) وهو قدّيس مشهور، إذ يصفه دانتِه في كتابه (الكوميديا الإلهية) بأحد قبطانَي (إلى جانب القديس فرنسيس) الكنيسة الرومانية. إعلان تأسيس هذه الرهبنة كان في سنة ١٢١٦، حيث سن البابا إينوتسينتي نمط خدمة المنتسبين إليها. وتجدر الإشارة بأن أربعة من الرهبان الدومينيكانيين اعتلوا سدة البابوية في روما. لهم أديرة ومدارس ومكتبات في أغلب بلدان العالم، كذلك في الكنائس العائدة لروما في البلدان العربية. وعلامة انتساب الواحد لهذه الرهبنة هو استخدامه لحرفي OP بعد الاسم الشخصي. يبلغ عدد الرهبان الدومينيكانيين في العالم ٦٥٠٠ (إحصاء سنة ٢٠٠٧) وفي بولندا ٤٦٥.

المعرّشة خارج السور تبدو كأنها معلّقة في الهواء لتحيط من كلّ الجوانب بالقبور الناتئة لسلاطين هذه الأرض الفاتنة الأقدمين.

أستمرُّ في سيري. قطارنا يزحفُ وسط بساتين الليمون والبرتقال، والهواء قد تأرّج بنكهةٍ عطرة، زكية، فوّاحة. أشعر بمذاقها العسليّ. طَبَقة من الفواكه المتساقطة تحت الأشجار تكاد تغطّي سطح الأرض. منظرٌ غريب لإنسانٍ مثلي من شمال القارة الأوروبية الذي يدفع الكثير من أجل شراء بعض الحمضيات في بلده.

هاهي محطة ماسكالي. بجانب السكة الحديدية أعاين كتلةً سوداء من بقايا المقذوفات البركانية. توقّفتْ هنا أثناء زحفها الهدّام، وهي تذكّرنا بانفجار إتنا الذي حصل قبل بضع سنوات[1]. وما زالت تتعالى مِنْ بعض الحمَمِ البركانية المتكدِّسة فوق سطح الأرض (بعرض عدة طوابق من الأبنية وطول حوالي ألف متر) تتعالى ألسنةٌ من الدخان الأصفر. ويقال أن هذا البركان تمكّن خلال ساعات قليلة أن يمْسحَ من على وجه الأرض بلدةً زاهرة بحقولها الخصبة وحدائقها الخلاّبة. في هذا الجو الكئيب تَرى الناس من أصحاب البيوت والأراضي المدفونة تحت الحمَمِ البركانية وقد أنهكَهم القبض على الفأسِ الذي به يقطعون وينحتون الكتل السوداء ـ وهذه الكتل هي كل ما يملكون. منها يبنون البيوت وبها يرصفون الطرق ويستغلّونها لأغراضٍ أخرى كثيرة.

ومهما يكنْ من أمرٍ فإنَّ الدولة تُسرع دائما في تقديم المساعدة للمنكوبين،

---

(١) لم أعثر في المراجع المتوفرة على تاريخ هذا الانفجار الذي حدث قبل زيارة الكاتب لليبيا التي قضى فيها الأشهر الأربعة الأولى من سنة ١٩٣٤. إتنا أعلى جبل في إيطاليا جنوب جبال الألب. تغطي قمته مساحة ١٩٠١ كم٢ ويبلغ محيط قاعدته ١٤٠ كم وهو أعلى من جبل فيزوف ثلاث مرات وأنشط بركان في أوروبا على الساحل الشرقي من صقلية بالقرب من ميسينا وكاتانيا. يرتفع حوالي ٣٢٢٦ م عن سطح البحر وفيه مرصد مراقبة البراكين (على ارتفاع ٢٩٤٢ م) دُمِّر مع خط سكة حديد كاتانيا على إثر انفجار حدث سنة ١٩٧١. أول انفجار له سُجّل في سنة ٤٧٥ قبل الميلاد ومن تاريخه انفجر ٢٥٠ مرة.

ضحايا الكارثة الطبيعية. وهنا في ماسكال تمَّ بناءُ العديد من العمارات العالية لجأ إليها من فَقَدَ مأواه من سكان المدينة وضواحيها.

قطارنا يصل إلى أبواب مدينة كاتانيا. في المحطة عددٌ لا يُحصى من صناديق البرتقال (كاتانيًه بنكهة الفراولة). ستُساق برحلةٍ طويلة إلى بلدان شمال أوروبا لتشترونها[1] بأسعارٍ باهظة مِنْ فوق عَرَبات الباعة المتجولين أو من الدكاكين الفاخرة في سوق الفواكه. أُخْبِركم بأنني في محطة بيسوسه الصغيرة اشتريتُ عشرين من اليوسفيِّ بمبلغٍ رمزيّ: نصف ليرة فقط، أي بثلاثة وعشرين قرشاً بولنديا. هل تحسدونني؟.

على المقعد المقابل في غرفة الحافلة جلسَ صبيٌّ وهو كَكُلِّ إيطاليٍّ لا يغلق فاهُ ولوْ لعدة دقائق. تراهُ باستمرار يبحث عن فرصة ليستمر في الحديث ـ لا أعرفُ هل قرأ أفكاري من خلال عدم تجاوبي. سأنتظرُ ردَّ فعله. فجأةً وقع نظَره على شارة الكلّيّة الحربية المغروزة في طيّة صدر سُتْرَتِي فلمعَ وجهه ضياءً.

ـ ما هذا؟

ـ وسامٌ عسكريّ.

ـ لأية دولة؟

ـ لبولندا.

بولندا! أَتَعْرِف، حضرتُ مرّةً في نابولي مباراة لكرة القدم بين بولندا وإيطاليا. عندكم لاعبٌ لطيف في الدفاع. قصير، غليظ، مربّع القامة، سريع كالمنجنيق.

حديثُه عنْ مارتين.

ـ مستواكم جيّد في كرة القدم ولكننا كسَّرْنا رؤوسَكم ـ يضيفُ بفرحٍ.

---

(١) ينادي الكاتب أبناءَ جلدَتِهِ البولنديين.

الجبال تتراجع إلى ما وراء قلب الجزيرة. من حولنا وعلى مدِّ البصر حقولٌ ومستنقعات. وبمحاذاة خط السكة الحديدية شَجَر الكالبتوس. أما سطح الأرض فتغطيه أعدادٌ هائلة من نبات الزعفران بلَوْنِه الصفراوي المائل إلى البياض. في كل محطة من المحطات الصغيرة جمهرةٌ من الأطفال بِشعْرِهم الأسود وهم يُلوِّحون بأياديهم الغضَّة مرحِّبين ومودِّعين كلَّ قطارٍ قادم أو مغادر. بعد ساعة من السفر لقينا هضبةً صخرية تشقُّها سكة قطارنا بخط مستقيم. بساتين البرتقال والزيتون في الوديان القليلة الموجودة هنا قد أُحيطتْ بأسوارٍ من أشجار التِّين الشوكي وعلى أغصانها مازالت معلَّقةً بقايا الفواكه الحمراء.

آوغوسته ـ أكبرُ مناجم الأملاح البحرية في إيطاليا. بِرَكٌ مستطيلة مُلئتْ بمياه البحر ليتمَّ تبخُّرها البطيء بفعْل أشعَّة الشمس. في قعر الأحواض ترسَّبتْ كمياتٌ كبيرة من الأملاح. بعد إزالة الماء من فوقها سيتمُّ جمعها وتكديسها لتشكِّلَ أكواماً متطاولة ستُغَطَّى بعدئذٍ بألواحٍ من القرميد[1].

ومن جديد تبدو أمامنا سطوحٌ جبلية منحدرة وصخرية وبحرٌ بلون أزرق رمادي يميل للاسوداد كلَّما تلبَّدت الغيوم في السماء.

سيراكوزا! تذكَّرتُ سنوات الدراسة وفَشَلي في إتقان اللغة اللاتينية. وكَمْ من المرَّات جعلتُ مدرِّس المادة ينفجر غضباً بسبب تقاعسي. ومازال ماثلاً أمام عيوني ذلك المشهد المُخجل عندما طَلَبَ مني أن أجيب عن أسئلته المتعلِّقة بسيراكوزا هذه وبـ ديونيسوس[2].

---

(١) تثير أملاح البحر اهتمام العديد من الباحثين في التغذية الصحية كونها تحوي عناصر معدنية نادرة في الملح الصخري المستخرج من المناجم. ويقال أن أفضل المواصفات تتوفر في الملح الذي يغطي قعر البحر الميت بطبقة يتعدى سمكها المتر.

(٢) قائد أغريقي نشر حكمه على كامل القسم الشرقي من جزيرة صقلية أوائل القرن الرابع قبل الميلاد، حيث تعاون مع القرطاجيين والاسبرطيين ضد الأثينيين. وكانت المدينة خلال القرن الخامس إحدى أقوى المراكز الحربية في العالم. وظلت تحت حكم الأغريق حتى سنة ٢١٢ قبل الميلاد، حيث احتلها الطليان، ومن بين الذين لقوا حتفهم من المدافعين الأغريق كان العالم أرخميدس الذي عاش في سيراكوزا وفيها وضع مؤلفاته وأتحفها باختراعاته. في السنوات =

سيراكوزا اليوم مرفأ سياحيّ وتجاري صغير. فيه ينزل ويصعد الركاب ومنه تُحمَّل البضاعة من العاصمة الإيطالية إلى المستعمرات الواقعة تحت نفوذها. يبلغ عدد سكان هذه المدينة الساحلية واحداً وخمسين ألف نسمة، بينما جزؤها المبنيّ حديثا يقع في شبه الجزيرة المتوغِّلة عميقا في البحر. في الأراضي التابعة لها يُزرع قصب السكَّر والقطن.

أوّلُ تجمعٍ مدنيٍّ هنا والذي عُرِف بـ السيراكوزات تأسَّسَ على يد المستعمرين الأغريق سنة ٧٣٤ قبل ميلاد السيد المسيح واسْمُها مشتقٌّ من الأوحال القريبة والتي تُدعى سيراكا.

بعجالةٍ أقوم بزيارةٍ خفيفة للآثار القديمة. المساحة الشاسعة التي تَشغلها هذه الآثار تدلُّ بما لا غبار عليه على عَظَمةِ وقوّة السيراكوزيين القدماء. فهذه قلعة أوريان المُشادة على يد ديونيسيوس لتأمين الحماية في حال أيِّ خطرٍ يداهمهم من جهة القرطاجيين. فيها مسرحٌ ضخم في الهواء الطلق ومسرح آخر يوناني مُغَطًّى وكذلك محاجر «لاتوميه» (يقال أنها بقايا مناجم حَجَر) وهو المكان الذي يَشغلُ صفحةً سوداء في سجلِّ التاريخ. بالضبط هنا كان ديونيزوس قد حَكَمَ بالسجن على السبايا الأثينيين وترَكَهنَّ في عزلةٍ كاملة حتى لفظنَ أنفاسهنَّ الأخيرة. أما اليوم فتوجدُ في هذا المكان حدائقٌ عامرة بمختلف أصناف النباتات بجمالها وحُسْنِ نموِّها تأخذ الألباب. أدخلُ إلى مغارةٍ تدعى «أُذُن ديونيسوس». صدى عجيب كأنّه ينبعثُ من مكبّرات الصوت: مجرّد تمزيق قصاصة من الورق يكاد يُحدث ضجيجاً شبيها بصوت طلقة نارية من سبطانة مسدّس. وهناك حكايةٌ تقول بأنَّ طاغي سيراكوزا غالبا ما كان يقصدُ هذا المكان ليتلذَّذ بأنين الأثينيين قبل أنْ تفارقهم الحياة بسبب الجوع.

يحلُّ الظلام. أتوجّهُ نحو مكتب شركة السفن لأشتريَ بطاقة السفر بالباخرة.

= ٦٦٣ ـ ٦٦٨ اتخذها القيصر البيزنطي كونستانس الثاني مقرا له وفي سنة ٨٧٨ دخلت تحت الحكم العربي حتى استعادها الجنرال البيزنطي جورج ماناياسي في سنة ١٠٣٨م.

وهناك ألاحظُ رجلاً ألمانيا قرمزيّ اللون واقفا أمامي وهو يتعاركُ بسبب خطإٍ ما عند حساب قيمة بطاقته. يصرخ وبشدّة يضرب الطاولة بكفّه ويكرّر اللعنة تلو اللعنة. وبسبب تصرُّفاته يحصل على غرفةٍ لا يُحسد عليها: تحت رافعة السفينة تماماً. حَظّي كان أفضل كثيراً. أُعطيتُ غرفة على متن أفضل طابق للباخرة وبنافذةٍ خارجية مطلّة على البحر. أضعُ الحقائب في المكان المعدّ لها وأخرج لأتناول الغداء في أحد المطاعم الذي نَصَحَني به أحدُ العاملين في الباخرة. الأطعمة مُقْرِفةٌ والأسعار عالية.

تقترب عقارب الساعة من العاشرة مساءً. سفينتنا الصغيرة «سيتته دي تريستى» تغادرُ الشاطىءَ باتجاه البرّ الضارب لونه إلى السواد. الليل رائعٌ. أسراب من النجوم المُعلَّقة في السماء الزرقاء تُضيءُ فوق هاماتنا وقرْصُ القمر الفضّيّ يمدُّ ذراعَه اللامعَ نحو الأمواج الداكنة. سفينتُنا تتمايل بتناغمٍ إيقاعيّ وأصوات المحرّك النظامية تجعل النعاس يتسلّط على عيوننا بسهولة.

[2]
مالطا

في السابعة صباحاً ظهرتْ في الأفق ملامحُ الأرخبيلِ المالطيّ، هذه القلعة الإنجليزية التي اتَّخَذَتْها بريطانيا العُظمى كمفتاحٍ لتحقيق مصالحها الإستعمارية واستغلَّتْها لتفرضَ سيطرتها على كامل منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط.

بفضْلِ السياسة الحكيمة والبعيدة المَدَى التي تمارسها أَمَّنتْ الإمبراطورية الإنجليزية لنفسها حرِّيةَ مراقبة التجارة البحرية العالمية والإشراف عليها. فرْضُ هَيْمنتِها على الأماكن الإستراتيجية الهامَّة في المعمورة قاطبةً جَعَلَها تجمع في يدها الثقيلةِ ما يُعْطيها مجال المبادرةِ والتحكُّمِ بزمام الأمور ومراقبةِ نَبَضِ الحَرَكة البحرية. ويبدو هذا واضحاً سيَّما في منطقة البحر الأبيض المتوسط، حيث انكلترا هي صاحبةُ القرارِ النهائيِّ في أمورِه. لا يُنافسها أحدٌ، صوتها هو الرَّاجحُ. ولعلَّ مَصْدرَ قوَّتها هي المحطَّاتُ الهامَّة التي تتصَّرفُ بها، ابتداءً من جبل طارق ومروراً بمالطا وانتهاءً بقناة السويس التي تُؤدي إلى الهند، وتعتبر قناة السويس[1] حصرا الجوهرة الفريدة في التاج البريطاني.

---

(١) تم حفر القناة في السنوات ١٨٥٩ ـ ١٨٦٩ لتربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر. يبلغ طولها ١٦٣ كم وعرضها ١٦٠ ـ ٣٠٠ متر وعمقها ١٥ متر. تعبرها يوميا ٤٠ باخرة كحد أقصى وتستمر رحلتها ١٥ ساعة. هناك أدلة تاريخية على اهتمام جدي بتوصيل البحرين المذكورين منذ القرن السادس قبل الميلاد، لا.بل يذكر هيرودوت (القرن الخامس ق.م.) وجود مثل هذه القناة كان عبورها يستغرق ثلاثة أيام. المبادرة في حفر القناة من جديد كانت من الفرنسيين وهم الذين=

يتكوَّن الأرخبيل المالطيّ من ستِّ جُزَيْراتٍ: مالطا، جوتسو، مرفي، كومينو، كومينوتتو، فيلفولي. وأكبرُها مالطا بمساحةٍ قدرها ٢٥٠ ألف كم٢ وبعدد سكانٍ يساوي ٢٠٠ ألف نسمة، وفيها تقع العاصمة لافاليتا التي يعيش فيها ٨٠ ألف إنسان[١]. أما الجزيرة التي تليها حجماً، وهي جوتسو، فيسكنها ٢٥ ألف شخصٍ. بينما المساحة الكلية للأرخبيل تساوي ٣٠٦ كم٢ وعدد سكانه يفوق ٢٣٠ ألف نسمة[٢].

النباتاتُ هنا أفريقيةٌ بحتة، أما الحيوانات فهي كالتي نشاهدها في أوروبا. وهذا يُؤكِّد الفَرَضِية الجيولوجية القائلة بأن مالطا كانت في غابر الأزمنة تشكِّل وحدةً برِّية مع صقلية.

سكان الجزيرة في أغلبيتهم من المُلاَّك الصغار للأراضي وينحدرون على الأرجح من الفينيقيينَ القدماء وقد اختلطوا في الأحقاب الزمنية المتعاقبة مع

= أنجزوا عملية الحفر واستخدموا الآلات والعمال والفنيين (كان بينهم ثلاثة بولنديين). إلا أن الإنكليز قاموا بشراء كل أسهم شركة القناة وبهذا فرضوا سيطرتهم الكاملة عليها، مختصرين الطريق البحري من لندن إلى بومباي بحدود ٧٥٠٠ كم. بعد استقلال مصر في سنة ١٩٢٢ انسحبت السفن الانكليزية من القناة. وفي سنة ١٩٥٦ تم تأميم القناة مما أدى إلى شن عدوان ثلاثي على مصر شاركت فيه اسرائيل وفرنسا وبريطانيا. بعد حرب سنة ١٩٦٧ أصبحت الجهة الشرقية للقناة تحت سيطرة الجيش الاسرائيلي وبقيت القناة مغلقة حتى سنة ١٩٧٣، حيث دخلت من جديد تحت الإدارة المصرية. وفي شباط/ فبراير (النوار) سنة ١٩٧٤ تم تنظيف القناة وتوسيعها وإعادة حركة البواخر وافتتاحها رسميا للملاحة في ٥/ ٦/ ١٩٧٥. خلال فترة إغلاق القناة (١٩٦٧ ـ ١٩٧٥) بقيت فيها ١٤ سفينة منها اثنتان تابعتان لبولندا: م. س. بولسواف بروس و م. س. دياكارتا. وسميت هذه السفن بالصفراء نتيجة تغطية سطحها بالرمال الصحراوية. وللترفيه قامت طواقمها بانتاج طوابع بريدية بطرق يدوية هي الآن ذات قيمة عالية عند هواة جمع الطوابع.

(١) اسم العاصمة مشتق من اسم بانيها Jean Parisot de la Valette في سنة ١٥٦٦م تخليدا لانتصاره بقوة لا تتعدى العشرة آلاف (بينهم ألفان من الاسبان وستة آلاف من المواطنين وحوالي خمسمائة فارس من الرهبنة المالطانية تحت أمرة فاليت المذكور) على حوالي ٤٠ ألف من الجيش التركي بعد حرب طاحنة دامت من ١٨/ ٥/ ١٥٦٥ إلى ٨/ ٩/ ١٥٦٥.

(٢) بلغ عدد سكان مالطا حسب إحصاء سنة ٢٠٠٣م حوالي ٤٠٠ ألف نسمة.

العرب والطليان. لهذا تَسْمعُهم يتحدثون بلغةٍ غريبة هي هجينٌ من الكلمات الفينيقية والعربية واللاتينية والإيطالية، سيما بلهجتها الدارجة في صقلية. ويغْلبُ في المدن العنصران الطلياني واليوناني.

فيما يخصُّ الجذور الفينيقية فتجدر الإشارة أَنَّ الفينيقيين كانوا قد فَرَضوا نفوذَهم على مالطا في العام ٩٠٠ قبل ميلاد السيد المسيح. وظلَّت الجزيرة بِرُمَّتها تابعةً لقرطاجة طوال ستمائة سنة. ثم تعاقبتْ عليها السيْطرةُ الرومانية فالبيزنطية فالساراسينية[١] فالنورماندية[٢] وأخيرا الأسبانية.

في العام ١٥٣٠م خَطَرَ على بال الملك كارل الخامس[٣] أنْ يقدِّمَ جزيرة مالطا هديةً للرهبان الذين يمثّلون نمطَ حياة نسكيّة خاصة يتلقونه بما يُسمَّى بأديرةِ الفرسان المصَحِّيين[٤]. وتمَّ هذا بسبب طرْدهم من جزيرة رودوس على يد الأتراك. وبعد انتقالهم غيَّروا نمطَ حياتهم النسكية السابق واقتبسوا اسماً جديدا: الفرسان المالطيون. وعندما أبحر أسطول نابليون باتجاه مصرَ[٥] عام ١٧٩٨م توقّف في مالطا، وبدون اعتراضٍ يُذكر من قِبَل النُّساك[٦] قام باستعادة

---

(١) أي العرب المسلمين الذين حكموها خلال السنوات ٨٧٠ ـ ١٠٩٠م.

(٢) وتم ضمها إلى مملكة صقلية آنذاك.

(٣) ١٥٠٠ ـ ١٥٥٨. كان قيصرا لروما وألمانيا في السنوات ١٥١٩ ـ ١٥٥٦ وملكا لاسبانيا في السنوات ١٥١٦ ـ ١٥٥٦.

(٤) نسبة إلى المستشفى الذي بنوه في القدس باسم مار يوحنا المعمدان، لهذا كانوا يعرفون كذلك بالفرسان اليوأنيين (اليوحانيين، نسبة إلى النبي يوحنا). بعد سقوط القدس انتقلوا إلى عكا وفي سنة ١٢٩١ تحولوا إلى قبرص ومنها شنوا حملة عسكرية على جزيرة رودوس التي كانت تابعة لبيزنطا وأسسوا فيها شبه دولة بأسطول بحري قوي وتبادلات تجارية واسعة. في عام ١٥٢١ تمت إزاحتهم من الجزيرة على إثر احتلالها من قبل الأتراك العثمانيين وبعد وقوع طرابلس الغرب في يد الاسبان (سنة ١٥١٠) سُمح لهم بالاستقرار في المدينة في سنة ١٥٣٠ وبقوا فيها حتى سنة ١٥٥٠، حين وقعت ليبيا تحت السيطرة العثمانية. بعد تجوال في الدول الأوروبية بحثا عن مقر ثابت سمح لهم الملك كارل الخامس الإنكليزي بالانتقال إلى مالطا التي بقيت تحت حكمهم حتى سنة ١٧٩٨ ثم طردهم منها نابليون.

(٥) على رأس ٥٤ ألف جندي.

(٦) صحة هذا الخبر تولد الشكوك، إذ سرعان ما أمر نابليون فرسان الرهبنة بترك مالطا، ربما بسبب عدم رضاهم أو مقاومة أبدوها ضده.

الجزيرة من الإنجليز وإلْحاقها إدارياً بسلطة فرنسا مباشرةً. وبقِيَتْ مالطا بِيَدِ الفرنسيين ثلاثة أشهرٍ فقط، كانت كافيةً لتقوم إنكلترا بالاستعدادات الحربية اللازمة، إذ هَجمَ أُسطولها البحريُّ على الأرخبيل. وبعد سنتين كاملتين من الدفاع العنيد استسلمتْ الحماية الفرنسية بسبب انقطاع الإمدادات. ومازالت مالطا تابعةً لبريطانيا العظمى إلى تاريخ اليوم[١].

تأسّستْ الحركة الرهبانية التي منها انبثق نظام الفرسان الملطاويين في عام ١٠٩٩م. أما اليوم فلمْ يبقَ ما يذكّرنا بهذا التنظيم إلاّ سجلّه الرسميّ ومقرّه الرمزيّ اللذين يقعان في مدينة روما. هذا، وقد حاول الطليان جاهدين إحياءَ هذه الحركة. فبعد أنْ وَقَعَتْ جزيرة رودوس في قَبْضَتِهم نتيجة الحرب العالمية الأولى (وهي ـ كما ذكرنا ـ المقرُّ القديم لهؤلاء الرهبان)، أُعِيدَتْ لهم قلعتهم القديمة الواقعة هناك مع الكنيسة التي فيها. وكان هذا في عام ١٩٢٨م[٢].

أنا واقفٌ على متنِ الباخرة مع شخصٍ يُدعى نيجري، تعرَّفتُ عليه خلال الرحلة. وهو عاملٌ تقنيّ عائدٌ إلى طرابلس بعد قضاء عطلته الصيفية في إيطاليا. وبعد أيامٍ قليلة سينطلق بالسيارة باتجاه قلب الصحراء، إلى مرزق في فزان، حيث يعمل ثمّة في بناء أحد الحصون العسكرية.

---

(١) طُرِد الفرنسيون نتيجة انتفاضة السكان ضدهم وبمساعدة عسكرية من ملك صقلية ومن البرتغاليين والإنكليز. وبقي الإنكليز في مالطا حتى سنة ١٩٤٧ ثم حصلت على حكم ذاتي حتى الاستقلال الكامل سنة ١٩٦٣م. وهي الآن عضو في الاتحاد الأوروبي (من ١/ ٥/ ٢٠٠٤م) وعضو في مجموعة دول شنغن (من سنة ٢٠٠٨).

(٢) تجدر الإشارة بأن الفرسان المالطيين أعادوا تشكيلهم نوعا ما في أوروبا بعد تعديلات أجروها في دستورهم ومهماتهم. ففي سنوات الحربين العالميتين الأولى والثانية كانوا يديرون مستشفيات ميدانية للجرحى وقد انقسموا إلى قسمين، أحدهم تابع للكنيسة الكاثوليكية وهو الأكبر بعدد أعضاء يبلغ حوالي عشرة آلاف (بينهم ١٥٠ بولندي) والثاني تابع للكنيسة البروتستانتية مقره يقع في ألمانيا وعدد أعضائه ٣٦٠٠ فرد ويعمل في تنظيماته ولجانه المختلفة حوالي ٤،١ مليون إنسان. ولهذه الرهبنة صفة الدولة المستقله معترف بها من قبل ٩٤ دولة في العالم لهم فيها سفراء مع مراقب دائم في هيئة الأمم المتحدة منذ سنة ١٩٩٤. الفارس الأكبر هو اسكوتلندي واسمه Andrew Bertie.

تحيط بالسفينة مجموعةٌ من القوارب، شَكْلُها يذكِّرني بالغناديل الفينيقية. نركبُ أحدها مع طالبٍ من مالطا يدرسُ في جامعة كاتانيا، أبدى استعداده ليكونَ لي دليلا سياحيا ويقدِّمَ ما أحتاجُه من الخدمة. يدفع الملاّحون قارِبَنا بمجاديفهم الطويلة ـ ببطءٍ ينساب باتجاه البرّ. نمرُّ بسُفُنٍ حربية جاهزة للإبحار؛ في هذه الأيام تمَّ نَقْلُ القاعدةِ الحربية من مالطا إلى حَيْفا[1].

بَلَغْنا مدرَّجَ محطة المرفأ أمام مبنى الجمارك. أمامنا رجال شرطة بهيئاتٍ رشيقة، بنياتُهم تحمل علاماتِ النضوج وأزياؤهم العسكرية زرقاءُ داكنة ـ يبدو أن خياطتها قد أُنجِزتْ بتقنيةٍ عالية. والقبَّعات التي على رؤوسهم تشبه بشكْلها قبعاتَنا الشفوليجيرية[2]. يتحققون من جوازات السفر - All right! كل شيء تمام.

ننزلُ إلى المدينة عبرَ طريقٍ ضيِّق، بصعوبةٍ نتسلَّقه نحو مكانٍ مرتفع يبدو كأنه معلَّقٌ فوق رؤوسنا. على جانبَيْ الطريق تتزاحم أسوارٌ بيضاءُ طويلة ـ بين الفينة والأخرى نقطع دهاليزَ بمثابة شقوقٍ في الأسوار، ومن جديدٍ يصادفُنا طريقٌ ضيِّق تحدّه جداران عاليان.

طابَع هذه المدينة القلعة جَعَلني أفهم كيفَ تمكَّنتِ الحامية العسكرية الفرنسية على الرُّغم من صغرها أنْ تنجحَ في ردِّ هجمات الإنكليز خلال سنتين من الحصار. وحتى اليوم، حيثُ تتوفَّر المعدَّات الحربية المتطورة، تبدو مالطا قلعةً صعبةَ المنالِ.

الدهليز الأخير. وها نحن قد تواجدْنا في قلب بلدة لافاليتا.

---

(١) يقصد الأسطول البحري الإنكليزي.

(٢) الشفوليجير ـ تعبير فرنسي يعني الخيّالة الخفيفة: في الجيش الفرنسي (القرون: السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر)؛ في النمسا (القرنان الثامن عشر والتاسع عشر)؛ في بافاريا بألمانيا (القرون الثامن عشر والتاسع عشر والعشرون)؛ في بولندا (أمارة وارسو: فَوجان لحماية القيصر نابليون وفي فترة مابين الحربين العالميتين ثلاثة أفواج).

أهم شيءٍ يريد نيجري أن يشتريه لنفسه هو قدّاحة نادرة في شكلها ونوعها، لأنَّ مالطا تشتهر بصناعة القدّاحات الممتازة، الرخيصة في السعر. ندخل أحدَ الحوانيت. اختيار القدّاحة المناسبة يأخذ الكثيرَ من الوقت ـ وما جَذَبَ نَظَري الجمالُ السَّاحرُ والجذَّابُ للبائعة. حقّاً كانت وافرةَ الحُسْنِ. وهنا تأكَّدتُ من صحَّة ما سمِعْتُه عن المالطيّات.

بينما أنا تجاذبتُ أطراف الحديث مع صاحب الحانوت.

حالياً يدور صراعٌ صامت وفي الخفاء بين إيطاليا وإنكلترا: لأيٍّ من الدولتين يجب أنْ تتبع مالطا قانونيا. الطليان يصرّحون بأنَّه مازال الأرخبيل واقعاً على طول الطريق البحري المؤدي إلى مستعمراتهم، إذنْ يجب أن يكون في أيديهم، لا محال. وحجَّتُهم الواقعية التي يلجأون إليها هي مسألة الأواصر الجغرافية والإثنية. أمّا الإنجليز فيلتزمون الصَّمْتَ، ولكنْ يجب التنويه أنَّه قد سَبَقَ لممثّلهم ـ وكان آنئذٍ اللورد ستريكلاند وهو حاكمُ الجزر ـ أنْ فرَضَ الحظْرَ على استعمال لغة دانتي[1] الرنّانة في مالطا. وبهذا غدا هذا الشخصُ الموضوعَ المحبَّبَ لعموم الصُّحُفِ الساخرة التي تصدر في إيطاليا.

رغبتُ أنْ أتعرَّفَ عن كثبٍ على آراء المالطيين أنفسهم بهذا الموضوع الحساس.

ـ ما موقف السيد تجاه إيطاليا؟ أسألُ أحدَهم بأسلوبٍ مباشر خالٍ من الرسميات.

ـ كلَّ هذه السياسة لا تهمُّني نهائياً ـ أنا إنسانٌ من هنا، «مَحلّيٌّ»[2] ـ يجيب

---

(١) دانتي أَلِيغيري (١٢٦٥ ـ ١٣٢١). أكبر شاعر إيطالي. ظلَّ مرتبطاً بمدينة البندقية وشارك في حياتها السياسية. منذ سنة ١٣٠٢ في المَنْفَى.

(٢) تحديد الهوية بعبارة «محلّي» غالبا ما يرد في الابحاث السوسيولوجية الميدانية كذلك في أوروبا، وبالتحديد في المناطق الشرقية من بولوندا حيث تعيش أقوام مختلفة (سيما عند البيلوروسيين الذين يشكلون أقلية بين البولنديين). وهي ذات دلالة عميقة ولها أسباب تاريخية مختلفة، منها تأكيد الإرتباط بالأرض قبل الانتساب لمجموعة قومية أو عرقية أو لغوية أو دينية تلاشيا لصب=

بعد أنْ ارتسمت علامات عدم الرِّضَى على وجهه المحفور بالتجاعيد.

يبدو أنّه خائفٌ وحذر جدا، يتجنَّبُ الحديث لئلا يقع في زلَّة لسانٍ.

وأخيراً اختارَ نيجري القدّاحة وطلبَ معها مائة حجر قدّاح.

ـ لماذا هذه الكمية الكبيرة كأنّك عثرتَ على كنزٍ؟ ـ سألْتُهُ.

Per Bacco! - ألا تعلَمُ أنني أعيش في الصحراء، في فزان. هل تتوقَّعُ أنَّه يمكن هناك استخدام أشعة الشمس لإشعال القدّاحات؟

نزورُ المدينة. الأزِقَّة بانحداراتها وارتفاعاتها الحادَّتين جعلتْني أشعر كأنني داخل عَرَبات السكة المعلَّقة في مدينة الملاهي الأمريكية. في ساحةٍ كبيرة أرى شرطيّاً يحرس عددا من الصخور الضخمة المنحوتة. تبيَّن أنَّها تُغَطِّي فتحاتٍ ليست كأيٍّ فتحاتٍ. منها تُسْكَبُ الحبوب إلى العنابر الجُفَر الواقعة تحت أرضية الساحة ليتم خَزْنها. وبهذه الطريقة تُسْتَغَلُّ المواصفات الطبيعية لسطح الأرض.

ندخلُ قصراً قديما كان يوماً مقرّاً للمجلس العالي للرَّهْبَنَةِ. في أحد أجنحته يقع مكتب حاكم الجُزُر، أما بقية المبنى فقد حُوِّلتْ إلى متحفٍ. بين البضاعة المعروضة هنا للبيع تغلبُ أدواتٌ وقطعٌ عسكريةٌ تركية، تم الاستيلاء عليها كغنيمةٍ حربية: دُرُوعٌ قديمة ورماحٌ مغطّاةٌ بكثافةٍ بطبقةٍ مِن الفضّة أو الذَّهب، سيوفٌ ومنجنيقاتٌ وقذائفُ حجريةٌ للمدافع ـ كلها أسلحةٌ تركية قديمة، أصلية. بينها أيضاً معداتٌ هجومية دفاعية غريبة مثل السيف والمُسَدَّس المرتبطين معا والمشكِّلَين وحدة سلاح متكاملة وغيرها من الأنواع النادرة.

هاهي قاعة اجتماعات الرهبان المزخرفة بأغطيةٍ حريرية بلونها الأرجواني وعلى الجدران قد عُلقت سجاداتٌ بنقوشٍ تمثِّل خريطةً كبيرة، واضحة للكرة

= الزيت على النار الخامدة. ومهما يكن فإن علماء النفس يبررون هذا التعبير بالخوف المخفي والحذر وفقدان حرية الرأيْ وبالتوتر الذي قد تولّدة المجاهرة بالانتساب لهذه الثقافة او تلك نظرا لحسابات وتجارب مؤلمة حدثت في الماضي القريب.

الأرضية. عرشٌ خشبي لزعيم النساك يعود تاريخه لخمسة قرون خَلَتْ. لَعمْري، هذا كلُّ ما بقيَ منْ عَظَمة الحياة النسكية التي كانت مزدهرةً يوماً والتي تدلُّ على أنَّ طالع البشر في تغيُّر مستمر وأنَّ غَدَ الإنسان مجهولٌ ولغزيّ.

كاتدرائيةٌ من القرن السادس عشر، قريبةٌ بهندستها المعمارية مِنْ طراز الباروك[1]، كثيرة الضوء من الداخل وغنيَّةٌ بالمرْمر والمنحوتات. نخطو فوق الألواح الحَجَرية التي تغَطِّي قبور الفرسان النساك. المذبح المركزي الضخم يحوي ستة مصلَّياتٍ: إيطالي، إنجليزي، فرنساوي، أسباني، برتغالي وأوفيرجي (نسبة إلى مقاطعة أوفيرج الفرنسية).

منحوتةٌ نادرة في تعبيرها رابضة فوق مدفنٍ أسباني تمثِّل فارساً مسنودا إلى عَبْدَيْنِ ـ أحدهما زنجي والثاني ذو ملامح سْلافية واضحة. في الجمجمة الخالية من الشعر قد تُرِكَتْ خُصْلةٌ واحدة فقط ـ وهي تشير أنَّ صاحبها كان من القوزاقيين الأحرار[2] ووقعَ بين مخالب أحد فرسان الرهبنة المالطية مِمَّنْ يمثِّل طبقة النبلاء الأسبان أو البرتغاليين.

عند المدخل إلى مبنى البريد غُرِزَت لوحةٌ حجرية تخليداً لذكرى إقامة

---

(١) الباروك ـ أسلوب في العمارة وفي التعبير الفنّي، سادَ في أوروبا خلال القرن السابع عشر. يتميَّز بدقَّة الزخرفة وغرابتها أحياناً وباصطناع الأشكال المنحرفة أو الملتوية (في العمارة)، وبالتعقيد والصُّوَرِ الغريبة الغامضة (في الأدب).

(٢) أول ذكر للقوزاقيين في المراجع التاريخية يعود إلى القرن الثاني عشر بعد الميلاد كمجموعة اجتماعية غير مقيدة بالقوانين تعيش ضمن حدود روسيا الجنوبية وأوكرانيا. وفي منشأهم هناك من يقول أنهم فصيلة من التتر تقبلت المسيحية الأرثوذكسية قبل سنة ١٤٩٢، ومنهم من يرى بأنهم من الشعب السلافي (الصقالبي). وكلمة قوقاز كانت لها دلالات مختلفة، منها: «الحراس»، «قطاع الطرق»، «المشاغبين»، «الخارجين عن القانون». وتشكلت من عناصر تفضل الحياة الحرة. كانوا محاربين أشداء من الخيالة في جيش روسيا بعدد ١٦٢ فوجا في مختلف مناطق الامبراطورية الروسية وبأزياء جميلة ورشاقة ومهارة في فن الحرب تغنى بها العديد من الشعراء. وشاركوا مشاركة جادة في صد هجمات الأتراك والتتر على كل من بولندا وروسيا وأوكرانيا. في سنة ١٧٧٥ قام القيصر الروسي بطرس الأول بتحديد حريتهم ونفوذهم. والآن هناك محاولات جادة في روسيا لاحياء تنظيمهم في قطعات خاصة بعد تدريب شاق.

نابليون في مالطا، اعتادت أن تمرَّ من تحتها أعدادٌ هائلة من الضباط الإنكليز بأزيائهم الجميلة وقاماتهم الطويلة ورؤوسهم المطأطئة، أحفادُ حفَّارِيّ القبور وصانعيّ الشهرة الأرضية الزائلة للإمبراطور العظيم.

ليستْ غريبة عليَّ هذه الأزقَّة المُحاطة من الجانبين بأبنيةٍ بيضاء عالية. شاهدتُ الكثير مثلها في إيطاليا. في كلِّ نقطة منها ينعكس سطح البحر بزرقته اللازوردية. الشَّعْبُ هنا يبدو بِنَمَطِ حياته وملامحه قريباً إلى سكان صقلية، أما النساء فيرتديْن نوعاً خاصا من المعاطف الفضفاضة بلونٍ أسود تُدعى «فالديتتو»، تكاد تكون صنْفا من العباءة ـ ربْطُ الحافَّةِ العلْوية للمِعْطف بوَتَرٍ معدنيٍّ دائريّ كالحَلَقَةَ يَجْعَلُهُ يُشكِّل ما يشبه المظلَّةَ، كالَّتي تَحْمِي قائدَ العَرَبَةِ المشدودة بحصانٍ يجرُّها.

ظلّت فكرة الوحدة القومية للمالطيين مع الطليان تُشْغلُ بالي. أسماءٌ إيطالية بحتة مكتوبة على لافتات الحوانيت، ولعل اسم المدينة يُوحي أوتوماتيكيا بصحَّة هذا الافتراض.

ـ هل أنتم إيطاليون؟ ـ أسألُ الكاتبَ المالطيّ المرافق لي.

يبتسم مؤيِّداً ما أريدُ أنْ أقفَ على حقيقته، ودون أنْ ينطق بِبِنْتِ شَفَةٍ يمدُّ لي الصحيفة المحلية Il Popolo كجوابٍ على سؤالي وبرهانٍ يزيل شكوكي.

كلماتٌ إيطالية ولاتينية كثيرة، ولكنني بالمحصِّلة لا أفهمُ منها شيئاً. قد يربط هذين المجتمعين قاسمٌ مُشترك، سيَّما إذا تذكَّرْنا أنَّ هناك في إيطاليا إلى جانب اللغة الرسمية أربعُ عشرة لهجة رئيسية، تُقْسَم بدورها إلى عددٍ لا يُحصى من اللهجات المتفرِّعة عنها والبعيدة عن بعضها. مثلاً، أنا أُجِيدُ اللغة الإيطالية وأفهم كلاً من لهجة غونيه ونابولي وروما، ولكنني لا أفقه شيئاً مما أسمعه من ساكن أبولونيا أو جزيرة سارادينيا، لا بلْ عند سماعي لها أحسُّ أنني جالسٌ في محاضرةٍ تُلْقَى بالألمانية، أيْ بلغةٍ غير مفهومة نهائيا ـ كما تعوَّدنا أن نقول في

بولندا[1]. وانطلاقاً من هذه الاعتبارات يمكننا أن نقول بأنَّ اللغة المالطيّة قد تكون إحدى لهجات الإيطالية.

حان الأوان لنعود إلى سفينتنا. سنبحرُ في الواحدة ظهراً. الجوُّ قارسٌ والرياح شديدة والبحر هائج، صاخب. عند الشاطىء يودِّعنا صدى العيارات النارية التي تُطْلِقُها الرشاشات، بينما على سطْح البحر تُسمعُ أصواتُ طلقات مدفعية للسفن الحربية التي تُصوِّب نحو هدفٍ متحرِّك على وجه المياه.

---

(١) يبدو أن الكاتب لا يكنّ حبا للألمان، وليس هذا بغريب في تلك المرحلة، حيث كانت ألمانيا مشغولة بالتسلح وبتهديد صريح للدول المجاورة، ومنها بولندا. الآن عندما لا يفقه البولندي ما يقال بلغة أجنبية أو حتى بالبولندية، يقول: "jak na tureckim kazaniu" ـ كما في الخُطبة التركية.

[3]

وَصل حاكمٌ جديد

طرقٌ مُكَثَّف على الباب ونداءٌ عالٍ يوقظانني من نومي العميق – Siamo arrivati!) وصلنا).

بسرعة أرتدي لباسي وأخرج إلى حيث يجتمع المسافرون على متْن السفينة.

وأخيرا رستْ سفينتنا في مرفأ طرابلس. سماءٌ رصاصية معلَّقة فوق المدينة البيضاء ورياح حادة قارسة يرسلها البرُّ مع رملٍ ناعم تتزاحم جزيئاته بأبعادها المجهرية لتدخل في أفواهنا وعيوننا. ألمحُ فارينا[1] واقفاً على الشاطىء وقد تقلَّص جسمه وازرقَّ وجهه من حدة البرد. عندما عايَنني راح يصرخ من بعيد أنَّه كاد يفقد صبْره، إذ ينتظرني منذ السادسة صباحاً، كأنني أنا المذنب في تأخير السفينة. كانت هذه أولى الكلمات التي وطأت سمعي من على برِّ القارة الأفريقية التي طالما شدَّتْني إليها كالمغناطيس.

في السفينة راح الواحد يزاحم الآخر، نبراتُ الصُّراخ تخمد الأصوات في خضمٍّ من الضجَّة والصَّخب. يشقُّ الحمَّالون طريقهم بقوّة إلى متن السفينة وهم لابسين صدرياتٍ بيضاء. القائمون على خدمة السفينة يناولونهم الحقيبة تلو الأخرى. أسمع مِنْ كلِّ جهةٍ مناداةً بدون انقطاعٍ وعلى وتيرةٍ واحدة: «علي»،

---

(١) هو مارسيلو فارينا، صديق الكاتب البولندي الذي يتحدث عنه في بداية الفصل الأول.

«يا علي»! واعجباه! أهذا اسمٌ أَمْ لقبٌ، وهل من المعقول أن يُطلق على كل امرئٍ هنا، إذْ لاحظتُ المسافرين يلتفتون حيث مصدر الصوت.

تبدأ إجراءاتُ، لا بل مراسيمُ، التحقيقات في جوازات السفر: إنها طويلةٌ ومملَّة وتتحكَّم بها البيروقراطية. عليَّ أنْ أُؤكِّد بأنني لنْ أقوم بأيَّة حملةٍ سياسية أو صفقةٍ تجارية، بأنني أملك كامل قوايَ العقلية والجسمية، والخ.

وأخيرا لمستْ قدمايَ الأرض الأفريقية، وإذا بمارسيلو يضمُّني بذراعيه المفتوحتين ويعانقني. طبعاً مازالتْ تنتظرني إجراءاتٌ أخرى: التفتيش في الجمارك. يفتحون أوَّلَ حقيبةٍ وقعتْ عيونُهم عليها ـ وكما درجت العادة ـ الحقيبة الوحيدةُ المغلقةُ بإحكامٍ. بعدَ فتْحِها لمْ أستطعْ سدَّها من جديدٍ. كانوا يبحثون عن التبغ.

نركبُ عربةً يجرّها حصانٌ ويقودها شخص اسمه «علي» (!). كان جسمه ملفوفاً ببرنس. نتوجَّه نحو المدينة.

تبدو شوارعُ المدينة كأنَّها تستعدُّ للاحتفال بمناسبةٍ ما كبيرة. فالبيوتُ قد زُيِّنتْ بأكاليلٍ من الزهور وفي الساحات نُصبَتْ بوَّاباتٌ وأقواسٌ من الورود لاستقبال شخصياتٍ هامة، رُبَّما الفائزين في مسابقةٍ رياضية عالمية. في كلِّ الأمكنة عُلِّقَتْ لافتاتٌ كُتبتْ عليها العبارة الوحيدة التالية: Evviva Italo Balbo ليعشْ الطيار الإيطالي العظيم - Evviva ليعشْ الحاكم الجديد. تبيَّن أنَّه بعد ساعةٍ من الآن سيصل إلى طرابلس والٍ جديد على متن الباخرة المُصفَّحةAlberico da Barbiano هو إيتالو بالبو الذي عُيِّن حديثاً لإدارة ليبيا.

كان هذا الاسم معروفاً هنا في يومٍ من الأيام. قبل الميلاد بعشرين سنةٍ كان الوالي الروماني لأفريقيا يُدعى لوتسيوس كورنيليوس بالبو[1].

---

(١) أثبت اسمه الكامل والصحيح باللاتينية لتسهيل البحث عن منجزاته: Lucius Cornelius Balbus ولد في مدينة Cadiz الآن في اسبانيا). شارك القيصر الروماني في المعارك التي شنها في مصر وفي سنة ١٩ قبل الميلاد عُيِّن واليا رومانيا على أفريقيا بعد انتصاره على الجرمتيين، مما أكسبه=

ومَنْ يدري إذا كان الاعتبار بِعَيْنِه لَمْ يلعب دوراً ما، بين الدواعي الأخرى المختلفة، التي حملتْ موسوليني لِيُعَيِّن حاكماً على ليبيا هو واحدٌ من أقربِ رجال حاشيته. Il Duce (أيْ موسوليني) عالِمٌ نفساني جيد وممثِّلٌ رائع. يقدِّر إلى أبعد الحدود وزنَ الكلمة ويثمِّن في صفات الإنسان ابتسامَتَه وحركاتِه وإشاراتِه وإيماءاتِه. ولعلَّ الفضل في اختيار بالبو يعود للأسطورة والتقاليد. موسوليني يفهمُ كلَّ شاردةٍ وواردة في نفسِيَّة شَعْبِهِ ويعرف أنَّ مدَّ الخيوط بين الوالي الروماني القديم وبين شخصية إيتالو بالبو المعروفة والمحبوبة لدى طليان اليوم سيرفعُ من شأنِ الحاكم الجديد، وسيزيد هيبَته وسمات الأعمال التي سيقوم بها.

وستكون هذه الأعمال ـ ولا غروَ ـ على قدرِ المنجزات لمناضلٍ فاشيَ. وإذا حلَّلْنا الأسبابَ في اختياره هو وليس غيره خارج نطاق المفاهيم الرسمية، فلا يُستبعدُ أنْ يكون بالبو قد جُرِّدَ من مقامه وِفْقَ مُخَطَّطٍ مدروسٍ، لأنَّ صحافة العالم قاطبةً قد كتبتْ الكثيرَ عن المنافسة التي يخشاها موسوليني وعن الخطرِ الذي يهدِّده من جهة بالبو نفسه. ربما لهذا السبب أراد إبعادَه ليتجنَّبَ التبلْوُرَ الزائدَ لِنُفوذِه[1]. ولكن كلّ من له إطِّلاعٍ على الجو السياسي في إيطاليا يدرك مدى الأهمية التي تُعيرها الفاشية الإيطالية لمستعمراتها الأفريقية والآمال الكبيرة التي تعقدها على ازدهار هذه الأراضي وحتى على توسيع حدودها مستقبلاً ـ

= شهرة عالية، سيما أنه لم يكن مواطنا رومانيا. من أعماله العمرانية توسيع مرفأ مسقط رأسه وبناء مسرح في مدينة روما في سنة ١٣ قبل الميلاد.

(١) قد يكون الكاتب مصيبا في افتراضاته. وما يؤكد هذا ربما هي ظروف موت بالبو الغامضة. ففي يوم ٢٨/ ٦/ ١٩٤٠، وخلال عمليات الحرب العالمية الثانية، عندما كانت طائرته تحلق فوق طبرق أطلقت المدفعية الإيطالية المضادة للطائرات النار عليها. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام الرسمية في إيطاليا ذكرت بأن قصف طائرة الماريشال حدث سهواً، إلا أن زوجته أكدت بأن القصف كان مقصودا، نظرا لشعبية الماريشال المتزايدة كثاني رجل في الدولة وبسبب معارضته الشديدة لتحالف موسوليني مع هتلر، سيما بعد أن سطت الجيوش الألمانية على بولندا في ١/ ٩/ ١٩٣٩.

هذا يفهم كمْ هي تاريخيةٌ المهمةُ التي أخذها بالبو على كاهِلِهِ وكمْ من الثقة وَضَعَها Duce (موسوليني) فيه. على كلِّ حالٍ لمْ تعدْ سرّاً حكايةُ فقدان العطفِ عند موسوليني تجاه بالبو ومن المحتمل أنَّ هذه الدعاية قد لُفِّقت عمداً في روما نفسها وفقَ مخطَّطٍ مدروس وذلك خصيصاً لإغماض عيون القوى الاستعمارية الأوربية الأخرى.

غزيرةٌ هي حياة إيتالو بالبو وعديدةٌ المناصب التي تبوأها. وُلِدَ سنة ١٨٩٦م[1] في فيرارا وفي مدرستها أنهى المرحلةَ الإعدادية قبل اندلاع الحرب الكونية الأولى. تطوَّعَ من تلقاء نفسه في فرقِ القنّاصة في جبال الألب، حيث نال درجةَ رائد. وانْتَسَبَ بعد الحرب إلى الجامعة وتخرَّجَ في كلية العلوم السياسية. كان واحداً من الأوائل الذين أيّدوا موسوليني وتعاونوا معه، وهو مَنْ أسّسَ فرقَ المقاتلين الفاشيين. في شهر تشرين الأول/ أكتوبر (التمور) ١٩٢٢م انضمَّ برفقة كلٍّ من ده بونو وده فيتشي والطبيب الذكْرِ بياتشي إلى مجموعة «كوادرومفيرات» التي نظّمتْ وقامتْ بالزَّحفِ الناجح على روما. وكان بالبو كذلك المؤسسَ الرئيس للشرطة الفاشية وآمرها في السنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤م. في سنة ١٩٢٥م تمَّ ترفيعه إلى منصب نائب أمين الدولة لشؤون الاقتصاد الوطني، وأخيراً، في ١٩٢٦م أنيطتْ به مهمة تنظيم وزارة الطيران المُشكَّلة حديثا. وهنا أَظْهرَ الوزيرُ الجديد منذ أيّامه الأولى مخالبَ الأسد، إذْ أصبحتْ نتائجُ عَمَلِه الخلاّقِ والمنهجيِّ والمُخَطَّطِ بِحِكْمَةٍ، أصبحت موضوعَ تعجُّبِ العالمَ بأسْره. فمنذ سنة ١٩٢٨م بدأتْ فترةُ تحليقِ أسراب الطائرات الإيطالية ـ أولاً حول محيط البحر الأبيض المتوسط، ثمَّ ـ في سنة ١٩٣١م ـ كانت الرحلة الجوية العظيمة، التاريخية: روما ـ البرازيل التي اعْتُبِرتْ في نفس الوقت رِحلةً ميدانية لفحص جدوى الأجهزة النارية التي اشترتْها البرازيل من إيطاليا. ومَنْ لا يتذكرُ الرحلة العملاقة الأخيرة للطائرات الإيطالية في صيف ١٩٣٣م من روما

(١) بالضبط في اليوم السادس من شهر حزيران/ يونيو (الصيف).

إلى شيكاغو ذهاباً وإياباً، التي أكْسبتْ إيطاليا شهرةً عالمية وأعطتْ للمُقيمِ على تنظيمها (بالبو) درجةَ المارشال الأول للطيران الإيطالي.

فَرَجُلٌ من هذا الوزن وبهذه الطاقة والمبادرات وحسن الإدارة والإرادة الحديدية هو أهْلٌ قبْلَ أيِّ شخصٍ غيره ليَسْتلمَ منصبَ مديرِ أكبرِ مستعمرةٍ إيطالية. هذا الذي بَرْهَنَ أنَّه قادرٌ أنْ يخلقَ من لا شيء طيراناً فريدا لإيطالية وقوَّةَ جوية على مستوى أرقى دول العالم، لن يهاب الحرب ضد الأراضي الصحراوية القاحلة، خاصة أنَّه يدخل في عداد المشغوفين بالعمل من أجل العمل ويعطي الكثير من نفسه ويطلب هذا من الخاضعين له.

ولهذه الأسباب مجتمعةً زَرَعَ قدومُه الرُّعبَ في الأوساطِ الإدارية وأيقظ من الآمال كبيرها عند المستعمرين الذين استوطنوا هنا، أيْ عند من يُسمُّون بأصحابِ الامتيازات. فالحاكمُ السابق كان جندياً مثاليا: أَسْكَتَ تريبوليتانيا وكَسَحَ بقايا المتمرِّدين، لكنَّه كان لا يفْقَهُ بالأمور الاقتصادية ولمْ يعْطِها يوماً الأهميةَ المطلوبة، مِمّا جعل المزارعَ المزدهرة التي وُزِّعَت على أصحاب الامتيازات تفشل.

بعد وصولي إلى المكان الموعود حيث كانت تنتظرني غرفةٌ جاهزة، مباشرةً دخلتُ الحَمَّامَ وغيَّرتُ لباسي وبعد نصف ساعةٍ خرجْنا إلى الشارع مُسرعين لنُعاينَ المراسيم.

يخيِّم جوٌّ مثير وتُلاحَظُ علامات الاهتياج والترقُّب. أينما التَفَتَّ تجدُ حشوداً تتكلم شتى اللغات ـ طليان وعرب، يهود وبربر وزنوج. تنوُّعٌ هائل في الأجناس البَشَرية وألوان البشرة ـ ابتداءً بالأبيض وعبوراً بكلِّ طبقات الطَّيْف الزيتوني ـ البنِّي وانتهاءً بالأسْوَد الشبيه بالقار.

على طول الأرصفة نُظِّمتْ باستعدادٍ قطعات الجيش بعد أنْ تمَّ سحبُ العديد منها خصيصا لهذه المناسبة من قلب الصحراء. وتمتدُّ على مسافاتٍ طويلة بأرتالٍ ملوَّنة ملأت الرصيف الداخل في البحر وشارع «كونتي فولبي» المحاذي

للبحر ومروراً بـ«لونجوماري كونتي فولبى» و«بياززه كاستيللو» و«فيتتورو إمانويله» لتنتهي أخيراً عند مقرِّ الحاكم[1].

تجمَّعت أسرابٌ من رجال الشرطة العربية (التي تُسمى ظبطية) بمعاطفهم القصيرة وكذلك جنودُ المدفعية الليبية (تُدعى عسكر) بأزيائهم الصفراء الذهبية وقمصانهم البيضاء «أركو» وفوقها قد ارتدوا صدرياتٍ بلونٍ أزرق وبنفسجي وأصفر شاحب ـ حسْبَ الكتيبة التابعين لها. إلى جانب هؤلاء تجد فرَقَ مشاةِ المدفعية المتحركة وهم من الرجال الناضجين بقاماتهم الرشيقة وأزيائهم البيضاء ورؤوسَهم مغطاةً بطرابيش حمراء طويلة وقاسية، ناهيك عن قطعات الخيالة العربية اللابسة برانس نيليّة اللون ومزخرفة بشريطٍ أحمر يحيط بها دائريا وطرابيش ليّنة بنفس اللون. لا يخلو هذا التجمُّع من الشرطة الفاشية «بليلة» و«بيككولو إيتاليانو» (الأخيرة هي مثل «بليلة»، إلا أنّها تتكون من النساء). وهناك أيضا صفوفٌ من الجنود بقمصانهم السوداء.

أمَّتْ المكان وفودُ المساجد بألْوِيتها الأصلية الكبيرة الحجم (الطول ٤ ـ ٥ متر والعرض ١ ـ ١،٥ متر) الملونة: أخضر، أصفر، أحمر. يحملها ثلاثة أشخاصٍ: أحدهم يجرُّ العصا التي رُبِطت الرَّاية بها عرْضاً والاثنان الآخران يمسكان بنهايَتَيْ الرَّاية ـ عندما يضربُ بها الريح تُنْفَخ مثل الشّراع وتبدو جميلة المنظر.

أمام قصر الحاكم تجمَّعت وفودُ المنظمات الدينية العربية التي تُعرف باسم «الزاويا». قَدِمَتْ من أعماق البلاد: من مرزق البعيدة ومن غات ومن غدامس.

ولا تخلو الحشود من المزارعين ـ أصحابِ الامتيازات ـ الذين يشكِّلون مجموعاتٍ مستقلة. قَدِموا بقطاراتٍ وباصاتٍ خاصة من المناطق القريبة والبعيدة.

---

(١) نرى أنه حتى الشوارع، ربما فقط الرئيسية منها، قد أطلقت عليها أسماء إيطالية.

وأخيراً نلمحُ في الأفق الباخرةَ المُصَفَّحة «ألبيريكو ـ باربيانو» التي تمخر عبابَ اليَمِّ برفقة وحماية باخرةٍ مصفَّحة أخرى تُدعى «ألبرتو ده جوسسانو». كلتاهما تبحران باتجاه الشرق ثم ستحوِّلان مسارهما نحو الجنوب، إلى مرفأ طرابلس. بدأتْ صفّاراتُ الإنذار تُزَمْجِر من على كلِّ البواخر الراسية في المرفأ، ترافقها العيارات الترحيبية التي تُطْلقها المدفعية الإنجليزية (بعدد عشرين قذيفة) الموجودة هنا مُؤَقَّتاً بِصِفةِ ضيفٍ.

من الشاطيء ينطلقُ باتجاه الباخرةِ القادمة زورقٌ آليٌّ يحمل على متنه وُجَهاء مدينة طرابلس للترحيب بالقائد الجديد. وما هي إلا لحظاتٍ حتى ينزل المارشال بالبو إلى البرِّ على الرصيف المتوغِّل في مياه البحر، عند شارع «كونتي فولبي» العريض المحاذي للبحر. عاصفةٌ من التصفيق الحادِّ وهتافاتٌ تشقُّ الغيوم: إي، إيا، ألالو!!.

نُلقي ساقَيْنا للرِّيح لنصلَ بأقصى سرعةٍ إلى البيت. ثم نتسلَّق السطح الأفقي ومنه نشاهد الشارع الرئيسي بكامله كأنَّه على كفِّ اليد. بَحْرٌ من الرؤوس البشرية وفوقَها عُلِّقت بكثافةٍ لافتاتٌ زرقاءُ ممتدة على عرض الشارع كُتبتْ عليها بخطٍّ عريضٍ، واضحٍ كلمةٌ واحدةٌ ـ «بالبو»، ولا عبارةٌ أخرى سواها. بعد لحظةٍ يندفع إلى الأمام رتلٌ من السيارات ـ في الأولى تربّع بالبو مع مطران طرابلس، في الثانية ركبتْ زوجة بالبو برفقة الجنرال سيسيلاني وهو قائد القوات المسلحة في ليبيا، أما السيارات الأخرى فقد حُجِزَت من قِبَلِ السلطات الاستعمارية.

يبتسم بالبو، يُحيِّي الجمهورَ ويردُّ التحية محوّلا نَظَرَهُ من جهةٍ إلى أخرى. عند عبوره على أرتال «بليلي» و«بيككولو إيتاليانو» يقفُ في مكانه ويرفع القبَّعة من على رأسه. تصفيقٌ شديد وهتافاتٌ حماسية، حارَّة. باقاتٌ من الورود يُلْقيها الأطفال على السيارة.

في القاعة الكبرى للمحاضرات الواقعة في المتحف، ضمنَ أسوار القلعة

التركية المبنيَّة في القرون الوسطى[1]، ستقام مساءً مراسيمُ التشريفات. ستُقَدَّمُ خلالها للحاكم الجديد أهمُّ الشخصيات من بين موظفيّ الإدارة الحكومية ومدراءُ مختلف التنظيمات، ابتداءً بالسياسية وانتهاءً بالرياضية.

قَرَّرْنا أن نحضر مباراةً في كرة القدم ستجري بعد الظهر بين مجموعتين: تُمثِّل الأولى طواقم السفن الإيطالية، أما الثانية ـ طواقم السفن الإنجليزية. ذهبْنا إلى الملعب الذي بَدَتْ ساحتُه على ما يرام، فيه طريقٌ معبَّدٌ بالإسمنت المسلَّح خاص لسباق الدراجات وأرضيةٌ مُعَدَّةٌ لألعاب القوى الخفيفة ـ الجزءُ المخصص للمشاهدين صلْبٌ ومُحْكمٌ ومبنيٌّ بثباتٍ.

يبدو أنَّ ذلك الشغفُ بمختلف أنواع المسابقات الرياضية الذي كان يتَّصف به الرومانيون القدماء كنمطٍ من أنماط العبادة للقوَّة الجسمية لمْ يَمُتْ بعدُ عند الإيطاليين، لا بلْ يشهدُ الآنَ فترةَ انبعاثٍ وانتعاشٍ جديدين، بصورةٍ تشبه التشبُّثَ المتعصب بالرياضة. وما يدلُّ على هذا هو العدد الكبير للمنظَّمات والفرَقِ الرياضية التي تأسَّسَت في الآونةِ الأخيرة والنمُّو العجيب للصحافة الرياضية وكذلك الحشودُ الضَّخْمة للمشاهدين أثناء مختلف المسابقات. وهذا بِعَيْنِهِ نشاهده اليوم هنا في طرابلس. فعلى الرُّغْم من الحَدَثِ المثير الذي احْتَفَلَت به المدينة ـ قدومُ الحاكم الفذِّ الجديد ـ اجتمعَ في الملعب عددٌ كبير من الناس.

المشاهدون يمثِّلون أنماطاً مختلفةً من البشر: أزياء عسكرية إنجليزية وإيطالية، طرابيشُ حمراء وبرانس بيضاءُ تدلُّ على أنَّ لابسيها عربٌ، وقبعاتُ «بورسالينو» العجيبة في تجاعيدها تُغَطِّي الشعر الأسود الكثيف للمدنيين الذين يمثِّلون الحاضرة الإيطالية الأم.

---

(١) بقيت ليبيا تحت الحكم العثماني منذ منتصف القرن السادس عشر حتى سنة ١٩١١. تم طردهم على يد الإيطاليين بعد معارك استمرت سنتين. ويتباهى الطليان أنهم هم الذين وحّدوا الأجزاء الليبية الثلاثة: تريبوليتانيا، سيرينايكا وفزان في بلد واحد.

تصرُّف المشاهدين ينمُّ عن وجود مجموعاتٍ بين المتفرِّجين تمثِّل أعراقاً وأمزجةً بشرية مختلفة. ففي الوقت الذي كان العرب والطليان يبلغان قمَّةَ حُمَّاهما وبِوابلِ من الهتافات يثيرون حماس اللاعبين الذين يمثِّلونهم، نجد الإنجليز جالسين بهدوءٍ ورزانة بدون أيةِ حالاتِ اهتياجٍ، وفقط بين فترة وأخرى - كأنَّه بإيعازٍ - ينفجرون كلُّهم معاً لحظة قصيرة مُطْلِقين صرخةً واحدة من أعماق الحَلْقِ وبعدها يعودون من جديدٍ إلى الوضْع الأوَّل، التفرُّج الصامت، الحيادي.

لنعدْ الآن إلى أمْسِية عرْضِ الشخصيات أو أمسيةِ المراسيم التي أُقيمتْ في المتحف. فقد وضَّح سَيْرُها بما لا غبارَ عليه نيّاتِ وأهدافَ الحَاكم الجديد. صافحَ بالبو خلال اللقاء ما يقارب الخمسمائة يدٍ، كان لطيفاً جدا مع ضيوفه الذين تحدَّث معهم طويلاً بصراحةٍ ورغبة، ولكن لم تخلُ كلماته من نبرة التهجّم، مما ولَّدت القلق عند بعضهم.

- هل تعرف - يلتفتُ إلى مديرِ صندوق التوفير النقدي وهو الآمر «ب» - أنني استلمتُ سَيْلاً من رسائل الاحتجاج على نمط عمل الصندوق. لماذا حصل هذا الشيء؟

- يا صاحبَ السعادة، الظروفُ صعبة وكنَّا مُجبَرين على خفْض سقف القروض.

- عندما يتعهَّد المرءُ بمائةٍ يمكن أنْ يعطيَ واحداً زيادةً عن المائة وممنوعٌ قطعاً أنْ يفكِّر بإعادة تسعةً وتسعين فقط! على كلِّ حالٍ، تبيَّن أنّكم قادرون على هَدْرِ وتخصيص مبلغٍ لِبناءِ عمارةٍ جديدة، إذنْ يبدو أنَّ الأموال متوفِّرةٌ.

- أنت مديرٌ لمكتبِ السياحة ورئيس لمكتب يانصيب السيارات في طرابلس، أليسَ كذلك؟ - يُوَجِّه سؤالَه للآمر «س».

- نعم، هذا صحيحٌ، يا صاحبَ السعادة.

- كَمْ من المال رِبْحُ يانصيبُكم خلال العام المنصرم؟

ـ أربعةَ عشرَ أو خمسةَ عشرَ مليونا، لا أتذكَّرُ بالضبط.

ـ كيف هذا، لا تتذكَّرُ؟! ـ يعقبُ بالبو بانفعالٍ.

ـ أربعةَ عشر ـ يردُّ الشهْمُ «م»، عُضوُ مجلس شركة اليانصيب.

ـ كَمْ مِنْ هذا المبلغ وُزِّع على مؤسسات الإغاثة ومساعدة الفقراء؟

ـ حوالي مليونٍ ـ يجيب الآمر «س» بعد أن فقد رباطةَ جأشه.

ـ بالضبط!

ـ ٩٢٦ ألف ليرة ـ يتدخّل من جديدٍ الشهم «م»، رغبةً منه في إنقاذ الموقف.

ـ إذنْ مَنْ مِنْكُما هو المدير، السيد «س»، أم السيد «م»، ـ أغلقَ بالبو الموضوع بغضبٍ.

ـ سنعودُ للحديث بالتفصيل عن هذا الموضوع.

ـ وأنتَ يا سيد، ما هي وظيفتك؟ ـ يوجّه سؤالَه لآمرٍ آخر، ده «ر».

ـ ٣٦ مليونا سنويا ـ يجيب بسرعةِ الشيخ المرتبك.

الجوابُ يولدُ موجةً من التصفيق ووابلاً من القهقهة.

ـ أنا لا أسألُ كَمْ؟ إنّما: ما هو عملُ السيد! ـ يبتسم بالبو.

ـ أنا مدير مكتب الجمارك ـ يجيب ده «ر» وقد غطّتْ وجنتَيْه علامات الخَجَلِ.

ـ مرحى لك! لَمْ أكُنْ أتوقَّع بأنَّ الرسومَ الجمركية تُؤتي للمستعمرة أرباحاً كهذه.

ـ أطلبُ من السيد ـ يلتفتُ بالبو نحوَ عمدة المدينة. ـ أتمنى أن تُخَصِّصُ هنا في القلعة حُجْرةً واحدة لأستغلَّها بصفة مكتبٍ لي. مقرُّ الحاكم بعيدٌ كثيرا عن المدينة ولا أريد أنْ يفقد أصحابُ المراجعات الوقتَ للوصول إليه.

ـ سعادةَ السيد الحاكم، ولكنْ هذا البناء هو متحفٌ!

ـ هذا لا يهمُّ. أنا سأعمل في الساعات الصباحية، أما أنتم فستزورون المتحف بعد الظهر.

ـ إذنْ ليغطِني سعادتُه قليلاً من الوقت الضروري لأقوم بالإعداداتِ والتأثيث. . .

ـ طاولةٌ لي وللأمينِ، أربعةُ كراسي، آلةٌ كاتبة والأثاثُ جاهزٌ. إيَّاكَ والتكاليفَ الباهظة ـ يؤكّد بصرامةٍ بالبو.

الفاشية تضغط بأصابعَ فولاذيةٍ على المُسْتعمرة![1].

---

(١) في عهد بالبو ازدادت عدد المستعمرات الإيطالية في ليبيا وبلغ عدد الإيطاليين ما يقارب المائة ألف، أي ما يعادل عشر السكان المحليين.

[4]

مدينةٌ تغازلُ الصحراءَ[١]

أستيقظُ في الصباح الباكر. الغرفة التي تمدّدت فيها على السرير تشبه إلى حدٍّ ما غيرَها من الغرف الفرديّة في ما يُدعى بالعالم المتمدّن. إلا أنَّ المبنى العربيّ السداسيّ الجدران الذي ألمحه في الجهة المقابلة من الشارع وكذلك سَعَفُ النخلة الوحيدة التي تلعب بها الرياح وتحركّها كما تتحرّك أجنحة المرْوَحة، فكانت تولد بعض الارتعاب الغريب.

أفتحُ النافذة بكلِّ عرضِها. في الشارع تزحف موجةٌ من الباعة العرب وهم يغرون المارّة لشراء الخضروات والفواكه التي يمدحون مواصفاتِها بِصَخَبٍ. والباعةُ من الرجال فقط، إذْ المرأة العربية عندما تخرج من بيتها تبدو بهَيْئةٍ قريبة من المومياء أو بعبارةٍ أكثر دقّة تشبه الشرنقة التي تنسجها دودة القزّ حول نفسها. المرأة هنا لا تزاول صنعة التجارة[٢].

نخرج إلى المدينة في التاسعة صباحاً ـ أريد أنْ أكرّس اليوم كلّه لزيارة طرابلس ومعالمِها.

---

(١) تقتضي الإشارة بأن عنوان هذا الفصل من صياغتي. الترجمة الحرفية للعنوان الأصلي: «مدينة عند حافة الصحراء».

(٢) أرى حكم الكاتب غير منصف، سيما أنه لم يخرج بعد من غرفته ولم يتجول في الأسواق التجارية. ومهما يكن فإن مزاولة التجارة من قبل المرأة بالتحديد، أمّا كانت أو عزباء، لا يمكن في كل الأحوال اعتباره معيارا لتقدم هذا المجتمع أو ذاك أو علامة تدل على تحرر المرأة أو عبوديتها.

سماءُ شهرِ كانون الثاني/ يناير (أي النار) باهتةٌ هنا والشمس يحجبها الضَّباب كأننا لسنا في أفريقيا. إلا أنَّ عواصف الرَّمل الناعم جداً الذي ينغرز في الأفواه والعيون والآذان ولا تستطيع مقاومته حتى النوافذ المسدودة أو الستائر المُسْدلة، تجعلني أحسّ بدون شكٍّ أنني في مكانٍ عند حافة الصحراء. من عمق الصحراء يهبّ هواءٌ خانق ومتعب. الأشجار الشاحبة تكاد تجفّ لهذا تمدّ أغصانها نحو السماء كأنها تتضرّع إليها طالبةً النجدة أو الموت. أحاسيسٌ غريبة تشقّ طريقها إلى نفسي كأنَّ الهواء الذي أتنفّسه مُثقلٌ بعناصرَ الحزْن والمَلَل واليأس.

طابع المدينة الجديدة أوروبيٌّ بحت. شوارعها معبّدة بإسفلتٍ رائع الجودة وأرْصفتها ممتازة. بيوتٌ إيطالية بيضاء مزخرفة بأعمدة وتشاهد إلى جانبها تلك «العلَب» التي تشاد اليوم في كل بلد من الأرض، صغيرها وكبيرها، رغبةً في التوفير ولجعْلِ الإنسان يشمئزّ من الحياة ويشعر كأنّه مُغلقٌ عليه في سجْنٍ[1].

في رصيفَيْ الشارع الرئيسي الذي يحمل اسم فكتور عمانوئيل الثالث[2]

---

(١) يقصد الكاتب العمارات العالية أو الشاهقة بطوابقها العديدة ومساكنها ذات الأبعاد نفسها وكذا توزيع الحجرات والتي قلما تمتاز بطراز معماري مغاير. الغاية الأولى من انتشارها في كل بلدان العالم هو تأمين مساكن لعدد كبير من الناس على رقعة أرضية صغيرة نسبيا، وهذا شأن لا يمكن تداركه في المدن الكبيرة والتجمعات ذات الكثافة السكانية العالية. وفي إنشائها تستخدم عادة الجدران المضغوطة الجاهزة التي قلما تتوفر فيها المواصفات الصحية بسبب نوع المواد المستخدمة وقابليتها المحدودة في تأمين تبادل الحرارة والهواء.

(٢) (١٨٦٩، نابولي ـ ١٩٤٧، الاسكندرية). ملك إيطاليا (١٩٠٠ ـ ١٩٤٦) وقيصر أثيوبيا (١٩٣٦ ـ ١٩٤٣ ـ علما أن أغلب دول العالم لم تعترف به) وملك ألبانيا (١٩٣٩ ـ ١٩٤٣). كُتب عنه أنه كان يتميز بذكاء خارق (في طفولته كابن للملك كان يوميا من السابعة حتى التاسعة صباحا يتلقى العلوم على يد مدرس خاص) واطلاع واسع وشجاعة عالية وتحضير مناسب ليُتوَّج ملكا بعد مقتل والده. كان قصير القامة وبهيئته غير جذابة، معتدلا في مواقفه ومحبوبا. من هواياته المطالعة والصيد وجمع النقود القديمة (كان يعتبر أهم الخبراء بها على المستوى العالمي). وكانت سلطته ـ بمحض إرادته ـ شبه رمزية تقتصر على تمثيل البلاد ولعب دور الوسيط في حل الخلافات. في عهده انتصر الإيطاليون على الأتراك (١٩١١) واحتلوا تريبوليتانيا. على إثر الزحف الناجح للتنظيمات الفاشية الإيطالية على مدينة روما في ٢٩/ ١٠/ ١٩٢٢ قام بتفويض موسوليني =

حُفِرت فتحاتٌ مربَّعة الشكل تبعد الواحدة عن الأخرى مسافة ١٥ ـ ٢٠ خطوة، وفي داخلها تتجلّى أنابيب عريضة، ناتئة فوق سطح الرصيف. في يوم قدوم الحاكم الجديد كانت في هذه الحُفَر قد غُرزت العصي والقضبان الغليظة لربْطِ اللافتات وأكاليل الزهور وغيرها. وتُعتَبَر هذه الحفريات والأنابيب سببَ همومٍ مزمنة لمدينة طرابلس. فبعد كلِّ احتفالٍ كبير وهامٍّ تُتركُ الأنابيب في أمكنتها، مما يُقلقُ سكان المدينة، ولا يتم إخراجها من الحفريات إلا بعد وقوعِ كارثةٍ ما، مثلاً عندما تتعثَّر بها زوجة الوالي أوْ تتمزّق أحذيتُها الرقيقة. فقط في حالة كهذه يُجبرُ العاملون في مرافق المدينة على إزالتها. ولكن عند زيارة شخصيةٍ ما عالية المقام أو بمناسبة توديعها تُهيأُ الحفريات من جديد وتُغرز بها القضبان وهكذا دواليك. . . أصحاب الروتين معصومونَ عن الخطأ.

يلتصق بنا متسوّل.

Ja crimit, Allah! Spiri, spiri ut, Allah! (ارحمني باسم الله وهو سيُكافئك).

ـ يجرُّ العربي نفسه خلفنا وهو مرتدٍ ثيابا ممزّقة.

Ja razak Ali. Ja razak (اعتمدْ على الله يا علي وهو سيُعِينك) ـ يردّ مارسيلو.

لهذه العبارة ـ كما يصرّح مارسيلو ـ قوّة سحرية وكافية لإبعاد حتى أكثر المتسولين المسلمين إلحاحاً.

ولكن يبدو أنَّ مُضطهِدَنا لا يؤمن بمغزى هذه العبارة، يرجّح المساعدة الحقيقية والمباشرة من إنسانٍ على مساعدة الله الغُيبية، غير الواضحة. لم

= بتشكيل حكومة جديدة. التُهَم الموجهة للأسرة المالكة بالتعاون مع الفاشية أدت إلى استقالة الملك وتسليم العرش لإبنه هوبرت الثاني في ٩/ ٥/ ١٩٤٦. وفي السنة ذاتها أصبحت إيطاليا ذات نظام جمهوري بعد استفتاء عام (فقط بـ ٥١٪ من الأصوات). هاجر الملكان ـ الأب والإبن ـ إلى مصر وهناك في القاهرة سُرقت كل مجموعته من النقود.

ينفصل عنّا وبدون انقطاع يكرّر جملته بهدوء: spiri, spiri ut, Allah!

نُعْطيه بعض النقود، لكنه لا ينفكُّ عنا.

Va via, Ali - va via!

يبدو أن لهذا الانتهار بعبارة: «حلّ عنا» ـ التي وجّهها مارسيلو للمتسول بصيغة الأمر وبصرامةٍ ـ فِعْلاً ما لمْ تفعلْه التعويذة باسم الله. بسرعةٍ افترق عنا هذا الوَغد. حقَّقت الحضارة الأوروبية نجاحاً!

الشوارع مكتظَّة بالإيطاليين الذين يمثّلون كافة طبقات المجتمع، بينهم موظفو الإدارة الاستعمارية وأصحاب المهَن الحُرَّة من تجارٍ وحرفيين ومزارعين، انتهاءً بعمال الخدمات المنزلية.

ندخل الحيّ العربيّ. نوافذ المنازل صغيرةٌ ومُحْكمة بشبكةٍ من القضبان الحديدية. مِن الأزقّة المكتظّة بالعرب المرتدين برانس بيضاء (أغلبها ممزّق وملوّث) تنبعث روائح كريهة. لباس البعض، سيّما الصبيان، عبارة عن كيسٍ مطبوعٍ عليه اسم شركةٍ ما. نجد عدداً كبيرا من الأطفال المتسوّلين والشيوخ العميان الذين تآكلت عيونهم جرّاء الرمال الصحراوية.

يَلفت النظرَ الوجودُ الكبير لليهود، وقد غَطَّوا رؤوسهم بطرابيش حمراء وارتدوا سراويل فضفاضة بلونٍ أبيض مربوطة بخيطٍ في الخَصْر وبقمصانٍ بيض أو ملوَّنة ومُسترسلة بدون تكلّفٍ. أما النساء اليهوديات فيخرجْنَ للشارع ووجوههن ملوَّنة بمواد التجميل وأجسامهن مكسوَّة بمعاطف بيضاء حريرية واسعة. بنيتهم تختلف بتفاصيلها عن هيئة اليهودي المألوفة عندنا (في بولندا). اليهود البولنديون أكثر شبهاً بالإيطاليين منهم باليهود الساكنين في ليبيا. عينُ الإنسان البولندي التي لم تدرك بعد خاصيات الأمور كانت سترى في الإيطاليّ الحقيقي يهودياً[1].

---

(١) تاريخ اليهود في بولندا يمتد إلى حوالي ألف عام، إذ كانت بولندا منذ بداية القرن الحادي عشر حتى سنة ١٥٦٩ البلد الأكثر تسامحا في أوروبا وفيها استقرت أكبر جالية يهودية، لهذا سميت =

سوقٌ عربية حقيقية تمتدُّ على مسافة عدة أزقَّةٍ مسقّفة، مضاءة بواسطة كُوَى علوية وفتحات صغيرة في السقف. نمشي في شارع «سوق الحرة». ثمّة تُباع السجادات فقط. حوانيت صغيرة، واحد بجانب الآخر ـ تكادُ تختنق من كثافة البضائع التي بألوانها المختلفة تجذب الأنظار، لهذا يُعرض بعضها في الشارع. ترى التُّجار قد لفوا أجسامهم بالبرانس وهم جالسين القرفصاء أو مطروحين على حافَّة الحانوت كأنهم نائمون أو غارقون في تأمُّل وتفكير عميقَيْن، إلا أنَّ عيونَهم الحساسة ـ وإنْ تبدو مغمضة ـ تراقب الناس وبدقَّةٍ تفحص كلَّ مارٍّ وبالتأكيد تحسب قابليته الشرائية. وعندما يحسُّ صاحب الحانوت بجدِّية الشاري تسري فيه الحيوية حالاً ويطرح كلَّ ما خَزَنَه من عبارات اللُّطْف مُستغلاً طاقاتِه الفطْرية في التجارة.

= بـ «فردوس اليهود». منذ بداية القرن السابع عشر ساءت أحوال اليهود على إثر الخلافات بين البولنديين والروس والألمان. وبعد تقسيم بولندا بين ثلاثة دول (روسيا شرقا، النمسا جنوبا، ألمانيا غربا) خضع اليهود لقوانين هذه الدول. لهذا عندما اندلعت الثورة البولشيفية كان اليهود من مؤيديها في الأغلب. بعد حصول بولندا على استقلالها سنة ١٩٢٠ كانت تعيش فيها إحدى أكبر الجاليات اليهودية في العالم، حوالي ثلاثة ملايين ونصف. في العام الدراسي ١٩٣٧/ ١٩٣٨ كانوا يديرون ٢٢٦ مدرسة ابتدائية وإعدادية و ١٢ مدرسة ثانوية بلغة التعليم العبرية أو الإيديش ويصدرون ٢٦ صحيفة ومجلة. بعد احتلال بولندا من قبل الألمان سنة ١٩٣٩ قام هتلر بإبادة حوالي ٩٠٪ من اليهود البولنديين في معسكرات الاعتقال والمحرقات وخنقا بالغاز وغامر حينها العديد من البولنديين بإخفاء لليهود في بيوتهم. من بين حوالي ٢٠ ألف إنسان حصل على وسام «العادل بين شعوب العالم» أكثر من ربعهم من البولنديين. من بين الـ ١٨٠ ـ ٢٤٠ ألف يهودي الذين بقوا على قيد الحياة هاجر أغلبهم إلى إسرائيل وأميركا وجنوب أفريقيا. حملة التهجير الثانية حصلت سنة ١٩٦٨ عندما اشتدت الحركة المعادية للسامية. بعد انهاد فترة الاتحاد السوفيتي في سنة ١٩٨٩ يحق لكل يهودي كان مواطنا بولنديا قبل الحرب العامية الثانية أن يعمل على إعادة جنسيته البولندية. اليوم يقدر عدد اليهود في بولندا بـ ٨ ـ ١٢ ألف فرد، أما الذين هم من أصول يهودية أو مرتبطين ثقافيا باليهودية فيتعدون هذا العدد أضعاف المرات. لعب اليهود دورا مميزا في الحياة الثقافية البولندية ككتاب مهرة، مثلا اسحق سينغر حصل على جائزة نوبل للآداب (١٩٧٨). وتقوم الحكومة البولندية ببناء متحف ضخم «متحف تاريخ اليهود البولنديين» في وارسو بتكاليف حوالي ٤٢ مليون دولار. من سنة ١٩٨٦ عادت العلاقات الدبلوماسية مع اسرائيل بعد انقطاعها منذ سنة ١٩٦٧. وتعتبر هذه العلاقات مثالية. في نيسان من كل سنة يؤم بولندا ألوف من اليهود من مختلف بلدان العالم لتخليد ذكرى المحرقة وتقام مهرجانات دورية للثقافة اليهودية، مثلا في مدينة كراكوف.

نتوغَّل في أقدم حيٍّ في طرابلس. أزقَّتُه أضْيَق من التي شاهدناها قبلاً، وكذلك النوافذ قد سُدَّت هنا بشبكةٍ أكثف بالقضبان الحديدية. بين مكانٍ وآخر توجد أعمدةٌ منتهية قمَّتُها بقوسٍ طوله عرض الزُّقاق ـ يستغلُّها السكان بمثابة جسر يمرُّون فوقه خلال زياراتهم من بيتٍ لآخر. هنا وهناك قبَّة مسجدٍ وفوقها منارةٌ شاهقة.

خروج المرأة العربية إلى الشارع نادر. حقل نشاطها محصور في البيت. فيه تقضي حياتَها بتربية الأطفال وتحضير الأكلات الأقل أو الأكثر نتانةَ لسيِّدها ومؤلاها. عينُ الرَّجُل الغريب لا يمكن أنْ تقع عليها. ولهذه الأسباب تجد نوافذَ البيوت محفورة في الجدران الداخلية المطلَّة على الفناء الذي فيه تتركَّز كلُّ نشاطات الحياة العائلية والبيتية. وعادةً تُسْرَق ساحة الفناء من الشارع، لهذا تراه ضيِّقاً وفارغاً ومهجورا، لا أحد يطلُّ عليه ولا أحد يهتمُّ به.

نشاهد باباً صغيرا مفتوحا يؤدِّي إلى حَوْشٍ منخفض تقع أرضيته تحت مستوى سطح الشارع. دَفَعَنِي حبُّ الاستطلاع لألقيَ نظرةً خاطفة على ما في الداخل. شاهدتُ امرأتين قبيحتين قُبْحَ الليل تغسلان ثياباً داخلية على مقربةٍ من بئرٍ، عند جذع نخلةٍ عالية. قبل أنْ تطأ قدمي إلى الداخل سمعتُ صرخة شديدةً ومرعبة: «رومي» (أوروبي!) جعلتني أتراجعُ فوراً. يوصد الباب في وجهي.

سوق التُّرْك. الشارع الرئيسي فيه مغطى بسقفٍ زجاجيّ مُسندٍ على أعمدةٍ خشبية لهذا تراه شديد الإضاءة. الدكاكين كثيرة: إيطالية ويهودية وتركية. ولكن ينقصه السكوت والصَّمْت اللذان يميِّزان السوق العربيّ. يخيّم هنا جوٌّ من الصخب والضوضاء كما هو الحال في شوارع نابولي أو داخل خمّاراتنا (البولندية!). هنا تقع العين على كلِّ ما تبتغي مشاهدته! مصنوعات جلدية ونحاسية وفضّية ومن العاج كذلك، طرابيش وأقمشة بشتَّى الألوان والنقوش، ريش النّعام، جلود الأفاعي وبنات آوى، أحذية خفيفة، مزَخْرفة جداً. تجد مختلف العطور الزيتية وأنواع التوابل والأعشاب الطبية بمواصفاتها العجيبة لكلِّ

الأمراض. إلى جانب البضاعات المحلية تُباع العديد من المواد والسلع الإيطالية واليابانية (آه من هؤلاء اليابانيين!)، وتغلب عليها كلُّها الصناعات الألمانية الرديئة التي بدأت تغزو العالم بنجاحٍ[1].

نحن الآن في حيِّ الحِرَفيّين بورشاتهم المختلفة الموجودة في الشارع أو في الأقبية الشبيهة بالجُحور. هنا اسكافيٌّ يخيّط حذاءً بالقياس المطلوب ويبيعه مباشرة، وهناك حدّادٌ يطرق صفيحة معدنية على سندانٍ صغير ـ ألْسِنة النار تتطاير من فرنٍ بدائيّ مصنوع من اللِّبْن.

ها هو شارع دكاكين الفضة. الحِرَفيّون مُنهمكون بنقشِ صفيحةٍ فضّية نقشاً جميلا، بِيَدِهم مطارقُ صغيرة بها يدقدقون الصفيحة ويطوونها حتى تأخذ شكل حلقاتٍ جميلة تعلّقها العربيات واليهوديات (أو غيرهن من النساء الشرقيات) في الآذان. وقد يصنعون منها حِلية شرقية أخرى. الفحم يحترق بلهبٍ صغير يؤجّجه الهواء المُنْبعث من منفاخ يدوي وفوقه تغلي في البوتقة سبيكةٌ فضية ستُسكب بعد لحظةٍ في القالب حيث ستجْمد بسرعة مُكتسبةً شكله. يهوديّان جالسان القرفصاء يمسكان القطعة بكمّاشاتٍ كبيرة دون أنْ يمسُّوها بالأيدي. يرشقانني بنظرةٍ مُفْعمة بالاشتباه ـ ربما يفكران بأنني منْ رجال البوليس السرّي.

تُساق للذَّبْح قطعان من الحيوانات الرثّة. تُطْرَح هذه الحيوانات على أرضية الشارع المعبّد لتسهيل نحْرِها بسكّين الجزّار وذلك على مرأى حشودٍ متزاحمة من الأطفال، تراكمت مجموعة منهم حول العِجْل الملطَّخ بالدم، بعد قطع رأسه وقوائمه الخلفية. يترقّبون لحظة غفلةٍ ليخطفوا شريحةً من اللحم ما زال الدم يقطُرُ منها.

في كلّ مكانٍ أوساخ وقذارات. الهواء مُثقلٌ بالرائحة الكريهة يكاد يُغمى على الإنسان منها. أهذه رائحة الشرق، تلك التي طالما تغنّى بها الشعراء، أمِ

---

(١) من جديد نجد الكاتب لاذعا ومنتقدا لكل ما هو ألماني وغير راض بنوعية بضاعتهم ومعروف أنها تتميز بجودة عالية، كذلك في بولندا، الآن وفي الماضي القريب.

الاقتراب من الشرق على بعد مرئيٍّ للعين والأنف يفقده الكثير من سِحْرِه وجَمالِه الرومانطيقيين؟

ومهما يكن منْ أمرٍ فسيبقى الشرق جذّاباً ومثيراً للاهتمام، إذْ كلُّ إنسان يملك بالغريزة ما يشدُّه لمعرفة المجهول وسبْرِ كُنْه الأسرار الكامنة في الشرق. ولكن مِن تلك الزيوت العطرية التي طالما اشْتهر بها الشرق لا تفوح اليومَ رائحة زكيّة منعشة كما كنا نتوقّع عندما أصبحنا نخطو فوق أرضه.

Cuscet es Seffar، أيْ شارع المقاهي الصغيرة. ندخل إلى أحد الأكوار ونشرب «لاقمي» ـ وهو خمْرٌ مصنوعٌ من ثمار النخيل، لونه أبيض كالحليب وطعْمه مزّ، بينما نسبة الكحول فيه ضئيلة. بعد خروجنا نلتقي بمجموعةٍ من النساء المتلفّحات بالعباءات، تبدو من تحتها عيونهنَّ السود الدافئة وشعرهنَّ المطليّ بالحِنّاء. هنَّ تركيّات وهيئتهن توحي أنهن لم يذقْنَ طعمَ الحرِّية المتوفِّرة لأخواتهنَّ في البلد الأم، تركيا. سلطان كمال باشا لا يصل إلى ليبيا[1]!.

---

(١) (١٨٨١، سالونيكي ـ ١٩٣٨، استانبول). حتى سنة ١٩٣٤ مصطفى كمال باشا. شارك في الثورة التي أعلنها تنظيم تركيا الفتاة (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) وفي السنوات ١٩١١ ـ ١٩١٢ في الهجوم على إيطاليا وضد الثورات التحررية (١٩١٢ ـ ١٩١٣) لشعوب دول البلقان المستعمرة من قبل العثمانيين. خلال الحرب العالمية الأولى كان قائد سرية ونال مرتبة جنرال (١٩١٦) ثم مرتبة ماريشال (١٩٢١). في السنوات ١٠١٢ ـ ١٩١٣ انتصر على الجيوش اليونانية في الأناصول التي كانت تحمي الشعب اليوناني خوفا من المجازر التي كانت من نصيب الأرمن والآشورين. في سنة ١٩٢٢ وقف على رأس الحركة القومية التركية التي أبطلت نفوذ السطان وأنهت مرحلة الامبراطورية العثمانية وأعلنت النظام الجمهوري لتركيا ونقلت العاصمة إلى أنقره. في سنة ١٩٢٣ اختير أول رئيس للجمهورية وبقي في هذا المنصب حتى مماته. حكم البلد بيد حديدية وعمل جاهدا في اقتباس النمط الأوروبي في اللباس وقام بإصلاحات قانونية واجتماعية مع تغيير الحرف من العربي إلى اللاتيني وتنقية اللغة التركية من الكلمات العربية وبفرض الألقاب التركية على كل المواطنين من غير الأتراك (أما هو فقد اختار لنفسه لقب أتاتورك، أي أب الأتراك ومنع حمل هذا اللقب من قبل أي تركي آخر). قام كذلك بتقليص دور الدين في الحياة السياسية وفرض التعليم الإجباري على النساء وسن قوانين تضمن لهن المساواة في المجال السياسي والإجتماعي. يقع قبره في أنقره مع متحف يحمل اسمه.

ساحة es Kasb (أيْ الخُبْز)، أكبر ساحةٍ في طرابلس تقع عند أقدام قصرٍ تركيّ أبيض اللون يتذكّر القرون الوسطى. أساساته مغروزة بالبحر. حركةٌ كثيفة وسريعة للمشاة: واحدهم يزاحم الآخر، عرباتٌ تجرّها الخيول، باصات، ناسٌ من مختلف الأجناس: بينهم بيض البشرة وسودها، ببرانس عربية وأزياء أوروبية. تطلُّ على الساحة مجموعات من دكاكين الخُبْز والمقاهي العربية. يقودني مارسيلو إلى أحدها ويطلب نوعا من الشاي المخلوط بالجوز المقلي (الكاكاو المشهور عندنا ـ في بولندا ـ باسم الفستق أو الجوز اليهودي[١]).

طهي الشاي يتمُّ حسبَ الأصول الشرقية. أوّلاً يُرفع الإبريق إلى علٍ ويُصبُّ منه الشاي في كؤوس صغيرة ثم يُسكب من جديدٍ في الإبريق، وتستمر هذه العملية حوالي عشرَ دقائق، الهدف منها إذابةُ السكر وإغناءُ الشاي بالرَّغْوة.

يا إلهي، كَمْ هو حامض ـ يجعل اللسان وغَشاء جوف الفم يصابا بالشَّلَل.

لتحسين طعم الشاي نخْلطه أوّلاً بنوعٍ آخر من الشاي الكاكاويّ العادي، ثم نشربه. بدتْ تجربتُنا ناجحةً والمشروب ممتازاً. بعد أنْ عادتْ قوانا إلينا نوجّه خطواتنا نحو المرفأ. هناك نصعد على قمّة المنارة البحرية المُبَرْقشة بخطوطٍ بيضاء وسوداء. على مستوى أقدامنا تربّعت الأسطح المستوية لأبنية المدينة ونرى كذلك أشجار النخيل في الواحات المجاورة للمدينة. على السطح الفيروزي للبحر تبدو مجموعاتٌ من الزوارق الشراعية التابعة لصياديّ الأسماك الذين أبحروا ليجمعوا في شباكهم سَمَكَ الطون ـ غناء هذه المياه.

ومن جديدٍ تواجدنا في المركز الأوروبي. وعبر شارع يُدعى لومبارديا نصل إلى باب بورتا بينو البعيد الذي يقع في الأسوار المحيطة بالمدينة. هذه الأسوار لا تلعب اليومَ أيَّ دورٍ دفاعيّ كما كانت في الماضي، لكنها لفترةٍ ليست بعيدة استُغِلّت في حماية المدينة من هجمات العرب المتمرّدين[٢].

---

(١) يمكن أن يُفهم من قول الكاتب أن الفستق كان يستورده اليهود أو يباع في حوانيتهم.

(٢) على الأرجح: الثوّار.

على مقربةٍ من الباب نرى راعياً يقود قطيعاً من الماعز. يوقف إحداها، يُبعد قائمتيها الخلفيتين عن بعضهما ثم يجلس على أرضية الشارع ويبدأ بحلبها[1]، أما الحليب فيجمعه في وعاءٍ زجاجيّ يشبه القارورة.

ـ ابتعدْ من هنا! ـ يصرخ رجل بوليس موجود على مقربة من المكان.

ـ لا أستطيعُ ـ يردُّ الراعي بِصَوتٍ هادىء.

ـ اللَّعْنة عليك! ألا تعرف أنَّ سدَّ الطريق ممنوعٌ؟ عليك أنْ تقوم بحَلْبِ مِعزاك على جانب الطريق وليس في وسطه!

Essa vuole qui - (هي أرادتْ هنا!) ـ يجيب بهدوءِ الراعي العربي.

إزاء حُجَّةٍ كهذه ما كان على الشرطيّ إلا أن يستسلم معترفاً أنَّ أُمْنِية العنزة يجب أنْ تتحقق. على كل حالٍ لَمْ تستغرقْ عملية الحَلْبِ سوى بضع دقائق. وبعد أنْ أطلق الماعز ثغاءً مضى القطيع في سبيله.

قرَّرْنا في طريق عودتنا أنْ نركب الباص. فيه نجد مجموعة من الأوروبيين: بينهم مدنيّون وعسكريون في مقاعد الدرجة الأولى، أيْ في القسم الأماميّ من الباص، أما في الجزء الخلفيّ فقد تزاحم الرُّكّاب الليبيون في جوٍّ من الصَّخب. سبب هذا التقسيم الطبقي هي الأحوال المادية فقط، وليس للاعتبارات العرقية فيه أيُّ دورٍ.

في طريق عودتنا نعاين في ساحةٍ صغيرة دولاباً يستخدمونه كأرجوحة دائرية تشبه في بُنْيتها الرَّحى[2] ذات الإثني عشر ذراعاً، تجمّع حولها حشدٌ من الكبار

---

(١) تجدر الإشارة بأن هذه الطريقة في حلب الماشية المستخدمة في بلدان الشرق الأوسط، كذلك في ليبيا، هي سومرية الأصل ومنحوته في الحجارة، أي عمرها أكثر من أربعة آلاف سنة. ومن المفيد أن نذكر بأن القرويين في أوروبا الشرقية، مثلا في بولندا، يحلبون الماشية وهم جالسون القرفصاء من الجهة اليمنى أو اليسرى من الحيوان، وليس من الخلف. وكلما ذكرتُ الطريقة الشرقية للطلاب البولنديين في قسم الصناعات الغذائية ألمس على وجوههم علامات عدم الرضى.

(٢) الدوّامة أو الرَّحى ـ جهاز مكوّن من حَجَرَتين مُسطَّحَتين كبيرتين أو آلة معدنية تُشدُّ إلى فَرَسٍ=

والصغار. يجلس بعض الحاضرين في مقاعد فوقية عند نهاية كلّ ذراعٍ، والبعض الآخر يدفع الدوَّامة لمدة ثلاث دقائق. كلّ منْ يدفع الرَّحى ثلاث دورات، أيْ تسع دقائق، يكتسب الحق ليركبها دورةً واحدة مجاناً. بعد نزولنا من الباص نتوجه نحو مسجدٍ غورجي الذي ولسوء حظّنا وجدناه مغلقاً[1]. عبْرَ الشبكات الحديدية نشاهد في الداخل عدداً من الأعمدة المُرصَّعة بفسيفساء جميلة، وفي العُمْق سلسلةً من الدَّرَج الغنيّ بالزخارف والمغطى بسقفيّةٍ معدنية على شكل قبّة منتهية بهلالٍ في قمّتها، متجِّهٍ نحو مدينة مكة. على هذا الدَّرَج يصعد المؤذن لقراءة آياتٍ من القرآن.

في دهليز المسجد، بمحاذاة الجدار، يتراءى خزّانٌ طويلٌ مملوء بالماء، في قاعدته عددٌ من المواسير، أمّا تحته فتقع ساقية أسمنتية لتسهيل اندفاع الماء فيها، وبجانب الساقية دكّاتٌ للجلوس. هذا مكان اغتسال المؤمنين عملاً بوصيّة محمّد (الحكيم) الذي فرض عليهم أنْ يغسلوا أقدامهم قبل الدخول إلى المسجد.

الشمس تميل نحو الغروب. أمام المسجد تلمع احمرارا منارةٌ رشيقة في هالة أشعة الشمس المنعكسة من أنقاض قوس مرقص أورليان الروماني[2]. المنارة شامخة بعزٍّ فوق الأنقاض، ينبعث منها في هذه اللحظة صوت المؤذن الذي يرنّ في الآذان حاملاً للناس الحقيقة الكبرى العابقة بالوحي.

Allah ut Allah, Mohhamed rasul Allah!

لتغيير الانطباعات نقصدُ إحدى المقاهي الأوروبية التي تُدعى سورلي، يُقال أنها مركزٌ لكلّ جديدٍ في عالم الطرائف والحكايات والإشاعات المحليّة. بعد

= يديرها، تُستخدم مثلا لتقشير أو طحن الحبوب.

(١) بُني في النصف الأول من القرن التاسع عشر.

(٢) أمبراطور روماني (١٦١ ـ ١٨٠). كان يدعى «فيلسوفا على العرش» واتصفت فترة حكمه بالاضطرابات بسبب الحروب والكوارث الطبيعية. يعتبر القوس المنسوب إليه من أهم المعالم الرومانية في طرابلس.

لحظةٍ من جلوسنا ينضمُّ إلينا شخصان كان مارسيلو يعرفهما من قبلُ. عندما سمعا أنني عزمتُ الكتابة عن تريبوليتانيا، بدآ برويان بفكاهةٍ قصةً خرافية سبق أنْ نَشَرها أحد الألمان.

ـ ماذا كتبَ ـ أسألُ.

ـ قضى الألمانيّ عدة أيام في سوكنا (من أعمال سرت). بعد عودته إلى أوروبا كتب مقالةً نشرتْها الصحُف الإيطالية يتباهى فيها أنّه قد اكْتشف خمسَ بُحيرات جديدة لمْ تكنْ معروفةً حتى الآن.

ـ وما الغريب في هذا ـ أستفسرُ من جديدٍ.

ـ الغريب أنَّ الألماني وحدَه كان يجهل أو يتجاهل وجودَ البُحيرات التي ذكرها وادَّعى أنّه أولُ من عَثَرَ عليها وأعلن عنها. فإذا سألتَ الجنود المتمركزين في الحصْن القريب من المكان الذي كتبَ عنه الألماني، سمعْتَ أنّهم يقصدون هذه البحيرات باستمرارٍ ومن مياهها اعتادت جِمالُهم أن تُطفىء عطشها. إذنْ لمْ يكتشفها الألمانيّ مثلما صرّح، بلْ يعرفها حتى الجنود، ناهيك عن السكان المحليّين.

ـ وأنا أيضا جرتْ لي حكايةٌ ألذّ مِنْ هذه ـ ينادي أحدُ الجالسين عند طاولة بعيدة. قبل بضعِ سنواتٍ كانت قد قَدِمت من روما مجموعةٌ مكوّنة من الطلاب الجامعيين يرأسهم بروفيسور في زيارةٍ سياحية لهذه المناطق. وشاءَتِ الظُّروف أنْ أُعيَّن دليلاً لهم. وإذا بالبروفيسور يجرّني على طَرَفٍ ليسألني بسرّية وبصوتٍ خافت.

ـ يا سيّد، هل يمكنني أنْ أشعر أنني في أمانٍ هنا؟

ـ يمكنكَ، مائة بالمائة ـ أجبْتُه.

ـ هل الأُسُود لا تصلُ إلى المدينة؟ ـ أعاد السؤال بصيغةٍ أخرى كأنّه لم يسمعْ جوابي أو لمْ يثقْ بما قلْتُه.

ـ الأُسُود؟ إذا أَرَدْتَ مشاهدتها ما عليك إلاّ أنْ تسافرَ إلى السودان! ـ أكَّدتُ له مرة أخرى.

ـ مهما يكن منْ أمرٍ، فقد أخذتُ كلَّ اعتبارات الحَذَرِ والاحتياطات اللازمة في حال هجومٍ مفاجيء لحيواناتٍ ما مفترسة. جلبتُ معي سلاحا سأستعمله عند الضرورة ـ يعقب البروفيسور على ما صرّحتُ وهو يُخرِجُ مِنْ جَيْبِهِ مُسدَّساً نسائيا صغيرا.

على الرصيف الممتد أمام المقهى نجد صفّاً من اليهود مُنظِّفيّ الأحذية وهم بأدبٍ ولطفٍ ونجاحٍ يعرضون خدماتهم على المارّة. اعترافاً بالحقّ علينا أن نقول أنّهم بمهارة وخبرة وبأجر بسيط جدا يقومون بتنظيف كلِّ حذاءٍ. الحذاء الذي يخرج من بين أيديهم يشعُّ بريقاً ولمعاناً.

مساءً نرتدي السترة السوداء الطويلة الخاصة بالمناسبات ونذهب لحضور أُمْسية طربٍ ورقصٍ في أحد النوادي التابع لإدارةٍ مدنية عسكرية.

في بداية الحفل كان يخيّم على الحاضرين جوٌّ من الرسميات الجافة، إذْ تشكَّلت مجموعاتٌ مغلقة، مميزة وفقاً للدرجات الاجتماعية. ففي مكانٍ واحد التقى أصحابُ المراكز والأوسمة والأبَّهة والجاه، وهم يرشقون العامَّة بنظراتٍ ملؤها الكبرياء والغطرسة ورفعةُ الشأن. ولكن لم يدمْ هذا طويلا. مع مرور الساعات عملتْ المشروبات الروحية عملَها في تَلْيين وُلاة هذا العالم وأدّت الموسيقى واجبَها في تشجيع الضعفاء والبسطاء، ممّا جعل الحفل يُنعش الجميع على حدٍّ سواء.

ولاحظتُ أنَّ الرقصات العصرية لم تأخذْ نصيبَها الوافي بين الرقصات التي اختارها الجمهور وقُدِّمت على حَلَبة النادي، لا بلْ أُهملتْ لتحلَّ مكانها ما يمكنُ أنْ نسمِّيه بالرقصات التي تجمع بين القديم والجديد، شيء وسط بين

«بولكا»[١] و«مازور»[٢]. وكان الصوت العالي وضرْبُ الأرجل بشدّةٍ على الأرض يرافقان هذا النمطَ من الدَّبْكات الغريبة ـ وهو الأسلوب الخالي من الصفات الحضارية ويشبه إلى حدٍّ ما دبكات القوزاقيين.

يبدو أنَّ للحياة في المناطق البعيدة عن الحاضرة ميّزةً خاصة في كلِّ آونةٍ وعند كلِّ شعبٍ. هذا الحفل المُنْعش حقاً المُقام في أقصى حدود امتداد الثقافة الإيطالية ذكّرني تماماً بالْوَصْف المحفوظ في الكتب البولندية عن الأمسيات الرّاقصة التي كانت تُقام في مقرِّ فُوُودِيُّوفْسْكي[٣].

---

(١) «بولكا» ـ رقصة شعبية سريعة وغنيّة بحركات القفْز، يؤديانها راقصان (أنثى وذكر) ضمن مجموعة كبيرة. يُقال أنها تشيكية الأصْل.

(٢) «مازور» ـ رقصة شعبية بولندية هادئة، رزينة في الحركات، تؤدّى بنفس الطريقة.

(٣) بان (السيّد) فُوُودِيُّوفْسْكي ـ شخصية شبه أسطورية مُستمدّة من التاريخ البولندي في القرن السادس عشر. وهو عنوان كتاب في الأدب الكلاسيكي البولندي لمؤلفه Henryk Sienkiewicz هنريك شِنكيفيتش (١٨٤٦ ـ ١٩١٦) الحائز على جائزة نوبل في الآداب (١٩٠٥).

[5]

سوق الجمعة ـ العمروس ـ تاجوراء

في ساعةٍ مبكّرة انْطَلقنا خارجَ المدينة بالدرّاجات. الفجر دافئٌ ومشمسٌ وفاتن كالذي في بولندا في شهر حزيران/ يونيو (الصيف)، أما السماء بِلَوْنها الدَّاكنِ العميق والصافي تبدو كأنّها قطعةٌ كبيرة مِنْ قماشٍ مفروش في الأُفق، مصنوعٍ من مادّةٍ طيّعة لَدِنة ذات مواصفات عجيبة.

نتّجه نحو سوق الجمعة، القرية العربية التي تبعد عن طرابلس أحدَ عشرَ كيلومتراً، حيث تُعْرض كلَّ يوم جمعة من الأسبوع مختلفُ السّلع الشرقية وتُقدَّم الخدماتُ التجارية التي تجذب السكان المحلّيّين من المناطق القريبة والبعيدة.

تزحفُ درّاجاتُنا كاملَ الوقت على طريقٍ إسفلتية في منتهى الجودة، عبْر الأحياءِ العربية التي تربَّعتْ على الجانبين، وخلْفَنا تركض «سرمان» ـ كَلْبة صيد، شَعرها أصفرُ وهي من العِرق العربي الصافي ومحبوبة مارسيلو. كلُّ دجاجة نصادفها في طريقنا تُثير عندها ميولاً عدائية، ولولا تهديداتنا بصوتٍ عالٍ كانت ستفتك بها. نجحتْ محاولاتُنا في إنقاذِ هذه الحيوانات البريئة من الموت المحتّم.

على مدّ البَصَر ترى تربةً طينية صفراء تُزرع بالطُّرق اليدوية بواسطة الفؤوس. والحقول قد قُسمت إلى مساحاتٍ صغيرة مربَّعة أُزيحَ عنها التراب بتأنٍّ ودقّةٍ

لِجَعْل سطحِها أدنى من مستوى سطح الأرض، مشكِّلةً بهذا ما يشبه المسابح الطفيفة. الهدف من هذه العملية هو الحفاظ على الرطوبة عن طريق خزْن أكبر كمية ممكنة من المياه النادرة هنا. وسط الحقول، أو بالأحرى حدائق الخضروات، تبدو آبارٌ يُقال أنَّ عمْقَ بعضِها يفوق الخمسين مترا، وحول فوهاتها بُنيت جدرانٌ دائرية حجرية أو طينية بلونٍ أبيض. هنا وهناك يقع نظري على هيئاتٍ بَشَرية جالسة القرفصاء، كأنّها كُتلةٌ بيضاء منهمكة في خدمة الأرض واهبةِ الحياة.

نعاين وسط الحقول أشجار النخيل النحيفة المُبَعْثرة هنا وهناك. قِمَمُها مُنتهية بأكاليلِ السَّعَفِ الذي بكثافته يبدو مثل ريش النّعام. نجد كذلك أَيْكاتِ شجيرات الخرْوَع التي تصل إلى ارتفاع أربعة أو خمسة أمتارٍ.

الازدحام المتزايد يشير إلى اقترابنا من سوق الجمعة. مِنْ دقيقةٍ إلى أخرى تغدو حركتُنا أكثر عُسْراً، وبعد انسداد الطريق أُجْبِرنا على النزول من درّاجاتنا. ربَطْنا «سرمان» بالرَّسَن وسِرْنا ببطءٍ نجرُّ أقدامَنا بخطواتٍ قصيرة.

يتكوَّن الحشْد مِنَ العرب والبربر واليهود والزنوج. كلٌّ منهم يُسْرع إلى السوق على قَدَمَيْه أو على ظهر حمارٍ. منهم الشاري ومنهم البائع، منهم مَنْ يريد أنْ يستفسر عن سلعةٍ ومنهم مَنْ جاء ليلتقيَ بصديقٍ أو ليتجاذب أطرافَ الحديث عن حكايةٍ ما ـ كما في كلِّ مكانٍ على الأرض. وما يعطي لهذا الحشد العجيب ميزتَه هي قطعان الأغنام الثاغية والجِمال المُحَمّلة بالبضاعة حتى أقصى حدود طاقتها.

تشكّلُ الساحة الرئيسية في سوق الجمعة منظراً قلّما تجد مثلَه. فقد قُسمت إلى عددٍ كبير من المساحات المربَّعة، منها المفتوحة ومنها المغطّاة، المفصولة عن بعضها بشوارع مُسَقْلَتِهِ. تُستغلُّ هذه المساحاتُ بمثابة قاعاتٍ تتمُّ فيها عمليات البَيْعِ والشِّراء، أما الحدود التي تفصلها عن بعضها فهي ألواح الرَّصيف نفسه. في النقطة المركزية لهذا المجمَّع البنائيّ يقع مبنى أبيض صغير كُتب عليه : "Carabinieri Reali".

مُلِئت جميع المساحات بهيئاتٍ بشرية ملفوفة ببرانس يغلب عليها اللونُ الأبيض، ومنها ما هو بلونٍ رماديّ أو بِخطوطٍ طولية سوداء. كلُّ فرد يُؤدّي مختلفَ الحركات الإيمائيّة بحيويةٍ ونشاطٍ. إنَّهم من السكان المحلّيّين، إذ حتى رجال الشرطة ـ ويمثّلون هنا سلطانَ الحاضرة الإيطالية البعيدة واللُّغزيّة ـ يتكوَّنون من العرب فقط. يعجز القلم عن وصف ما يُهَيْمن من الاضطراب والشغَّب والضَّجيج. يجري الاتّفاقُ على السِّعْرِ، حتى آخر فلسٍ، في جوٍّ صاخب بمشاركة الموسيقى التي تنبعث من الحناجر الحساسة أثناء المشاجرة والمنازعة والمناظرة والمجادلة.

تهجمُ علينا مجموعةٌ من الأطفال الصغار وهم يتسوَّلون بإلحاحٍ وإصرار ـ هذا هو البَلاء والوباءُ الحقيقيَّان لأفريقيا بِرُمَّتِها. يحاول رجال الشرطة ذوو البشرة الداكنة إبعادَ الأطفال بإلحاحٍ، ولكن بدون جدوى.

فجأةً يغيبُ مارسيلو عن نظري، يضيع وسط الحشد. عندما كنتُ أبحث عنه اقترب منّي رجلٌ طويلٌ وقويُّ البنية، توحي هيئتُه الأنيقة أنَّه يقدِّر علاماتِ الجمال. كان لباسه نظيفا جدا، يتكوَّن من برنسٍ يسطع بياضا وتحته رداءٌ بنفسجيّ اللون شفّاف، وعلى رأسه طربوش مزوَّد بِخُصْلة من الرِّيش الطويل سوداء اللون، وبقدمَيْه قبقاب خشبي. راح بِلُغةٍ إيطالية مكسورة يرحّبُ بي ويُلقي خطاباً طويلا: كمْ هو شرفٌ عظيمٌ لسوق الجمعة أنْ يُزارَ مِنْ قِبَلِ أجنبيٍّ مِثْلِي عالي الشأن والمقام (أتفاخر بشخصي تَجاوُبا مع تصْريحاتِه) ـ وأخيرا يقترح أنْ يكون لي دليلاً لزيارة كلِّ أجنحة السوق.

ما كان عليَّ إلاّ أنْ أوافقَ برحابة صدرٍ.

بمحاذاة الطريق المعبدة التي تقطعُ ساحةَ سوقِ الجمعة تربّع الخبّازون، جالسين القرفصاء بجانب عوارضَ خشبيةٍ ملقاةٍ على الأرض وُضِعت عليها أهراماتٌ من أرغفة خُبْز الشعير بِلَوْنها الأسمر. وكان هؤلاء الخبازون يشجّعون

الناس بِصَخَبٍ على شراء خبزهم، معدّدين مواصفاتِه الجيدة والنادرة[1]. إزاء هذه الدعاية الناجحة شعرتُ فجأةً بالجوع، فقمتُ بشراء رغيفٍ واحد. طَعْمُه بدا غريباً ولمْ أستسغْه ـ سمعتُ أنّه بدون ملح.

لمحتُ على مَقْربةٍ سياجا عاليا توقّعتُ أنّه حظيرةٌ للحيوانات. في داخله عدد كبير من الجِمال المتربّعة على الأرض، تحرّكُ فكوكها بتأنٍّ وتناسقٍ وانتظام وتحدّق نحو الأمام بأناةٍ ونظرٍ لا ينمّ عن أيِّ تعبيرٍ. أما أقرب ساحة من السياج فقد اسْتَقْطبتِ الحمير التي كانت تقرض عيدان القمح من الرّزمات المربوطة إليها، وفي مكانٍ آخر اجتمعتِ الأغنام والماعز، تتزاحم بجَلافةٍ وحركات غير مصقولة خالية من عزّة النفس.

وَقَعَ بصري على عنزةٍ بيضاء هزيلةِ الجسم، قد التفَّ حولَها جمعٌ من الناس بسبب رغبة أحدِ الشارين في اقتنائها. صاحبُها يضع يدَه عليها، يلطم جسمَها برقّةٍ وحنان ووفاء، مُعدِّدا مواصفاتِها التي قلّما تتوفّر في غيرها من عائلة الماعز قاطبة. أما الشاري فتارةً يرشقها بنظراتٍ ملْؤها الاستخفاف وتارةً يشدّها من ذنَبها ويرفع شفتَها العليا لينظرَ بعينٍ فاحصة إلى أسنانها أو يلمس ثدْيَها. يبدو أنَّ العنزة المسكينة ليست مرتاحةً لمعاملةٍ كهذه، بدون انقطاعٍ تثغو ألماً ومرارة كأنّها تريد أنْ تبكيَ حظَّها، تشكو طالعَها، تحتجُّ إزاء الظُّلم والإذلال اللذين لحقا بها.

تقطع حميرٌ صغيرة الطريق ببطءٍ مُحمَّلة بِصُرَرٍ مكدّسة ورزماتٍ متراكمة من البضاعة، فوقها يجلس رجلٌ مفلْطح الرِّجْلين، وهو بين الفينة والأخرى يرفسُ بِشِدَّةٍ بطْنَ الحمار بقدميه العاريتين ليُجْبره على تعجيل سيْره. بعد كلِّ رفسةٍ من الراكب يطلق الحمار نهيقا مُرّا.

في إحدى المساحات المربّعة أعاين رتلاً من الخيّاطات الجالسات على

---

(١) وهم على حق، إذ تمتاز حبوب الشعير بقيمة غذائية أعلى من القيمة الغذائية لحبوب القمح.

الأرض العارية. هنَّ يهوديات في العقود الأخيرة من الحياة وحولهنَّ قد التمّتِ النسوة. في هذه الورشة تُنجَز عمليات كثيرة، فيها يتم بالماكينات تفصيل وقصّ وخياطةُ ألبسةٍ داخلية بسيطة لِمَنْ يمكنه أنْ يصبر من الزبائن الذين ليس صعبا إرضاؤهم.

ها هو جناح اللحوم الذي لا يشكوا أصحابُه مِنْ نقص الشارين. بطَرْفةِ عيْنٍ تتلاشى الأغنام المذبوحة الخالية من الدهون والمقطّعة إلى أجزاءٍ صغيرة لتستقرَّ أخيراً في قعْر الحقائب الملوَّنة، الوَسِخة. والإقبال كبيرٌ خاصة على رؤوس الأغنام - هل مخُّ هذه الحيوانات الوديعة ذو القيمة الغذائية العالية هو المرغوبُ؟.

نصلُ إلى المكان الذي كانت فيه قد تزاحمت تلك المجموعة من الأطفال. فيه الآن تاجراتٌ يهودياتٌ يَعْرِضْنَ للبيع مسبحاتٍ وعطورٍ ومرايا وغيرها من البضاعة، وهذه المواد محبوبةٌ ومرغوبةٌ من لَدُنْ النساءِ العربيات اللاتي طوَّقْنَ البائعاتِ - تشقُّ الهواء دنْدَنَة حادة، تمتمة ثاقبة، همهمة عالية النغمة.

هذا المكان مملكةٌ للنساءِ، إذ قلَّما يزوره الرجال، لهذا ظهور شخصٍ أوروبي كان حدثا نادرا وغريبا، ولّد الذُّعر وزرع البلبلة عند النساء اللاتي بغمضة عينٍ غطَّيْنَ وجوههن تاركاتٍ فتحة صغيرة في البرنس، بعد أنْ رُفِعت أحدُ أطرافه لتُمسك باليد على علْوِ الأنف. من هذه الفتحة تلمع عيونهنَّ البرّاقاتُ، يُراقبْنَ كلَّ حركةٍ من حركاتي. شعرتُ أنَّ نظرهُنَّ الفاحصَ يكاد يخرق جسمي.

في أقصى السوق تكدّست أكوامٌ من النباتات الشوكية سهلةِ الاحتراق، هي أغصان جافة قُطِعت من الشُّجيرات التي تنمو في مكانٍ ما في الصحراء. فيه كذلك جذورٌ سميكة وطويلة استُخْرجت بِجُهدٍ من الأرض بعد حفْرها. عدد المقبلين على شراء رزماتٍ هذا الوقود كبيرٌ.

على دليلي أنْ يعود إلى المدينة، فَيُنادي على عربةٍ تجرُّها فَرَسٌ ويُلطف يدعوني لأرافقه. أردّ لطفهُ بلطفٍ مشابهٍ وأرفضُ دعوَتَه. ينطلق لِوَحْده بعد أنْ

ودَّعني بتحيةٍ على نمط الفاشيين: بِمَدّ اليد إلى الأمام. يبدو أنَّ عملية ترويضه كانت ناجحةً!

أبحثُ عن مارسيلو. نباحُ «سرمان» الذي أسمعه من بعيدٍ يقودني إلى الاتجاه الصحيح. وأخيراً ألتقي بصديقي ماسكاً كلبتَه بكلتا يديه؛ كانت تريد أن تسطو على كلّ مارٍّ من السكان المحليين.

تركنا درّاجاتِنا وربطنا «سرمان» بالرسن إلى جذع شجرةٍ تحت حماية رجلٍ من الشرطة وذهبنا باتّجاه قريةٍ يهودية قريبة تدعى العمروس.

تبدو القرية كأنها منقولةٌ حَرْفيّاً من العهود البعيدة التي تتحدث عنها كتب التوراة. أزقّةٌ صغيرة تفصل المساكنَ المنخفضة الشبيهة بالسور المغلق، الأعمى، لولا بعض الفتحات النادرة التي تستخدم كأبوابٍ للدخول إلى فناء المبنى. فقرٌ مُدْقع يعجز اللسانُ عن وصفه. روائحُ كريهة، أوساخ.

صَبِيّان لابسان قمصاناً طويلة ولا رداء آخر غيرها يحملان شيئاً ثقيلا مُعلّقا على عصا. أمام البيت نجد رجلاً مسنّا جالسا يحدُّ طرفَ منجلٍ بدائيّ مغروزٍ بقطعة من العظم. يمسك المنجلَ بأصابعَ قَدَمِهِ الضخمة ويشحذ أسنانَه بإزميلٍ - بعد كلّ سحبة أزميل تدفع أصابعُ قَدَمِهِ المنجلَ ليُغرزَ بالعظم. ونعاين نجاراً معقوفا يقطع لوحاً خشبيا ثخينا بمنشارٍ يدويّ صغير - هل يعلَمُ أحدٌ كمْ منَ الوقت ستستمرُّ هذه العملية؟ عندما شاهدناه ارْتسمتْ على وجهِه ابتسامةٌ وهو يملس شعرَ ذقنِه الأبيض.

يوافقون لندخل أحدَ المنازل. فيه ما يشبه غرفةَ النوم - وكرٌ دون نوافذ لا يمكن الدخول إليه دون انحناء الجسم بهيئة القرفصاء أو زحفاً على اليدين والرجلين. بمحاذاة الجدارين المقابلين لبعضهما لفتَ نظري شيءٌ يشبه السلَّمَ المُغطّى بقطعة قماشٍ، تبيَّن أنّها أسرَّةُ النوم. على الجدار عُلّقت صورةٌ عائلية - وهي فقط تشهد أنّنا في القرن العشرين - إذنْ لا يخلو هذا البيتُ من أحدِ العناصر الحضارية.

في الفناء الذي وجدته مليئا بالأوساخ وقعتْ عيني على امرأتيْن ـ الأصغر سنًا مشغولةٌ بخياطة رداءٍ، أما الأكبرُ فكانت تعْجن عجيناً. الماعز مخلوط بالدواجن، ولكن هل حياةُ الإنسان هنا تختلف بأيِّ شيءٍ عن ظروف معيشة الحيوانات؟.

ربّما تختلف؟ نعم تختلف! ونحن خارجون التقينا فجأةً بمجموعةٍ من الناس، بينهم شابٌّ طويل وقويُّ البنية، لوْنُ شعْرِهِ خمريّ، ينظر ببشاشةٍ إلى فتاةٍ مغطاة برداءٍ شفّافٍ ـ تبيَّن أنَّ هذه المجموعة تشكِّل موكبَ عرس.

نستمرُّ في جولتنا القرويّة ونتّجه إلى مكانٍ كان ينبعث منه صوتُ نواحٍ وبكاء مع صراخٍ وعويل ـ شاهدنا نساءً باكياتٍ حزينات بسبب وفاة قريبٍ.

نغادر القرية بنفوس مكسورة ومُثقلين بانطباعاتٍ كئيبة. كمْ صعبٌ أنْ تدرك أنَّ في هذه الظروف الرهيبة يولَدُ الإنسان، فيها يعيشُ ويحبُّ وفيها بالحسرات يموتُ. . .

رديءٌ وعسيرٌ وشاقٌّ هو هذا الغيتو الأفريقي. يختلف عن القرى العربية المجاورة بعمقِ فقْرِهِ وقلَّةِ العناصر الحضارية فيه. إنَّه نوعٌ مِنَ المجتمع المنبوذ أو المتفسِّخ ـ علامةٌ من علامات التحدّي والانتهاك والإساءة لكلِّ ما نعرفه عَنِ الثقافة والمبادرة الحسنة والرغبة الدافعة للإنسان نحو التقدم ودوماً إلى الأمام.

نعبر مقبرةً. فوق بعض القبور العائدةِ على ما يبدو للأغنياءِ نجد ألواحاً حُفرت فيها حمامةٌ ماسكةٌ بمنقارها غصنَ زيتونٍ مع كتابةٍ باللغة العبْرية. بجانب المقبرةِ نلمحُ حقلاً صغيرا وهزيلا مزروعا بالشعير هو ملكٌ لكلِّ سكان القرية.

نصل الطريق العام. يلمع إسْفَلْتُهُ بريقاً. جَعَلَنا هذا المنظر نشعرَ بالواقع المرِّ المؤلم وَبِهَوْلِ الفقْر المدقع والعوز الهائل وبالحزنِ المخيف وفقدانِ تباشيرِ الأمل في حياة القرويين اليهود الذين فارقنا حيَّهم قبل لحظةٍ.

نأخذ درّاجاتنا ونسوق إلى الأمام وسط الجنائن المزروعة بشجيرات العنب وشتلات الزيتون. بعد أنْ قطعنا مسافةً قصيرة نرى الحقولَ المزروعة تمتدُّ فقط

بمحاذاة الجانب الأيسر من الطريق العام، بينما في الجهة اليمنى منه فالأرض قد تحوَّلت إلى سهلٍ خالٍ من الأشجار مليءٍ بالروابي، لا يوجد فيه شيءٌ أخضر عدا ما ندر منْ زنابق السوسن المغطاة بورودٍ لونها أرجوانيٌّ فاتح.

بعد فترة قصيرة نعبر مناجمَ الملح الواقعة بقرب محلّةٍ سكنية تُدعى ملاّحة ـ هضباتُ الملح تلمع في الشمس وتشعُّ بلونها الأبيض.

بقيتْ أمامنا ساعة من الضَّغط على دوَّاساتِ الدرّاجة، نرتاح بين الفينة والأخرى بسبب «وَرَمٍ في أرجل «سرمان» التي بصعوبة تجرّها خلفَها. ها نحن ندخل واحةً غنية اسمها تاجوراء. تُعطي المياهُ الجوفية هنا الحياةَ لآلافٍ مؤلفة من أشجار النخيل العظيمة».

نصبَ البدو خيامَهم بين الأشجار. قَدِم أبناء الصحراء هؤلاءِ ليأخذوا كمياتِ التمور التي تعاقدوا عليها من قبلُ. اشتروها مِن أصحاب أشجار النخيل. وبعد إتمام الصَّفْقة سيغادرون هذا المكان الأخضر ليلتحقوا بِرِمالهم وصخورهم الواقعة في قلب الصحراء، ثمَّة لمْ يصلْ بعدُ الشعور بِالْيَدِ القاسية للإنسان الأوروبي.

أمامنا قريةٌ. في وسطها ساحةٌ واسعة بُني فيها مسجدٌ أبيض اللون مع مدفنٍ بقبّةٍ صغيرةٍ بيضاء لأحَدِ السادة المحمَّديين، أيْ ما يسمى «مرابط». بضعة دكاكين مع مدرسة رسمية.

تمتدُّ حول الساحة أزقّةٌ ملتوية وسط أسوارٍ بيض أو جدرانٍ عريضة تشبه السدودَ الترابية المحاطة بسياجٍ من نبات الصبّار، وخلفها في العمْق تقع الأحواش والأبنية السكنية والحظائر.

نجد عربيّيْن يقومان بتسييج مساحةٍ صغيرة من الأرض. يرفع الأوّل كتلَ الطّين الرّملي من حفرةٍ عميقة ويضعها فوق السد، أما الثاني فيدكّها بالرَّفْش. وما تبقى تُكمله أشعة الشمس التي تحت تأثيرها سيجفُّ السدُّ وستنمو بكثافة الشتلات الصغيرة للصبّار المزروعة في قمّته.

الظلُّ الذي تلقيه سُعُفُ شجر البلح يحمي حدائقَ الخضروات والمساحاتِ الصغيرةَ المزروعة بالشعير من أشعة الشمس المُحْرقة، لهذا تعطي هذه النباتات مردوداً عالياً. هذا، وقد تمَّ جمعُ الغلال من بعض الحقول وتُحضَّر الآن لاستقبال بذارٍ جديد. ويقوم العرب بفلاحة الأرض بواسطة سكّة خشبية بدائية تجرُّها بقرةٌ أو ناقة.

تتراءى في أمكنة كثيرة آبارٌ بُنِيت فوق أفواهها أسوارٌ جدارية بلون أبيض لتسهيل عملية سحب الماء.

ندخل إلى المسجد الموجود في الساحة. جوفُه مُعْتِمٌ كالغسق ويخلو من عناصر الزخرفة، أما أرضيَّته فمغطاةٌ بالسجادات التي يُمنع المشيُ عليها بالأحذية المُغَبَّرة من طرقاتِ هذا العالم المليء بالذنوب والخطايا. قاعةٌ ضخمةُ الأبعاد مُضاءةٌ بواسطة نور يدخلها من النوافذ الصغيرة الشبيهة بفتحات الرمي في جدران الأبنية المحصَّنة. وقد ارتكزت هذه القاعة على اثنين وأربعين عموداً من المرمر بمختلف الطُّرز والأشكال المعمارية سُرقت من لبتيس ماجنه ـ المرفأِ الروماني الذي كان في أيام حكم سبتيميوس سفر[1] يلعب دوراً عظيم الشأن، وهو يبعد من هنا عشرات الكيلومترات باتجاه الشرق. بمحاذاة أحد الجدران يقع سلّمٌ من الدَّرَج الموجَّه نحو مكة يُستخدم خلال الطقوس الدينية من قِبَل رَجُلِ الدين لتلاوة آياتٍ مقدسة من القرآن.

---

(١) Lucius Septimus Severus أمبراطور روماني في السنوات ١٩٣ ـ ٢١١ بعد الميلاد. ولد سنة ١٤٦ في لبتيس ماجنا. بعد وفاة زوجته الأولى (سنة ١٨٧) تزوج من أميرة سورية الأصل اسمها يوليا دومنا. ولد لهم إبنان: Marcus Aurelius Antonius Bassianus (سنة ١٨٨) و Lucius Publius Septimus Antonius Geta (سنة ١٨٩). في السنوات ١٩٧ ـ ١٩٩ خاض حربا ناجحة ضد الفرس وضم إلى الأمبراطورية الرومانية مقاطعة شرقية جديدة «ميزوبوتاميا» «مابين النهرين». توفي خلال حملة عسكرية ضد بريطانيا. بعد موته تربع على العرش إبنه الصغير (Geta) لمدة سنة واحدة، علما أنه كان يدير الأمبراطورية مع أخيه، إلا أن أخاه (الذي كان يلقب بـ Karakalla قتله وتفرّد بالحكم وحده من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٧.

لهيَ حقاً ظاهرةٌ اجتماعية فريدة تلك المدرسة الابتدائية الرسمية التي أنشأها الاستعماريون هنا.

ندخل بناية بيضاء مرتّبة، جميلة. فوق الباب الخارجي قد عُلِّقت جملةٌ بحروف سوداء كبيرة، هذا نصها: L, Italia e il piu grande popolo del mondo ـ (إيطاليا بلدُ أكبرِ شعبٍ في العالم). كي لا أزعج صديقي مارسيلو أَغْلق فمي الذي كاد يتطاير منه بصورة عفوية سيلٌ من الكلماتِ المزعجة التي راحت تتزاحم بقوّةٍ دافعة على لِساني، لأبرهنَ له خطأَ اعتقادِه. الأفضلِ أنْ أحتفظ صامتاً بفحوى هذه العبارة لنفسي، محاولاً هضم المقولة عن العقعق[1].

داخل المدرسة يلتقي بنا المدرِّس وهو شابٌّ نحيف القامة. يرافقنا إلى إحدى قاعات الدرس. يقف التلاميذ، يمدُّون أياديهم ويرحِّبون بنا "romananamente" ، وبعدها يعطيهم المعلِّم الإشارة بالجلوس.

زُيِّنت الجدران بالخرائط والرسوماتِ التي تمثِّل مختلفَ الحيوانات والنباتات. في صدر القاعة عُلِّقت صورتان، إحداهما لِلْمَلِكِ[2] والثانية لموسوليني بكتابة ضخمة:

La vostra vita per l'Italia.
La vostra fedelta per il Re.
Il vostro cuore per il Duce.

(حياتكم لإيطاليا، الإخلاص لِلْمَلِكِ، القلب للقائد)

تستمر الدورة في المدرسة أربعَ سنواتٍ وتلاميذ كل صفٍّ يداومون يوميا ست ساعات. الصفوف خليطٌ من الطليان وأولاد السكان الأصليين. معاً يدرسون كلَّ المواد، عدا مادَّتَيْ الديانة والتاريخ.

---

(١) غراب أبقع طويل الذيل، يشبَّه به الإنسان الذي يثرثر كثيرا بصوتٍ عال.
(٢) هو فكتور عمانوئيل الثالث الذي كتبنا عنه في الحاشية الرابعة من الفصل السابق.

نعم، قلتُ مادة التاريخ! إذ لا يرتاح السكان الأصليون لسماع أخبار عن جاريبالدي[1]،

---

(١) Giuseppe Garibaldi (١٨٠٧، فرنسا ـ ١٨٨٢، إيطاليا). تستحق هذه الشخصية الفذة لنكرس لها بعض السطور. إيطالي المنشأ ومن ثوار القرن التاسع عشر من الطراز الأول وأشهرهم على النطاق العالمي، حارب حتى تحرير إيطاليا من السيطرة النمساوية وتوحيد كافة أجزائها وناضل من أجل حقوق الضعفاء. غدا أسطورة وهو على قيد الحياة وبطلا بلا منازع. ينحدر من أسرة ذات تقاليد عريقة في الملاحة البحرية، المهنة التي زاولها بدايةً خلال تسع سنوات مستمرة ثم في فترات متقطعة. أَحبَّ البحر والحرية أكثر من نفسه. أول رحلة له لروما كانت برفقة والده في آذار/ ماري (الربيع) سنة ١٨٢٥ على متن باخرتهما حيث شاهد احتفالات «السنة البابوية» وتركت في نفسه أثرا مرا. في سنة ١٨٢٧ أبحر إلى اليونان وفي الطريق سطا القراصنة على باخرته وسرقوا محتوياتها ثم أصيب بمرض وعولج في اسطنبول وبقي فيها أربع سنوات تعلم خلالها اليونانية وأحب الثقافة والموسيقة اليونانيتين وغدا من سعاة تحرير اليونان من الهيمنة التركية. أول ثورة قام بها سنة ١٨٣٣ في أيطاليا لم تتكلل بالنجاح فحُكم عليه بالإعدام ولجأ على إثرها إلى تونس ومنها سافر إلى أمريكا الجنوبية حيث شارك في ثورة تحرير البرازيل ثم انتقل إلى الأورغواي وتزوج وأصبح القائد الأعلى للملاحة وانضم إليه العديد من الطليان المقيمين هناك مشكلين تنظيما رايته سوداء في وسطها بركان ـ رمز إيطاليا المحتلة التي سينفجر فيها بركان الاستقلال وقرروا لبس قمصاناً حمراً. وشارك هؤلاء بنجاح في المعارك ضد كل من ملك الأرجنتين وملك الأورغواي الدكتاتوريَين. إلا أن همّ غاريبالدي كانت إيطاليا. عندما سمع باندلاع الثورة في بالرمو بصقلية قرر العودة على رأس ٣٨ من الثوار أصحاب القمصان الحمر حيث رحب بهم السكان كأبطال قوميين. زار الملك الإيطالي الذي كان يحارب النمساويين واقترح دعمه، إلا أن الملك رفض وخسر المعارك في ٢٧/ ٧/ ١٨٤٨. قارع غاريبالدي النمساويين في عدة أمكنة محرزا نجاحا باهرا ومكتسبا شهرة عالية. بعد انتفاضة سكان روما عاد إليها وانضم إليه العديد من الثوار والمعتدلين من كل أوروبا. إلا أن الإمدادات العسكرية الفرنسية التي أرسلها نابليون للدفاع عن الصرح البابوي أخمدت الثورة وأصبح غاريبالدي مطلوبا «للعدالة» من قبل الفرنسيين والنمساويين والاسبان. فهرب إلى البندقية المدافعة ضد النمساويين. خلال الرحلة المتعبة توفيت زوجته ولجأت مجموعته البالغة ٢٥٠ رجلا إلى سان مارينو، إلا أن السلطات منعته فسافر إلى طنجة ومنها إلى الولايات المتحدة. عمل أولا في معمل الشموع ثم ملاحا وفي سنة ١٨٦٠ عندما اندلعت الحرب الثانية ضد النمساويين أسرع بتنظيم حملة أسماها «حملة الألف» لإعادة صقلية بشطريها إلى إيطاليا. في ١٠/ ٥/ ١٨٦٠ رست باخرتهم في ماسيني وعلى متنها ١٠٨٧ ثائرا. حالا تحركوا إلى بالرمو. في الطريق انضمت إليهم مجموعات كبيرة من الثوار ووصل عددهم إلى العشرين ألف. بعد تحرير ماسيني في تموز ١٨٦٠ توجه إلى كالابريا وهناك االتقت قواته مع قولت الملك فيكتور عمانوئيل. صافح غاريبالدي الملك وأعلنه ملكا على إيطاليا الموحدة. كان هذا أكبر انتصار، إذ تحققت وحدة وطنه، عدا مدينة البندقية التي بقيت تحت سيطرة=

أو ماززيني[1] وغيرهما من المناضلين من أجل الحرية. محاولة إثارة الروح الشريرة بعد أنْ استسلمت للنُّعاس ليس له معنى، وربما - آنياً - اكتفتْ هذه الروح الشريرة بإسدال جفونها على العيون الشرقية المليئة بالألغاز.

يبدو أنَّ المدرسَ يحاول نيل رضانا ويحتاج لعباراتِ المدْح والثناء، فسألَنا فيما إذا كُنَّا نريد فحْصَ أحدِ التلاميذ - نطلب منه بلطفٍ أنْ يقوم بهذا بنفسه.

يتظاهر أنَّه يفطن وبعد لحظةٍ يقع اختيارُه على أحد الجالسين في المقعد الأمامي، ربّما أفضل تلاميذ الصفِّ؟ انطبعت علامات الخجل على وجه الطفل بسبب وجودنا وراح يتلعثم في سرد شعرٍ ما يتغنَّى بالوطنية.

احمرَّ وجهُ المدرِّسِ خجلاً. في هذه الحالة رغبتُ أنْ أُحرِّر التلميذَ من الموقف المُخرِج فشكرْتُه على إلقائه الشعرَ ومباشرة وجَّهتُ سؤالا للمدرس عن الظروف السائدة في المدرسة.

= النمساويين ودولة الفاتيكان التي كانت تتحكم في مدينة روما تحت حماية القوات الفرنسية. خشي الملك فيكتور دخول روما لئلا يثير غضب ملايين الكاثوليك. إلا أن غاريبالدي كان حرا، فتحرك تحت شعار «روما أو الموت» وحررها من حكم البابوات وحصر سلطتهم ضمن الفاتيكان. بعد أن راح غاريبالدي في السنين اختير عضوا في البرلمان الإيطالي ثم أسس حزبا سياسيا ليبراليا وسن قانون الانتخابات العامة وأسس جيشا نظاميا. قبل أن يفارق الحياة طلب نقل سريره قرب البحر ليودعه وألحّ أن تكون مراسيم وداعه متواضعة. رغبته الأولى تحققت أما الثانية فلم تتحقق. بكته إيطاليا كلها. خلال الحرب العالمية الثانية حملت إسمه خمس بواخر حربية. ومن مآثره نذكر عرض خدماته على أبراهام لينكولن خلال الحرب التوحيدية الأمريكية سنة ١٨٦١ فقبل بها الرئيس ومنحه رتبة جنرال. إلا أن غاريبالدي غيّر فكره ووضع شرطين لتحقيق وعده: إلغاء نظام العبودية في أمريكا وتعيينه قائدا عاما للجيش. رفض الملك الطلبَيْن. وتجدر الإشارة كذلك بأن أولاد غاريبالدي قارعوا الأتراك إلى جانب اليونان في جزيرة كريتا. تماثيل غاريبالدي تزيّن العديد من المدن الإيطاليه.

(١) Giuiseppe Mazzini (١٨٠٥ ـ ١٨٧٢). صحفي ومناضل ديمقراطي ومحارب من أجل «أوروبا الشعوب» وليس «أوروبا الملوك». في نيسان ١٨٣٣ وصل غاريبالدي إلى مدينة تاغانروغ الروسية على بحر قزوين على متن باخرة محمّلة برتقالا. وهناك التقى بلاجئ سياسي إيطالي عضو في تنظيم سرّي «إيطاليا الفتاة» أسسه ماززيني سنة ١٨٣٣. وشاءت الظروف أن يتعرّف غاريبالدي على ماززيني في فيينا ثم شاركا معا في النضال. الفرق بين استراتيجيتهما: الأول كان ينشد تحرير وتوحيد إيطاليا، بينما الثاني كان هدفه الإطاحة بالحكم الملكي.

سمعتُ أنَّ إنهاءَ هذه المرحلة الدراسية إلزاميٌّ فقط للتلاميذ الإيطاليين وليس إلزاميا لأولاد السكان الأصليين، بأنَّ أولاد العائلات الفقيرة يدرسون مجاناً ويحصلون على وجبة غداءٍ في المدرسة، بأنَّ هذه التكاليف تغطّيها لجنة إحسانٍ مقرُّها طرابلس.

المدارس الرسمية والابتدائية كالتي نحن فيها موجودةٌ في كلِّ مكانٍ فيه تجمّعٍ سكانيّ كبير، حتى البعيدة بمئات الكيلومترات عن البحر الأبيض المتوسط. العرب يقدّرون العلوم كثيرا ويرغبون في إرسال أولادهم إلى المدارس.

كَمْ هو عملٌ بطولي وصامتٌ ما يقوم به المدرِّسون في هذه الربوع البعيدة عن البلد الأم وعن مستلزمات الحضارة. في هذه الظروف الصعبة يقودون لِوَحْدهم نضالاً شاقّاً ضد شيطان الأمّية، متبرِّعين بطاقاتهم الفتيّة لقضيّة حَمْلِ ونَقْلِ ثقافتِهم الوطنية إلى أقصى حدود اليابسة الأفريقية السوداء.

ستبقى أسماؤهم مجهولةً. إذ تزخر المدن الإيطالية بمئاتِ النصب التذكارية التي خُلِّدت عليها أسماءُ الجنرالات العسكريين والشعراء ورجال السياسة، ولكن هل توجد لوحةٌ واحدة صغيرة مكرَّسةٌ للذين يعملون على إعلاء شأن الحَرْفِ ويزرعون العِلْمَ في الرمال الصحراوية وسط أجواءٍ مُفْعَمة بشراك الحمّى ووهج الشمس المحرقة التي تمصُّ ما فيهم من فَتاءٍ وحيوية؟

نودّع المدرِّسَ الشاب الذي عندما عَلِم أنني بولنديٌّ وجّه لي سؤالا لم أتوقّعه، هل "il maresciallo Pilsuski" سيسافر في هذه السنة إلى مصر مرة أخرى[1]؟

نغادر الواحةَ. يقلُّ عدد أشجار النخيل تدريجيا، ولكن يكبر طولاً وعرضاً

---

(١) JÓzef Piłsudski (١٨٦٧ ـ ١٩٣٥). ناشط من أجل تحرير بولندا، قائد عسكر ورجل سياسة. كان رئيس دولة بولندا (١٩١٨ ـ ١٩٢٢) والقائد العام للجيش (من ١١/ ١١/ ١٩١٨) ورئيسا للوزراء (١٩٢٦ ـ ١٩٢٨، ١٩٣٠). بعد إنهائه للمدرسة الثانوية التحق بكلية الطب بجامعة خاركوف وفيها بدأ نشاطه السري، اعتقل وأرسل إلى معسكر إيركوتسك في قلب روسيا حيث قضى ثلاث سنوات. ثم عادَ إلى فيلنيوس سنة ١٨٩٢. وهناك انتسب إلى حركة الاشتراكيين. في سنة ١٨٩٤ اختير رئيس تحرير مجلة «العامل». وفي ١٨٩٦ شارك في المؤتمر الرابع للمنظمة=

حجم قطعان الأغنام التي نلقاها في طريقنا.

بصعوبة نزحف على دربٍ فرعيٍّ أرضيته مرصوفة بالحجارة. في إحدى اللحظات انتصبت أمام عيونِنا بئر مهجورة محاطة بمقبرة إيطالية. عندما اندلعت الانتفاضة في كل الأراضي الليبية في سنوات الحرب أُلقيَ في هذا البئر حوالي خمسة عشر جنديا إيطاليا، ماتوا فيها جوعا. وبعد إخماد الثورة تم إخراجُ أشلاء التُّعساء ودُفِنت بالقرب، حيث زُرعت ورودُ السوسن التي تُرطِّب جوَّ الراقدين بعبيرها الفواح وتزقزق لهم القُبَّراتُ كما في وطنهم العَسَليّ البعيد.

نميل من جديدٍ نحو الطريق العام العريض، المريح. تنمو على جانبيه أشجار الكافور. بدأتْ «سرمان» تعْرج وتترك بعد كلّ خطوةٍ آثارَ دمٍ على الطريق. فنزلنا نفحص قوائِمها الأماميتين. وجدنا في إحداها جرحاً عميقا أُصيبتْ به على إثْر مرورها على قطعةِ زجاج حادَّةٍ.

يلقي مارسيلو حبيبتَه على كتفه كما اعتاد أن يفعل هنا الجزّارون؛ بنفس الطريقة يحملون العجْلَ المذبوحَ أو النعجةَ المذبوحة. يسوق مارسيلو درّاجتَه ببطءٍ ممسكاً المِقْود بإحدى يديه وكلبتَه باليد الثانية.

نعبرُ حقولاً واسعة تابعة لسجنٍ معروف بسبب نظامه القاسي باسم «شديدة»، لهذا أُحيطت الحقولُ بأسلاكٍ شائكة. يُساق إليه السجناء الذين يُحكَم عليهم عادةً بالأعمال الزراعية، فتجدهم بتضحيةٍ عالية يخدمون هذه الأراضي التي تبادلهم بالمثل فيما تعطيه مِن غلالٍ وافرة.

كمْ هو حكيمٌ وسليمٌ هذا الأسلوب الذي يهدف إلى الاستفادة من اليد العاملة الضرورية لمحاربة التصحّر.

وأخيرا وصلنا طرابلس حوالي الساعة السادسة مساءً، جائعين، منهكين، مُثقَلين بالغبار، بعد أنْ قطعْنا على الدرّاجات مسافةً تتعدى الستين كيلومترا.

= العالمية للأحزاب الاشتراكية في لندن. أسس عدة تنظيمات مسلحة وقاد العديد من الحملات ضد مراكز الجيش الروسي حتى تسنى له تحرير بولندا.

[6]

غريان «سكان الكهوف»

خلال يومين كاملين كانت تهبُّ من الصحراء بعنادٍ رياحٌ عاتية تُعرَف باسم «قبلي» حاملةً سحابات من الرمال وزفيرَ الصحراء الساخن.

عندما استيقظنا في السادسة صباحاً على هدير محرّكِ سيارةِ صديقِنا التي وقفتْ عند الباب بالموعد المحدد، كان الرَّمل ما يزال يرتفع في الهواء، ممّا زاد من احمرار عيوننا.

اتجاهنا هو إحدى الهضبات التي تُدعى «الجبل»، وبالتحديد: مدينةٌ تُسمّى غريان، واقعة على بعد مائة كيلومترٍ من طرابلس جنوباً.

تُدمدم السيارة المتعَبة طويلاً، وأخيراً تتحرّك بصعوبةٍ وثقلٍ. بعد فترة تركنا المدينة خلفَنا. الاتفاق مع صديقنا صاحبِ السيارة كان كالتالي: السيارة من عنده والوقود على حسابنا.

نعبُرُ أولاً مستعمراتٍ زاهرةً ومثمرة ثم حقولاً واسعةً ينمو فيها الحمّص الذهبيّ اللون في أرضٍ رملية صافية. نعاين أبنيةً في طور البناء وحدائقَ حديثةَ العهدِ لأصحاب الامتيازات، وأخيراً نتوغّل عميقاً في سهب لونه رمادي مائل نحو الخضرة.

نمرّ عبر واحةِ العزيزية ومنها بدأت تتغير طبوغرافية الأرض، مكتسبةً شكلاً تموّجيا. تتكاثر أعداد الحجارة على الطريق.

في هذه الصحراء العارية ترتفع من على سطح الأرض تلالٌ مخروطية رملية المنشأ. على قمّة كل منها تنمو نباتاتٌ قصيرة وشجيرات قَزَميه، في بحثها عن مياه الحياة تغرز في الأرض جذوراً عميقة جدا وتزحف بفروعها المتعددة على الرمال لتتشبث بها ولتقاوم الرمال التي تذرّيها الرياح دون انقطاع. هذه الشجيراتُ تريد الحياةَ، فتراها تتوجَّه نحو الشمس لتنمو لها جذورٌ جديدة تمدّها في الأرض شاقوليا وأغصانٌ جانبية تفرشها على الرمال. وليس لهذا الصراع نهاية، يحدّد تاريخَ هذه المرتفعات الخضراء التي تقاوم عوامل الطبيعة القاسية السائدة في هذا القفر الموحش والسهب الحزين.

ترتسم أمامنا وتزداد وضوحاً أطرافُ الجبل الممزَّقةُ. نقترب منها بعد أنْ عبَرنا منبعاً للماء محاطاً بأشجار النخيل، وهكذا تصعد بنا السيارة فوق المرتفع ببطءٍ.

سطوحٌ جبلية شبه عمودية في ارتفاعها تآكلتْ بسبب الرياح الشمالية. تزحف سيارتنا بصعوبة كبيرة إلى الأعلى عبْر طريق ملتوية، تلفُّ يميناً ويساراً على أكواع حادة. نجتاز باستمرار قوافل من الجِمال المحمَّلة، نلتقى بها نازلةً من القمم.

وصلنا أخيرا إلى القمّة. أمام عيوننا منظر خلاّب يمتد على مسافة واسعة تنتهي عند شاطىء البحر اللازوردي المنفصل بخطٍّ واضح عن الرمال الصفراء والواحات الساحلية الخضراء.

بعد استراحة قصيرة ننزل من على قمة الجبل، وإذا بنا قد تواجدنا فوق سهلٍ واسع مرتفع يدعى غريان هو أخصب جزءٍ في تريبوليتانيا. يقع مركزه في بلدة تحمل نفس الاسم، أيْ غريان.

تمتاز الأرض هنا بسطحها المتموّج. لونُ تربتها يميل إلى الاحمرار. هي مزروعة بالشعير وتزيّنها أشجار الزيتون المعمِّرة ذوات الجذوع الغليظة والتيجان الكثيفة المنتشرة هنا وهناك بأعداد فردية. وكم تذكّرني هذه الربوع بصوَرِ المناظر الطبيعية التي في صقلية.

تبدو للعيان هنا وهناك فوق الروابي أنقاضُ بعض البروج الرومانية القديمة ـ هل حاول أيُّ إنسان إحصاءَ المسالك التي عبْرها زحفتْ يوماً فيالق القيصر المتصرة!

نجتاز ما يشبه الخربات القليلة الارتفاع، المفلطحة فوق سطح الأرض، شكلها البشع يجعلنا نحكم أنها ليست من بقايا الرومان.

ـ Che cosa? أسأل مارسيلو.

ـ قرية بربرية ـ يجيب.

حقاً، لاحظتُ هنا علامات الحياة: بسرعة تقطع الطريقَ دجاجةٌ وهي تقوقيء، تجمَّعَ الأطفال حول سيارتنا، يتفرَّجون علينا وعليها. بيوتٌ أو بالأحرى صناديقٌ صغيرة من الطين والحجارة شبه مهدّمةٌ وفارغة بالغالب، وفيما ندر منها يعيش الناس. أعاين فوق أحد السطوح رجلا مسنّا يؤدّي فريضة الصلاة، مرة يرفع ذراعيه إلى فوق ومرة يركع ويسجد بخشوع.

تقف سيارتنا فجأة. تبدو على جانبي الطريق المعبّد استحكاماتٌ مربَّعةُ الشكل، نشاهد على مسافة قريبة منها فتحاتٍ بعلوِ الإنسان مرصوصةً بالحجارة وقد كسيت من الأعلى بأغصان مطليَّة بالطين، تشبه إلى حد ما مداخلَ كهوفنا الأرضية (التي في بولندا) حيث تُخزن البطاطا.

ـ إنها بيوت سكان الكهوف ـ يعلّق صاحب السيارة.

نقترب من الأكواخ وننظر إلى تحت. مشهد جميل، ينتابنا شعور كأن ابتعادَنا عن الطريق الإسفلتية بمسافة لا تتعدى العشرين خطوة قد أرْجَعنا عدةَ قرونٍ إلى الوراء.

جفرٌ مربع في الأرض يبلغ طوله ثمانية أمتار، يساوي عمقه ارتفاع طابقين تقريبا. تتقاطع جدرانه بزاوية مستقيمة، الدخول إليه يتم عن طريق فتحات محفورة عند قاعدته، تؤدي بدورها إلى كهوف عميقة محفورة في القعر الطيني. تُستخدم الكهوف كمساكن للإنسان والحيوان أو كمخزن للمواد

الغذائية ولأغراض أخرى. على بعض الفتحات أُسْدِلت ستائر من الأقمشة أو تمَّت تغطيتها بأغصان الأشجار.

- علي! يا علي!

يخرج من الجفر على إثر ندائنا رجلٌ من أتباع محمد، بشاربين طويلين ولحيةٍ.

رفض في البداية الموافقة على طلَبِنا لإلقاء ولو نظرةٍ خاطفة على مسْكنه، ولكن بعد أنْ سمع الرنين الخافت الساحر لعملة نقدية معدنية بقيمة ليرتين حالا خرج من كُوخِه ليمثل أمامنا واقفا عند المدخل ومشيرا بيده لنتبعه.

ننزل إلى الجفر عبْر دهليز ضيق، معتم، ملتوٍ. تؤدي إلى تحت درجات شديدة الانحدار بأطوال مختلفة، محفورة في الأرض. أَدْخلَ شكلها الارتباكَ في نفوسنا. تبدو كأنها ستنهار قريبا. فما كان علينا إلا أنْ نسند أجسامَنا إلى الجدار لنتمكن من الانحناء اللازم، لئلا يُضرب رأسنا في سقف هذا المعبر الجوفي.

يزداد الضوء، نسمع بعد لحظة شخيرا منبعثا من تحت. نجتاز حُجرةً تربَّعت فيها ثلاثة جِمالٍ، والغريب في الأمر أنَّ هذه الحيوانات كذلك قد أُرغمت على القيام برحلةٍ متعبة فوق السلّم الدرجي عند كلِّ دخول وخروج. يمدّ أحد الجِمال رأسه خلفنا، يحدقُ في عدسة جهاز التصوير بنظرات ملؤها الارتياب.

أرى عصويْن مغروزتيْن في فناء البيت يربط بينهما حبلٌ عُلِّقت عليه برانس فضفاضة من الصوف وألبسة نسائية ملوَّنة كي تجف ببطءٍ. أما في وسط الفناء فتوجد حفرة سطحها مغطى بتراب خاص مخلوط بالملح، تُستخدم كمرحاض.

مجموعة من الأطفال ينظرون إلينا باستغراب، ربما يتساءلون: مِنْ أين قَدِم هؤلاء الضيوف؟ بينما لا أعاين هنا ولا امرأة واحدة، لا يحقّ لعين الكافر أنْ تنتهك بنظراتها البذيئة الحرماتِ المقدسة للمسْلم الصالح في إيمانه.

نريد أنْ نشاهد كهفا مسكوناً، ولكن للأسف، قام صاحب البيت بإخفاء نسائه في مكانٍ ما، بعيداتٍ عن العيون.

ـ يا علي، قلْ للنساء ليقمنَ بتغطية أنفسهنَّ جيدا وينتقلْنَ إلى مكان آخر كي نتمكن مشاهدة حُجرتك.

يفطن العربي هنيهة وأخيرا يطلق من أعماق الحلق صيحةً بصيغة الأمر، وما هي إلا لحظات حتى يُفتح الباب الصغير المصنوع من السَّعَفِ. تخرج منه هيئتان بشريتان تمثلان الجنس اللطيف، مغطّاتين منْ أخمص القدم حتى الرأس ويختفيان في حظيرة الجِمال بسرعة الصاعقة.

مظلومةٌ هي المرأة العربية. ينظرُ إليها المحيط منذ سنوات الطفولة كمخلوق أدنى. ترى الصبْيان هنا سريعين في الحركة، مليئين بالنشاط والثقة بالنفس، أما البنات فصامتاتٌ عادةً، خائفات، مرتبكات أحياناً. غالبا يُحكم على الفتاة التي يصل عمرها إلى اثنتي عشرة سنة بالحياة الزوجية أو بالأحرى تُباع لمَنْ يريد أنْ يتزوَّجها. وتغدو بعد زواجها شبيهةً بالآلة المحبوسة، مهمَّتُها الأولى إنجابُ الأطفال والقيام بأثقل الأعمال البيتية.

نوقد عودَ كبريتٍ. نحني هاماتنا وأجسامنا وندخل إلى الخليّة التي خرجت منها تانك الامرأتان. نرى في وسط الحجرة موقدا صغيرا عُلّق فوقه إناءُ ماءٍ مثبَّتٌ على منصب ثلاثي القوائم. نشاهد في إحدى الزوايا قِطَعاً من فرش النوم مطروحةً على الأرض. أما عند قاعدة الجدار فقد غُرزت عيدانٌ عُلِّقت عليها أواني الطهي، مقلوبةٌ فوهتها إلى تحت ـ هذا كل الأثاث الذي يزيّن البيت. ملأ الدخان أرجاءَ الغرفة، إنَّه يَخِزُ في الحلق ويعصر الدموع من العيون ويُجبرنا بالتالي على الخروج من الجحر بسرعةٍ.

نخرج إلى فوق الأرض عبْر نفسِ الطريق، نغادر المكان لنُغطس أنفسنا في مأزق مماثل يقودنا إلى مِعْصَرَةِ زيتون موجودة هي الأخرى تحت الأرض.

مع دوران الجَمَل حول الجهاز تدور كذلك الطاحونة التي تهرس الزيتون

المفروش على أرضية المرجل. أما اللب المتبقي بعد عصر الزيتون فيتم رفعه بين فترة وأخرى من قبل العمال المشرفين (من السكان المحليين) باستخدام ضوء السراج. يطفئ العمال السراج بعد هذه العملية مباشرة، يعتقدون أنَّ الجَمَل الذي يدور حول المرجل باستمرار لا يطيق الضوء بتاتا، لهذا يجب أن يخيّم الظلام الكامل، وإلا فسيموت الحيوان لا محالة بعد بضعة أيام.

يتم عَصْرُ الزيتون يدويا في حُجرة أخرى على مقربة من هذا المكان دون استخدام الطاقة الحيوانية. يتكون الجهاز من عمود خشبي كبير مربوط إلى محور أفقي. في نهاية الذراع القصير للعمود غُرِزت حَجَرةٌ أسطوانية ثقيلة، بينما قد رُبِط في الذراع الطويل حَبْلٌ معلّق في السقف بواسطة بَكَرَةٍ يمرّ من فوقها. جَرُّ الحبل باليد يحرِّك العمود بحركات نواسية، وهذا بدوره يدفع الأسطوانة الحَجرية لتضغط بقوة على الأكياس المليئة بالزيتون، الموجودة في حوض آجري قليل العلو.

يوجَّه الزيت المستخرج في كلتا المعصرتين إلى مزاريب خشبية عن طريق فوهات موجودة في القعر، يسيل فيها ثم يصبُّ في أحواض مليئة بالماء، واقعة في حُجْرة ثالثة مستواها تحت مستوى الحجرتين اللتين فيهما تتم عملية العصْر. يتجمَّع الزيت فوق سطح الماء ثم يُفرغ في الأواني والأباريق.

نستمر في جولتنا. على طول طريقنا نجتاز خرباتٍ منها تتكون القرى البربرية والاستحكامات الطينية الصفراء، أيْ المساكن الواقعة تحت الأرض التابعة للعرب، أو بالأحرى للبربر «المُسْتَعْرَبين»، وقد سبق لي أنْ دخلتها من قبلُ. تقودنا الطريق في إحدى الأمكنة إلى قطيعٍ كبير من الأغنام السمينة الكثيرة الدهن، تزحف بكبرياء فوق السطح الإسفلتي. بعد اقترابنا أطلقت ثغاءً جماعيا عاليا ثم توزعت على جانبي الطريق بسرعة.

نصل أخيرا إلى بلدة غريان، نقف فيها عند فندق كبير يحمل اسم «الجبل». ندخل قاعة المطعم التي بدت نظيفة جدا وكثيرة الأضواء. نحجز طاولة مفروشة

يرفع العصا التي بيده، يُسند إحدى نهايتيها إلى كتفه ويقبض عليها بكلتا يديه كأنه ماسك بارودة حقيقية، وبالتالي يوجّه العصا نحو العملة متظاهرا بأنه يريد إصابة الهدف. بعد كل هذا يطلق صوتا عاليا شبيها بصوت الطلقة النارية. أخيرا يلقي نفسه على العملة النقدية ويبلعها بسرعة.

تلذّذنا بهذا المشهد. رغبةً منّا في التأكّد هل فعلا قد بلَعَ تلك العملة أمْ أخفاها تحت لسانه، نلقي على الأرض بضعَ عملات أخرى. ولأُشبع شوقي أقتربُ منه، أفحص داخل فمه طالبا أنْ يحرّك لسانه ـ لمْ أعثر على أثرٍ لتلك العملات.

ـ كنت شاهدا عندما قام «بوسعدية» بإفراغ حفنة كاملة من العملات من بطنه، عن طريق التقيؤ ـ يصرّح أحدُ الواقفين.

يبدو أنَّ صيدَ الفلوس لا يُتعب هذا المتوسّل نهائيا، ها هو يطلب المزيد منها بدون تردّد.

أَتْعَبَتْنا طلباته المتكررة، المملّة.

!Barra Ali إذهبْ يا علي)[1]!

يختفي «بوسعدية» في السوق القريب، نسير خلفه إلى نفس المكان.

نفاجأ بساحة سوق حقيقية على سفح الجبل تنبعث منها رائحة كريهة وصراخ عال. أغلبية الباعة يهودٌ مرتدين قمصانا بيضاء فضفاضة نازلة على السراويل.

عُلِّقت شرائح اللحم الدامي بشريطٍ على قضيب أفقي رُكِّزت نهايتاه على عمودين مغروزين في الأرض. شاهدنا قطعَ اللحم المعروضة للبيع على الأرض العارية، وسط الغبار والأوساخ. وُضِعت هنا بسبب عدم وجود مكان

---

(١) كلمة «بَرّا» تُستخدم كثيرا في ليبيا والعديد من البولنديين الذين عملوا في ليبيا سألوني عن معناها أكثر من مرة. والغريب في الأمر أن هذه الكلمة المستخدمة كذلك في اللهجات العربية الأخرى أصلها آشوري (سرياني ـ آرامي) بحت (؟؟؟) وتحمل معنى «خارج»، بعكس كلمة جوّا أو «جَوّا» المقتبسة من نفس اللغة (؟؟؟) وتعني «داخل» أو «جوف».

يرفع العصا التي بيده، يُسند إحدى نهايتيها إلى كتفه ويقبض عليها بكلتا يديه كأنه ماسك بارودة حقيقية، وبالتالي يوجّه العصا نحو العملة متظاهرا بأنه يريد إصابة الهدف. بعد كل هذا يطلق صوتا عاليا شبيها بصوت الطلقة النارية. أخيرا يلقي نفسه على العملة النقدية ويبلعها بسرعة.

تلذّذنا بهذا المشهد. رغبةً منّا في التأكّد هل فعلا قد بلَعَ تلك العملة أمْ أخفاها تحت لسانه، نلقي على الأرض بضعَ عملات أخرى. ولأُشبع شوقي أقتربُ منه، أفحص داخل فمه طالبا أنْ يحرّك لسانه ـ لمْ أعثر على أثرٍ لتلك العملات.

ـ كنت شاهدا عندما قام «بوسعدية» بإفراغ حفنة كاملة من العملات من بطنه، عن طريق التقيؤ ـ يصرّح أحدُ الواقفين.

يبدو أنَّ صيدَ الفلوس لا يُتعب هذا المتوسّل نهائيا، ها هو يطلب المزيد منها بدون تردّد.

أَتْعَبَتْنا طلباته المتكررة، المملّة.

Barra Ali! إذهبْ يا علي)[1]!

يختفي «بوسعدية» في السوق القريب، نسير خلفه إلى نفس المكان.

نفاجأ بساحة سوق حقيقية على سفح الجبل تنبعث منها رائحة كريهة وصراخ عال. أغلبية الباعة يهودٌ مرتدين قمصانا بيضاء فضفاضة نازلة على السراويل.

عُلِّقت شرائح اللحم الدامي بشريطٍ على قضيب أفقي رُكِّزت نهايتاه على عمودين مغروزين في الأرض. شاهدنا قطعَ اللحم المعروضة للبيع على الأرض العارية، وسط الغبار والأوساخ. وُضِعت هنا بسبب عدم وجود مكان

---

(١) كلمة «بَرّا» تُستخدم كثيرا في ليبيا والعديد من البولنديين الذين عملوا في ليبيا سألوني عن معناها أكثر من مرة. والغريب في الأمر أن هذه الكلمة المستخدمة كذلك في اللهجات العربية الأخرى أصلها آشوري (سرياني ـ آرامي) بحت (؟؟؟) وتحمل معنى «خارج»، بعكس كلمة جْوّا أو «جَوّا» المقتبسة من نفس اللغة (؟؟؟) وتعني «داخل» أو «جوف».

آخر لتعليقها. نجد إلى جانب الأغنام والماعز أكواما من الخبز. تُجاور أكياسَ التبن ونباتَ الحلفاء المجفَّف جلودٌ طريّة ينقط منها الدم والسائل المصطخب بالدم، كالذي تفرزه القرحة أو الجرح. على مقربة منها أهراماتٌ من الخضروات والفواكه. تجمّعت هنا حشود من العرب والبربر، يقع النظر بين وقت لآخر على هيئة سوداء لسودانيٍّ ما، حفيدِ العبيد من الأزمنة الغابرة. حمير صغيرة واقفة إلى جانب الجِمال الراكعة المحمَّلة بالبضاعة برزانة وكبرياء.

بعد أن تفرَّجنا على السوق نتابع رحلتنا عبر الطريق الإسفلتية. قطعنا مسافة بضعة كيلو مترات، نميل عن الطريق المعبّدة حيث تُجبَر سيارتنا أنْ تؤدي بعض القفزات الخطرة، بفضلها تواجدنا فجأة وسط اليهود «سكان الكهوف»، في قرية تدعى تيغرينه.

تحيط بنا مباشرة مجموعة من الأطفال المشاغبين، يصيحون بأصوات عالية.

لم تمضِ إلا لحظة قصيرة حتى يقبل علينا شاب يهودي رشيق القامة، لابسا قبَّعة على رأسه ومعطفا أوروبيا، يعرض علينا خدماته. يَعِدنا أنَّه مقابل ليرَتين فقط سيكشف لنا أسرار الأقبية السكنية لبني إسرائيل هنا.

الأحواش مليئة بالأوساخ وتبعث الازدراء في النفس. ولكن المساكن لا بأس في نظافتها، لا بل هي أنظف من المساكن العربية. تقع أعيننا في إحدى الساحات على ورشة بدائية للغزل والنسيج، فيها فتاة يهودية جذبت نظرَنا شفتاها الحمراوتان الغليظتان وعيونها السود الكبيرة البراقة. وجدناها تنسج قطعة من القماش الملوّن.

والجديد في القرية هو الإقبال الكبير للنساء على الحديث معنا، طبعاً ليس للمجاملة فقط، بل لبَيْع سجاداتِ الجدار منْ صنعهن. قد تزيَّنتْ كلٌّ منهن بعدد كبير من العقود والسلاسل المعدنية والحلقات ذوات الشكل الهلالي المغروزة في الفم. كان لباسهن بألوان براقة ويتكون من قمصان وغطاءات فضفاضة على الجسم.

نزور معبدا يهوديا تحت الأرض سقفه مرتكزٌ على أعمدة خشبية صغيرة وأرضيته مفروشة بسجادات. لاحظنا في إحدى الزوايا خزانة (دولاب ـ كما يسميها الليبيون) صغيرة بابها مفتوح وفيها بعض الكتب المقدسة: مدرج جلدي طويل ملفوف حول عصوين أفقيين متحركين. يفكّ الرابين أحد المدارج ببطء. نعاين نصَّ كتاب التوراة المخطوطَ بحروف غير مفهومة. ولتحديد صفحة النص المقروء يستعمل الرابين سكينا نحاسية جميلة الزخارف، منحوتة بدقة وبراعة. ننزل إلى كهف آخر محفور في طبقة تحت الأرض أكثر عمقا من السابق. هذا مكان معبد قديم يعود تاريخه إلى أربعمائة سنة خلتْ. يُستخدم الآن كقاعة للدروس. وجدنا فيه مجموعة من الأطفال يقرؤون ويدرسون التلمود.

المشرف على التدريس هو رابين بجسم معقوف وذقن أبيض طويل وعمامة خضراء على رأسه مع نظارات فوق نهاية أنفه. كان ماسكا بيده غُصَيْنا طويلا ليُسكت به، عند الحاجة، الأطفال المشاغبين العنيدين ويشرح لطلابه بتأمل موضوعا عن الأسرار المقدسة. ولا غرو فقد أوصي بهم وبتربيتهم. بإشارة منه يقف التلاميذ لينشدوا مقطوعة أو ترتيلة فكَّرتُ أنها ستكون ذات طابع ديني بحت، ولم أتوقعْ قطُّ بأنَّ موضوع الأنشودة دنيويا. استغربت كثيرا عندما تعالت الأصوات الجميلة في أداء نشيد جيوفينيززه[1]. وكم كان الأداء غريبا باللهجة اليهودية الخاصة.

نخرج فوق الأرض إلى الضوء الطبيعي. تطوف حولنا من جديد النساء

---

(١) Giovinezza ـ النشيد الرسمي للحزب الإيطالي الوطني الفاشي وفي نفس الوقت نشيد الجيش (حتى سنة ١٩٣٠) وكذلك النشيد الوطني الرسمي لإيطاليا في السنوات ١٩٢٤ ـ ١٩٤٣. اللحن كان أصلا لأنشودة تحمل عنوان Commiano (الوداع) ووضعه (سنة ١٩٠٩) Giuseppo Blanca. بينما الكلمات كانت من تأليف Marcello Manni. بعد زحف التنظيم الفاشي على روما (١٩٢٤) طلب موسوليني من Salvator Gotta كتابة كلمات جديدة للنشيد. وبعد استسلام إيطاليا لقوات التحالف (سنة ١٩٤٤) مُنِع النشيد وبقيت إيطاليا دون نشيد وطني لمدة سنتين وأداءه ممنوع حتى تاريخ اليوم.

اليهوديات حاملاتٍ سجاداتهن. يطلبن لقاء كل سجادة مائتي ليرة، يخفضْنَها إلى ثمانين، بدون جدوى. عندما ركبنا السيارة سمعنا سعر أربعين ليرة فقط. لم نشتر ولا قطعة واحدة.

بعد أن انطلقنا من المكان لم نأخذ في الحسبان بأن كارثة ما قد اقتربت بسبب العَطل الذي أصاب السيارة. انهمك صاحبها بتصليحها، أما أنا ومارسيلو فقد قررنا أن نستغل هذه السانحة لتسلية النفس، فرحْنا نلعب لعبة يانصيب العقرب، اللعبة المحبّبة التي يزاولها باستمرار جنود الفيلق الفرنسي للأجانب الذي يخدم في المغرب.

وما ألهَمنا وساعدنا في استغلال الوقت الفارغ بهذه اللعبة كانت الحجارة المرصوفة بقرب الطريق. على اللاعب أنْ يحددَ ـ بالتخمين ـ تحت أية حجرٍ قد يوجد عقرب ما. يقع اختياري على ثلاثة أحجار، أضع على كل منها خمسين سنتيما. خسرتُ مرّتين وربحتُ عند المرّة الثالثة. بعد أن رفستُ برجلي الحَجرة ـ كانت صغيرة ومسطحة ـ خرج من تحتها عقرب صغير بلون أبيض وأصفر.

نجلب من السيارة قليلا من البنزين، نرشُّه على محيط شبه دائرة عريضة حول العقرب، نُشعل النار. يبحث العقرب عن وسيلة ما ليتخلص من هذا المأزق، ولكن ألسنة النار كانت له بالمرصاد أينما توجه ضمن الدائرة. يقف أخيرا في وسط الدائرة، يرفع نهاية جوفه ثم يغرز الإبرة في رأسه. فضَّلَ أنْ يقضي على حياته منتحرا[1].

---

(١) شيء من خفايا ذاكرتي. في ستينات القرن الماضي سألَ المدرّسُ يوما تلاميذ الصف: أي حيوان يتحلى بأعلى شجاعة وأعلى عزة نفس. فكان جوابنا بالإجماع: هو الأسد، يا أستاذ! . إلا أن المدرّس عارضنا والحّ بأنه العقرب. كنتُ آنذاك أعيش في قرية كل بيوتها ترابية (تُدعى قلعة الهادي الشرقية، شمال شرق سوريا، ٣٠ كم عن الحدود العراقية). في أحد أيام الصيف أنا وبعض أترابي أردنا التأكد من صحّة رأي المدرّس، فخرجنا نحو تل قريتنا في سفحه ثقوب كثيرة قيل بأن العقارب تتواجد فيها. سكبنا في أحدها ماء ثم أدخلنا فيه ساق قمح. خوفا من الغرق=

راحت سيارتنا «تعطس» بعد مضي ربع ساعة من السفر. على مقربة منّا تقع قرية عربية. فيها ـ ولأول مرة ـ تمكنتُ أنْ ألتقط بعض الصور للنساء عندما كنَّ يغسلن ألبسة على حافة البئر بوجوه مكشوفة. إنه لانتصار نادر حققتُه. فمعظم الهيئات النسائية التي شاهدتها حتى الآن في الأسواق التجارية كانت بنات مرِحات لكورنث[1]، يرضين بتصويرهن مقابل أجر معين، إنهنَّ زوجات مخلصات وأمهات عائلة.

أتسلق على هضبة وأجلس فوق أنقاض برج روماني قديم. أتفرج على المنطقة المحيطة.

مساحات رمادية مغطاة بشجيرات صغيرة من نبات الأرطماسيا. أعاين أيضا نبات الحلفاء هنا وهناك. ألمح بعض البقع الصفراء على مد البصر ـ حقول البدو المزروعة بالشعير.

يشق البدوي سطح الأرض في هذا السهب الذي ليس ملكا لأحدٍ، يشقُّه بمحراث خشبي مشدود إلى جَمَلٍ ثم يزرعه بالشعير. يقوم بهذه العمليات المُتْعِبة ويغادر المكان متوغلا في عمق صحرائه. وبعد مضي بضعة أشهر يعود ثانية ليجمع السنابل الناضجة ثم يختفي في الرمال من جديد. نمط حياة غريب. الخيمةُ بيتُه، الجمل حصانه ورفيقه الدائم، البرنس كل ما عنده من كسوة فوق جسمه نهارا وتحت جسمه في ساعات النوم ليلا، ثابتة ومحدودة هي أنواع الأطعمة التي يتناولها.

وهكذا يعيش حياة ملؤها العدالة والشجاعة، الأريحية والحرية.

= تعلق العقرب بالساق، وعند سحبه سحبناه. نقلنا العقرب ووضعناه وسط دائرة أعدنا حدودها من القش وأشعلنا النار في القش ثم راقبنا تصرفات العقرب. حاول الخروج من الدائرة، إلا أن النار منعته. وأخيرا تراجع إلى وسط الدائرة، رفع ذيله المنتهي بإبرة ولدغ نفسه في مكان في رأسه. فورا اهتز جسمه ثم توقف عن الحركة. خلاصة الكلام: يبدو أن العديد من ألعاب التسلية واللهو (حتى التي لا تخلو من عناصر المغامرة) تتعدى حدود الدول، لا بل القارات.

(١) كورنث باليونان ـ اشتهرت قديما بالترف والتهتّك.

نطوف حول غريان. نجتاز قرية كبيرة غريبة في نمط أبنيتها وأشكالها الهندسية. تمتاز بيوتها البيضاء بالأصالة المعمارية. هي مغطاة بحزمات من الغُصينات الجافة ونبات الحلفاء ـ هذا ما يسميه العرب بـ «قربي».

تبين أنه تسكن هنا كتائبٌ من جنود المشاة المعروفة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ باسم «عسكر»، برفقة كامل عائلاتهم، أي مع زوجاتهم وأطفالهم. يشكّلها السكان السود المحليون. وقيل لي بأنَّها لا تستقر في هذه القرية النموذجية لفترة طويلة عادة، إذ سرعان ما تُنقل إلى مكان آخر لتحل محلها كتائب أخرى. وهكذا باستمرار يتبدل سكان هذه البيوت من العائلات بكامل عتادها وأواني مطبخها التي تضطر الأم على فرشها هنا لمدة قد تكون طويلة نسبيا أو قصيرة. حول القرية أُعِدَّت حقول واسعة مزروعة بالخضروات تغطي احتياجات الجيش وبجانبها ساحات للقيام بالتمارين العسكرية والطقوس الدينية المحبّبة الخالية من القيود، تُستغل في نفس الوقت في الاحتفالات الوطنية الغريبة التي يهواها هؤلاء المواطنون السود.

مجموعة من «العسكريين» يسوقون قطيعا من الجمال عبر الطريق.

وجوههم سوداء، ملامحهم جافة، شواربهم مسترسلة على الشفتين، توحي هذه الهيئة بأنهم يتحلون بطبائع سيّئة.

عندما لاحظتُ بيدِ كلٍّ منهم سوطا طويلا انتابني تفكير وداهمتني خيالات دفعتني لأتصور بأنه هكذا كان، كما يبدو لي، شكل تجّار العبيد.

[7]

بصيصٌ أخضر

أَعلَنَ زميلي مارسيلو أنّه قد قرَّر أنْ يكرِّس اليومَ بكاملِه للدراسة ولنْ يتحرك من البيت خطوة واحدة.

لم أستغربْ. فهو يقوم بإعداد أطروحة دكتوراه ومرشَّح لنيْلِ شهادة علمية وعليه أنْ يقدِّم امتحانا هاماً في شهر يوليو/ حزيران (الصيف) وهذا يُلزِمه ليطالع بين فترة وأخرى أكثرَ منْ كتابٍ.

باعتباري صديقاً له ما كان عليَّ إلا أنْ أساعده في أداء هذا الواجب خيرَ أداءٍ. فمنذ شروق الشمس وحتى الظهر حاولتُ أنْ أكون رفيقاً مثاليا، أمسكتُ كتاب الاقتصاد السياسيَ بيدي ورُحنا نتناقش في مواضيعه معاً.

إلا أن هذا العمل أثار بعد بضع ساعاتٍ عَصَبيتي، أَوَليس قدومي إلى هنا لأكون على مقربةٍ من أفريقيا ولأحْتَكّ بالعرَب وليس بالاقتصاد والاقتصاديين!

رميتُ الكتاب في إحدى الزوايا ولعنتُ مارسيلو موجِّها الشتائمَ بمختلف الأوصاف الدنيئة واندفعتُ من الغرفة إلى الشارع.

الجوُّ جميل هادىءٌ دافىء. أستعيرُ درّاجةً من أقرب مكان وبسرعة أنطلق خارج المدينة.

أَجتازُ بنايةً حمراء مهجورة كانت يوما حمّاماً بحْريّاً ما زال إلى تاريخ اليوم يحمل اسم «ليدو»، شأنه شأنَ كلِّ الحمّامات التي تُعرف بنفس الاسم في

إيطاليا كلِّها. بعدها أمرُّ على ثكناتٍ لرجال الشرطة العربية بأزيائهم القرمزية. يحملون اسم «ظبطية». ثم أعْبر جسراً خشبيا فوق وادٍ جافٍّ كليّاً اسْتُغِلَّ مجرى المياه لزراعة البطاطا والملفوف. بمحاذاة الطريق وعلى مسافة لا تتعدى الكيلومتر تمتدُّ سكةٌ حديدية تُستَخدم للأغراض الصناعية. قاطرةٌ تلهث وسط غيمة من الدخان الذي تطلقه، تجرُّ خلفَها شريطا من العربات الصغيرة المحمّلة بالحجارة المنحوتة لتنقلها إلى جهة جنزور.

البحر ما زال مرئيّاً من هذا المكان ـ على سطح مياهه الزرقاء المتموِّجة تنعكس صورُ الأشرعة البيضاء التي تدفع زوارقَ صياديّ الأسماك. في أحد الأمكنة القريبة من حافة البحر العالية، حيث تطلُّ الصخورُ بانحدار كبير على البحر، يتراءى بناءٌ فاخر محاطٌ بحديقة جميلة، قد يكون صاحبه من الأثرياء؟

ها هي الطريق الإسفلتية أمامي تتّجه بمسارها عكس جهة البحر. تنمو على جانبيها شجيرات الأوكالبتوس والأكاسيا (السنط، الطلح) بأشواكها البيض الغليظة، يبلغ طولها بحدود ٣ ـ ١٠ ستيمتر.

تمتدُّ على جانبيْ الطريق حقول واسعة يبدو أنَّ فلاحتها قد تمّت حديثا، إلى جانبها حدائقُ أشجار العنب الخالية أغصانها من الأوراق في هذه الفترة من السنة، وكذلك ما يسمى بأملاك أصحاب الامتيازات وهم من المستعمرين الإيطاليين. وقد قُسمت الأراضي المخصَّصة لهم إلى مساحات، غُرزت عند حدود كلٍّ منها لوحةٌ بيضاء تتألف من عدد من القضبان الأفقية المرصوصة، تذكِّرني بعصي التأديب التي يحملها الفاشيون. تُعلن الكتابة المخطوطة عليها بحروفٍ سود عن نهاية إحدى الملكيات وبداية الملكية الثانية.

أسمعُ أزيزَ ناقلةٍ تزحف خلفي وزمجرةً هائجة لِصَفِير مُحَرِّكها. وما هي إلاّ لحظة حتى اصطدمتْ السيارة بي، بعنفٍ وقوة قذفتني مع دراجتي إلى المنحدر الرملي تحت الطريق.

يبدو أنني لم أصبْ بألمٍ، إذ حالا انتفضتُ من على الأرض بعد أنْ جمعتُ

قوايَ. مليئا غيظا واهتياجا أدور بنظري علّني أعاين الذي ألحق بي هذا السوء لأنتهره على فِعْله الشنيع.

أعاين سيارة نصف شاحنة واقفة على الطريق وسائقا زنجيا إلى جانبها.

ـ كان عليكَ أنْ تنتبه أيها القرد الأسود وتعطي إشارةً من توّك! ـ صرختُ في وجهه.

أما هو فراح يبتسم ابتسامة عريضة وَقِحة، مكشّرا في المناسبة عن أسنانه البيضاء في فمه القذر.

ـ ولوْ، ما عليك يا سيّد إلاّ أنْ تشعر بالسعادة، فأنت إنسانٌ محظوظ حقا، خرجتَ سالم الجسم من هذه الوقعة. على كل حال، كان بإمكاني أنْ أقدِّم لك خدمة في التوّ ـ يردّ مؤشّرا بيده إلى ورائه.

انتابني شعور غريب واقشعرّ جسمي فقفزتُ حالا من مكاني لأتحقق ماذا تعني إشارته تلك. يا للهول! وجدت على متن السيارة تابوتا أبيض جديدا.

ـ لنْ يتم هذا حتى لو انفجرتَ أيها الشيطان الأسود! ـ أجبتُهُ بصوتٍ عال وعلى إثرها شعرت بنوع من الراحة واسترخاءٍ في الأعصاب، ثم بدأتُ أفحص دراجتي. لحسْنِ الطالع لم تصبْ بأيِّ أذى.

ألفُّ في طريقٍ جانبية ثانوية. بعد أنْ قطعتُ عدة كيلومترات على متن دراجتي وجدتُ نفسي عند أراضٍ رملية يميل لونها إلى الحُمرة. كان الرمل ناعما جدا وليس بالإمكان التمييز بين جزيئاته. انحنيتُ على مسافة قريبة من سطح الأرض فلاحظت كيف يحمل الهواءُ الجزيئاتِ المجهرية للرمل وينقلها من مكان إلى مكان. كانت ترافق هذه العملية أنغامٌ موسيقية غريبة منشأها اصطدام واحتكاك حبيبات الرمال المتحركة ببعضها.

يمتد بمحاذاة الطريق درب اعتادت أنْ تسلكه القوافل ـ طُبعتْ عليه آلاف مؤلفة من آثار قوائم الجِمال. ها هي قافلة من الجمال تسير ببطءٍ وكبرياء محمّلة أحمالا ثقيلة وفوقها قد تربّع رجل ملفوف بالبرنس بإحكام. إنهم أولاد الصحراء.

ولإيقاف زحف هذه الرمال الطائرة تُزرع هنا نباتات الأكاسيا الأسترالية (نوع من الخرنوب) التي بشجاعة تقف في وجه عوامل التصحّر وتقاوم اندفاع الرمال.

أعود إلى الطريق العام، ومن جديد أعاين حقولا مزروعة وفوقها تُحلِّق ولها تصدح طربا أسرابٌ من القبّرات كأنها تريد أنْ تنعش هذه الأجواء وتلطفها للمستعمر الإيطالي خلال عمله الشاق.

كمْ هي واسعةٌ الهوّة ما بين الصحراء القاحلة وعلامات الحضارة التي تنمو فوقها. يخلق هذا التباين عند الناظر انطباعاتٍ لا تُنسى. طرقٌ معبّدة ممتازة، حقول وحدائق، مدارس وأبنية لشركة البريد ـ هذا كله في ازدهار مطّرد ونموٌّ متواصل كما ينمو الفطْر بعد سقوط المطر[1]. ولعل أفضل برهان على الجهد الخلاّق للإنسان اعتماده في أعماله هنا على الإدارة الحكيمة الناضجة التي لا تقبل بهدْر الطاقات أبدا. هذا، وعندما نعيد لأذهاننا الواقعَ الذي اصطدم به الإيطاليون عندما استعمروا ليبيا في سنة ١٩١٢ ونقارنه بالوضع الحالي لهذا البلد سيكتسب حكْمُنا صيغة الإيجابية إزاء الإنجازات التي تحققت بفضل نشاط ومثابرة الإيطاليين المرِحين التي أدت إلى ازدهار لا ينكره منْ يتعرف على الحقيقة بعين العقل والعدالة.

أما شروط الحصول على هذه الملكيات فهي كالتالي: في البداية تُعمِّر

(١) هذه مقولة مشهورة في بولندا بسبب كثرة الفطر البري الذي ينمو بأنواع مختلفة في الغابات الشاسعة عادة بعد سقوط الأمطار واعتاد الناس أن يجمعوه ويجففوه أو يحفظونه في الخل. يُستعمل في العديد من الأكلات ومنها التي تقدم ـ وفقا للعادة ـ ضمن وليمة عصر عيد الميلاد، مثلا شوربة الفطر أو محشي الفطر وغيرها. هذا وتعتبر بولندا اليوم ثاني أكبر دولة (بعد الولايات المتحدة الأميركية) في العالم في انتاج الفطر وتجرى عليه أبحاث متشعبة في المعاهد العلمية من قبل متخصصين وبدرجة بروفسور وتصدر كذلك مجلات علمية دورية تنشر فيها نتائج هذه الأبحاث تشمل كذلك الأصناف التي تنمو في دول أخرى، سيما في الشرق الأدنى (الصين، اليابان) وامكانية تكاثرها وزراعتها في بولندا. وتجدر الإضافة بأن للبولنديين خبرة في التعامل مع الفطر وفي تمييز الأصناف السامة عن القابلة للاستخدام في المطعم.

الحكومة طريقا ثم تحفر بئرا ثم تبني بيتا، وأخيرا توصل هذا البيت بالطريق. الإجراء النهائي هو تسليم المستعمَرة لمنْ سيهتم بها على أساس عقدٍ تبرمه معه.

يدفع صاحبُ الامتياز للحكومة نصفَ التكاليف مباشرة، أما النصف الثاني المتبقي فيتعهد بتسديده بعد عشر سنوات. وتحدد الاتفاقيةُ العددَ الأدنى من الأشجار التي يلتزم صاحب الامتياز بزراعتها وكذلك مساحة الحقول التي عليه أنْ يزرعها بالحبوب والخضروات، وكمْ من الغلال عليه أنْ يجمع سنويا مع تحديد كمية إنتاج الخمور وغيرها.

بعد مضي الفترة المحددة ـ وهي عشر سنوات كما قلنا ـ تقوم لجنة حكومية خاصة بفحصٍ دقيق لحالة المُستعمرة مع موازنة شاملة لما أنتجته ولما يمكن أنْ تنتجه في المستقبل. فإذا تبين أنَّ المتعاقد نفّذ شروط الاتفاقية، حينها يُعطى الحقَّ بدفع النصف المتبقي من التكاليف. وبهذا تصبح المستعمرة بكاملها مُلكا له. وأحيانا كثيرة يُعفى صاحب الامتياز من تسديد الجزء الثاني من القسط إذا اقتنعت اللجنة أنَّ عمله أدى إلى ازدهار الاقتصاد الزراعي، لا بل قد يُمنح جائزة أو يكافأ بوسام تقدير باسم الحكومة.

ولكن إذا اكتشفتْ اللجنة إهمالا في المستعمرة وعدم تقيّدٍ بالشروط المتَّفق عليها، وإذا لم يستطع المتعاقد أنْ يقدِّم حُججا مُقنعة وبراهين دامغة على الأسباب التي حالت دون تطور الزراعة، حينها ستُؤخذ الأملاك منه وتُسلَّم لآخر، على نفس الشروط السابقة.

تحقيق شروط الاتفاقية ليس عملية سهلة ويتطلب المزيد من التفاني. نجاح المشروع لا يخلو من عنصر المغامرة. لماذا؟ لأن الأراضي المقرر إصلاحها بهذه الطريقة تشمل فقط المساحات البور، المنسية نهائيا والتي لم يشقها بعد أيُّ محراث ولم تُزرع نهائيا. ولا تدخل في الحسبان أية بقعة من الأرض تنمو فيها ولو شجرة نخيل واحدة أو المزروعة من قبل الفلاح العربي ولو مرة واحدة

بالعام، بغضِّ النظر عن مردود الشعير الذي يبذره فيها. هذا، وتُعامل هذه الأراضي من قبل الحكومة الإيطالية كشيء ثابت ومقدّس تابع للمواطنين الأصليين، لا يمكن المساس به ـ لهذا لا تدخل هذه الأراضي في عداد العقارات التي يمكن للمستعمر الإيطالي أن يقوم بإصلاحها واستغلالها، وإن كانت تفتقر الملكية العربية إلى نصوص وقوانين مكتوبة.

ويجب الإدلاء بكلمة حق إزاء الجهود المبذولة من قِبَل أصحاب الامتيازات الإيطاليين التي جاءت بنتائج فذّة. فالأملاك التي وُضعتْ تحت تصرُّفهم تعيش حالة من الازدهار المطرد. اجتاز المستعمرون (في الغالب ينحدرون من مناطق البندقية أو هم من اللومبارديين من حول بحيرة كوكو) الامتحان الصعب في المثابرة بدرجة ممتازة وبرهنوا أنهم قادرون على التأقلم السريع والكامل مع الظروف القاسية السائدة هنا.

أسوقُ دراجتي ببطءٍ ـ من جهة البحر راحت تهبُّ فجأة رياح قوية في وجهي، تعيق تقدمي إلى الأمام. ألمح أمامي واحةً.

أشجار النخيل مبعثرة هنا وهناك، آبارٌ بيضاء، بيوتٌ مع حدائق محاطة بأسوار صفراء ومعزولة بأغصان كثيفة من نبات الصبّار.

ألاحظ عند الطريق مجموعات صغيرة من السكان العرب يتجاذبون أطراف الحديث أو يقضون وقتهم بلعبة تشبه رمي الزَّهر. أقترب نحو أحد الجالسين على حَجَرٍ عند حافة الطريق هو صبيّ في مقتبل العمر.

ـ ما اسم هذه الواحة، يا علي؟ ـ أسأله.

ـ غرغارش، يا رومي ـ يجيب.

اسم «علي» تعبيرٌ عام يحمل بعضَ اللطف، وهو يشبه بحدٍّ ما الصيغة الأدبية التي نستعملها نحن في بولندا: «من فضلك يا سيّد». يشعر كلُّ عربي بالانتعاش والكبرياء لو سمي باسم إبن عمِّ النبي (العظيم). أما كلمة «رومي» فتعني مسيحيا أو أوروبيا، طبعا باللغة العربية.

على مقربة من الواحة أعاين صفاً من الأسلاك الشائكة طوله حوالي خمسة عشر مترا، يتشابك على جانبي الطريق ـ أعادَ إلى ذاكرتي ما سمعته مرّة عن الحوادث التي دارت قبل وقت ليس ببعيد عندما كان البدو المتمردون يسطون على طرابلس وعلى الواحات التي بضواحيها.

أعود باتجاه غرغارش ـ تكاد الشمس تجر آخر خيوطها الذهبية.

ـ يا رومي، قفْ! ـ أسمع نداءً.

إنه الشاب العربي الذي تحدثتُ معه قبل نصف ساعة.

ـ إرفعْ نظركَ وراقبْ غروبَ الشمس! ـ يقول.

أنزل من على الدراجة، أجلس إلى جانبه على صخرةٍ.

قرصٌ ناريٌّ ينحدر ببطءٍ كأنه يريد قبل أنْ يودّع سماءنا أنْ يلقيَ بأشعته المتوهجة البراقة على شريط من الغيوم الرمادية التي تعلّقت بالشطر الغربي من قبّة السماء حتى يختفي أخيرا عن أنظارنا إلى ما وراء الأفق مرسلا آخر بصيصه بلون أصفر وأحمر. وبعد أنْ تركتْ لنا هذه الكتلة شبه الدائرية أثَرها على هيئة خطٍّ دمويّ رفيع تكاد لا تفترق عيوننا عنه، وإذا بها تظهر من جديد بأروع لونٍ أخضر متشابك مع اللون الأرجواني كأنها النواس. تستغرق هذه الظاهرة النادرة العجيبة عدة دقائق ثم تتلاشى بنفس السرعة التي فيها ظهرت.

مرة أخرى إبتسمَ لي الحظ في هذه الربوع النائية. تحققت إحدى الأمنيات التي طالما تعلقت في مخيلتي مذْ كنت صبيّا، ألا وهو البصيص الشرقي الأخضر. كمْ هو نادرٌ ظهوره، حتى في فصل الصيف، ناهيك عن فصل الشتاء الذي شبه مستحيل فيه تحقيق هذه الظاهرة.

ـ سيفتحُ الله أمامَك كنزاً يا رومي ـ أشاهدْتَ البصيصَ الأخضر؟ إنَّه عمامة محمّد ـ يبتسم العربي.

ـ السلام عليكم، يا علي.

ـ وعليكم السلام، يا رومي.

حلَّ الظلام، عليَّ أنْ أعود إلى المدينة، غير آبِهٍ به.

- Fermo!

ـ من فضلك أوقدْ المصباح أو إنزلْ من على درّاجتك والأفضل لو أمسكتَ بها بيدك إلى جانبك ـ وإلا سيدفع السيّد غرامة ـ يحذِّرني الشرطي.

نعم، أمرك سيدي، هذه هي أوروبا...

بعد أن وصلتُ وسلّمتُ الدراجة، أمرّ بجانب مقهى عربي. لاحظت أمامه عربيا جالسا، كنت قد تعرَّفت عليه من قبل. وجدته يدخِّن نارجيله.

النارجيلة عبارة عن حوصلة زجاجية كبيرة مسدودة بفلين عبره يمرُّ أنبوبان. يتكون أحدهما من مطاط طويل ينتهي بمشرب. أما الثاني فهو زجاجي وفيه يدخل الدخان إلى جوف الحويصلة المليئة بالماء المخلوط بعصير البرتقال الذي ـ كما يُقال ـ يعطي للدخان نكهةً وقوة. توجد فوق الفلين وعلى ارتفاع بضعة سنتيمترات ما يشبه البوتقة الصغيرة. فيها يحترق التبغ.

ـ يا علي ـ ألتفتُ إلى صديقي العربي وأطلبُ منه ـ أعْطِني لأجرّبَ طعم الدخان في نارجيلتك هذه.

ـ أحذِّرك يا رومي، فالدخان قوي وأنت لست معتادا عليه. ستشعر بدوخة ودوران في الرأس.

ـ لا تقلقْ، سأكون حذرا.

ـ إذن خذْ ـ يمدُّ العجوز النارجيله ويبتسم ابتسامة ملؤها شفقة.

آخذُ المشرب وأسحبُ... أحسُّ بطعم حلوٍ في فمي. وبعد لحظة أشعر بضغط في القفص الصدري داهمني على حين غفلة، رافقه بعض الآلام في المعدة تبدو أنها تتهيأ للتقيؤ. تتجمع الدموع تلقائيا في عيوني. أطلقُ من الفم والأنف سحابة من الدخان.

ـ ألمْ أحذِّرك بأنَّه لا مزاح مع النارجيله ـ يدمدم العربي العجوز ماسكا بيده رَجُلا لا يستطيع الوقوف على قَدَمَيه.

أعود إلى البيت بخطوات مرتبكة. أترنَّح ذات اليمين وذات الشمال ومباشرة ألقيت بجسمي على السرير.

يوقظني نغمٌ موسيقي. أنظر إلى الساعة ـ هي الواحدة بعد منتصف الليل. ألقي المعطف على جسمي وأخرج إلى الشارع لأستطلع الخبر.

حفلة عرسٍ عربي.

عَرَبة تشبه البرج بأربع عجلات ذات غطاء مقسوم إلى قسمين كانت تحمل العروس. وأمامها عَرَبة أخرى أصغر تحمل ثلاثةَ رجال ـ الجالس في الوسط يدقُّ على الطبل، الإثنان الآخران يعزفان على الناي. تكمّل هذا الموكب عربات أخرى كثيرة ـ في بعضها يجلس الرجال لوحدهم، أما النسوة فقد جلسن في عربات أخرى مستقلة.

يلفُّ الموكب في شارع جانبي يحمل اسم حسون باشا. يقف المشاركون فيه أمام قصرٍ لاحظتُ بأنَّ نوافذه مكسوةٌ بكثافة بأوتاد خشبية يتدفق من بين شقوقها الضيقة الضوء إلى الخارج. وما هي إلا لحظات حتى اختفى الكل في هذا القصر.

يخيّم في المدينة هدوء وصمت. راح القمر الذي يضيء بكامل هيئته في هذه السماء الأجنبية ذات اللون الأزرق الداكن، راح يبدّد ظلمات الليل. بين الفينة والأخرى تطير أمام وجهي حزمة من الأشعة التي ترسلها المنارة البحرية.

أعودُ إلى السرير ـ ولكنني أشكو هذه الليلة من الأرَق الذي يمنَعني من النعاس. لا يُغمض لي جفن. كنت أتقلَّب من جهة إلى أخرى حتى قررتُ أخيراً أنْ أنهض من الفراش الذي نسي أنني ضيفه. حاولتُ أنْ أرتدي لباسي بهدوء لئلا يفيق مارسيلو. إلا أنه ولسوءِ الطالع الذي يعاكس الإنسان في مثل هذه الحالات سمعتُ صوت احتراق وترِ القابس الكهربائي قبل خروجي.

اصطدمتْ رِجْلي بطشت الماء في وسط الغرفة، وعلاوة على هذا أحدثَ الباب طنينا كأنه طلقة عيارية من مسدَّس عندما أغلقتُه خلفي.

ولكن هذا الضجيج كله لم يوقظ مارسيلو من نومه. أتوجه نحو الشارع. المدينة غارقة في ظلام دامس والشوارع خالية من الناس، عدا حراس الليل بأزيائهم التي هي بلون «خاكي» وموزعي صحيفة "Avvenire di Tripoli". ألقي نظرة على الساعة. إنها الخامسة من أول يوم شهر فبراير/ شباط (النوار). الحرارة: ١٥ درجة مئوية فوق الصفر.

في المحطة يوجد حوالي عشرين عربي ينتظرون القطار بهدوء وصبر. أجلس بجانب طاولة عرجاء في إحدى الزوايا، على كرسي محجوز من قبَل العاملة في المطبخ. عندما شاهدتني قامت ووضعت الكرسي تحت تصرُّفي. أطلبُ فطورا مكوَّنا من سُجُق جاف مثل الحَجَر وخبز شعير غير مملّح وكأس ماء لأرطِّب به حلقي.

ها هو القطار المزود بعربات صغيرة، نفسها التي كانت قد عُرضت هنا لأول مرة خلال حفل تبريك هذا الخط الحديدي سنة ١٩١٢. نصف القطار مخصص للركاب والنصف الثاني لشحن البضاعة.

يمتلىء العَرَب على منظر القطار حيوية ونشاطا وبسرعة يندفعون نحو العربات ويطلقون صرخات تصل السماء: stenna shueia, stenna shueia. انتظرْ قليلاً، انتظرْ قليلاً). يتزاحمون ليصل كل منهم قبل الآخر.

المقاعد في عربات الدرجة الأولى ليِّنةٌ ونابضية ومغطاة بقماش نظيف والتي في الدرجة الثانية فهي خشبيةٌ، بينما عربات الدرجة الثالثة خاليةٌ من المقاعد. ألقى السكان المحليون في وسطها حقائبهم وأكياسهم ثم جلسوا بمحاذاة الجدار على الأرض. يبدو أنهم قد غرقوا بالأفكار العميقة أو يحاولون الاستسلام للنوم.

في غرفة العربة التي جلستُ فيها أرى بعض المستعمرين من الفلاحين الطليان. تبدو أجسامهم قوية، أكتافهم عريضة، وجوههم محروقة بأشعة

الشمس. على الرغم من الكتابة المعلقة داخل العربة "non sputare" تُسمع صراخاتهم العالية، يتحيَّنون الفرصة لحجز مكان ما على الأرض وبين فترة وفترة يبصقون عليها. أما أحاديثهم فكانت عن الحاكم الجديد وعن الآلام التي تثيرها فيهم أملاك أصحاب الامتيازات.

- إذا لم يسرعْ بالبو بفرض النظام هنا فلا أحد يمكنه القيام بهذا، حتى الشيطان نفسه سيبقى عاجزا - يختم الحديث بهذا الاستنتاج رجلٌ قد غطى الشيب رأسه، بشوارب عريضة، لابسا بنطالا كالذي يرتديه رجال الإنقاذ، ماسكا بين ركبتيه بندقية ذات سبطانتين.

تلمع من وراء النوافذ أملاك أصحاب الامتيازات، تتراءى شجيرات العنب المزروعة حديثا في الرمل الأصفر وشتلات الزيتون التي لُفَّت جذوعها بالقش بدقة ورُبطت بعصي مغروزة في الأرض لتسندها. بعيدا هناك تبدو بيوت المستعمرين وهيئات حديدية للآبار الارتوازية بجانبها.

ترفرف بين الفينة والأخرى أمام عيوننا سعفاتُ النخيل الموجودة في واحة الزاوية ثم أشجار الزيتون في واحة صرمان. . . ثم ينتهي كل شيء. قبل واحة زوارة تمتد سهوب رمادية مالحة وسبخات بصَطْحِها المائيّ اللامع وبروجها الحديدية.

نُصبت وسط السهب خيمات البدو وهي محاطة بسور قصير من الأغصان الجافة - تبحث الجِمال والأغنام والحمير عن طعام ما في هذه الأرض الخالية من المرعى.

يقف قطارنا فجأة في أرض قاحلة. أحدِّق من النافذة وأرى ثلاثة رجال: سائقَ القاطرة وهو إيطالي ومفتِّشين عن البطاقات وهما عرب. وجدتهم يركضون إلى العربة الأخيرة من القطار ويجرّون منها راكبا من السكان المحليين، كما يبدو من هواة السفر المجاني الذي وقع في الشرك. بعد أن أخرجوه فجأة ألقى ساقيه للريح هاربا عبر السهب.

نصل إلى مكان فيه ينتهي خط السكة الحديدية. لا يحوي أي مبنى ولا محطة. أعاين لوحةً كُتب عليها اسم المدينة: زواره.

تقفز مجموعة من الصبيان على الدرج، تمسك يد الباب بقوّة وتتعلق به. لإبعادهم وبالتالي السماح للركاب بالخروج يعدو المفتشان المذكوران وبيد كل منهما عصا غليظة وراحا بها يضربان هؤلاء الطامعين بركوب القطار مجانا. يبدو أنَّ الهجمات على القطار ظاهرةٌ طبيعية متكررة، وإلا فلماذا هذه العصي الجاهزة كأداة لمعاقبة كلِّ منْ يخالف النظام والقانون.

أشجار النخيل نادرة هنا، بيوتٌ بيضاء مربّعة الشكل مبذورة فوق الرمال. زوارة قريةٌ بربرية بحتة، المكان الوحيد في ليبيا حيث يتمتع البربر فيه بمشاهدة البحر.

ترتفع الأمواج البحرية عاليا، وقبل أنْ تتراجع من على الشاطىء الرملي تترك عليه شريطا عريضا من الرغوة البيضاء الذي يصل إلى حدود جذوع النخيل. مجموعة من النساء الواقفات حتى الركبتين في الماء يغسلن ألبسة داخلية. لاحظتُ أنَّ النسوة البربريات لا يغطين وجوههن، يبدو أنْ شيئا ما قد فسد في نظام هذه الدولة المحمَّدية(!). وقع نظري على وجوههن السمراء الجميلة، عيونهن البراقة، أفواههن الحمراء، صدورهن الغضة الناعمة.

يحدِّقْنَ بابتسامة دافئة، وقد يتساءلن في قرارة النفس، ماذا دفع بهذا «الرومي» لزيارة الشاطىء الزواري في هذه الفترة الشتوية ومِن أين قَدِمَ؟.

أشجار نخيل، شمس، بحر. . .، وهذا العنقود من النساء اليانعات ذوات الهيئات الجذابة! ـ أغطسُ في أحلام تدغدغ الروح، تزيدني حيوية. . . . أقتربُ منهن بخطوات حثيثة.

صوتُ امرأة سليطة يعكر هذا الجوَّ الشعري ـ كما يجري تماما في كلِّ مكان على الأرض.

بدأت البنات بحماس يفركن وينظفن الثياب بعد أنْ أبعدن نظرهنَّ عنّي ـ ما

بقي لي إلا أنْ أستمر في سيري على رمال الشاطىء، حيث تقودني قدماي، أجمع الأصداف، أدكها في جيوبي.

أزور المدينة. أرى فيها مسجدا جميلا وسُوقا نظيفة. بعد أنْ كلّت قدماي جلستُ في مطعمٍ عربيّ وطلبتُ لحمَ خروفٍ مشوياً مبلّلا بمَرَقٍ أحمر. سال لعابي من نكهته اللذيذة، ألتهمها بشهية غريبة مع خبز الشعير، أشرب معها خمر النخيل «لقمي».

أحدّق بالناس من السكان المحليين الذين حولي. أجدهم منغمسين في الحديث بين بعضهم. أشعر بارتياح وبخفة في الروح، بانتعاش في الجسد وبتجاوب هارموني مع المحيط، كأنني جزء منه. يا لها من سعادة تغمرني، انطباعات تدغدغ أعماق أحاسيسي وبنات عقلي. خواطري التي خدَّرها هذا المحيط الفاتن راحت تتجول بعذوبة في عالم طفولتي، تعمل ألف حساب لما قد يحمله لي المستقبل المجهول.

على الرغم من عمري الغض فقد زرتُ حتى الآن الكثير من البلدان، ولكن كمْ يبدو لي هذا قليلا عندما أشاهد مناظر كالتي هنا. كنتُ في سنوات طفولتي مولعا بقراءة الكتب وأدبيات الرحالة، ألتهمها التهاما. فكانت مغامرات كارول ماي(١)،

---

(١) كارل ماي (Karl Friedrich May) (١٨٤٢ ـ ١٩١٢). كاتب ألماني ذائع الصيت وكتبه هي الأكثر رواجا ومبيعا في تاريخ الأدب الألماني. ينحدر من عائلة فقيرة كانت تزاول مهنة الغزل والنسيج. حتى الخامسة من عمره كان ضريرا وعاد نظره إليه نتيجة عملية جراحية ناجحة. عمل مدرسا، إلا أنه سرعان ما عُزل بسبب مشاغباته ثم انزلق إلى طريق سيء في حياته وحُكم عليه بالسجن وفيه اكتشف مواهبه في الكتابة. بعد إطلاق سراحه (١٨٧٤) راح يجرّب قلمه في التأليف. في سنة ١٨٧٥ ينتقل إلى مدينة درزدن وهناك يعمل كرئيس تحرير ثم ككاتب. أول نتاجاته الأدبية كانت تحت اسم مستعار وبعنوان «حكايات من الأروقة»، لعل أهمها كانت الرواية «وُرَيْدة الغابة». سنة ١٨٨٢ كانت نقطة انعطاف كبيرة في حياته، حينها راح يلقي الضوء على أبطال رواياته التي تدور أحداثها في بلدان بعيدة، مثل: «في الغرب الموحش» و «في الشرق الموحش» واكتسبت خاصة مجموعته الأولى شهرة فائقة، سيما بطلها Vinnetou القائد الفذ=

وكونراد[1]،

= والعادل والمستقيم لقبيلة الأباتش من الهنود الحمر وصديقه الأبيض (الأوروبي) Old Shattenhard. ولعل سر نجاح الكاتب كان ربطه للحوادث الخيالية بواقع الهنود الحمر الجغرافي والثقافي وتقمصه لشخصية بطله في الصورة والشكل. أجوبته على رسائل القراء كان يوقعها باسم Old Shattenhard وعلى باب داره علق لوحة كتب عليها: «كارل ماي المعروف بـ Old Shattenhard». ربما كان هذا تعبيرا عن الشوق للحرية التي افتقر إليها في سنين سجنه وهربا من كاهل ذكريات الطفولة. على رغم كونه أحد أشهر الكتاب في أوروبا، إلا أن النقاد استغلوا ماضيه استغلالا سيئا وطعنوا به أمام المحاكم. هذه المتاعب إضافة إلى طلاق زوجته (سنة ١٩٠٣) شكلت صدمة قوية له لم يتحملها، فأصيب بمرض أدى إلى وفاته. أغلب ما كان يملكه أحيل لتأسيس صندوق ثم متحف (سنة ١٩٢٨) كانت في البداية ترعاه زوجته الثانية. واللافت للنظر أن ماي زار أمريكا لأول مرة في سنة ١٩٠٨، أي بعد نشر كتبه «في الغرب الموحش». وبسبب شغف هتلر نفسه بمطالعة كتب ماي مُنعت في كل من بولندا وألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية. هذا وتتميز كتبه بطابع التسامح المسيحي وبدعم الشعوب المضطهدة وفي مقدمتهم الهنود الحمر ولعل هذا أعطاها طابع الأدب العالمي. تُرجمت كتبه إلى أكثر من ٣٣ لغة وبعدد يناهز ٢٠٠ مليون نسخة (ما نُشر فقط في ألمانيا وحدها بلغ ٨٠ مليون نسخة). تُقسم كتبه إلى مجموعات مستقلة من حيث مواضيعها، أولها «في الغرب الموحش» ـ عشرة كتب: «فينيتو» (١٨٩٣، الطبعة البولندية في ١٩١٠)، «أولد شورهاند» (١٨٩٤ ـ ١٨٩٦، الطبعة البولندية ١٩١٠)، «خزينة في البحيرة الفضية» (١٨٩٤، الطبعة البولندية ١٩٢٥)، «الشيطان ويهوذا»، «الميلاد الالهي»، «ابن صياد الضباع» وغيرها. أما كتبه من مجموعة «في الشرق الموحش» بطلها الرئيسي يُدعى قره بن نمزي وخادمه وصديقه في آن واحد هو «خلف». العناوين الأكثر شهرة تشكل ما يسمى «السلسلة العربية» وهذه البعض منها: «عبر الصحراء»، «من بغداد إلى استانبول»، «داخل المعابر الجبلية للبلقان»، «شوت» وغيرها كثيرة. وهناك مجموعات أخرى ضمن هذه السلسلة، منها مجموعة سُمِّيت «في بلد المهدي» وأخرى «في بلد الأسد الفضي» نذكر بعض العناوين: «أسد الثأر الدامي»، «في دهاليز بابل»، «حصن في الجبال»، «في بلد الأسد الفضي»، «صلاة متحجرة»، «في أقبية مكة»، «جسر الموت». ومن أدب الرحلات بقلمه: «فوق ريو ده لابلاتا»، «وصية الإنكيين». له كتابان عن الصين و ١٦ كتابا عن أفريقيا. منذ سنة ١٩١٠ حتى الحرب العالمية الثانية كان كارل ماي مشهورا في بولندا، سيما وسط الشباب الذين كانوا يقلدون أبطال كتبه ويأخذونهم كقدوة في حياتهم. في الأربعينات حتى السبعينات نُشرت له أربعة كتب فقط ومنذ الثمانينات راحت دور النشر البولندية تتسابق في نشر كتبه. هذا وقد تحولت بعض رواياته في الستينات إلى أفلام سينمائية.

(١) J?zef Teodor Konrad Korzeniowski ككاتب اشتهر بالصيغة الانكليزية لإسمه: Joseph Conrad (١٨٥٧، أوكرانيا ـ ١٩٢٤، انكلترا). عندما كان في السابعة من العمر تيتّم من جهة والدته وعند بلوغه السابعة عشرة أرسله والده إلى فرنسا حيث عمل ملاحا. وعلى إثر رفض=

ولندن[1]،

= السلطات الفرنسية تمديد إقامته كونه مواطنا خاضعا لروسيا القيصرية وملزما بخدمة العلم فيها انتقل سنة ١٨٧٨ إلى إنكلترا. وهناك زاول نفس العمل وبدأ بدراسة الملاحة ونال درجة قبطان باخرة. على الرغم من إجادته للإنكليزية بدرجة مطلقة إلا أن ورود اسمه العائلي في الوثائق الإنكليزية بثلاث عشرة صيغة مختلفة ربما يدل على الصعوبات التي واجهته. خلال ثلاث عشرة سنة أبحر عبر كل بحار ومحيطات الكرة الأرضية. أما التأليف فقد زاوله وهو في عمر ناضج؛ أول كتاب «جنون الماير» صدر سنة ١٨٩٥. خلال الثمان عشرة سنة التي تلتها كتب أربعة عشر رواية وثمانية مجلدات قصصية. اشتهر ككاتب يوصف البحر. ويجمع النقاد أن كتابيه: «أفريقي في طاقم نارتسيز» و «تايفون» أفضل ما كتب في الأدب المكرس للبحر وليس بمقدور أحد أن يعكس الجمال الخدّاع للبحر والخدمة المضنية للبحّارة مثله. إلا أن الغالبية الساحقة من كتبه ليست مرتبطة بالبحر، مما يدل على جدارته، بل أرضيتها تكمن في بلاد الشرق الأقصى وأفريقيا وأمريكا اللاتينية وكذلك في أوروبا (فرنسا، انكلترا وغيرهما). أبطال كتبه إنكليز وفرنسيون وإيطاليون وألمان وبولنديون ونروجيون واسبان وهولنديون. لهذا السبب يطلق عليه «كاتب أوروبي بامتياز». تعالج كتبه أمور هامة تخص القارة الأوروبية كوحدة متكاملة. أشهر رواية له في بولندا (نشرت سنة ١٩٠٠) «اللورد جيم» تتحدث عن ضابط في البحرية. وكتابه «نوسترومو» (يحكي عن بلد خيالي في أمريكا اللاتينية) يعتبر من العناوين العالمية الهامة وفي صدارة النثر الإنكليزي وأجمل رواية ذات موضوع سياسي بهذه اللغة. ومن الروايات السياسية الأخرى: «الجاسوس السري»، «في عيون الغرب». أما كتابه «نواة الظلام»، من صنف الأدب المعاصر، يُدرّسُ منذ سنين طويلة في جامعات العديد من دول العالم وتحوّل إلى فيلم سينمائي. كان كونراد رجل ثلاث ثقافات: بولندية وفرنسية وإنكليزية ويعتبر من الكلاسيكيين في الأدب الإنكليزي ومن بين الكتاب البولنديين الكاتب الأوروبي الأول، علما أن لغته لا تخلو من آثار بولندية وفرنسية وحتى آخر أيام حياته كان يتحدث بنغمة لغوية هجينة بين البولندية والفرنسية.

(١) Jack London (John Griffith Chaney) (١٨٧٦ ـ ١٩١٦). كاتب أمريكي روائي وقصصي عاش حياة قصيرة وغنية جدا. زاول مهنة موزع جرائد وصياد وملاح وباحث عن الذهب في المكسيك وصحفي. عمل مراسلا حربيا على الجبهة الروسية ـ اليابانية سنة ١٩١٥ وكذلك خلال الحرب الأهلية في المكسيك. غالبا ما يتخلل كتبه موضوع النضال الفردي للإنسان ضد النظام الاجتماعي السائد وقوى الطبيعة، وهذا ينبع من تجاربه ومعاناته ويصنّف نتاجه بين الموضوعي والرومانسي وفيه أفكار مستمدة من ماركس ونيتشه وغيرهما من المفكرين، لهذا تجمع إيديولوجيته بين الاشتراكية وبين نظرية النضال من أجل البقاء مع إظهار تعجبّه بالشخصيات القوية. هذه قائمة ببعض كتبه: «السكوت الأبيض» (١٨٩٩)، «ملحمة الشمال»، «قلب امرأة»، «إبن الذئب» (١٩٠٠)، «بنت الثلوج» (١٩٠٢)، «نداء الدم»، «سكان الحضيض» (١٩٠٣)، «الذئب البحري» (١٩٠٤)، «اللعبة» (١٩٠٥)، «المخلب الأبيض»، «قبل آدم» (١٩٠٦)، «حب الحياة»، «القدم الحديدية» (١٩٠٧)، «حزام الأمان»، «ضائع وسط النجوم» (١٩٠٩)، «مارتين=

وكروود[1] وأبيليوس[2] وسيفينيني[3] وشيروشفسكي[4] وغوتيل[5]

= إدن» (١٩٠٩)، «الضوء المحترق» (١٩١٠)، «حكايات عن بحار الجنوب»، «قوة الأقوى» (١٩١١)، «وادي القمر»، «جون باريكورن، أي ذكريات مدمن على الكحول» (١٩١٣). قيل أنه كان يحاول كتابة على الأقل ألف كلمة يوميا.

(١) James Olivier Curwood (١٢/٦/١٨٧٨ ـ ١٣/ ٨/ ١٩٢٧)، كاتب أمريكي أحب الطبيعة منذ نعومة أظفاره. في السنوات ١٨٩٨ ـ ١٩٠٠ درس في جامعة ميشيغن ثم عمل مراسلا صحفيا في دترويت. في سنة ١٩٠٨ أصدر كتابه الأول ثم غدت الكتابه عمله الوحيد وكان يبحث عن مواضيعة خلال جولاته في الولايات المتحدة وكندا، سيما االمناطق النائية عن الحضارة الصناعية. خلال السنوات ١٩٠٨ ـ ١٩٣١ ألّف ثلاثة وثلاثين كتابا، أكثرها رواجا: «تائهون في الشمال»، «الذئبة الباهتة»، «صيادو الذئاب»، «صيادو الذهب»، «وادي الصامتين»، «القلوب المتوحشة» وغيرها.

(٢) يبدو أن كتب Apelius كانت متوفرة فقط باللغة الإيطالية، فهذا الاسم غير معروف في الوسط البولندي وكذا نتاجه الأدبي.

(٣) لم أعثر على أثر لاسمCevenini ككاتب ولا على عنوان واحد بقلمه.

(٤) Wacĺaw Sieroszewski (٢٤/٨/١٨٥٨ ـ ٢٠/ ٤/ ١٩٤٥) ـ كاتب بولندي ورحّالة وناشط سياسي. نُفي من قبل السلطات الروسية إلى سيبيريا وبعد إطلاق سراحه قرر السكن في مدينة إيركوتسك (سنة ١٨٩٢). أبحاثه عن قبائل المنطقة لفتت انتباه الجمعية الجغرافية الروسية التي ساعدته في العودة إلى بولندا (سنة ١٨٩٨). ثم نظم حملة علمية إلى اليابان وقام في جزيرة هوكائيدو بدراسة قبائل الأينو المشرفة على الانقراض. في سنة ١٩٠٤ عاد إلى وارسو عبر كوريا والصين وجزيرة سيلان ومصر. وعلى إثر مشاركته في انتفاضة وارسو ضد الروس (سنة ١٩٠٥) تم نفيه من جديد، فسافر إلى باريس وعاش فيها أربع سنوات (١٩١٠ ـ ١٩١٤). شارك في الحرب العالمية الأولى ضمن الجيش البولندي الذي تشكل في الشتات واختير وزيرا للمعلومات والدعاية في الحكومة البولندية المؤقتة (سنة ١٩١٨). في السنوات ١٩٣٣ ـ ١٩٣٩ كان يرأس أكاديمية الأدب البولندية. كتب ستة عشر كتابا، بينها ثلاثة ذات طابع اتنوبولوجي عن شعوب االيابان وكوريا وسيبيريا.

(٥) Ferdynand Goetel (١٨٩٠ ـ ١٩٦٠) ـ كاتب بولندي تلقى دراسته الجامعية في فيينا وبعد عودته إلى وارسو (١٩١٢) واندلاع الحرب العالمية الأولي تم نفيه إلى تركستان وهناك انضم إلى البولشويين، إلا أنه في سنة ١٩٢٠ هرب عن طريق إيران والهند. في السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٥ شغل منصب سكرتير هيئة المناجم في كراكوف ورئيس تحرير المجلة الرياضية ثم انتقل إلى وارسو وصار رئيس تحرير مجلتين. زار مصر. خلال السنوات ١٩٢٦ ـ ١٩٣٣ كان رئيسا لنادي القلم البولندي وفي سنوات الحرب العالمية الثانية كان يصدر مجلة سرية «التيار». بعد الحرب اتهم بالتجسس لصالح الألمان فغادر بولندا إلى إيطاليا ثم إلى لندن. بعض أعماله الأدبية: «عبر الشرق المحترق» (١٩٢٤)، مصر (١٩٢٧)، «جزيرة في الشمال الغائم» (١٩٢٨)، «صاموئيل=

وليبتسكي[1] تجعلني أنسى ما يجري حولي.

لم أحسدْ يوما إنسانا على ما يملكه من الغناء والشهرة والأوسمة أو ميداليات الشرف، لكنني أحسد فعلا الرحّالة الذين يتجوّلون ويكشفون العالم المجهول لنفسهم ولغيرهم، بحماس وتوهج أعشق فيهم هذه الشجاعة والإرادة الحديدية والقدرة على التحكّم بالظروف والمساحات وبقوى الطبيعة وبعامل الزمن.

زرتُ متحف اللوفر في باريس ومتاحفَ الفاتيكان ومكتبات فيينا ونابولي. وكَمْ مِنْ مرَّةٍ وقفتُ أمامها مندهشاً، محتارا، محبوس الأنفاس، ولكن كنتُ مرّاتٍ أكثر أحسُّ بالاختناق وأنا أتجول بين أقسام هذه الإنجازات الإنسانية العظيمة، غبار الحياة التي مرّتْ، أُغْلِقَ عليها في العلب والصناديق الزجاجية كما يُغْلَق على الطير في القفص.

= زبوروفسكي» (١٩٥٩)، «تحت علامة الفاشية» (١٩٣٩)، «من يوم إلى يوم» (١٩٢٥). بعد الحرب نشر «الأفضل ألا تكون صغيرا» (١٩٥٩)، «أناكوندا» (١٩٦٤)، «زمن الحرب» (١٩٥٥) وغيرها. كتب سيناريوهات للعديد من الأفلام. كانت كتبه تحظى برواج واسع في الفترة ما بين الحربين العالميتين وتُرجمت إلى لغات مختلفة.

(١) Mieczysław Lepecki (١٥/ ١١/ ١٨٩٧ ـ ٢٦/ ١/ ١٩٦٩) ـ كاتب بولندي ورحالة وجندي في الألوية البولندية التي أسسها الماريشال يوسف پيؤسودسكي. في السنوات ١٩٢١ ـ ١٩٢٣ كان يحرر مجلة «الغسق» الناطقة باسم المغتربين البولون في البرازيل. سافر إلى المغرب وبرغواي والبيرو والمكسيك (١٩٢٥ ـ ١٩٢٨). في السنوات ١٩٣١ ـ ١٩٣٥ رافق الماريشال بصفة مساعد وسكرتير في سفره إلى مصر واسبانيا وإيران وفلسطين والاتحاد السوفييتي وفي ١٩٣٧ وقف على رأس لجنة حكومية للتباحث في امكانية وضع جزيرة مدغشقر تحت الإنتداب البولندي أو ترحيل اليهود إليها. خلال الحرب العالمية الثانية خدم في الجيش البولندي في فرنسا ولسنوات عديدة في نادي القلم البولندي الذي منذ سنة ١٩٧١ يقدم وساما يحمل اسمه. كاتب مذكرات حربية: «في ومض الحروب»، «سيبيريا بدون لعنات»، «يوسف پيؤسودسكي في سيبيريا»، «كنت مرافقا للماريشال» (تحكي محطات حياة ونشاط الماريشال پيؤسودسكي) بالإضافة إلى «ماوريتسي أوغوست بينيوفسكي ـ قاهر مدغشقر». ومن أدب الرحلات نذكر: «عند بوابة المغرب»، «تحت زفير سيروككو»، «تحت ظل النخيل»، «من الأمازون إلى أرض النار». له ايضا كتب عن أوضاع المغتربين البولون في أمريكا اللاتينية: «من كوكب إلى كوكب»، «عبر مسالك البرازيل الوعرة»، «العالَم الذي يتلاشى»، «رحلة إلى البرازيل الوسطى». كتب كذلك عن بعض الشخصيات التاريخية.

أعشق الأجواء المفتوحةَ والمساحات الواسعةَ ومن الهواء عليله، أحبُّ كلَّ إنسان حيٍّ، أهوى الحياة السعيدةَ، الجميلة، المليئة بالنشاط والحركة!

كيف ستدور السنوات بي؟ إلى أين سيقذفني مجداف الحياة؟ كيف سيكون مصيري؟ ـ هل ستتصف بغنى الانطباعات وبجمال الأحاسيس، كسنوات الشباب المحظوظة التي عشتها؟

ماذا سيجلبه لي ذلك البصيص الأخضر الذي ظهر في غرغارش، ماذا سيغيّر في ما بقي من حياتي؟

ما زلتُ جالسا في المطعم، أشعر بالجوع ثانية، كأنني لم آكل شيئا. أطلبُ المقدار نفسه من اللحم المشوي ـ يسيل محلول التوابل فوق ذقني، حذائي الطويل قد غطاه الغبار، قميصي قد انفكَّ من الأزرار، كنت سعيدا، سعيدا، بما لا نهاية.

عندي بعض الوقت حتى مجيء القطار. أمشي بدون إدراك ولا تخطيط بين أشجار النخيل. يُسمع حفيف الأوراق الجافة من تحت قدمي، يشقُّ طريقي حيوان العظاية بلونه الأسود الرمادي، سرعان ما يختفي ـ ألحق به والفرحة تغمرني كما لو كنت طفلا، ويا ليتني كنت ليس فقط طفلا في هذا اليوم الذي قضيته باطمئنان، براحة بال، بدون مبالاة.

[8]

رحلتي إلى الصحراء(١)

بعد أنْ زرتُ مدينةَ طرابلس وتعرَّفت على الأمكنة الجديرة بالمشاهدة فيها وفي ضواحيها، القريبة منها والبعيدة، وكذلك على نمط حياة المستوطنين الأوروبيين، وممثليِّ الطبقات العربية العالية، قرَّرتُ أنْ أتحرَّك نحو الصحراء.

ولكنْ كيف يمكن تحقيق هذا عملياً؟ الناس الأعزاء الذين نزلتُ في ضيافتهم، أيْ عائلة سانسون ومارسيلو، أبدوا استعدادهم لمساعدتي وعاهدوني على بذل ما بوسعهم مع محاولة الاستفادة من علاقاتهم الخاصة وعلى كل الأصعدة لتحقيق أمنيتي. ولكنهم راحوا يتأسفون بأن عدد معارفهم تقلَّص كثيرا، إذ بعد قدوم الوالي الجديد حدثتْ تغييرات جذريّة في العديد من المراكز العالية، ولم يبق أحدٌ من أصدقائهم القدماء في مركزه ولا يعرفون أيَّ إنسان مقرَّب للسلطة بمقدوره أنْ يسهِّل موضوع حمْلتي إلى عُمق الصحراء.

فهل ستبقى أمنيتي حلما؟

رفضتُ الاستسلام. بعد تفكيرٍ ومشاورات خطرتْ على ذهني خُطة بسيطة؛ المثول أمام الجنرال سيسيليانو، قائدِ القوات العسكرية في تريبوليتانيا. إمَّا سيرفض طلبي ويطردني خارج باب مكتبه (لن أعتبر هذا إهانة كبيرة بسبب المركز العالي للجنرال وعمره الصغير) أو سيبتسم لي الحظُّ وأوفّق إلى إقناعه

(١) TALA JEI JANARI! (تعال يا ناري!) ـ هذا العنوان الفرعي نقلتُه إلى الحاشية.

ليضع تحت تصرُّفي سيارةَ نقلٍ عسكرية وليزوِّدني بكتاب توصية لمدراء الحصون العسكرية الموجودة في قلب الصحراء الليبية، طالبا منهم أن يوافقوا على استقبالي كضيفٍ.

قرَّرتُ ألا أنتظر، فقصدتُ مكتب القائد العسكري في صباح اليوم الثاني دون تردُّدٍ. اتّخاذي لهذا القرار حسَّن مزاجي وجعلني أشعر براحة داخلية واندفاع مليء بالتفاؤل والأمل، فخرجتُ من البيت لأتجول قليلا في المدينة: مشيتُ عبر الشارع الذي قادني إلى الرصيف البحري العريض لأستنشق نسمات الهواء العليل.

أسير بخطوات هادئة عبر شارع عربي ضيِّق. يستقرُّ نظري على المأكولات الشرقية الفاخرة المشهِّية بكل ألوان قوس وقُزح: «كفُّ فاطمة» بلون الكرز الناضج، كعْكٌ دائري من السكَّر بلون بنفسجي، أشكال إهليلجية بلون أزرق مخضّر، «مثلثية» بلون برتقالي تنقط بسائل دبِقٍ. لا، عليَّ أَنْ أَتحكّم بشهيَّتي. أبلع اللعاب الذي ملأ فمي. تنقصني الشجاعة لأذوق كل هذا[1].

يخطو أمامي ثلاثة ضباط من القوات البحرية الإيطالية. أسير خلفهم. فجأة لاحظتُ يهوديا صغير السنّ قد قفز من مكانه وهرع نحوهم ليبلِغهم شيئا عن طريق الهمس في الأذن. أسمع بعض العبارات المتقطِّعة: ستتأكدون مما أقوله... طازجة مثل التفاح... شحن جديد من فرنسا مباشرة...

فهمتُ ما في القصة. القَوَّاد يمدح سلعةً حيَّة ويعرضها على الضباط الجائعين!

بعد لحظة اختفوا معا في أحد الشوارع الفرعية. مشيتُ خلفهم.

لكلِّ مدينة جنوبية أو شرقية حيٌّ لما يُسمَّى بالملذّات الجنسية ـ في طرابلس هذا الحي يُدعى سيدي عمران.

---

(١) عدا الكعك لا يحوي كتاب «طعامنا» بقلم حميده البرّاني الصادر في ليبيا سنة ١٩٧٥ اسم أي من المأكولات التي ذكرها الكاتب.

بيوتٌ منخفضة مربّعة بيضاء. الأبواب مفتوحة لاستقبال الضيوف وتؤدي إلى فناء قليل الأوساخ أو كثيرها. لمحتُ الزبائنَ جالسين على المقاعد المرصوفة بمحاذاة الجدار، مرتدين برانسَ عربية أو أزياءَ أوروبية - توحي هيئة بعضهم أنهم من أصحاب الأناقة. ملامحُ وجوههم وتصرّفاتهم تركتْ عندي انطباعات غريبة: يشبهون الشحّاذين الذين ينتظرون من يرمي لهم بقايا طعام - تزعزتْ أركانُ كرامة الرجولة ومكانةُ سيِّدِ ومَلِكِ المخلوقات الحيّة!

أقفُ وسط الفناء المرصوف بالحجارة. أرى حولي مِنْ كلِّ الجهات أبوابا مفتوحة على مصراعيها - كلُّ الغرف شبيهة ببعضها: حُصُرٌ على الأرض، خزانة بمحاذاة الجدار، مغسلة، بعض الكراسي، سريرٌ عادي غير متحرّك أو عصريٌّ يُغلق للجلوس ويُفتح للنوم. تقف على رأس هذا الحرَم حوّاءُ مشوَّهة وسخة، مُتلَفة وقبيحةُ على الأغلب، تقدِّم لآدمَ تفّاحةً عَفِنة عضَّها بأنيابه أكثر مِنْ آدمٍ قبله. وجدتُ ساكناتِ هذه الحُجَر الصغيرة جالساتٍ على الحصيرة أو واقفاتٍ نصف عارياتٍ لإغراء الضيوفِ المستعدين للوقوع في شراكهن.

السلعة الموجودة في الشارع الرئيسي لهذا الحيّ الذي يُدعى Zenghet el Buras أفضل جودة نسبيا. لا أجد تعريفا آخر يليق بها. فالغُرف أنظف وقد زُيِّنت جدرانها أحيانا بلوحةٍ تمثِّل شخصيةً ما أو علامةً مقدّسة مثل كفّ فاطمة. ياللسخرية والتهكّم بالمقدَّسات! علِّق إلى جانبها إعلانٌ مختومٌ بختم الشرطة. هذا نصُّه: «الدخول للضباط والرُّقَباء والمدنيين يكلّف عشرَ ليراتٍ، أما للنفَر - خمسَ ليراتٍ». نساءٌ من مختلف الأجناس: عربيات، زنجيات، يهوديات، مالطيّات، حثالات أوروبا اللواتي قذفتهن الظروف القاسية إلى الشاطىء الأفريقي، حيث اكتسين بأثواب الخزي والعار. مصيرهُنَّ التشتت، لا محالة.

أتجوّل في شوارع الدعارة والبؤس. بين اللحظة والأخرى يقع نظري على كتابة معلَّقة على بيت "casa onesta" (بيت شريف). سكان هذه البيوت يعيشون بِصمْتٍ ومرارة. هل مَنْ يفكّر بتأثير الدعارة في نفسيّة الأطفال ونظرتهم

إلى الحياة، طالما منذ نعومة أظفارهم يرون دناءةَ الإنسان وحقارةَ أعماله وتفاهةَ تصرُّفاته، حيث تُسحق المقدّساتُ وتُهان الكرامةُ؟

شارع Sciara el Bas ـ الجزء الأرستقراطي في حيّ سيدي عمران. البيوت هنا تابعةٌ للأوروبيين فقط.

قصدتُ أحدَ بيوت العُهر المعروف باسم Palumbo فوجدتُه مغلقا. على إثر طرْقي للباب للخارجي أزاحتْ سيّدةُ المحلِّ الستارَ عن فتحةٍ صغيرة فيه. أخبرتني بأنَّ مجموعةً من الملاحين الطليان والإنكليز تطوف في الحارة هائمة على وجهها. وخوفا من قيامهم بتصرفات لا أخلاقية قرَّرتْ ألا تفتح الباب لأيِّ إنسانٍ.

تصرُّفاتٌ غير أخلاقية؟! موقف مُضحك وغريب في هذا المكان!.

إلا أنَّ السيدة ليسيتته الجميلة، ذات البشرة الضاربة إلى الحمرة، المنحدرة من مدينة فيينا، رحّبت بي بلطفٍ وأدب. عمرها يتجاوز الثلاثين سنة. بعد دخولي نادت الفتياتِ الستَّ اللواتي يعملْنَ عندها، كلُّهنَّ من أوروبا، وقدّمتني لهُنَّ قائلةً بأنني «صحفيٌّ» وقَدِمتُ إلى هنا لأن مهنتي تتطلَّب هذا، ولهو شرفٌ كبير لهذا البيت الذي قررتُ أنْ أزوره.

كنتُ مُجبرا لأذْكر اسمي، فقمت بهذا بصوت خافت وتمتمة خرجتْ بعسر من أنفي.

لم تُدخل هيئاتُ الفتيات الإزدراءَ في نفسي: ثلاثٌ منهن سمراواتٍ، اثنتان شقراوان، السادسة ببشرة ضاربة إلى الحمرة ـ واحدة من إسبانيا، واحدة من مالطا، واحدة يهودية، واحدة من ألمانيا واثنتان من فرنسا.

بعد حديثٍ قصير تعطي السيدة ليسيتته إشارة للخاضعاتِ لها بالخروج، ثم تتوجه إليَّ قائلة: أعذرني، على الفتيات الإلتحاقَ بالعمل، نفذ صبْرُ الزبائن المنتظرين عوْدَتَهِنَّ.

يبدو أنَّ الشقّة تُدار بنظامٍ. تشعر في داخلها بذوقٍ ونظافة ودقّة العاملين فيها. تحيط بك الورود منْ كلِّ جانبٍ. في وسط البيت كلْبٌ قويٌّ ولطيف من

الفصيلة الذئبية. حُجُراتٌ مستقلة لكل زبون على حدة، كي لا يلتقي الواحدُ بالآخر ـ فناءٌ جميل بأعمدة من النمط المعماري الموريتاني. ولكن تشكو صاحبة المحلِّ من الوضع بسبب اندلاق الماء من السطح عند هطول الأمطار، تقول بأنَّ المساكنَ العربية القديمة لا توفّر وسائلَ الراحة للإنسان، لهذا تفضِّلُ بيتا عصريا في حيٍّ آخر.

استعمال كلمة «أزمة» غدا حديثَ الساعة وأصبح مثل العادة عند الناس، فسألتُها فيما إذا كانت مؤسستُها تشعر بنتائج هذا الوباء.

ـ في قاموس مهنتنا هذا التعبير لا وجود له بتاتا ـ تجيبني بوقارٍ ورزانة.

توجَّهتُ منذ الصباح الباكر نحو مركز قيادة القوات المسلحة. حملتُ في جيبي بطاقة صغيرة سطَّرتها السيدة سامسون إلى العقيد غامبيللي ـ هذا يعطيني شجاعة، إلا أنني أشعر بنوعٍ من القلق.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ ـ يسألني العسكري الواقف عند المدخل بلغةٍ إيطالية ركيكة وهو يحدّق بي بنظرات حادة.

ـ إلى السيد العقيد غامبيللي ـ أجيبه بلطف.

ـ هذا غير ممكن! ـ يؤكّد العسكري.

إزاء جواب كهذا بسرعة أستسلمُ وأبتعدُ عن المكان. بعد تجوال قصير في الشوارع القريبة عدتُ ثانية.

ـ إلى أين أنت ذاهب؟ ـ يعيد العسكري سؤاله بنفس النبرة كأنه مسجّلٌ على شريطٍ.

ـ إلى السيِّد الجنرال سيسيليانو ـ أجيبُ هذه المرّة.

لهذا الاسم وزنه ووقعه، حتى على العساكر. يعطيني إشارةً بالدخول.

أتردد هنيهة، أشعر بنوعٍ من فقد العزم ـ وأخيرا أتسلّق الدرج وأجلس في غرفة الانتظار.

بعد لحظات يقترب منّي البوّاب ليستفسرَ عن الغاية من زيارتي. عندما فاتحْتُه بهدف وجودي أنْ أريد مقابلة الجنرال سيسيليانو، أعلمني أنَّ الجنرال غائب الآن وينوب عنه العقيد غامبيللي.

تنفَّستُ الصعداء! إلا أنني لا أعرف كيف سأبدأ الحديث مع العقيد ليقتنع. لعلّ الكتاب الذي في جيبي ينقذُ الموقف في اللحظات الأولى.

أملأ إستمارةً قُدِّمت لي: الاسم الفردي، اسم العائلة، التاريخ، الهدف من المراجعة: الموضوعُ شخصيٌّ، المهنةُ ـ ولوْ! أنا: صحفيٌّ.

بعد خمس دقائق أسمعُ مناداة باسمي. أدخل الغرفة. وجدتُ فيها ضابطا طويل القامة يكتب شيئا ما باهتياجٍ. تنحنحتُ لألفتَ انتباهه أنني قد دخلتُ. يرفع رأسه ليعلن بسرعة: السيد العقيد مشغولٌ، تفضّلْ إجلسْ وانتظر ـ يكمّلُ الكتابةَ.

أنظّم في رأسي فاتحاتٍ مختلفة وصيَغ شتى للحوار مع العقيد، أنا بنفسي لست مقتنعا ولا بواحدة منها، فكيف لو لاحظَ هذا العقيدُ.

يرنُّ جرسُ الهاتف ـ يرفع الضابط السمّاعة.

ـ العقيدُ فرغ منْ أعماله. يتظرك. تفضّل أيها المحرّر الصحفي، اتبعني.

هذه التسمية الجديدة لي «محرّر صحفي» زادت الطينةَ بلّةً. جعلت قواي تنهار. أخطو وراء دليلي عبر دهليزٍ طويل. أشعر أنَّ قلبي يكاد يطير من قفص صدري.

وأخيرا يَفتح الضابط بابا من الأبواب. يدخل منه وبعد لحظة قصيرة يخرجُ.

ـ تدخل مسألةُ السيِّدِ في نطاق مهمات العقيد بيروجيني. عليك بالباب الآخر. إلى اللقاء!

أمام عيوني لوحةٌ تحمل الكتابةَ التالية: «الكولونيل بيروجيني»، ترمقني بنظرات جافة وخالية من اللطف. تنقضُّ عليَّ من الأفكار أسودها ومن

الأحاسيس أسوأها ومن التوقُّعات ما لا يريح النفس ـ وبالتالي، وانا مرتبكٌ بسبب ظهور الضباط الذين رأيتهم سائرين في الدهليز، بعزمٍ وتصميم قرعتُ الباب. دخلتُ.

غرفةٌ واسعة مزيَّنة بشتى الخرائط الليبية. مكتبٌ مغطى سطحه بقماش أخضر اللون. أرى خلفه رجلا جالسا بزيِّه العسكري، يبدو أنه بشوشُ المحيّا، قصير القامة، بدأ الشيبُ يهاجم رأسه.

أنحني أمامه احتراما ثم تسمّرتُ واقفا دون أنْ أعرف كيف أبدأ الحديث.

ـ تفضّل، ليجلسْ السيد، يا أيها «المخرج الصحفي» ـ يرحّب بي بهذه الكلمات اللطيفة.

أكشف له الحقيقة عن نفسي وعن مهنتي.

ـ أيها السيد العقيد، ـ صحيح أنني كنتُ أنشر كتاباتي في جريدة الرياضة التي بعد فترة توقَّفت عن الصدور. كان عمرها قصيرا. أما غايتي من الإدعاء بأنني صحفيٌّ فكان الهدف منه الحصول على موافقة سريعة للمثول هنا. أعْذِرني على هذا.

يبتسم، يهزُّ رأسه.

ـ هل أنهى السيِّدُ الخدمة العسكرية؟ ـ يسألني في بداية الحديث.

ـ نعم! ـ أجيبه.

ـ نوع الوحدات التي خدمتَ فيها؟ ـ يسأل ثانية.

ـ مدرَّعات ـ أجيب.

ـ هل لا يخشى السيِّدُ الصحراءَ وصعوباتِ السفر وفقد وسائلِ الراحة؟

ـ لا، لا أخشى!

ـ وهل السيِّدُ مصمِّمٌ فعلا على زيارة الصحراء؟

ـ نعم!، أيها السيِّدُ العقيد.

ـ وهل سيكتبُ السيِّدُ عنّي في مراسلاته ـ يسأل بمزاحٍ.

ـ هذا سيعتمد على نتيجة حديثنا ـ أجيبه مازحاً.

ـ وداعاً يا سيد ـ ينهض من مكانه فجأةً.

ـ هل. . . هل منْ أملٍ ما؟ ـ سألته مرتبكا كلّيا. أتلعثم في الحديث.

ـ إلى اللقاء، أيها الصديق، كنتُ أتمنى أنْ أكون في عمرك ـ يختم كلامه ضارباً يده على كتفي ضرباتٍ هادئة ولطيفة.

أعود مهموما ومثقلَ البال، بِحَنَكٍ متدلٍّ نحو الأرض ووجهٍ متطاول وقنوطٍ أصمّ في الروح وبشعورٍ ملؤه اليأس في قدراتي على إقناع الناس. يهدّئني مارسيلو ويواسيني بكل الطرق.

فجأةً يرنُّ الجرس حوالي الساعة الرابعة.

ـ جنديٌّ ما يريد مقابلتك ـ تعلنُ خادمةُ البيت.

أتجه نحو الباب. وإذ بجنديٍّ واقفٍ باستعداد، حزامُه مربوطٌ تحت ذقنه، يمدُّ يده، يسلّمني مغلّفا برتقالي اللون ثم يأخذ تحية ويغادر دون أنْ ينبس ببنت شفة.

أفتحُ الرسالة بسرعة وبيَدَيْن مرتجفتين لأستطلع ما فيها. أكاد لا أصدق ما تراه عيوني.

قيادة الجيش في تريبوليتانيا

رخصة

يُخوَّل الصحفيُّ البولنديُّ برونيسواف كريستين فيجايسكي حقَّ استعمال وسائلَ المواصلات العسكرية مجاناً مع المبيت مجاناً في كلِّ مركز من مراكز الحصون العسكرية وإعفاءه من تكاليف التغذية في المطاعم العسكرية وثمن المواد الغذائية من المخازن العسكرية.

أمرٌ عسكريٌ

قائد أركان القوات المسلحة

العقيد ز. غامبيللي

ذُيِّلت الرسالة بتوقيعٍ غير واضح وبختم بلون بنفسجي لقيادة الجيش.

ما توقّعتُ هذا الخبر. جعلني أشعر بنشوة عارمة وسعادة حقيقية وكادت نفسي تطير فرحا. فأمسكتُ بيد السيدة سانسون ورقصنا معا رقصة ههمجية وبشدة ضمَّيت مارسيلو إلى صدري وقبَّلتُ كلبته «سورمان» وخسرتُ لعبة ورق مع السيد سانسون.

ما عليَّ الآن إلا أنْ أرتِّب حقيبتي ـ طبعا بالأشياء الضرورية فقط.

بعد عدة محاولات طوي الثياب الداخلية والخارجية مع تنضيدها ووضعها في الحقيبة لاختصار حجمها ووزنها إلى أدنى حدٍّ ممكن، جاء دور قناني محلول النشادر والمشروبات الكحولية والحقنات العضَلية المستعملة ضد سموم الأفاعي والعقارب ومسحوق زيت الخروع ومرهم الفازلين، لصقات وضمادات طبية، قطن، أقراص ضد وجع الرأس، صابون، معجون لتلميع الأحذية، معجون أسنان، علبتان من شفرات الحلاقة، جهاز تصوير مع أفلام احتياطية، سكّين، شوكة وملعقة، قَربة لحفظ المياه، وأخيرا أقلام رصاص، ورق، مغلفات.

بعد أن وضعتُ هذه اللوازم في الحقيبة لاحظتُ أنني بحاجة إلى معْطفين. فأخذت الرخصة وحملت نفسي متوجِّها إلى أقرب ثكنةٍ عسكرية. بدا المسؤول عن المخزن لطيفا ومثقفا. كان لابسا نظاراتٍ. تجاذبنا أطراف الحديث لمدة ساعة عن روسيا والشيوعية، ثم خرجتُ محمَّلا ببطانيتين جديدتين.

كانت خطوتي الثانية إلى مرآب السيارات لأستفسر متى ستنطلق وسيلةُ مواصلات ما نحو الجنوب الشرقي. قيل لي أنه في الوقت الحالي لا يوجد مخططٌ للإنطلاق إلى تلك الأقاليم من ليبيا، ولكن ربما في الأسبوع القادم سيتم نقلُ بعض الضباط إلى بويرات الحسون.

أعليَّ أنْ أنتظر أسبوعا كاملا دون أنْ أحرّك ساكنا؟! هذا غير معقول. الوقت من ذهبٍ. تكاد روحي تطير إلى رمال الصحراء.

تبيَّن ولحسنِ حظي أنَّ للسيد سانسون صديقاً غنيّاً من رجال الأعمال اسمه أستوني. هو صاحب شركة نقل خاصة. وكانا كلاهما قبل عشرين سنة قد قَدِما معا إلى تريبوليتانيا بحثاً عن الخبْزِ وسبلِ النجاحِ في الحياة. وخلال فترة قصيرة ابتسم الحظُّ لأستوني، على الرغم من كونه أُمّيا تقريبا فقد وُفِّق في تأسيس وإدارة شركةٍ ضخمة للنقل والمواصلات التجارية الداخلية، أصبح مليونيرا وما زالت الشركة تدرُّ عليه أرباحا كبيرة. الآن يملكُ خمسين سيارة شحنٍ مزوَّدةٍ بعرباتٍ مقطورة، له ورشات تصليح، مرائب ومكاتب وغيرها.

نقصدُ معا بورتا بينيتو الواقع في الجهة الثانية من أحد الأبواب القديمة للمدينة.

بدا أستوني رجلا قصير القامة غليظها، ببشرة مائلة إلى الإحمرار، وجهه مملوء بالنمش، عمره بحدود الخمسين. فور وصولنا هرع يرحِّب بالسيد سانسون بحرارة.

ـ اسمحْ لي، ياعزيزي أستوني، أنْ أقدِّم لك صديقَنا البولندي الذي على متن سياراتك سيزور الصحراء الليبية.

ـ ماذا؟! هذا غير ممكن. سياراتي سياراتُ شحنٍ، لا يحقُّ لي أنْ أستخدمها في نقل الركاب.

ـ وهل سترفض حتى لو طلبتُ أنا بنفسي تقديم هذه الخدمة باسم الصداقة التي تربطنا؟ ـ علّق السيد سانسون وهو في حالة ارتباك.

تحوّل الحديث فورا إلى مواضيعَ أخرى. مرّة عن أحداث الساعة والمخاوف من نتائج الأزمة ومرَّةً أخرى تركّز على بالبو ثم انتقل الرجلان إلى مناقشة الوضع المتأزم لأصحاب البيوت، باعتبار أنَّ كلا منهما يملك أبنيةً في طرابلس.

بعد مضي ربع ساعة أرى السيد سانسون يهيىء نفسه للوداع.

- إلى اللقاء يا أستوني. إذن كما اتفقنا.

لم أفهمْ على ماذا اتفقا، كيف ومتى!؟

- نعم! - يؤكد أستوني - يمكن للسيد «بوللاكو» أنْ يعتبر سياراتِنا تحت تصرّفه، ولكن عليه أولا أن يحاول الوصولَ إلى مصراته، إذ الخط لنقل الركاب لمصراته مُحتَكرٌ من قِبَلِ شركة أخرى "Societa Transporti". إذا شاهدته هذه الشركة على متن سياراتي فسأُجْبر على دفع غرامة عالية.

بعد أنْ حصلتُ على كتاب توصية من لَدُنْ السيد أستوني أتوجَّهُ برفقة السيد سانسون إلى "Societa Transporti". حديثٌ قصير مع السيد فرانكو، مديرِ النقليات في الشركة. تمَّ خلاله الإتفاقُ أن عليَّ غدا أنْ أمثُل هنا للإنطلاق إلى مصراته.

أأستطيع يوما ما أنْ أعيد فضلَ السيد العزيز سانسون وعرفان جميله؟!

كان صباح اليوم التالي. يدمدم المحرّكُ - أنا جالسٌ في الباص المتوجه إلى مصراته.

كان علينا أن نتحرك في السابعة. هي الآن الثامنة، إذ قبل عدة دقائق قَدِمِ الباص إلى المحطة التي منها عادة ينطلق.

يرفعون أكداس البضاعة المختلفة على ظهر الباص، يربطونها - أما حقيبتي فقد تواجدت عند برميلٍ مليء بالبنزين - ويشحنون فوق هذا كله أكياسا معبأة بالطحين. جهّزوا على قمّتها مكانا مفروشا بالحصير لرجلٍ عربيٍ مريض.

بدأت تتساقط قطرات رذاذ سرعان ما تحولت إلى مطر غزير - ظاهرة نادرة في هذا البلد الجاف. يهتزُّ الباص يَمنةً ويُسرى. في الجهة الخلفية المحجوزة من قبل العرب والجنود ترتفع أصواتٌ صاخبة. يُسمع تبادل حادٌّ لمختلف الأفكار والآراء والمواقف. على كراسي الدرجة الأولى حيث جلستُ أرى ثلاثة

ضباط ومدنيا قد استسلم للنوم ـ كنت متأكدا بأننا نحن الخمسة نسافر مجانا.

يقف باصنا بين الوقت والآخر على مقربة من الحصون العسكرية. نزل عند أحدهم رقيب أول «للعسكر» ليسلِّم كيسا من الرسائل للجنود المنتظرين على الطريق ويستلم منهم كيسا آخر.

الخمس، لبتيس (المشهورة بالآثار الرومانية)، ساكل، زليتن ـ إحدى كبرى واحات تريبوليتانيا، فيها يُسلِّم المريض الذي معنا لجماعة تنتظره. أنه في حالة يرثى لها. لباس المسكين مبلل، يرجف من الحمى ويبكي من الألم. تمنيت أنْ أعرف نتيجة هذا العلاج الطبيعي الذي تعرض له عندما تساقطت فوق رأسه سيول من مياه المطر وهو على سطح الباص.

يتسلَّق درجَ الباص بصعوبةٍ زنجيٌّ صغير لابسا على رأسه قبعة بيضاء كتب عليها باليد وبحبرٍ أخضر: "Central groom".

ـ من مَنَحَكَ هذه المهمة الرفيعة؟ ـ أسأله.

ـ أحدُ الرجال، سيِّدٌ عظيمٌ، إنكليزيٌّ ـ يجيب.

يلفُّ الباص عبر أزقة ملتوية وسط بيوت بيضاء. وأخيرا يخرج وراء السور المحيط بالبلدة. بقيتْ الواحة الطويلة خلفنا.

نجتاز سائحا سائرا على قدميه في الطريق. يبدو أنَّ اتجاهه مدينة مصراته ـ سروال قصير، حقيبة سياحية على ظهره، في رجليه أحذية قوية بأرضية مسمَّرة، شعْرُ رأسه مائل إلى الإحمرار، وجهه دائري أحمر اللون. توحي ملامحه أنَّه ألماني أو نمساوي. ربما هو واحد من هؤلاء الذين ـ على الرغم من جوعهم ـ تجدهم فرحين وسعيدين، يقاومون التعب بقوة الإرادة والعزيمة، يقيسون الأرض طولا وعرضا في مختلف الاتجاهات دون قرش واحد تقريبا في الجيب.

أتجاذب أطراف الحديث في نقاش مع أحد الركاب المدنيين. تبين أنَّه ضابطٌ في الطيران اسمه كالاسكيبيتا. كان يقصد مدينة مصراته مارينا.

على الرغم أنَّ مسقط رأسه تونس وفيها ترعرع، وربما لهذا السبب هو لا يطيق الفرنسيين. يصف أعمالهم في مستعمراتهم بالغريبة التي لا تُفهم وكذلك معاملتهم للعرب ونظرتهم الفوقية إليهم، ناهيك عن الجشع الذي أعمى بصائرهم ورغبتهم في كسب الأموال بكل وسيلة مُباحة.

ـ لأنني، ياحضرة السيد ـ يشرح الضابط موقفه ـ أتحدث بكل اللهجات العربية المستعملة في تونس وتريبوليتانيا وسوريا، تربَّيتُ في مستعمرة فرنسية وتعرَّفت عن كثب على نمط حياة السكان الأصليين. عَمَلْنا الكثير لرفع مستوى حياتهم. بَنَيْنا وما زلنا نبني المدارس العربية بلغتهم. اليوم لا تجد إنسانا يموت في الطريق جوعا وفي كل الأحوال سيجد المحتاجُ الرعايةَ الكافية لو لجأ إلى أيِّ حصن من الحصون العسكرية. فما معنى إذن حركة العصيان التي قام بها شيوخ قبيلة السنوسيين وغيرهم من ذوي الطموحات الرخيصة الذين تلقُّوا لقاء تمرُّدهم هذا أجرا دُفع لهم من قِبَلِ دولٍ أجنبية. فبعد أنْ عُلِّق بعض الشيوخ على حبال المشانق هدأ وخمد كلُّ شيء. ولِكَيْ تفرض سيطرتها على تونس، وحاليا كذلك على المغرب[١]، تُرسل فرنسا سيئيَّ الحظِّ من سرايا الأجانب أو من العرب المخلصين لها، وبدون تردّد تعرِّي المستعمرات من كل شيء قيِّم لتُغْني عاصمَتها. ويكفي ـ على سبيل المثال ـ ذكر كبح النمو الإقتصادي في المغرب، ناهيك عن الفضيحة التي ارتكبتها بحق العرب والسنغاليين المُرسَلين إلى جبهات القتال خلال الحرب العظمى. قُتلوا هناك جماعيا. نحن الإيطاليين نعتبر العرب مُساوين لنا، بينما فرنسا تنظر إليهم كأنهم مخلوقاتٌ أدنى. . .

يقطع السائق حديثنا، ينادي:

ـ بالبو! بالبو!

يخفّف الباص سرعته، نوجّه أبصارنا نحو الأعلى.

---

(١) بقيت تونس تحت الانتداب الفرنسي من سنة ١٨٨١ إلى ١٩٥٦، أما المغرب فمن سنة ١٩١٢ إلى ١٩٥٦م.

يحلِّق فوق رؤوسنا، في الأجواء الزرقاء الصافية، سرب من خمس طائرات تتقدمها طائرة بيضاء تحمل على متنها بالبو. يبدو أنَّ الوالي في طريق عودته مِنْ رحلة كشْفٍ واستطلاع قام بها في سيرينايكا.

تشتهر مصراته بصناعة السجاد الجداري. كانت إلى فترة قريبة مدينةً مُهملة ذات روائح كريهة وسكانها يتجاوبون مع الثوار العرب. أما اليوم فهي ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في تريبوليتانيا. وشهدت قبل فترة غير بعيدة نموا سريعا جعلها تعيش ملء حياتها. ولكن أيام عزّها انتهت بعد انتقال سرية جيش المشاة إليها، لا بل راحت تسير نحو الهبوط. كان جنود المشاة شبابا في أول العمر وخدمتهم العسكرية إلزامية ونظامية. كل المساعدات التي وصلتهم والدعم المادي المستمر من عوائلهم وأهلهم كان يُصرف في حوانيت المدينة. التوفير ليس من صفات هذه التشكيلات من الجنود.

وليس بمقدور فرقة البوليس الفاشي المرابطة هنا أنْ تسخِّر هذا الانتعاش في حركة شراء البضائع المحلية في أمور أهم. فهي تتكون في الغالب من أفراد كانوا قبلا دون عمل وأجبرتهم ظروفهم على الإنخراط والتطوع في صفوف الجيش. كان هذا الحل الوحيد لوضعهم المادي الصعب. وهنا في مصراته فتحوا لأنفسهم مخزنا عسكريا خاصا ليشتروا فيه كل ما يحتاجونه بأسعار زهيدة.

ولكن هناك تباشير بتحسن الأوضاع، إذ تم اعتماد برنامج شامل لإعمار وتطوير المُسْتَعْمرة، ينصُّ أحد بنوده بضرورة تعميق وتوسيع المرفأ في مصراته. وهذا بالتأكيد سيكون له تأثير ملحوظ في تنشيط التجارة في المدينة كنتيجة حتمية لتزايد حركة السفن والبواخر.

يدلُّني الضابط كالاسكيبيتا على معالمَ المدينة. سوقٌ مركزي، كنيسة، حديقة عامة، مكتب بريد، بيوت بيضاء، ثكنات عسكرية.

- هل ترى هذا البيت ذا الشرفة والنافذة في وسطه المطلّة على داخل الفناء؟

قضيتُ هنا سنة كاملة في الأسْرِ عند المتمردين، تعلمتُ خلالها اللهجةَ العربية السائدة في تريبوليتانيا.

ندخل ثكنات الشرطة. يقودني الضابط إلى غرفة المطالعة ثم يختفي عن النظر.

قد عُلِّقت على الجدران شتى الخرائط وأرى على الطاولات مختلفَ الجرائد اليومية والصحف الشهرية الملونة التي يعود تاريخ إصدارها لسنتين أو ثلاث سنوات خلت. أمدُّ يدي لأقربِ مجلة عنوانها: "Le vie d,Italia". تصفَّحتها، وإذا بي تتراءى أمام عيوني كنيسة البرنارديين في وارسو. كانت المقالة تحمل العنوان التالي: «الفن الإيطالي في بولندا». فيها شرح مستفيض للمهندسيْن المعمارييْن باكياللّيرو وكاناليتتو[1]. أما كاتب الموضوع فهو فوجيميش زاووجيتسكي، البروفسور في الجامعة الأوكرانية في برلين[2]. المجلة من شهر نيسان/ أبريل (الطير) سنة ١٩٣٠م.

هاهو الباص الذي يسلك الطريق الواصل بين مصراته ومصراته مارينا يستعدُّ للانطلاق. فيه راكب واحد، كالاسكيبيته. أما أنا فقد انشغلتُ بالبحث عن الفندق الذي نصَحني به الضابط ووصَفه أنه الأرخص في المدينة.

بعد أن عبرتُ البوابة دلَّتني امرأةٌ واقفة تشبه العفريتة بهيئتها أنّه عليَّ أنْ أصعد الدَّرج إلى فوق، حيث يقع جناح الضيوف وحجرة المُشرف على الفندق. كان الدَّرج بزاوية حادة، يُحدث السير فوقَه صوتا مزعجا. أعاين فوق الباب لوحةً مائلة كُتِب عليها: Albergo. أندفعُ عبر الدهليز. لاحظتُ في وسطه صبيّاً عربيا

---

(١) Mercello Bacciarello (١٧٣١، روما ـ ١٨١٨، وارسو)، Bernardo Bellotto المعروف بـ Canaletto (1721، البندقية ـ ١٧٨٠، وارسو) ـ رسامان إيطاليان قَدِما إلى وارسو بدعوة من ملوكها وتركا خلفهما أثرا ذي قيمة فنية وتاريخية عالية ـ لوحات زيتية ضخمة تمثّل معالم وارسو الأثرية ووقائع من حياة سكانها وحكامها تزين اليوم قصورها وكنائسها ومتاحفها.

(٢) Włodzimierz Załoziecki لم أعثر على أي معلومة عن هذا البروفيسور في المصادر البولندية ولا عن الجامعة الأوكرانية في برلين.

جالسا على الأرض وبحماس لائقٍ بعملٍ فذٍّ يُخرج الأوساخ المتراكمة بين أصابع قدميه.

ـ أين المشرف، يا علي؟ ـ سألتُ الصبيَّ.

ـ Momentino!

يختفي الصبي. بعد لحظة يعود من جديد لابسا معطفا أبيض وسخاً ومزخرفا بطيَّات وعلى رأسه قبعة منقوشة من الأمام بحرف "P".

ـ أنا المشرف. ماذا يريد السيد؟ ـ يردُّ عليٌّ.

يتكون الفندق من أربع غرف، الواحدة أقبح من الأخرى ـ أوساخٌ، جدرانٌ عارية مليئة بالشقوق والخدوش، أثاثٌ معطَّل، مكسَّر.

ـ أيها السيد المشرف ـ لم آخذ معي المستحضر الطبي، الكريما الرمادية.

ـ ولِمَ أنت بحاجة إليه؟ ـ سألني المشرف.

ـ ألا تعرف أنَّ فراشا وسخا كهذا هو مرتعٌ محبَّب لمختلف أنواع الحُوَيْونات. . . ـ شرحتُ سبب قلقي.

ـ أؤكّد لك بأن فرشَنا نظيفٌ، لا يحوي أية حُوَيْونات وإذا تواجد فيه صُدفةً حُوَيْون ما، فهذا ليس إلا من باب النصيب، أيْ القسمة ـ يطمئنني.

لتكنْ اللعنة عليك وعلى «قسمتك»!

ـ أيُّ غرفة من هذه الغرف هي للإيجار؟ ـ سألته بجدية.

ـ كلُّها. في كل غرفة سريران. الغرفة الأولى محجوزةٌ من قِبَلِ شخص مرتوٍ من الخمر، مخَدَّرٍ؛ في الثانية تسكن امرأة متقدّمة في السن، في الثالثة رقيب أول اسمه بيانجيني مع زوجته. أما الرابعة ففارغةٌ. وإذا تنوي حجزها، عليك أنْ تدفع أكثر.

قررتُ بعد برهة من التفكير أنْ أبتعد عن السكران الذي تبين أنه عسكري برتبة رقيب أول، وقررتُ ألا أتدخل في الأمور الخاصة للرقيب الأول مع

زوجته، وأنْ لا أعكر جوهما. رفضتُ كذلك السكن مع المرأة العجوز. بقيتْ إذن الغرفة الرابعة، الوحيدةُ الفارغة التي تدخل في الحسبان.

ـ وقع اختياري على الغرفة رقم ٤. يجب أنْ يكون فرش السرير نظيفا. أريد أن أبقى فيها لوحدي ـ أعلنتُ.

ـ وإذا قَدِم شخص ما، فما الحلُّ حينها؟ ـ يُبدي المشرف تخوّفه.

ـ سأسدُّ الباب من الداخل بإحكامٍ، غير آبه بشيء. كمْ عليَّ أن أدفع؟ ـ سألتُ.

ـ خمس عشرة ليرة ـ سمعتُ من المشرف في البداية.

ـ ماذا؟؟!! ـ احتججتُ.

ـ عشر ليرات ـ ينادي.

ـ سأدفع خمسَ ليرات تحت شرط أن يكون الفرش نظيفا وأبقى لوحدي في الغرفة.

ـ هذا قليل، يا رومي ـ يعترض المشرف.

ـ كفاية، يا علي.

حدَّقتُ بنظري عندما راح المشرف يكنس الغرفة ويُلبِس السرير بشرشفٍ نظيف. والحق يقال فقد نفَّذ مهمته على ما يرام. قمتُ بإبعاد سريري إلى وسط الغرفة خوفا من الجدران، سيَّما الأخاديد التي فيها. بعد إجراءات التسجيل في الفندق ذهبتُ إلى مكتب الجيش في ساحة المدينة. هناك علِمتُ أنهم ينتظرون وصول سيارة قد انطلقت من الخمس متَّجهةً نحو هون. ستمرُّ خلال رحلتها على تاورغاء وبونجيم.

ـ عندما سألتهم عن موعد إقلاع السيارة أجابوني أنهم لا يعرفون. نصحوني أن أمرَّ عليهم بعد قليل. عندما كنت أتجوّل في المدينة والواحة التصقَ بي

يهوديّ منظِّفُ أحذية. لم يفارقني ولا خطوة واحدة، طالبا بإلحاح أن أوافق على تنظيف حذائي.

ـ هل تبغي تنظيف حذائك؟ ـ يسألني.

ـ لا ـ أجيب.

بعد ربع ساعة راح من جديد يسألني:

ـ هل تبغي تنظيف حذائك؟

ـ لا ـ أجبته من جديد.

أسرع اليهودي خطواتِهِ شيئا فشيئا حتى سَبَقني. جلس أمامي، فَرَشَ كرسيه في وسط الطريق، لَمَّحَ أنْ أضع رجلي عليه.

ـ هيّا، وافقْ. أريد أن أنظِّف حذاءك ـ يترجّاني بصوت حزين ملؤه البكاء ـ لماذا ترفض؟ لم يبقَ لي إلا القليل من الوقت. بعد تراجع الشمس ستبدأ عطلة يوم السبت.

ـ سأُجبِركَ تنتظرُ ساعتين أخريين عقوبةَ على تصرفاتك ـ صرختُ في وجهه لأتخلص منه.

حوالي الساعة الثامنة، بعد أن نسيتُ كليّاً ما جرى، إذا به مُقبلٌ بسرعة. قَطَع الطريق أمامي عندما كنت على مقربة من البريد.

ـ ماذا تريد هذه المرَّة؟ ـ سألته بغضب.

ـ ألـمْ تأمرني أن أنظِّف حذاءك بعد ساعتين؟ ـ يذكِّرني.

أخيرا استسلمتُ لمنظِّف الأحذية. بسطتُ رجلي أمامه. فِعْلاً كان حذائي يتطلَّب التنظيف.

على الرغم من زيارتي الثالثة لمكتب الجيش، لم ألتقِ بالملازم المسؤولِ غزاني ـ قررت أن أبحث عنه في منزله.

وجدْتُه في البيت. راح فور دخولي يقدم الاعتذار بسبب ما جرى وبعد أن عرَّفني على زوجته دعاني لأشرب القهوة معهما.

السيدة غزاني من روما. تذكر مدينة طفولتها بشوقٍ ولا تُخفي علاماتِ الفرح بسبب زيارة أيِّ إنسان لهم قادم من هناك مازال هواء عاصمتها في رئتيه. تقدِّم لي سيدة البيت نوعا من التمر الفاخر الذي ينمو في تاورغاء.

وكعلامة تقديرهما للضيف البولندي فتحا المذياع على موجة إذاعة وارسو. كان الحديث عن أحدث دهانٍ لتنظيف الأحذية، اسمه «دوبرولين»، وبأنّه يمكن شراء أفضل أربطة العنق من حوانيت خايناتسكي. أردتُ أن أحطِّم المذياع الذي ليس له أي ذنب في بث هذا النوع من الأخبار ولا يعرف أنني أريد سماع غيرها، أشياء أكثر أهمية.

تبين بأن الملازم لا يعلم متى ستصل سيارة الشحن غدا ومتى ستنطلق من هنا. فخرجنا معا للبحث عن الرقيب المسؤول المباشر عن السيارة. نمرُّ على مقاهي المدينة كلها والمطاعم، أخيرا وجدناه في الثكنة مستسلما لنوم عميق على حصير بجانب جندي، ينتظر هو الآخر قدوم السيارة ليسافر بها.

نوقظه من نومه. ولا نعرف هل كان يلعننا في قرارة نفسه أم لا، إلا أننا تأكدنا منه أن السيارة ستنطلق في تمام الرابعة.

ـ أيها السيد الملازم، أخشى أنني قد لا أفيق من نومي. ما العمل إذن؟

يلتفت الملازم إلى الجندي المسكين.

ـ أنهضْ، ضعْ حذاءك في رجلك، رافق هذا السيد لتعرف أين يبيت وغدا صباحا عليك أن توقظه في الثالثة والنصف.

ـ أمرك، سيدي الملازم.

نصل إلى باب الفندق. أشير للجندي موقع غرفتي.

ـ هنا أسكن. إلى اللقاء صباحا!

جواب الجندي الذي سمعته وهو ينزل الدرج، كان لعنة باللغة الإيطالية بصوت يدل أنه قد أُكْرِه على القيام بهذا العمل. إليكم ترجمته:

«مُتْ مقتولا وليكن أمواتك ملعونين».

[9]

سيارة تسيرانو هون

أُغادرُ مدينة مصراته في الرابعة صباحاً عندما كان يخيِّم على الطبيعة ظلامٌ داكن. امتطيْنا سيارةَ شحنٍ طويلة (ماركة تسيرانو) ملبَّسة بقماش القنّب ومحمَّلة بمعدّات طيران تنقلها من طرابلس إلى الخمس. يقود السيارة طيَّارٌ برتبة رقيب أول.

في داخل السيارة تسعةُ أشخاصٍ وكنتُ أنا العاشر. جلس في الحُجرة الأمامية المغلقة، إلى جانب السائق، ضابطان ومدنيٌّ بلِحْيةٍ طويلة، بينما استلقى البقيّة في القسم الخلفي من السيارة، بين الصناديق وأُطُر السيارات والحقائب والدراجات، بينهم أربعة جنود من تشكيلة «القربينية» مع حمّالٍ زنجيٍّ وعربيٍّ صغيرٍ في السنّ. أما مكاني فكان على صندوق خشبيٍّ بين خزّانين: يحوي الأول مياها للشرب والثاني كان مليئا بالبنزين. المساحة الضيّقةُ لا تجعلنا نشعر بالراحة وأنا لا أطيقُ تحريكَ رِجليَّ. تهتزُّ السيارة باستمرار ويتطاير من الخزّانين برْدٌ قشعريريٌّ.

نسير بمحاذاة سبخة تاورغاء. نلمح على سطح المياه تموّجات ناعمة هادئة خفيفة في هذه الساعة المبكرة من الفجر.

حوالي الساعة السادسة تتدحرج كرةُ الشمس البرّاقة من خلف الأفق البعيد مرسلةً أشعتها الحمراءَ لتغطي سطح السهب بشجيراته الناعمة الرمادية. تحت

كل شجيرة توجد حُفرةٌ كبيرة اتخذتها الجرذان وفئران الحقول مآوي لها. عجيبٌ هو نمط حياة هذه الحيوانات الصغيرة؛ تحت جنح الظلام تبحث عن فريسة ما لتتغذى بها ومع البصيص الأول لأشعة الشمس تتراجع إلى جحورها لتستسلم للراحة.

تكاد موجات البرد القارس تقطع مفاصلنا كالشَّفرة. يلعن الجنود الساعة التي وُجدوا فيها هنا. الزنجي يشكو طالعه التعيس، أما أنا فقد تيبَّست قدماي ويداي، غدوتُ مثل الوتر الجاف، دون حسٍّ ولا حركة.

استمرتْ هذه الحالة ساعتين كاملتين. سرعة سيارتنا لا تختلف عن سرعة قوافل الجمال، بحدود العشرين كيلومترا في الساعة. ومن حسن حظنا فقد بدأت حرارة أشعة الشمس في الارتفاع، كعادتها في أفريقيا. حولنا، ومن كل الجهات صحراء حَجَرية جرداء بلون أصفر رمادي على منوال واحد حزين، سطْحها مغطى برمالٍ ناعمة. بين مسافة وأخرى تقع عيني على شُجيرة وحيدة في هذا القفر.

قررتُ ربطَ أواصر الصداقة مع رفاق الرحلة: يمتاز الإيطاليون الأربعة بنفس مَرِحة وما انفكُّوا يشاكسون الزنجي المسكين واسمه سلام. يهزأون به بسبب اللون الأبيض لبشرة ابن أخته الذي عمره تسع سنوات.

ـ من أين لك وأنت زنجي ابن أختٍ ذو بشرة بيضاء؟

ـ أنجبتْ والدتي خمسةَ بنينٍ، يمتاز الكبار ببشرةٍ بيضاء، بينما الأصغر فهو مثلي زنجي.

ـ فهمتُ الآن. عندما راحت الوالدة في السنين فَقَدَتِ القدرة على الركض السريع، مما جعل الزنجي يلحق بها ويطولها ـ يبتسم صوريني ألت وسكاني (من أواسط إيطاليا) ذو الشارب الأسود والقامة الغليظة والقصيرة.

ـ والدَتي من السودان ـ يجيب الزنجي الممتعض.

يخيِّم على الجميع سكوت طويل. المناظر خارج السيارة هيَ هيَ كما

كانت. نشاهد بين الفينة والفينة طيور الغربان السود، العلامة الوحيدة الدالة على وجود الحياة هنا.

يُخرج سلام كيسا مليئا بالتمر. تفضّلوا!

يطقطق الرَّمل بين الأسنان ـ كان البلح من النوع الفاخر الناعم والحلو جدا.

انطلق سوزيني المقيم منذ سنوات في طرابلس يقصُّ علينا تاريخ وظروف احتلال فزان.

ـ قد يسخرون منا في أوروبا ـ يبدأ حديثه ـ بسبب المدة الطويلة التي استغرقتها عملية القضاء على حفنة من العرب. لكن عدوَّنا الأكبر بمئات المرات لم يكن الإنسان بحد ذاته، إنما الجوع والعطش وشدة الحر والرمال ورياح «قبلي». الخدمة العسكرية في الصحراء مُتعبة جدا ومملّة، لكنني مع هذا أحببتها كثيرا. كان بإمكاني أن أستقيل من الجيش وأُحال إلى الحياة المدنية، إلا أنني قمتُ بتجديد العقد وللمرّة الثالثة، على الرغم من قناعتي بأنني لن أترقّى بسبب عدم تحصيلي العلمي.

نقترب حوالي الساعة الحادية عشرة من حصنٍ يدعى بير الغداغية، مشادٍ فوق هضبة ليُخضع تحت سيطرته المساحات الواسعة المحيطة به. لم أعاين هنا ولا شجرة بلح واحدة والبئر الوحيدة تدلُّ على وجود الماء في هذه الأرض القاحلة الجرداء. بمائه تُسقى حدائق صغيرة نحيلة محاطة بسور من النباتات الشوكية الجافة.

على حافة الطريق يوجد كوخٌ صغير مبني من الألواح الخشبية هو دكان يحوي كل أنواع البضائع ويديره رجل يهودي طبعاً.

ينضم إلينا راكب جديد ونتابع رحلتنا المُتعِبة. تحت خيمة سيارتنا نشعر بصعوبة في التنفس بسبب ضيق المكان. فكَّرتُ أنْ أتخلَّص من هذا الجو الفاسد، فصعدتُ فوق السطح. فرشتُ عليه البطانيات ثم تمددت واستسلمت لسبات عميق. يبدو أنَّ جسمي المنهك بحاجة إليه. عندما استيقظتُ لاحظتُ

أنني لم أكن لوحدي على السطح، إذ قد طرح نفسه بجانبي فالسيدا، أحدُ الجنود. كان نائما على بطنه وذقنُه مسنود على يديه.

وجه الصحراء مسطَّحٌ كالطاولة وقد طُبعت عليه آلافٌ من آثار عجلات السيارات، كأن الأرض قد مُهِّدت للقيام بمسابقات ما، إلا أنَّ سيارتنا المثْقَلة تقطع بصعوبة عشرين كيلو مترا في الساعة.

في لحظة من اللحظات عبرنا على جيفة شاةٍ مفتوحة البطن تجمعت الغربان حولها وتقتات بأعضائها الداخلية الممزَّقة. بدأت تهب ريح باردة خانقة مثقَلة بسحابات من الغبار. هنا وهناك زوابع هوائية ضعيفة. وقعنا في قلب إحداها ولم تنفك عنا إلا بعد أن ألقت علينا حمولَتها من الرمل الناعم الذي ملأ حلقي وعيوني.

عندما تمكنتُ من فتح جفوني شاهدت واحة تحيط بنا من كل جهة: هيئات من النخيل، بِرَك أو بحيرات من المياه الضحلة. حدقتُ بنظري وإذا بسطح الماء يهتز بحركة غريبة. أيقظتُ فالسيدا.

ـ ما هذا؟ ـ سألته.

ـ ينظر بعيون كسولة. يتثاءب.

ـ سراب. ظاهرة عادية في هذا الجزء من الصحراء. يبدو أنك طازج وغير آلفٍ مثل هذه المناظر التي تعودتُ أنا عليها. يشاهد السرابَ كلُّ امرئٍ بدون استثناء. مَنْ كانت قرْبتُه مليئة بالمياه يستهزىء. أما الذي يقتله العطش يطير كالمجنون لقناعته أنه سيصل إلى المياه بعد لحظة. ولكن مهما طال ركضه لن يشاهدَ سوى الرمال والحجارة أمامه.

يقطع حديثنا صراخ سلام.

ـ قفْ! قفْ! البنزين يتسرب من البرميل!

كان مكان سلام بجانب البرميل، مسنودا إليه. شعر بالسائل يتسرب تحته بعدما ترطّب لباسه.

نزيح البرميل، نقلبه رأسه على عقبه. كانت فتحتُه الواقعةً في صفحة قعره السفلي مسدودة بمادة فلّينية. نأخذ سدادة حديدية، نلفُّها بمادة لدائنية ثم نضغطها بإحكام في فوهة البرميل. نستغل فترة توقف قصيرة ونتمشى فوق الرمال الخشنة ليتحرك الدم قليلا في أرجلنا الجافة. أما سلام فقد رضي أنْ يبقى بجانب برميل البنزين للتأكد من سدِّه بإحكام.

بعد خمس دقائق من مراقبته للبرميل نادى فرحا:

ـ توقَّف تسرُّب البنزين نهائيا!

نرفع البرميل إلى السيارة ونكمّل رحلتنا. خَطَرَ على بال الجنود لعبٌ لم يخلُ من المغامرة وقصر النظر. بدؤوا يشعلون عيدان الكبريت ويقرّبونها إلى سروال سلام المبلّل بالبنزين.

يصرخ الزنجي بصوت غير إنساني ويهبُّ للصعود على سقف السيارة، إلا أن سوزيني يمسك بكلتا رجليه ويسحبهما ليمنعه.

ـ سأسقط من السيارة، سأموت ـ يصيح سلام خائفا مذعورا.

ـ يالها من خسارة لا تُعوَّض. سينقص عدد السود في العالم. سألقي بك من السيارة لتبقى في الصحراء هدية لبنات آوى التي ستذكر بالخير اسم الجندي سوزيني.

نقترب من حصن يُسمى بو نجيم. يقع على مرتفع محاط بسور من الأسلاك الشائكة. توجد بالقرب منه واحة تحمل نفس الاسم، نِصْفها التهمته الرمال. نصب البدو خيامهم تحت النخيل.

الفناء الداخلي للحصن مربّعٌ بزوايا مستقيمة وانتشرت حوله أعداد كبيرة من الأبواب. في الوسط بيت صغير خشبي هو مقرٌّ للضباط.

يرحِّب بي الملازم جيفوني ترحيبا حارا ويضع تحت تصرفي غرفة جميلة مريحة مُخصَّصة للضباط الضيوف. يتكون أثاث الغرفة من سرير عسكري مطليّ

بلون أبيض مع كرسي وطاولة ومغسلة يمكن فكّها وتركيبها بسرعة في الخزانة الجدارية. الأثاث هو نفسه في كل حُجرة من حُجرات الحصن الكثيرة. صاحب هذه الفكرة هو الكابتن كاساريتي.

يطلُّ بابُ غرفتي على الفناء وتقع نافذتها في نفس الجهة. الفناء محفوف بشجيرات الأوكالبتوس ويعجُّ بالعسكر الإريتري ـ الطاقم الأساسي في أغلبية الحصون. الإريتريون يشبهون الإثيوبيين بملامحهم: أجسامهم طويلة نحيفة، أرجلهم رفيعة مثل ساق الغزال. هم مشاة رائعون وشجعان ويمكن الاعتماد عليهم سياسيا. إنهم مسيحيون على المذهب القبطي ويَعزُّون كثيرا رئيسهم الروحي الذي يدعونه «كاسكي».

على مقربة من الحصن وخلف الواحة يوجد مطار مؤقت. تبدو على إحدى حافات حدوده دائرة بقطرٍ كبير محيطها معلوم بالحجارة ـ في السابع من شهر يناير/ كانون الثاني (أي النار) جرى هنا حادث مرعب.

انجرفت طائرة من طراز كابروني س آ ٩٧ يقودها الملازم بابيي. انجرفت على المروحة وسقطت شاقوليا من ارتفاع عشرين مترا على الأرض بعد إقلاعها بعدة دقائق، تاركة في الرمل حفرة عميقة غدت قبرا لضابطَيْن وثلاثة رقباء أول وطيار مخضرم في مهنته. أدى الحادث أيضا إلى موت كلْبَيْن كانا على متن الطائرة.

مازالت بقايا حطام الطائرة مبعثرة هنا وهناك مع بعض القطع من الألبسة.

كان الجنود المسافرون معي يعرفون طاقم الطائرة معرفة عميقة. أراهم يدورون حول مكان الحادث وبأسف وحسرات يرفعون قطع الألبسة ويذكرون اسم صاحبها الذي بلعته الصحراء.

ـ حزام الملازم ميلوديا، لَبِسَه لأول مرّة! هل تتذكر كم كان يضيف للملازم أناقة؟

ـ ها هو ردْن قميص الطيار المخضرم أندري ـ أليس كذلك؟

ـ أتشاهدون هذا المكان ـ ينادي أحد شهود العيان ـ إلى هنا تلوَّح رأس الملازم بابيي.

يعصر القلوب حزن ثقيل. أغادر هذا المكان الدامي متجها نحو أنقاض حصن روماني قديم. كانت أسس البناء محفورة في الصخور الضخمة التي غطاها الرمل. يبدو فوق سطح الأرض جدار مازالت العبارة التي حُفرت عليه مقروءة: "Settimius Severus fecit".

كما قبل قرون ساحقة في القدم، حيث كان الناس يموتون هنا من أجل رفع عظمة واسم روما، كذلك اليوم يكاد الشعور باستمراريتهم الحضارية على مسرح التاريخ (وهي إحدى ميزات الروح الإيطالية) يعطي القوة والاندفاع للضباط والجنود على حد سواء، الذين ابتعدوا عن بلدهم لمواجهة صعوبات الحياة في هذه الصحراء.

نجتمع على طاولة العشاء. عددنا خمسة أشخاص. الملازم الأول جيفوني ونائبه، الملازم تروفاتو، الدكتور جيوديس، والرقيب الأول سيوسي الذي توقف هنا لفترة قصيرة قبل سفره إلى إيطاليا البعيدة ليقضي فيها عطلته.

ـ أتدرِي ـ يلتفت إلي سيوسي قائلا ـ عندما كنتُ أخدم في حصن أوباري قدِم في أحد الأيام بولندِيان. عندما سمعا اسم عائلتي أصرّا بأنني من أصل بولندي.

ـ من أية حروف يتكون اسم عائلتك ـ سألته.

أمسكَ الملازم القلم وبدأ بدقة ووضوح يخطُّ الاسم ثم ناولني الورقة.

ـ حقا، لا يشبه هذا الاسم الأسماء الإيطالية. كما هو معروف فقد أقامت بعض السرايا العسكرية البولندية في إيطاليا واستوطن في بلدكم بعض البولنديين الذين أُجبروا على مغادرة وطنهم نظرا للخطر الذي كان يهددهم من لدُنّ الذين استعمروا بولندا[1]. وليس بعيدا أن يكون أجداد الملازم من هؤلاء. وما قد

---

(١) في سنوات الحرب العالمية الثانية تم تأسيس جيش بولندي في الاتحاد السوفييتي على يد =

يدل على الأصل البولندي هو اللون الزاهي للبشرة والشعر وميزة سقوط شعر الرأس[١].

تثير الكلمات الأخيرة المرح عند الجميع.

تحوّل حديثنا إلى موضوع الدراسات الجامعية. كان النقاش ممتعا وحادا في نفس الوقت بسبب الاختلاف في وجهات النظر. يرى سيوسي بأن المواظبة على المحاضرات يجب أن تكون إلزامية، بينما يقول الدكتور بأنَّ هذا مفيد فقط للمعتوهين عقليا، إذ هو بنفسه نال شهادة الطب بدرجة عالية دون أنْ يواظب على كل المحاضرات.

يدير تينيتي تروفادو إبرة الحاكي (الفونوغراف). جلسنا بارتياح لنسمع معا أنغام أوبرا سين ـ سين ـ لا المسجّلة كاملة على حوالي خمس عشرة اسطوانة.

يمتاز تينيتي جيفوني، ككل مواطن نابولي، بصوت جميل Santa Lucia sul limpido mar - . راح بصوت صادح ملوّن بعبارات الشوق وآهات الولع يغنّي لمسقط رأسه المطل على الخليج الفيروزي.

= الجنرال البولندي أنِدِرْس (Anders) بلغ تعداده مائة ألف فرد سُمي بالجيش الثاني. وتوصل مؤسسه إلى اتفاق مع القيادة الروسية على مغادرة الجيش لأراضي الاتحاد السوفييتي ليقارع الألمان خارج الحدود البولندية تحت شعار «من أجل حريتكم وحريتنا». فتحرك بكامل عدته العسكرية إلى إيران ومن هناك إلى العراق فسوريا فلبنان ففلسطين فمصر فليبيا فإيطاليا وأخيرا إلى انكلترا، مشاركا في كل مكان في المعارك ضد الألمان. بعد نهاية الحرب لم يخفِ قادة هذا الجيش ومعهم العديد من الساسة البولنديين السابقين عداءهم للشيوعية وعدم اعترافهم بالحكومة الجديدة في وارسو، فقرروا البقاء في بريطانيا، حيث أسسوا في لندن حكومة بولندية في المنفى. بعد انتخاب قائد حركة «التضامن» لِخ فاوينسا (Lech Wa??sa) رئيساً للبلاد بعد سقوط النظام الشيوعي قدِم إلى وارسو رئيس الجمهورية في المنفى (اسمه ريشارد كاتشوروفسكي Ryszard Kaczorowski) من لندن ليهنئه ويسلّمه رسميا راية الرئاسة. كان هذا خلال حفل تأدية القسم من قبل الرئيس الجديد في يوم ٢٢/ ١٢/ ١٩٩٠.

(١) هذه ليست ميزة عامة عند البولنديين.

تصل إلى الحصن حوالي الساعة العاشرة سيارة شحن «فيات» بلون أحمر، سيسافر فيها تينيتي سيوسي إلى طرابلس.

ها هو القطار سينطلق. اركبْ!

ـ سكاكر، برتقال، سندويش!

- Corriere della Sera! La Gazzetta del Popolo!

ـ مخدّات، مخدّات!

نشكّل حلقة وندور حول السيارة ركضاً ثم نطلق أصواتا مرعبة جعلت سيوسي ينفجر ضحكا وقهقهة تعبيراً عن فرَحِه باللحظة القريبة عندما ستطرق آذانه نفس الأصوات المنبعثة من الجموع المحتشدة في محطات القطار الإيطالية.

بعد مغادرة سيوسي جلسنا نلعب ورق. على الرغم من شعوري بالتعب والملل وافقتُ أن أكون اللاعب الرابع. العثور على شخص ينوب عني في هذا القفر شبه مستحيل. أمسكتُ الورق بيدي لئلا أخيب أمل البقية وأصغي لتعليمات شريكي في اللعب وهو الملازم تروفاتو الذي ليس من عادته أنْ يغفر أيَّ خطأ مهما كان تافها.

قررت أخيرا الانسحاب من ساحة المعركة. عليَّ من جديد وبعد ساعتين فقط من النوم أن أمتطي ظهر سيارة تسيرانو التي بدأت في الساعة الرابعة فجراً تهدر أمام النافذة مثل الثور المذبوح.

مهما أدرتُ رأسي لا ألمح شيئا سوى النجوم المتلألئة في السماء الداكنة. لا يُسمع داخل السيارة سوى هدير المحرك ومواء قطٍّ جذبته نكهة السندويشات اللذيذة التي حضَّرها فالسيدي لنفسه. فسَّرْنا هذا المواء بتضرعات القط الذي يطلب الرحمة بسبب جشعه وسرقته المستمرة للمواد الغذائية من مطبخ الحصن. راح كلّ منا يوجه إليه اللعنة تلو اللعنة، بينما هو فقد أخفى نفسه بإحكام بين الصناديق كي لا ترمقه عيوننا بنظرات العتاب والاشمئزاز. وأخيرا

بعد مضي ساعة من السيمفونية المهلكة يبدو أنَّ حنجرة القط قد جفّت وبحَّ صوته فاستسلم لهذه الرحلة المجهولة المصير.

اخترتُ لنفسي هذه المرة مكانا مريحا. جلستُ على حافة الفتحة الخلفية للسيارة بعكس اتجاه السير. تركتُ رجلّي تتدلى إلى تحتٍ بِحرّية. شعرتُ بسعادة تنتابني. انطلقت حنجرتي تغني تلقائيا وبحزن أغنية «اللواء البولندي الأول» [1]. لن تهزأ الصحراء مني حتى إذا جاء تشويش في أدائي للأغنية.

ـ ما هذا ـ يسألني سوزيني.

لاحظتُ بأن سوزيني يسمع أغنيتي بآذان مفتوحة. ولِم لا، إذ لجندي مثله في الجيش الاستعماري كامل الحق لينصت إلى الحكايات عن القائد العظيم[2]، عن ملحمة السرايا البولندية.

ـ بدأتُ أقصُّ عليه حكاية البطولات عن الجيش البولندي الذي انطلق يقارع الموت بعزم وفرح. عن التضحية العالية للجنود وإيمانهم الذي لا يتزعزع. الدم المسفوك لن يذهب هدرا...

ـ يطابق سردُك الميزات التي تحلى بها قائدنا فرانسيسكو أوبيردان! ـ يؤكد الجندي الإيطالي بحماس واهتياج.

أصبحتْ الأرض الحَجَرية خلفنا. حلّت محلّها هضاب وتلال تُصَفِّر بينها بإيقاع جميل رياح قوية محمَّلة بالرمال.

بين الفينة والأخرى نعاين أنقاض حصون رومانية رابضة فوق القمم، أو حصون إيطالية حديثة صغيرة محاطة بأسوار من الأسلاك الشائكة، دون أن

---

(١) «اللواء الأول» (Pierwsza Brygada) هي أول قطعة عسكرية تشكلت على يد يوسف بِيوِسودسكي سنة ١٩١٤ لمحاربة الروس عندما كانت بولندا قد مسحت كدولة من على الخريطة. «اللواء الأول» هو كذلك عنوان أول نشيد عسكري ثوري يعتز به البولنديون كتبت كلماته الحماسية سنة ١٩١٧.

(٢) يقصد يوسف بِيوِسودسكي. تكلمنا عنه في الحاشية رقم ٧ من الفصل الخامس.

ترفرف فوقها الراية ذات الألوان الثلاثة، مما يدل على أنها خالية من الجيش.

نعبر في طريقنا هياكل عظمية لجمالٍ وبراميل حديدية كبيرة ـ هنا الموت وهنا المياه الواهبة الحياة.

ينتهي شريط التلال المنفردة. تتحول هذه الأصقاع تدريجيا إلى أرض هضابية مسطّحة متموّجة برقّةٍ مغطاة هنا وهناك بحجارة شاهقة لونها أسود وقممها مدبّبة حادة.

نجتاز وادياً يدعى بير التايب. اخضرّت الأعشاب في قاعٍ جاف لنهرٍ ما، نمت نباتات بجذوع طويلة مثبّتة بقوة في الأرض، تحمل ثمارا تشبه بشكلها ولونها القرع الصغير.

تمتد أمامنا من جديد مجموعات من الروابي الرملية، خلفها، وراء الأفق تبدو أشجار النخيل.

بعد مضي نصف ساعة أقفز من السيارة عند مفترق طرق. أتجه نحو بيوت مربعة الشكل ومنخفضة تابعة لمدينة هون، بينما تستمر تسيرانو في اتجاه الحظائر البيضاء للطائرات المرئية من مسافة حوالي ألف متر.

تجمّع في منطقة الجفره التابعة لسيرتيكه أكبر عدد من الواحات في ليبيا. تدخل في عدادها كل من هون وسوكنه وودان. لو انحدرنا من الجهة الشمالية الشرقية أوّل واحة نعبرها هي ودان، تليها على بعد اثنين وعشرين كيلومترا واحة هون وتبتعد سوكنه عن هون مسافة ستة عشر كيلومترا باتجاه الجنوب.

التمور هي الإنتاج الوحيد تقريبا للواحات. ليست مواصفات المياه من النوعية العالية: طعمُها مالح قليلا باستثناء واحة سوكنه التي تمتاز بمياهها العذبة، ولهذا تُوزع على الواحات الأخرى. بدأت أعمال الحفر للتنقيب عن مياه الشرب في واحة هون منذ سنة ١٩٣٣. وعلى الرغم من الوصول إلى عمق ٣٣٠ مترا تحت سطح الأرض لم يتم العثور على المياه العذبة.

هون هي عاصمة جفره، بعدد من السكان يصل إلى حوالي ألفي نسمة.

عملهم الأول حياكةُ السجاد والبرانس، وينتجون بالإضافة إليها كميات لا بأس بها من الصناعات الجلدية. كانت هذه الواحة قبل خمس سنوات مركزا لصف الناشر (قد يكون الاسم: سيف النصر)، قائد المتمردين العرب، وكان سكان واحة سوكنه المجاورة ينظرون إليه بعين الكراهية والغضب فقدَّموا المساعدة الكافية للجيش الإيطالي في عملية احتلال هون. قام بهذا العقيد ناتالى الذي يشغل الآن منصب والي المنطقة. بعد أن حُكم على «سيف النصر» بالموت غيابيا لجأ إلى مصر حيث قُدِّمت له الحماية.

يعود الفضل في ازدهار هون للعقيد ناتالى، وهو يُعتبر فيها شيخا وصاحب السلطان المطلق. كانت الواحة إبان احتلالها سنة ١٩٢٨ فقيرة جدا وتتكون من بعض البيوت المهددة بالانهيار. أما اليوم فهي مدينة نظيفة تقطعها شوارع معبّدة بالإسفلت بُنيت على جانبيها أقواس قوية لإسناد البيوت وإضفاء الجمال الهندسي على المدينة. وتم بناء حصن ومدرسة ومستشفى للسكان الأصليين ومستوصف للحالات الطارئة مع مبنى كبير للقائد وثكنات للعسكر، بالإضافة إلى ورشات ميكانيكية مختلفة. تتراءى شجيرات النخيل المزروعة حديثا على الرمال وحدائق الخضرة وأشجار الفاكهة ومخزن لمياه الشرب وغيرها من الإنجازات.

هذه كلها إنجازات العقيد ناتالى. روحه ترفرف على الواحة وعيونُه تحرسها.

طريقنا يتجه بمحاذاة مطار كبير. أجد فيه عددا من الجنود والطائرات الرابضة وأسمع هدير محركات وأزيز الأجسام الطائرة التي قفزت من على سطح الأرض بغمضة عينٍ لتدور بجولة استطلاعية حول الواحة.

نلمح مقر العقيد المكوّن من عدة طوابق بلون بني ورمادي. ضخامةُ المبنى تجذب الأنظارَ، وما زاده جمالا وأناقة هو صفُّ الأعمدة المزخرفة على ارتفاع الطابق الأول الفسيح. قَصْرٌ حقيقي واثب على سطحٍ من الرمال الصحراوية.

أدخل الفناء الداخلي للقصر. يخبرني الضابط المساعد أن العقيد نائم وينصحني أن أتوجه لزيارة حصن سانتورو.

هرع قائد الحصن وهو الملازم كوسكي لاستقبالي بصدر رحب وبكل مراسيم الضيافة. وما هي إلا لحظة حتى وجدتُ أمامي سطلا مملوءا بالماء البارد. رطّبتُ حلقي الجاف بمتعة حقيقية وغسلتُ جسمي.

أثناء طعام الفطور تطرّقنا إلى حديث ممتع استلهب شعورنا. كان عدد الجالسين عند طاولة الطعام الفاخرة خمسة أفراد: إلى جانب الملازم كوسكي تواجد كلّ من الملازم بوتيرتي والملازم روسسا المسئول عن التموين وكذلك مدير المدرسة المحلية توريغوس الصقلي الأصل. كنا نتلذذ بطعم المعكرونة.

شرع الملازم بوتيرتي يهاجم اليهود باهتياج وأسلوب عنيف متحسرا في نفس الوقت على العجز عن محاربة مجموعات رؤوس الأموال اليهودية ذوات النفوذ العالمي.

ـ اليهود في إيطاليا قلّةٌ، لكنهم أصحاب أكبر البنوك وأغنى الدكاكين ـ يؤكد بوتيرتي.

تداخلت الأفكار في رأسي وأثقلته. التزمتُ الصمت.

ـ كم يقارب عدد اليهود في بولندا؟ ـ يسألني بوتيرتي. يبدو أنه لا يرتاح لليهود.

ـ حوالي ثلاثة ملايين ـ أجيب.

ـ لا تُحسَدون على وضعكم كبولنديين، ولن أستغرب إذا اعترفتَ بأنكم مربوطين بالرَّسَنِ ومقادين من قِبَلهم، أيْ أنَّ اليهود يتحكّمون فيكم ـ يضيف معلّقا على جوابي.

ـ لا أجد في تكهُّنك هذا ولا ذرّة من الواقع والصحة! ـ أؤكد له.

ـ كلامك لا يُصدَّق، إذ حتى نحن أبناء جنوا المعروفين بحنكتنا التجارية

وتقديرنا لقيمة النقود والتصرف بها واستغلالها الاقتصادي بحكمةٍ وفطنة، نعلن دوماً الاستسلام في معركة المنافسة مع قبيلة يهوذا.

يُرينا الملازم كوسكى بعض اللويحات التي تمثِّل مناظر من واحة هون قام هو برسمها يدويا. هذه الأعمال التي تتدفق أشعة الشمس من ثناياها ذكَّرتني بأسطقس (نهر الجحيم الرئيسي عند الإغريق). واعتاد الملازم إلى جانب هذا الأسلوب في التسلية أنْ يهدر وقته في النقش الشبكي الزخرفي. أولا يقوم بنشر الجذوع الفرعية المهترئة للأشجار ليحوِّلها إلى صفائح رقيقة ثم يحفر فيها أسماء الضباط بالأزميل ويعلقها فوق العارضة العلوية لأبواب غرفهم.

يقودني الملازم بوتيرتي إلى العقيد ويطلب مني أن أنتظر في الرواق الذي فيه مجموعة من الجرار الفخارية وكراسٍ عريضة ومريحة قابلة للثني، يمكن للمرء أن يستلقي عليها بكامل جسمه. قواعدها المخصصة للجلوس ومساند الأيادي مصنوعة من القماش الليّن المغطى بطبقة من الجلد.

تفصل واحة هون عن البرج مساحات فسيحة ومناظر جميلة. منه أراقب هذه الأصقاع الليبية. تعكس البيوتُ المربَّعةُ الشكل بريقَ أشعة الشمس وعلى التلال الرملية قد تربّعت مجموعات من الإبل. مِن حصن سانتورو المحاصَر من كل الجهات بالأسلاك الشائكة يتراءى ذَنَبٌ من الظل الملتصق به. وهناك على مد البصر نخلات أحادية مشتتة فوق الرمال التي ذرتها الرياح على هون القديمة وطمرتها كليا.

عندما كنت أحدِّق ببصري لأطبع في مخيلتي هذه الصور الخلابة خرج الملازم ليخبرني بأنني مدعو إلى العقيد لتناول الغداء برفقته.

نعرج على حانوت أحد اليهود اسمه عازا: دكان عطارة يهودية كما في كل مكان. يمكن للشاري أن يحصل على كل ما يريده: ابتداءً بالصُوص وانتهاءً بالليمونة ـ كما كان يغنِّي لوبك كروكوفسكي[1].

---

(١) Kazimierz Krukowski (Lopek) (٢/ ٢/ ١٩٠١ ـ ٢٤/ ١٢/ ١٩٨٤)، ابن عم الشاعر

داخل الدكان مجموعة من الضباط يحاولون الاتفاق على السعر مع عازا بحماس وصوت عال. بدا إنسانا ثخين الجسم قصيره، أنفه أحمر، رقبته مغطاة بشال لونه مثل لون أنفه.

تدور المعركة حول سعر جهاز صغير يُستعمل لبخّ العطور. يطلب عازا ثلاثين ليرة، بينما الشاري ذو النّجمتين على كتفه يقترح خمس عشرة ليرة. وأخيرا اتفقا على عشرين ليرة. تبدو علامات السعادة على وجه عازا الذي بسرعة راح يدفع النقود بخزانة مكتبه. ولم يكن الشاري أقل فرحا. تنوء ملامح وجهه بسعادة قُلْ ملائكية وهو يمعن البصر بالبخّاخ. ليست متنوعة معالم الحياة في الصحراء. غالبا ما ترى أن تافهات الأمور تغدو كأنها مكسب عظيم.

يُخرج عازا جهازا من الدولاب يُستخدم للتدخين منحوتا نحتا يدويا رائعا. تقع على بال عازا فكرة القُرعة واليانصيب. يقترح أنْ تُؤخذ ثلاث قصاصات من الورق وأن يُكتب على كل قصاصة سعر مختلف. بعد وضع القصاصات في الكيس سيسحب عازا قصاصة واحدة بِيَدِهِ مخصصةً لمن يرغب بشراء الجهاز، طبعا إذا وافق الشاري مسبقا على دفع المبلغ المكتوب عليها. يرفض الضباط هذا المشروع ويقترحون أسعارا متفاوتة: ٥٠، ٧٠، ٩٠، إلا أنَّ اليهودي أصرَّ على رفع الأسعار إلى: ٧٠، ٩٠، ١١٠ ليرة.

= البولندي اليهودي المعروف يوليان توفيم. ممثل مسرحي كوميدي وسينمائي، مغنّي أشعار ومقدّم برامج، مخرج وكاتب. أنهى كليتي الفلسفة والموسيقى في وارسو. في العشرينات قدم مسرحيات عديدة على خشبات مسارح وارسو وفي سنة ١٩٣٩ أسس مسرحا لنفسه أسماه «علي بابا». أول فيلم كوميدي شارك فيه كان في سنة ١٩٢٧ عنوانه «لوبِك و فلورِك» ومن هنا اكتسب لقب «لوبِك»، تلته أفلام أخرى عرضت في السنوات ١٩٣٠، ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٦. في سنوات الحرب نظم مسرحا في الغيتو اليهودي في وارسو ثم صار مدير مسرح الفرقة المسرحية للجيش البولندي الذي تأسس في الاتحاد السوفييتي وعرض أعماله في كل من العراق وفلسطين ومصر وإيطاليا. بعد الحرب العالمية الثانية قضى سنوات عديدية في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وفي الأرجنتين حيث شارك في تقديم العديد من العروض المسرحية الغنائية. عاد إلى بولندا في ٢٨/ ٩/ ١٩٥٦ وعيّن مديرا عاما ومديرا فنيا لأهم مسرحين في وارسو. في سنة ١٩٧٨ قام باعداد مسلسل مسرحي كوميدي موسيقي عرض في التلفزيون البولندي. له كتابان عن المسرح الكوميدي.

يرافقني الصاحب الجديد لبخّاخ العطور عند الساعة السابعة إلى العقيد ناتالى لنتناول الغداء معا.

ندخل إلى صالون واسع معدٌّ لاستقبال ضيوف الشرف، فيه عادةً تُقام الولائم. يشعُّ نظافة وضوءا منبعثا من المصابيح الكهربائية. جدرانه مطلية بألوان زاهية، نوافذه عريضة، أبوابه زجاجية، في الوسط مائدة طويلة عليها مختلف المواد الغذائية.

بعد لحظات يدخل الصالون عدد من الضباط بينهم ضابط قوي البنية مفتول العضلات بملامح رزينة وجدّية يشبه الهيئات الرومانية القديمة. إنه العقيد ناتالى.

ما انفك العقيد خلال تناول العشاء عن مهاجمته اللاذعة للرومان القدماء الذين برأيه لم يقوموا بأي عمل حسَن لمصلحة أفريقيا، بل بالعكس حرموها من أفضل أبنائها، هجَّروهم واستخدموهم كعبيد لهم.

سمعتُ العديد من الآراء والحكايات عن الأرْيَحية النادرة للعقيد. هو بمثابة الملك الذي تطيعه هذه الأصقاع. لهذا استغربتُ جدا من ندرة عبارات اللطف المقنّنة تجاهي ومعاملته الباردة الفوقية لي.

عند نهاية الوليمة زال الغموض عن الموقف الذي أحرجني.

كان الخادم قد وضع أمامي نفاضة (طبلة) آجرية كُتبتْ عليها العبارة التالية: L'ospitalita e'come un pesce, dopo tre giorni - puzza الضيافة مثل السمكة، بعد ثلاثة أيام تتعفّن).

عندما قرأتُ هذه الجملة ضحكتُ بصوت عال وقلتُ:

ـ يا سيادة العقيد. هذه السمكة لن يصيبها العفن، إذ سأغادر هون بعد غدٍ صباحا.

ـ وهل البولنديون يتمسكون بكلمتهم ـ يسألني العقيد ما لم أتوقعه، وبصوت ينمّ عن السخرية والاستهزاء.

ـ ما مصدر سؤال غريب كهذا؟

ـ أقام عندنا ضيف من أبناء جلدتك كان قد وَعَدني أنه سيرسل لنا ما سيكتبه وينشره عن هون. وهاهي الشهور تمضي ومقالته لم تصلنا بعد. أعتقد أن انتظاري لتحقيق وعده سيذهب هباءً.

ـ يا سيادة العقيد ـ أؤكد له بحرارة ـ أنا مقتنع اقتناعا كاملا أن ابن جلدتي قد نفّذ وعده بحذافيره، ولكن المسافة من بولندا وهون بعيدة. فليس مستبعدا أن ما أرسله قد فُقد في الطريق.

ـ وماذا عمّا ستكتبه أنت عن هون؟ ـ يسألني.

ـ بالتأكيد سأرسله لسيادة العقيد. سأعتبر هذا شرفا عظيما لي.

تبدّدت السُّحب المشحونة بالبَرَد عند حسن ظنِّ الطرفين وتحسَّنتْ ملامح وعبارات وجه صاحب الوليمة. لانت نبرات صوته وغدا من ألْطفِ السادة الوقورين، لكنه احتفظ بمسحة من البرودة والرسميات.

نودع القصر بأبهته. يرافقني العقيد في مشوار إلى البلدة بصفة دليل ويحدّثني بِولعٍ وكبرياء مُبرَّر عن كل شيء تم إنجازه هنا. من حقّه أن يعتز بمشاريعه العمرانية التي خَلَقَتْ بلدة زاهرة من لا شيء، رابضة فوق الرمال الصحراوية، تتحدى عوادي الزمن.

نمرُّ على نادي الضباط. كان بعض الجالسين منهمكين بلعب الورق «البريدج».

ـ هذه اللعبة مملّة حمقاء. أُفضّل لعب البوكر ـ يصرّح العقيد.

ـ أنا معارض لهذا الرأي ـ أردُّ على العقيد ـ اللعبة تولد الحكمة والرياضة الفكريّة.

ـ أين نحن من الفكرْ خلال اللعب بالورق! ـ ينهي العقيد الموضوع.

ننهي جولتنا في البلدة. يشير العقيد إلى المبغى، مركز صاحبات الذنوب

العلنية. المبنى أرضيٌّ بهيئة جميلة يلمع بياضا ونظافة. الدخول إلى حديقته المزدانة بشجيرات الأوكاليبتوس يتم عبر بوّابة محفورة في السور، يعلوها قوس وهي مُغلقةٌ بقضبان متشابكة مع بعضها بفن هندسي. تتراءى في إحدى زوايا الحديقة بئرٌ وفي وسطها بناء أبيض من النمط الحديث هو حُجْرة الانتظار.

باب المبنى ونوافذه موجَّهة نحو الفناء. كلُّ امرأة مقيمة هنا تملك غرفةً مستقلة مع سرداب. يتكون طاقم المقر من خمس عربيات وثلاث زنجيات. وعلى الرغم من محاولاتهن لإخفاء صفاتهن أمام العقيد وتهذيب أنفسهن وضبط أخلاقهن في حضرته، تتجسَّد في شكلهن البشاعة والفحش والسوقية.

ـ نعم، المبنى جميل، ولكن نزيلاته بشعات ـ يشكو العقيد ناتالى من الوضع. تأمين أجمل منهن في الصحراء ليس أمرا سهلا.

سافر العقيد في اليوم الثاني للقيام بمهمة كشف في الواحات.

أتجول في هون هائما على وجهي، شاردَ البال.

طرقتْ مسامعي في مكان ما كلماتُ إيعازٍ عسكري بصوت طفل.

Passo! Passo! (عدِّل الخطوة)!

مجموعة من الصبْية العرب بعمر سبعة ثمانية سنوات مرتدين سراويل بيضاء طويلة وصدريات زرقاء شكَّلوا رتلا مكوَّنا من فردين في المقدمة ويخطون إلى الأمام بخطوات عسكرية. وقفَ على رأس الرتل صبيٌّ لا يزيد عمره عن إحدى عشرة سنة.

شدَّني هذا اللعب وقررت أن أسير وراءهم حتى دخلتُ أخيرا إلى باحة مدرسة ابتدائية. يستقبلني مدرِّسٌ اسمه توريغروسسا.

مبنى المدرسة على النمط الموريتاني، مطلي بطلاء أبيض. في وسط الباحة بئر دائرية.

يقودني المدرس إلى قاعة دروس الصف الأول. أذكى التلاميذ يهودٌ، يليهم

العرب، وفي الفصل تلميذ إيطالي واحد تصرفاته غمرت العِرق اللاتيني بالعيب والعار.

ـ منذُ كمْ عام تعمل في أفريقيا ـ سألتُ المدرس.

ـ منذ تسع سنوات. قبلها كنت أعلِّم في مدرسة إيطالية في سلونيك. كم هو صعب ومتعب إدخال العلم في الأدمغة المقيَّدة الجامدة لأطفال الصحراء وفي هذا الجو القاتل ـ يصرِّح السيد تورريغروسسا بحسرات عميقة.

ـ لماذا كانت هذه المجموعة من الأطفال تقلِّد الخطو العسكري في الشارع؟ ـ سألته.

ـ كانوا عائدين من زيارة عند الطبيب في المستوصف.

تواعدنا أن نلتقي من جديد بعد انتهاء الدوام اليومي للمدرسة، في الخامسة بعد الظهر. نتوجه خارج المدينة لمشاهدة أعمال حفر بئر للبحث عن المياه الجوفية الضرورية للسكان.

تشقُّ الأرض شفرات المثقاب في ساحة مطوَّقة بألواح خشبية. يدور المحرِّك بانتظام حاملا المثقاب شاقوليا. مرّةً تراه يرتفع ومرَّةً يرتطم بقعر الثقب. وبعد كل حركة يقوم عاملان تحت إشراف ميكانيكي بِبَرْمِ المثقاب يدويا.

ـ متى ستنهون عملكم؟ ـ سألتهم.

ـ نحفر ونحفر أملا في العثور على الماء على عمق أربعمائة متر، إلا أننا لا نعرف بالتأكيد هل سيتحقق هذا.

نسير عبر الأزقة. مجموعات من العرب الجالسين أمام البيوت يقفون للترحيب بنا. يرفعون أياديهم بتحية حسب الطريقة الفاشية المألوفة.

نزور مسجدا كان سقفه مهدوما. ينتظر السكان المسلمون الدعم المادي للقيام بإعادة بنائه وتصليح السقف. كان المدخل الخارجي للمسجد مسدودا بجذوع نخلة لونها بني زاهي مزخرفة بنماذج هندسية مميَّزة بصبغة سوداء.

في الشوارع بعض النشاط العمراني: إقامة أقواس من الطين ـ المادة المتوفرة هنا المُحضَّرة من التراب الرملي. تُستخدم في شتى الأعمال البنائية.

وراء حدود بلدة هون يمتد شريط أخضر من النخيل مع بعض المساحات المزروعة بالشعير.

في طريق عودتي إلى الحصن ألتقي بالملازم روسسا. يطرح علي فكرة القيام بزيارة مخازن مؤونة الجيش. قد تكدَّست فيها صناديق المعكرونة المصفوفة فوق بعضها، صفٌّ طويل من الصناديق المملوءة بالجبنة وآخر من الزجاجات المعبأة بالمشروبات. كُوَمٌ بأعداد لا تُحصى من المعلَّبات التي تحوي مختلف أنواع المواد الغذائية المحفوظة.

ـ يموِّن عنبرُنا الإقليم الجنوبي بكامله. عملي دوخةُ رأسٍ، فهذا لا يتلذذ بالخمر الفلاني وما حَصَلَ عليه ذاك من المعلبات لا يكفي لسد حاجة كل الجنود الخاضعين له. شكوى من مكان آخر بأنهم لم يستلموا حصَّتهم من الجبن، وهكذا دواليك. وفي كل الحالات لا يُوجَّه اللوم لأحد سواي، كأنني أنا المذنب الوحيد. مضنية هي مهمة تموين الجيش التي أنيطت بي ـ يشكو من طبيعة عمله.

في المخزن وبين أكداس الألبسة الداخلية والخارجية مرتعٌ لعدد لا يُحصى من القطط. مواؤها ملأ أرجاء العنبر. في حركاتها وقفزاتها تلامس أجسامها أرجلنا.

ـ القطط مفيدةٌ جدا. فهي في حرب دائمة مع الفئران ـ يعلن روسسا.

مخبز مزوّد بفرن ضخم قابع في إحدى الزوايا. إلى جانبه أكوامٌ من مواد الخام. على الرفوف مئات من أرغفة خبز الشعير.

ـ تعال لتشاهد الثور الذي أوقَعَتْه اليوم الخناجر المغروزة في جسمه. فرصة نادرة في هذا القفر. هل ترغب؟

ـ ليكنْ!

صعدنا فوق برج الحصن. على مقربة من السور أعاين أعمدةً خشبية مغروزة وفوقها ألواح مشكِّلةً ما يشبه السلَّم العريض عليه يتدلَّى الحيوان المذكور مُعلَّقاً برجليه. جنديان ملطّخان بالدم يشقّان بطنه بالسكاكين، يُخرجان أعضاءه الداخلية. يسيل الدم على الرمل وبعيدا هناك تميل الشمس الحمراء لتختفي وراء الأفق الصحراوي.

[10]

صحراء الرعب وراء الوادي السابع

بعد قضاء يومين في واحة هون تنتظرني رحلةٌ بعيدة على متْن سيارةٍ شبه شاحنةٍ من موديل س. ب. آ.

تتقدّمنا سيارة ثانية تقوم هي أيضا، كسيارتنا، بتأدية مهامِ نقلِ البريد بين هون وسبها.

فجأة يطرق آذانَنا صدى قويٌّ على إثر ثقبٍ في أحد دواليب سيارتنا. تأخذ عمليةُ تركيب دولابٍ جديد الكثيرَ من الوقت، حيث اختفت السيارة الأمامية عن أنظارنا ـ نعاينها بعد أنْ وصلنا إلى حدود سوكنه. كانت في طريق العودة.

ـ ما بكمْ، نراكمْ عائدين؟ ـ سألْنا السائقَ.

ـ نَسيَ هذا الصنم الزائف، وهو عامل البريد، أنْ يضع أكياسَ الرسائلَ في السيارة ـ يزعق السائق. ـ يا لَكَ مِنْ أحمقٍ مُساقٍ برجليك، سأحاسبك على فعلك الشنيع هذا ـ يصرخ باهتياجٍ وغضبٍ ساخطٍ في وجه عربي مرتدٍ معطفا أزرق داكنا. ـ أنا لا أفهم لماذا يكلّفون العرب مهمةَ توزيعِ البريد، كأن الطليان غير قادرين على القيام بهذا العمل. أَتتصوَّرَ استقبالهم لنا، سيارة البريد خالية من الرسائل!

سوكنه بلدةٌ صغيرة. شوارعُها نظيفةٌ، بيوتُها ذات لون مائل إلى البني، جدرانُها مُقامة من الطين الرملي الذي يحصلون عليه من حُفَرٍ عميقة في باطن

الأرض ـ بعد أن يجفُّ الطين يتحوَّل في أشعة الشمس إلى كتلة جافَّة هشَّة سريعة التفتت والهدم. يومان ماطران يكفيان ليحوِّلا سوكنه كلَّها إلى كتلةٍ من الأنقاض[1].

في وسط البلدة تقع قلعةٌ من بقايا الأتراك، ما زالت ماثلةً بأبراجها الدفاعية وفتحات الرماية في جدرانها الغليظة[2].

البلدة مطوَّقة بالنخيل، عدد الأشجار ليس كبيرا. تتزاحم التلال الرَّملية على بعد ثلاثين ـ أربعين كيلومترا.

وصلتْ سيارتنا الثانية بعد ساعة من الانتظار، محمَّلةً بأكياس البريد. نتابع رحلتنا معا.

يتراءى أمامنا سهلُ الوادي. تبدو أرضيته كالقشرة الجافة المُشقَّقة. اكتسحتْها قبل فترة سيولٌ من المياه ما زالت تحتفظ الأرضُ ببعض الرطوبة فهي لمْ تتفتَّتْ بعدُ. في المجرى الذي حفره السيل نمتْ الأشجار بكثافةٍ، يصل ارتفاع بعضها إلى خمسةِ أمتارٍ، جذوعُها غليظةٌ، أغصانُها مدبَّبةٌ، أوراقها صغيرة، تميزها أشواكٌ بيضاءُ طويلةٌ كالمسلاّت. هذا صنفٌ من الأكاسيا المعروف عند العرب باسم تاليه. بينما تُسمى باللاتينية acacia gommifera (التعريف مشتقٌّ من صفات المادة اللدنة التي تفرزها. يجيد السكان المحلِّيون استخراجها) ـ الشجرةُ الوحيدة التي تنمو في الأماكن المفتقرة إلى عيون المياه.

---

(١) لا أعتقد ذلك؛ بيوت القرية الأولى والثانية التي سكنت فيهما في طفولتي بسوريا لم تكن اسمنتية، بل طينية. كانت تضاف للطين مادة التبن ثم يعجن ويصب في قوالب خشبية مستطيلة (الطول حوالي ٤٠ سم، العرض حوالي ٢٠ سم، السمك حوالي ١٠ سم) ويترك تحت أشعة الشمس حتى يجف. كانت الواحدة تُدعى «كربيتش» وتزن حوالي ٥ كغ ومنها تُبنى الجدران ثم تغطى بطبقة رقيقة من الطين المضاف إليه التبن الناعم والملح وأحيانا تصبغ الجدران من الداخل والخارج باللون الأبيض بمحلول الكلس. وكان الطين أيضا المادة اللاصقة لـ «كربيتش». بينما أسوار الأحواش القروية فغالبا ما كانت تُبنى من الطين المضاف إليه التبن دون تقسيمه إلى قطع مجففة. وكانت هذه البيوت والأسوار ثابتة وتقاوم الأمطار التي في فصل الشتاء تهبط بغزارة في هذا الجزء من سوريا الشمالية ـ الشرقية.

(٢) رُبَّ سائلٍ يسأل: من أي مادة كانت مبنية هذه القلعة؟ أليس من الطين نفسه؟.

نقترب إلى جبل السوداء.

تترك هضباته وتلألُه عند الناظر انطباعاتٍ كأنها أكوامٌ من الرمال الخشنة، تلمع الصخورُ السوداء كالقار في أشعة الشمس بلون معدنيٍّ. لا شيء يدلُّ على الحياة - إطلاقا لا شيء - حتى الغُراب لا يحلِّق في هذه الربوع الجرداء.

هذه السلاسل الجبلية العابسة المظلمة السوداء الكئيبة والخالية من علامات الحياة تمتد على مسافات عشرات الكيلومترات. لا تُرى نهاياتها.

ترقص سيارتنا، أحيانا تقفز فوق خط الدرب الأصفر الذي أزيحت منه الحجارة الكبيرة ورُصِف بالرمل.

يتراءى أمامنا بئرُ العواشقة، آخرُ بئرٍ في هذه الأصقاع. حتى في أمِّ العبيد عبثاً تحاول أنْ تلاقي قطرةَ ماءٍ متدفقة من عيْنٍ ما.

تجمَّعتْ حول البئر المسوَّرِ ستُّ سياراتٍ تابعةٍ لأستوني لتتزوَّد بالماء. هي في طريقها إلى واحة هون وفارغةً بعد أنْ وضعتْ حمولتَها من المواد الغذائية في غات.

عند أحد المنعطفات نشاهد مجموعةً من العرب يبلغ تعدادهم حوالي عشرين شخصاً منهمكينَ تحت إشراف مراقبٍ إيطالي بجمع الحجارة من على الطريق الذي سيرشُّونه بعد هذه العملية بالرمل. ينتهي طريقنا الحَجَري عند هذه النقطة، حيث يُكتب علينا أنْ نذوق الأمرَّيْن على متن السيارة التي راحت تهتز كالأرجوحة. كل شيء فيها يهيج، يقفز، يطقطق - مرّةً تقذفني هزّةٌ إلى فوق ليُضربَ رأسي بالسقف، ومرّةً أخرى تصطدم عظامُ خصْري بالأوتار الحديدية. فهمتُ الآن لماذا العوارض التي تحمل خيمةَ السيارة صُنِعتْ من الخشب وليس من الحديد.

يتبَّدل طابع المنطقة. مازالت الصخور السوداء متناثرةً هنا وهناك. تراجعتِ الهضابُ لتحلَّ محلَّها تسطُّحاتٌ متموِّجة.

نُصبتْ فوق مساحةٍ حجريةٍ ضيِّقة ثلاثُ خِيَمٍ، يعلوها هوائيٌّ - محطَّةٌ متنقلة للبرق والبث الإذاعي.

يعدو نحونا رقيب أول من قطعات الصحراويين بلباس أبيض. نوقف السيارة.

بعد لحظة يتجمع حولنا طاقم المحطة بكامله، بينهم جنديان أحدهم برتبة عريف ورجلان عربيّان. بدأت خدمتهم منذ شهر أكتوبر/ تشرين الأول (التمور) وستستمر حتى نهاية يونيو/ حزيران (الصيف). تبدو عليهم علائمُ الإرهاق. يسْعَلون. أربعة أشهر تحت الخيمة في ظروف جوّيّة متقلِّبة تتميَّز بارتفاعٍ وانحفاضٍ مفاجئين في درجات الحرارة، مما انعكس على أحوالهم الصحية جسميا ونفسيا.

وُزِّع عليهم البريد المُخصَّص. شَكرونا بكأسٍ من القهوة اللذيذة. بعد أنْ شربناها ودَّعْناهم لنستمرَّ في رحلتنا.

يقصُّ السائق أوتتولاني سِيرةَ حياته. أَجْبَرَته ظروفُه على سلوك هذا الطريق الصحراوي لأنَّ طرقَ الحياة الأخرى التي جرَّبها لَمْ تجلبْ له سوى النكسة تلو النكسة مع خيبات الأمل.

- وُلِدْتُ في بسكارا - يسرد أهمَّ محطاتِ حياته - فيها أَنهيتُ المدرسةَ الإبتدائية العامّة ومدرسةَ المرشَّحين الراغبين بالتطوُّع في سلك الشرطة، ثم عملتُ بضعة سنوات كشرطيٍّ. استمرَّتْ خدمتي حتى شمَلَني تقنينُ التوظيف في الشرطة واختصارُ عدد رجالها. عشتُ هائما على وجهي في إيطاليا دون أن أعثر على أيِّ عملٍ. دامتْ أحوالي هكذا حتى اختطفتْ يد المنونِ كلاًّ من والدتي وأختي. قررتُ على إثر ذلك الهروبَ إلى الصحراء، علَّها تشفق عليَّ، تحوي أحدَ أبنائها الضَّالِّين. تعلَّمْتُ قيادة السيارات في طرابلس وعُهِد إليَّ نقل البريد بين هون وغات. كان عدد الراغبين في مزاولة هذه المهنة الشاقة قليلا جدا - يبتسم وعلائمُ الحزن باديةً على وجهه.

ما برحتْ الحجارة تتوارى عن الأنظار. ودَّعْنا معها كلَّ أثرٍ للتلال والتجعُّدات. أمام مركبتنا انبسط سطحٌ مستوٍ بلونٍ أصفر رمادي مغطًّى بطبقة

سميكة من الرمال الخشنة. بعيدا هناك على مدِّ البصر يرسم الأفق حدّاً للصحراء المستوية والمدبَّجة على نمط واحد. يغلقها. يبلعها.

Serir el Gaf ـ صحراءُ الرُّعْبِ.

أجلْ! مجرد التفكير بالسير على القدمين يكاد يسبّب تصلّب الدم في الشرايين. الرحلة مشياً عبر هذا الطريق قد تكون بلا نهاية، حيث تزمجر رياح «قبلي» حاملةً أسراباً من الرمال والغبار ولا ملجأ يحتمي فيه تائهُ السبيل. الضياع محتم!

يشتدُّ البرد من لحظة بلحظة ـ تتغلغل الرياح الحادَّة كالشفرة في العظام، تزداد برودةُ الجسم، يُسمع صرير الأسنان ونفقد الحسَّ في أصابع الأيدي والأقدام. القشعريرة قاتلة والسيارة مكشوفة. نقترب حول بعضنا في دائرة ضيِّقة، نحضن أجسامنا ببعضها، ولكن بدتْ كلُّ محاولاتنا غير كافيةٍ. فوجئنا بتساقط البَرَدِ الذي يكاد يقصُّ وجوهنا وأكفّنا. يفرك أوتتولاني عيونَه باستمرارٍ ويطلق اللعنة تلو اللعنة. جسم الجندي أوريكيو الذي حمل نفسه معنا للإلتحاق بوظيفته في محطة الأرصاد الجوية في غات يرجرج مثل الهلام. أما أنا فقد أصبتُ بالنَّزيف. يتدفَّق الدم من أنفي كالنافورة.

نكسو أجسامنا بأيِّ شيء يصلح. تشتدُّ حدَّة البرد وموجته لا تفارقنا. تشقَّقت شفاهُنا وخدودنا، نشعر بألم في العيون، الدموع تتحول جليدا وتتصلَّب على الوجوه. جفَّتْ الأيادي كُلِّياً. بصعوبة يقود أوتتولاني السيارةَ.

ـ كفى، إهدأْ يا أوتتولاني، أوْقفْ السيارة، لا ترهقْ نفسك ـ ينصح أوركيو.

ـ لا ينقصنا للسعادة سوى إيقاف السيارة. هل تدرك نتيجة ما تقوله لو أوقفنا السيارة، أتريد أنْ نتثلَّجَ كلِّيَاً. ما علينا إلا الوصول بأقصى سرعة إلى حصن الغاف ـ يردُّ السائق.

أمامنا ساعة أخرى من مقاومة قسوة الطبيعة. توقَّف تساقط البَرَدِ ولكن ما زالت القشعريرة مستمرة. ها هو الحصن ينبثق أمام عيوننا قابعاً فوق مرتفع حَجَريّ.

يتكون طاقم الحصن من خمسة جنود تحت إمرة رقيب أول. يقدّمون لنا الشاي الساخن الذي بدا لي مشروبا سماويا أرسَلَتْهُ الآلهة الرَّحيمة.

بعد أنْ امتصّت أجسامنا كفايتَها من الدفءِ والراحة انطلقنا نتابع رحلَتَنا. يبدأُ خلفَ الحصن الشطر الأول من الصحراء المعروف باسم سرير بن عافن ـ المأخوذِ من لقب الشيخ العربي الذي قُتل هنا مع أعضاء قافلته برمّتهم. المناظر هيَ هيَ على نفس الوتيرة، رمادية اللون ومملّة والسطح مغطى بالرمال الخشنة. هنا وهناك بعض البقع الرملية الصفراء.

تحسَّنت أمزجتنا كثيرا وبدأنا حتى بالحديث مع بعضنا. كان موضوع حديثنا بلدة هون، إذ راح أوريكيو ينقد نقدا لاذعا أسلوب إدارة المنطقة من قِبَل ناتالي.

ـ أتستحقُّ العاهراتُ إقامة قصرٍ فخمٍ مخصصٍ لهنَّ، في حين يضطر العمال الطليان وغيرهم من المدنيين أصحابُ المهن والتقنيات إلى السكن في الأكواخ العربية الفقيرة؟ ـ يصرخ بانفعالٍ واستنكار.

قطعنا مسافة لا بأس بها. عادت ثانية الصحراء المغطَّى سطحُها بالحُجيرات السود ثم تحوَّلت إلى ألوان زاهية برّاقة تكاد تعمي البصيرة أو إلى أبيضَ ناصعٍ دليل على احتوائها مادة الجبس.

تبدأ التلال بالتموّج. يلتوي الطريق ثم ينحدر باتجاه مضيق Khnev (كنيف؟). خلف المضيق صخرةٌ عجيبة بهيئة رأسِ إنسان ضخم، النظر إليها يذكِّرني بملامح غاريبالدي(١).

تنتعش المنطقة. تظهر على الرمال أعشاب العاقول التي تتغذى الجِمال بها. في الساعات المسائية نطرق أبواب حصنِ العبيد الرابضِ وسط الهضاب المكسوَّةِ بمجموعات من شجيرات الطرفاء الكثيفة الأغصان. الحصن صغيُر

---

(١) مر ذكره في التعليق ٥ من الفصل الخامس.

الحجم، قيد البناء - يقيم فيه ضابطٌ برتبة ملازم مع ثلاثة جنود يعملون في محطة البرق والهاتف، بالإضافة إلى حوالي خمسة عشر عسكريا أريتريا.

يشكو الملازم أنتونوتشي من ألمٍ مُزْمن في رأسه ومن رنين دائم في الآذان. بلغَ أعلى درجات الإرهاق العصبي.

- أعرفُ كُنْه كلِّ شِبْرٍ في سيرينايكا وتريبوليتانيا، شاركتُ في كلِّ المعارك ضد أبناء البلد - يصرّح. - أمشي فوق هذا الرمل منذ سبعِ سنواتٍ كاملة، أنام على الأرض، كثيرا ما أعطش ويتصبَّبُ العَرَقُ من جسمي في النهار ويلفُّني البرد القارس في الليل. لا أطيق بعدُ تحمّل هذا! الآن، حيث يسود الهدوء، لا أجد لنفسي أيَّ عمل هنا، مللتُ كثيرا. سأعود إلى مدينتي الحبيبة تارانتو. ربما هناك قد أتخلص من هذا الدويِّ المزعج في الآذان.

يحدِّق بسيِّده كلبٌ كبيٌر أسودُ من نوع «بلاك» بنظراتٍ ملؤها الحب والحنان، كأنه يفهم عذابَه هنا ويريد مشاركتَه الآلام التي يشكو منها.

نبيتُ ليلتنا في الحصن. يستقبلنا الصباح بدفْئِه المنعش اللطيف. أخلع أوّلا المعطفَ ثم السترة. يبدو أنَّ بردَ البارحة المخيفَ قد ولّى ليستقر فوق الأطراف المترامية لسرير «الغاف».

نلمح أمامنا على مدِّ البصر النخل المنبثق من الرمال الذي حوّل مساحات كاملة إلى واحات. قررنا أنْ نستريح قليلا بقرب واحة سمن، رحنا نحضِّر طعام الفطور تحت جذعٍ غليظ لنخلة معمِّرة بالقرب من جذع الأكاسيا: نشوي البيْضَ على الرماد الساخن لئلا يفقع عند سكبْ الماء عليه.

وبينما نحن كذلك وإذْ بزنجيةٍ تسير باتجاهنا بخطوات حثيثة رزينة حاملةً سلّةً بيدها - سِيقَت للشوي فوق الموقد دفعةٌ جديدة من البيض. تبعها رجلٌ من قارئيّ الفأل، «مرابض» بعمامة حمراء على رأسه وصدرية بيضاء، يطلب سائق المركبة الثاني أنْ يقرأ طالعه.

- أنت سيصبح ثريا. أنت بسرعة سينتهي عسكريتك! - يبشّر بلغةٍ ركيكة.

هناك بعيدا، على قمّة جبل، تبدو سبها البيضاء، عاصمةُ فزّان. تطوّقها أسوارٌ عالية مع بروجِ دفاعٍ ونوافذ للقنّاصة التي تضفي سمات العظَمة على هذه القلعة السلطانية. لكن مَنْ يقترب مِن المدينة يلمحها راكعةً تحت هوائيٍّ ضخم من أحدث طراز، يهيمن بغرور وعزّة على المنطقة بكاملها. هو همزة الوصل بين الأحياء البشرية التائهة في قلب الصحراء وعالم التمدّن والحضارة.

أتعرَّف في سبها على أعضاء اللجنة الجغرافية الإيطالية التي تضم أخصائيين في مختلف مجالات علوم الأحياء، بينهم عالم الحيوان البروفسور سكورتيسسي وعالم النبات الدكتور كورتي. اختصرتُ إقامتي بسبب الفرصة التي أتيحت لي للسفر إلى مرزق، العاصمة القديمة لفزان، برفقة الرقيب الأول دى مينو، الخبير الميكانيكي. عمله الكشفُ عن وضْع وسلامة السيارات في كل المراكز الجنوبية. نسافر معا على متن سيارته.

نزحف عبر سهلٍ رمليّ سطحُه مستوٍ، تنمو فيه مجموعات من شجيرات الطرفاء، تتخللها مرتفعات فردية بلون أسود بني وقممٌ مدبّبة أو مسطّحة. بقيتْ سبها خلفَنا. لم نعدْ نلمحها. وصلْنا إلى سهل واسع مرتفع سطحه مكسوٌّ برمالٍ صفراء خشنة. تبدو في بعض الأماكن حجارةٌ سوداء بحجم قبضة اليد. تتسلق سيارتنا هضبةً. نجد أمامنا أرضاً حجرية سوداء مغطاةً ببقعٍ صفراوية من الرمال الخشنة. هنا وهناك تتراءى شجرة أكاسيا أو شجرة طرفاء.

يشق طريقنا صفّانِ من التُّليلات المكوّنة من الحجارة التي جمعها العمّال، تبعد عن بعضها بمسافات متساوية. حرارة الجو في ارتفاع متزايد.

نصل إلى واحة تدعى غدوه. أشجار نخيل قصيرة بارتفاع لا يتعدى المترين، تنبثق أوراقها من الأرض مباشرة مشكّلةً أجمة كثيفة متعانقة بقطرٍ يصل إلى أربعة أو خمسة أمتار.

تمتد بمحاذاة الطريق مساحاتٌ مزروعة بالشعير. رَجُلانِ زنْجيّان يسقيان الحقول وتقوم امرأة سوداء البشرة بعزق وحراثة مربّعات صغيرة من التربة.

بئرٌ بعمقِ عشرين مترا وفوقه ما يشبه الخيمة بهيئة مثلّثٍ مشكّل من سعف النخيل التي شُدَّت من الأعلى ببعضها وغُرزت نهاياتها في الأرض على طرفيْ البئر. بهذه الجذوع رُبطت ألواحٌ عرضية بواسطة السعف. تحت قمّة المثلّث قرصٌ إطاره محفور على هيئة بَكْرَةٍ مغروزة بقضيب أفقي يصل ضلعيْ المثلث وشُدّت بالقضيب كتلةٌ خشبية مخروطية يلتفُّ حولها الحبل الذي يمرُّ على البكرة. وقد تم توصيل إحدى نهاياتِ الحبل بظهر أتان ورُبطت بنهايته الثانية قِرْبةٌ ـ عريضة من فوق وضيّقة من تحت، محاكةٌ من السعف بكثافة.

تمتد من البئر ساقية عميقة يقلُّ عمقها كلما ابتعدتْ عن البئر. تسير عبر هذا الانحدار أتان ذهابا وإيابا يبدو أنّها ليس مطيعة، إذ غالبا ما يقوم صاحبُها الزنجيّ على دفعها بكلّ ما أوتي من قوة. مع اقتراب الأتان إلى البئر يتدلّى الحبل حتى يصل صفحة الماء، حينها تُغطس القَرْبة فيه وتُملأ ماءً. ومع ابتعاد الحيوان تُرفع إلى فوهة البئر. يُصبُّ الماء فوق طبقةٍ من سعف النخيل تمنع جدرانها العالية هدرَ المياه أو ترشيحها. كلُّ قطرةِ ماءٍ ثمينةٌ.

تنزلق المياه على السعف وتصبُّ في ساقية تتقاطع مع سطح السعف بزاوية حادة، ثم تدخل في مزراب (جذع نخلة مجوَّف) تطل نهايته على حوضٍ مائيّ محفورٍ في الأرض. يرفع منه صبيٌّ زنجيّ كمياتٍ قليلةً من المياه بواسطة رفْشٍ خشبيّ، يصبها في سواقٍ صغيرة تحمل الماء وتوزّعها على الحدائق المروية.

بئرٌ كسائر الآبار. والحيوان نفسه دائما: أتانٌ أو حمارٌ يزرع الأرض ذهابا وإيابا وسط خندق، وعين السقالات المصنوعة من سعف النخيل. سعف الأشجار المبروكة ثمينٌ فهي تُستغلّ على نطاق واسع في مجالات مختلفة. وجذوعها أيضا ثمينة. وكمْ ثمينة هي المياه التي تحملها إلى الحقول العطشانه بأناة وإخلاص.

ينبسط أمامنا سهلٌ مرتفع. يا له من بَحْرٍ أسود من الحجارة، قفر لا خير فيه.

تزحف سيارتنا بطَيش وهي ترقص على الحجارة التي تعترض طريقها المستقيم. يهدر المحرّك.

- حَرٌّ قاتل. أشكو من وهج الشمس الحارق، بينما دى مينو يسخر مني. يقهقه.

- أنسيتَ يا بوللاكو أننا في فصل الشتاء، فكيف لو زرتَ ليبيا صيفاً، ستحسُّ عندها أنَّ جسمك الناعم يتبخّر. عليك أن تقبل بأن الجوَّ باردٌ الآن.

- الجوُ باردٌ؟! يبدو أن جسمك خشنٌ، دون حساسية. الحرارة الآن كالتي في الأحراش البولندية الكثيفة في شهر يوليو/ تموز (ناصر).

خِيَمٌ بلونٍ أبيض رماديّ. شريطٌ أصفر فوق طريق سبها - مرزق الذي هو في طور البناء. يقوم العمال العرب تحت إشراف مراقب إيطالي وجذْتُه حافيا ورأسه ملفوف بمنديل، يقومون أولا برشِّ الرمل الناعم ثم الخشن فوق السطح المستوي للحجارة المرصوفة إلى بعضها بدقَّةٍ والمدكوكة. أُعِدَّ هذا المقطع من الطريق بعد نضالٍ طويل ضد القفر الموحش للصحراء لتتمكن رسول الثقافة المعاصرة - السيارة أنْ تعلن عن انتصارها وقدرتها لتأخذ مكان الجَمل - «سفينةِ الصحراء».

ألمح في الأفق معالمَ مبنى ما يبدو غريبا في هيئته.

- هذه قلعة تركية في مرزق من القرن السادس عشر - يفسِّر صديق رحلتي.

نجتاز نخلاتٍ أحادية، ثم حقولا دائرية صغيرةَ المساحة مزروعةً بالشعير ومسروقةً من السطوح بعد أن ذرّا الهواء الرمال المستقرة عليها ليعدّ للإنسان مكانا يشبه الحُفرة. قبل أن ندخل فناء الحصن تراكمت فوق أجسامنا كميات من الغبار المتطاير نتيجة اللعب بالقناني الخشبية. جَمَعَ هذا اللعب الضباط وضباط الصفّ للكتيبة الصحراوية الثانية. ترحب بنا في ساحة الفناء غزالتان أليفتان تقفزان فرحا.

وصلنا إلى الحصن بعد فترة الغداء. الضيافة الإيطالية الحسنة التي قلما تجد

مثيلا لها أسعفتنا بطبقٍ من المعكرونة اللذيذة قُدِّمت لي مباشرة مع قطعة كبيرة من لحم الخروف.

جلس إلى جانبي ملازم أول اسمه باراديسي ليؤانسني. جسمه ضخم، بنيته قوية، شواربه عريضة وكثيفة.

ـ كمْ من الوقت يخطِّط السيد أن يقيم في مرزق ـ يسألني باراديسي.

ـ أعتقد بأن يومين كافيان ـ أجيبه.

ـ ماذا! يومان فقط! ـ أتتوقع أن الساعات القليلةَ التي خلال هذين اليومين ستمضي كغمضة عين كافيةٌ لتكتب عن مرزق! هل تمزح؟ ستجعلك النظراتُ السريعة تكتب ما يمليه عليك الخيال الوهمي، شعر، خرافات... اعترفْ يا ضيف، هل قدمتَ إلينا لتكتب الحقيقة ولتصف الواقع كما هو، أم لتخترع الأكاذيب كما يفعل الآخرون؟

ـ أحاول أن أنقل للقارىء بأمان الصورةَ الحقيقية لكلِّ ما أشاهده، أحسّ به وأجبته موضحا الغايةَ من زيارتي بعد هذا الهجوم الإرهابيّ المفاجىء عليَّ.

ـ مهما كانت نيّاتك سليمة أرى بأن يومين لا يكفيان للتعرُّف على حياة سكان مرزق وفهم نفسياتهم. عليك يا بولندي أن تقضي بين ظهرانينا أربعة أو خمسة أيام.

بقيتُ.

يُبنى الآن حصنٌ جديد على بعد نصف كيلومترٍ من بوّابة البلدة. على مدِّ البصر لا أعاين أيَّ كائنٍ حيّ عدا الرفوش والقزمات ـ اليوم جمعة، عطلة المسلمين.

ألمح كوخا بشعا تحت نخلةٍ مبنيّاً من الألواح الخشبية. هو مقرُّ القائد العسكري.

تدل الأصوات المنبعثة من داخل المبنى على حركةٍ ونشاط. يُسمع صرير

أقلام وخشخشة آلة كاتبة مع كلمات وإحصائيات. تُلقَن نصوص رسائل موجهة لشخصياتٍ وهيئات مختلفة، يوضع برنامج للكتيبة لتقوم بتنفيذه خلال الأسبوع القادم. السلاح الوحيد الموجود: قطع صفراء لرشاش مفكوك وجهاز لقياس الزوايا وذخيرة حربية، ثم: كلس، اسمنت، حجارة وغنائم وجدار يشبه الغربال مركّب من النوافذ والأبواب، توحي الفتحات فيه أن الجنود يتدربون على الرماية.

يتجعّد الوجه الغض للملازم باسكواليني المسؤول عن القنّاصة، بسبب الجهد الذي يبذله. يُطلب منه أكثر مما تتحملّه أكتافه الطفلية من أعمال مرتبطة ببناء الحصن. أرى نظارات المحاسب دوتتي قد تغطت بالبخار. يقوم بحسابات من جمع وطرح: المواد اللازمة للبناء تكلّف كذا، إعدادها وتركيبها يكلّف كذا. . . التقرير جاهز ليستلمه ويطّلع عليه القائد العام في طرابلس. ينحني نيجري فوق الآلة الكاتبة، وهو نفس الإنسان الذي كنت قد تعرَّفت عليه في الباخرة[1]. يدقّ الحروف السوداء على الورق. يتصبَّبُ عَرَقُه. يبدو جسمه مرهقاً. يسهر الليالي في إعداد المخططات.

يسطع القمر بضوء زاهٍ وتُرسل النجوم بريقها في فضاء السماء بلونها الأزرق العميق. نسمات الريح تحرّك تيجانَ النخلات وتذري الرمال.

في المبنى الخشبي المغطاة جدرانه من الخارج بالقماش والحصر والمليء بالهواء العفن ودخان السجاير والمُضاء بمصباح نفطي تتطاير شظايا الشحوار. أجد مجموعة من رسل التقنيات الأوروبية منكبِّين حول طاولاتٍ مكسَّرة أقدامها ليبشّروا الصحراء بالحقائق الجديدة ويلقّنوها أسرار ما غنموه.

يمثّل الرجال الثلاثة الذين في الداخل الثقافةَ الإيطالية الصناعية الغنيّة المشبَّعة برغبة إرسال أولادها الشجعان ليقيموا «حصوناً على الرمال»، ليرفعوا بها شأن وأرباح الوطن البعيد.

---

(١) كتب عنه في الفصل الثاني، الصفحات ١٥ ـ ١٧.

أعاين عند الشارع الرئيسي في مرزق بناءً متوسطَ الأبعاد، أبيض اللون، عُلِّقت عليه الجملة التالية: "Scuola Italo - Araba". الجدران الداخلية مطليّةٌ بالكلس الأبيض وقد زُيِّنتْ بمختلف الخرائط. بينما سقف المدرسة يتألف من حصر ملقاة على عوارض خشبية تصل بين الجدارين، مصنوعةٍ من سعف النخيل.

أربعة صفوف من المقاعد. فوقها وجوهٌ لون بشرة بعضها أبيض، بعضها حنطي أو أسود. الأنوف معقوفة أو مسطّحة. الجباه مائلة إلى الخلف.

ـ والدي حدادٌ... يلفظ هذه الكلمة بصعوبة وبطء باللغة الإيطالية طفلٌ عربيٌّ ببشرة سمراء تبدو على وجهه آثار مرض الجدري.

كان المدرّس جالسا. يبتسم ابتسامة تنمّ عن لطف.

ـ اكتبوا الآن أسماءَ خمسةِ حيوانات مفترسة مع ثمانية أسماء أفرادٍ وعشرة أسماء لأدوات منزلية مُستخدَمةٍ يوميا.

تنحني رؤوس التلاميذ المكسوّة بشعر كثيف لولبي مجعّد. يُسمع صرير الأقلام.

حيَّرني في هيئة الأطفال عدم وجود ضفائرَ الشَّعْر التقليدية خلف الرأس. هناك مقولة شعبية دارجة تفسِّر معنى خُصَل الشعر. مفادها أن الله يمسك بها ويقود حاملَها إلى الجنّة. هناك تفسير آخر يقول أن قصَّ هذه الغُرَيْدة المعروفة باسم «قرن» قد يؤدي إلى موت أحد أفراد العائلة.

ـ أعلنتُ الحرب ضدَّ هذه الكتلات الكثيفة من الشعر التي كانت مرتعا للقمل وشتى الأوساخ ـ يعلنُ المدرس السيد مارانزانو. شعره أشقر داكن. عيونه سوداء. إلا أن لهجته لا تناسب لهجة الصقليين. تختلف عنها اختلافا صارخا.

ـ ناديتُ قاضيَ بلدة مرزق وسألته: هل يحمل هو أيضا جدايلَ وهل القرآن يوصي الرجالَ بتربية شعرهم ولفّه بخصلةٍ. جوابه كان واضحاً: لا تذكر الكتبُ المقدسة شيئا من هذا القبيل. عندها مسكتُ مقصّاً قويا، أقنعتُ نفسي بأنني

حلاّق ماهر، فنظَّمْتُ حفلة قصِّ شعرٍ جماعيةً. بعد قيامي باغتصاب ضفائرِ التلاميذ لم أحسْ بأي ردِّ فعلٍ من قِبَل الله على تدنيسي للمقدسات ولم أسمعْ كذلك بأن أيَّ فرد من عائلات التلاميذ قد أصيب بعاهة ما. لهذا رضي سكانُ البلدة بالعادة الجديدة. قَبِلوها دونما أية علامة احتجاج. حتى العساكر العرب يقومون الآن بالتخلّص من هذه «القرون» كما يسمونها.

ـ أما مسيرة حياتي فهي كما يلي: شاركتُ بعمليات الحرب العظمى بصفة ضابط. بعد أن وضعت الحرب أوزارها بقيتُ بدون عمل هائما على وجهي في إيطاليا. ثم نجحتُ في المسابقة وأُرسلتُ إلى طرابلس، حيث وضعوا تحت تصرّفي سيارة شحن مملوءةً بمختلف المواد التي سافرت بها إلى قصر القره بوللي. كان عليَّ أن أنهي أولا المدرسة في طرابلس لأتمكن من تحمُّل أعباء رسالة التدريس.

ـ عندما صار مبنى المدرسة جاهزا ناديتُ المدير وصرَّحت له أنني أريد بعد ثلاثة أيامٍ أن أرى في الصفوف ستين تلميذا. بعد مُضي الأيام الثلاثة التي اتفقنا عليها قرِع المدير بابي وهو برفقة أكثر من سبعين تلميذا. رفضتُ منهم حوالي خمسة عشر طفلا بسبب صغر سنِّهم وأجلستُ البقية على مقاعدَ الدرس. هكذا بدأتْ مهمّتي كمدرّس في أفريقيا.

تم تعييني في مرزق بعد أن فرضتْ جيوشُنا سلطتَها عليها بسنة واحدة وما زلتُ مثابرا على عملي هنا منذ ثلاث سنوات.

ضجيج وشجار يدلان على أن الصِّبْية قد أنهوا الوظيفة المطلوبة منهم.

ـ إهدأوا ـ ضَرَبَ المدرس معصمه بالطاولة بشدَّة. ـ تعال ياسنوسي مع دفترك لأرى كيف حلَّيتَ المسألة.

سنوسي، الطفل المرتدي صدرية زرقاء، يحمل دفتره، يقدّمه للمعلم وهو يبتسم خجلا.

ـ لمَ هذه الأخطاء الكثيرة ـ إخجلْ، يا صبي! يبدو أنك استغلَّيتَ فرصةَ

حديثي مع الضيف ففضّلتَ أن تتكلم مع زملائك من أنْ تركّز على ما طُلب منك ـ اعترفْ ـ ها؟

احمرّت وجنتا الطفل خجلا وبسرعة هرب عائدا إلى مكانه.

ـ يُقدَّم لهم كلَّ شيءٍ مجانا: المدرسة، الكتب، المواد القرطاسية، زيارة يومية عند الطبيب وامتيازات أخرى كانت قديما في نطاق الأحلام. حتى القمصان التي يرتدونها اشتريتها من جيبي الخاص. كانوا فقراءَ بألبسةٍ مهترئة.

تبسط العينان الزرقاوان للمدرس النظر الهادىء والدافىء على المقاعد. يبادله الصِّبية النظراتِ بمرحٍ وثقة محدِّقين بوجه معلمهم. يبدو أن العلاقات المتبادلة بينهم على ما يرام، مبنيّةٌ على التفاهم والإحترام.

انتهت الدروس! ـ يعلن مارانزانو ثم يُخرج من الدولاب جهاز الحاكي، يركِّب فوقه اسطوانة بنشيد جيوفيننيزا[1]. تختلط الأصوات الناعمة للأطفال مع الصوت الصدّاح للمعلم الذي ترتسم على وجهه علامات الارتياح والسعادة والإيمان بالنتائج المفيدة لعمله ومغزى الجهود التي يبذلها.

Giovinneyya, giovineyya, primavera di belleyya!

(يا شبيبة، يا فُتُوّة، يا أيها الربيع الجميل).

أيها المعلم مارانزانو! أحني هامتي خشوعا وإعجابا أمامك. رائعٌ هو عملك كرائد من رواد الثقافة التي لوحدك، كالجندي المجهول، تزرع بذورَها في الصحراء البعيدة هذه. مرحى لك!!

أقضي سهرتي في الحصن مع أربعة ضباط. نسمع للمرة الرابعة بدون انقطاع أغنية على نفس الإسطوانة "Napoli tutta luce". أما الحديث فكان حتى ساعة متأخرة من الليل مفككفكا. الهواء الثقيل بحرارته العالية يعيق التنفّس.

فجأة طرح أحدهم فكرة زيارة بيت الدعارة. هذا الأسلوب في قضاء الوقت

---

(١) انظر التعليق رقم ٢، الفصل السادس، ص. ٥٧.

في الظروف المعيشية السائدة هنا وفي جو كهذا يُعتبر عنصرا مرتبطا ارتباطا عضويا بحياة الإنسان الأبيض.

نسير عبر أزقة ملتوية ونضيء طريقنا بمصابيح يدوية. ندخل إلى فناءٍ يبدو في عمقه شعاعٌ خافت يلمع من خلف باب مفتوح. تواجدنا فجأة في حُجرة غارقة بالفقر والفوضى. جدرانها مليئة بالحُفَر والتجعدات، سقفها على وشك السقوط، صفٌّ من الحواجز المكسَّرة.

تبين أن المبنى عبارة عن مكان يلتقي فيه ممثلو الجنسين، مكان مواعيد أو ما يشبه النادي، حيث تؤمه الفتاة مع مصباحها الخاص وحصيرها ومخدَّتها، بعد العثور على الرجل المناسب والإتفاق معه تأخذه إلى بيتها. عندما دخلنا وجدنا أربعَ زنجياتٍ في منتهى البشاعة، لا بل يُوقِعْنَ النفور والإشمئزاز في النفس، مزداناتٍ بِخرَقٍ ألوانها زاهيةٌ وبأشياء مؤلفةٍ من الخَرزات. لا يتكلَّمْنَ اللغة الإيطالية نهائيا، إنما أتقنَّ كلَّ أسرار لغة الإشارات.

جلس الملازم أوتتافياني على الحصيرة بجانبي. وجهه صبيانيٌّ، ممتلىء الخدَّين. رأسه المحلوق الخالي من الشعر نهائيا يولد السخرية والمرح. ابتسامته العريضة تكشف عن أسنانه البيضاء.

نتجاذب أطراف الحديث عن روما والنساء، عن المسرح والسينما، عن المقاهي التي تصدح بالأنغام الموسيقية ـ باختصار: عن كل ما يميِّز الحياة الأوروبية ويشبعها خصالا وما يدخل حتى في عداد القصص الخرافية!

ـ ما الذي دفعكَ للمجيء إلى أفريقيا؟ ـ سألته.

عبس وجهه في الحال وراح يرمقني بنظرات عميقة طويلة مشبعة باللوم تكاد تخترق جسمي. قرأتُ فيها شعوره الفضولي. توقَّعتُ بأنه سينتهرني لأنني أرغب التدخُّل في أمور حياته الخاصة. وأخيرا ابتسم وراح يسرد:

ـ كل ما في الأمر أنني كنتُ منذ الطفولة أحلم بالوقوف على كنه وأسرار سحر الصحراء المترامية الأطراف. وَلَعِي بالاستكشافات حمل رأسي الغض

والحار ليصل إلى هذه الأصقاع قبل أن تطأها قدماي. كنت مغرما خاصة بتلك الأفلام المعروضة على شاشات السينما، المنسوجة قصصها على الحكايات الخارقة التي كانت الصحراء منبعا لها ومرتعا. كنتُ عندها صبيا. أما الآن فقد تأكّدتُ بأن تلك الأفلام كانت سردا فارغا للخرافات، تولدتْ في مخيلة ورؤوس المخرجين السينمائيين في هوليوود. أعيش هنا منذ ثلاث سنوات. قطعتُ خلالها ليبيا كلها طولا وعرضا على ظهر الخيل والجمل، ولم أر فيها سوى العمل الشاق والفقر والصراع المستمر من أجل الحياة. لو أراد الحظ أن يبتسم لي ولو مرة واحدة في اليانصيب الطرابلسي لكنتُ سأترك الجيش، أبني مركز تربيةِ خيولِ السباق. حينها كنتَ سترى خيولي الأصيلة في مقدمة الخيول المتسابقة في العالم...

أحدِّق النظر بهيئة الفتيان من القوات الصحراوية اللابسين أزياء بيضاء. أسندوا ظهورهم إلى الجدار. عيونهم مسمَّرة بالنسوة ذوات الملامح الوحشية، الجالساتِ القرفصاء وبدون حركة على الحُصْر وقد هيمن عليهن الانتظار المملّ كأنهن مفقودات الإرادة. جعلني هذا المشهد أفكّر بمعنى وهدف حياة هؤلاء الجنود المعزولين عن بلادهم وعائلاتهم وموارد التراث الحضاري والثقافي الذي طالما اعتدنا عليه في أوروبا كأنه خبزنا اليومي. لقد أُجبر هؤلاء الجنود على الحياة والعمل الشاق في جو صحراوي جهنمي بنزواته العجيبة وفلتاته الغريبة الذي يرهق الأعصاب، يمصُّ من الإنسان طاقته وبهجة الحياة. والشيء الوحيد الذي يربطهم بعالم الحضارة هو المذياع والبريد الذي يصلهم مرة في الأسبوع بأخبار الأهل، يمدّهم ببعض الصحف المتأخرة.

إذن ما الذي يمنعهم من الوقوع في حضن فتاة سوداء بحثا عن وسيلة تجعلهم ينسون واقعهم المرّ!

[11]

مرزق ليلة في الصحراء

إذن أنا في مرزق.

واحةٌ وحيدة حزينة تحفُّها هضابٌ رملية وحَصَوية، تبعد ألفٍ ومائةِ كيلومترٍ عن الشاطىء الأفريقي للبحر الأبيض المتوسط. فيها سبخةٌ مالحة وإلى جانبها بعضُ الحقول المزروعة. قريبا منها يتراءى حيٌّ سكني على هيئة قوسٍ يبلغ طوله ثلاثةَ كيلومتراتٍ، يبدأ من الحصن الذي هو في طور البناء ويمتدُّ بشريط تكوِّنه بيوتٌ رمادية بنِّيّة مربّعة الشكل كانت تمثّل قبلاً قلعةً تركية قديمة. تليها زرائبُ سكنيةٌ مصنوعة من سعف النخيل تحدِّد نهايتها مجموعات من شجر النخيل التي حياتها عراكٌ دائم وعنيد مع الرمال الصحراوية.

يثيرُ الانتباهَ النمطُ العمراني لذاك القصر التركي من القرن السادس عشر بأسواره العالية المنيعة يوما المتشقّقة الآن، الماثل فوق مرتفع، باسطا هيبته ونفوذه كالسلطان على مرزق بكاملها. بينما المسجد قليل العلوِّ، لونه قاتمٌ، أعمدتُه غليظةٌ مستطيلة، مئذنتُه مكسوّةٌ بقبَّةٍ مجدولة من السعف تشبه السلَّةَ المقلوبة غُرز فوقها على وتدٍ هلالٌ معدني. إلى جانب المسجد يقع السوقُ الرئيسيُّ للمدينة، تَعرِض النسوةُ الزنجيات فيه بعضَ البضاعة (أحذيةً لا كعب لها مصنوعةً من خشب النخيل، حفنةً من التمر، عدةَ قرونٍ من الفلفل)، يجلسْنَ حولها طولَ ساعات النهار. يتراوح حجمُ مبيعاتهنَّ اليوميةِ بين عشرة سنتيمات وبين دخلٍ يعتبرونه خياليا: ليرةٍ واحدة أو ليرتين.

لعلَّ أكثر إثارةً هو ذلك البيت الذي فيه سكنتْ في عام ١٨٨٤ الرحالةُ الهولندية ألكساندره تينني[1] التي قُتلت غدراً على يد الطوارق خلال عبورها وادي عَتَبَة. كان هذا الحدثُ كارثةً حقيقية. ولم يبقَ اليومَ من ذاك البيت سوى جداره الخلفيّ، أما ما هُدم منه فقد أعيد بناؤه. يحوي الآن ورشة خياطة تابعة لعربيٍّ بعينٍ واحدة يختص بخياطة السيلوارات، أيْ سراويل سكان الصحراء. إلى جانب الورشة يدير هذا العربي مقهىً مميّزاً بمواصفاته الأفريقية البحتة - specialite de la maison هذا يعني أن القهوة تُقدَّم للضيوف مع إصبع الذي يحملها، إصبعٍ غاطس في عمق الفنجان. ولتوضيح هذه الصورة عليّ أن أضيف بأن الجرسون هو نفسه الخبير العالي بالخياطة.

يبلغ عدد السكان الأصليين المرتبطين بنمط الحياة المستقرة حوالي ألف فردٍ. هم زنجانيون: يتميزون بأرجلٍ رفيعة كالعصي وبصدورٍ وأنوفٍ مسطّحةٍ - هجينٌ غير ناجحٍ للعنصر العربي والتيبو والطوارقي والزنجي السوداني. تعادل نسبة الأميين بينهم تسعين بالمائة.

لا يغطي النسوة وجوههن. شعرهن منضّد بجدائل رفيعة متساوية الطول مسترسلة بكثافة على الجبهة. وتدهن عادةً هذه الضفائر بزيت النخيل أو زيت الزيتون وتُستعمل أحيانا كثيرة موادٌ عطرية أخرى عديدة من مواصفاتها أنها تجعل الشعرَ الأشعث صلبا جافا قاسيا، تفوح منه الروائح الكريهة على بُعْدِ عدة خطوات.

---

(١) لم أوفّق في العثور على أية معلومة عن هذه السيدة في المراجع المتوفرة. لعمري أغلب الأوروبيين يمتازون بغريزة حب الاستطلاع، وليس بالضرورة من أجل الكشف، بل ليثبتوا لأنفسهم وربما للغير أنهم قادرين على الوصول إلى أماكن غريبة وبعيدة. وأحيانا كثيرة يقدمون على هذه المغامرات بصورة فردية وليس في إطار حملة واسعة بمشاركة الغير، لهذا قلما يعرف أحد بهم. ومهما يكن هدفهم فإن لنتائج هذه الرحلات - لو سجّلت - فائدة لا يختلف عليها إثنان، فهي تصف مرحلة تاريخية معينة ولها قيمة علمية للمهتمين بتلك المنطقة الجغرافية وشعوبها. مثلا الكتاب الذي بين أيدينا يروي حياة بعض الشعوب التي كانت تسكن في ليبيا واليوم لا نسمع عنها أي خبر. هل اندثرت أو انقرضت بقدرة قادر؟ هل هَجَرت أو هُجّرت؟ هل الإعلان عن استمرارها في الوجود ممنوع وحرام؟ ولماذا؟.

كل بيوت البلدة مبنيةٌ من الطين الرملي: كَبْسةٌ واحدة من المطر كالتي عندنا في بولندا تكون كافيةً لتحويل الأبنية إلى كتلة من الأنقاض. إلا أنَّ المطر لا يسقط هنا نهائيا ـ ولعلَّ خير دليل على هذا هي القلعة القديمة المشادة من نفس المادة الهشَّة، لكنّها مازالت صامدةً أمام عوادي الزمن منذ أربعة قرون.

كان سكان البلدة قبل احتلال مرزق من قبل الطليان يعيشون في ظروف قاسية جدا، يشكون الجوع. كان طعامهم الوحيد حبوب الشعير الصعبةُ الهضم التي يجمعونها من بين روث الجِمال. عندما وُزِّعت عليهم الحبوب لأول مرة في سنة ١٩٣٠ كان من الضروري الإشراف على هذه العملية باستخدام السلاح، كيلا ينتشل المساكينُ الجشعونَ عددا أكبر من الأكياس المخصَّصة لهم ـ راحوا يلتهمون الحبوب التي حصلوا عليها بشراهةٍ. وحَدَثَ بأن رجلا كبير السنِّ اختنق بسبب شراهته وعلى الرغم من محاولات إنقاذه سلَّم روحه لخالقها.

أنا البولنديُّ الثاني الذي وطأت قدماه أرض مرزق. كان الأول كاجيميش نوفاك[1]، الرجل الذي قطع تريبوليتانيا طولا وعرضا على دراجة، مثيرا بهذا

---

(١) (١٨٩٧ ـ ١٩٣٧) رحّالة بولندي مشهور من مدينة بوزنان. في (١٩٣١ ـ ١٩٣٦) تجول على الدرّاجة في أفريقيا من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها ومن الغرب إلى الشرق، حيث قطع مسافة تناهز الأربعين ألف كيلومتر تعرّف خلالها ووصف عادات وتقاليد العديد من الشعوب والقبائل ونشر أدبياته في العديد من الصحف البولندية. وبلغ مجموع الصور التي لقطها العشرة آلاف صورة. بعد عودته إلى بولندا ليلة ٢٢ ـ ٢٣/ ١٢/ ١٩٣٦ دعته العديد من الجامعات والمؤسسات البولندية لإلقاء محاضرات عن مغامراته والشعوب التي التقى بها. في سنة ١٩٦٢ أصدرت دار النشر البولندية Wiedza Powszechna في وارسو ألبوما تحت عنوان Przez Czarny Lad ـ «عبر اليابسة السوداء» ضم العديد من الصور التي جمعتها ابنته. وفي سنة ٢٠٠٦ أصدرت دار النشر (Sorus) في بوزنان كتابا لمؤلفه Lukasz Wierzbicki تحت عنوان Rowerem i pieszo przez Czarny Lad ـ «على الدراجة والأقدام عبر القارة السوداء». هذا وفي يوم ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٧ كُرِّست للرحالة لوحة تذكارية برونزية في القاعة الرئيسية لمحطة القطارات المركزية في مدينة بوزنان تضم خارطة أفريقيا ومحطات رحلاته، بث حفل الافتتاح القناة الثالثة للتلفزيون البولندي ونشرت كذلك في ٣/ ٢/ ٢٠٠٧ ريبوتاجا آخر تحت عنوان «بطاقة من العم كاجو*» شارك فيه أحفاد الرحالة وأصدقاؤه ومؤلف الكتاب المذكور.

[* كاجو صيغة مُصغَّرة من اسم كاجيميش].

الإعجاب العميق نظرا لقوّة إرادته والطاقة الكامنة فيه وشجاعته النادرة ـ مازالت ذكراه حيّةً هنا وتتردّد على كل شفة ولسان.

على متنِ دراجة عبر الصحراء! مرحا لك يا نوفاك. عملك هذا أفضلُ دعايةٍ رفعتَ به اسم بلدك وشعبك.

وقبل سنتين اجتاز مرزق الرحالة الإنكليزي الذائع الصيت سير كامبيل مع زوجته وهو منذ أربعين عاما لم يفارق أفريقيا وفي ثراها وارى زوجتين له[١].

Passe partout عفش السفر الذي يحمله هذا الإنكليزي لا يزيد عن صندوقين: يحوي الأول نظارات أما الثاني فأحناكاً وأسناناً اصطناعية. هذه الأمتعة السحرية جعلته موضع احترام وتقدير الجميع دون أن يعترض أحدٌ سبيلَه.

خلال إقامته في مرزق تعرّفَ على كلّ الشخصيات الهامة وأصحاب النفوذ، إذ استدعى رئيس المدينة والقاضي والمدير وتحدث معهم طويلا. عند الوداع أهدى كلا منهم نظارات. بينما لمْ يحرّكْ محتوياتِ الصندوق الثاني. يبدو أنَّ أسنان الضيوف كانت على ما يرام!

أعتقد أن المسكين شوبسكي، الابن البار لمقاطعة دولنوشلونسك البولندية[٢]، لم يحلمْ أبدا بأن حفيده المدعو الآن سوبسكي سيكون يوما ما موظفَ بريدٍ في مدينة أسطورية مثل مرزق. يعتبر سوبسكي نفسَه صقلية ويتمتع

---

(١) لم أعثر في المراجع المتوفرة على أي معلومات عن هذا الرجل.

(٢) شوبسكي لقبٌ شائعٌ إلى حد ما في بولندا. من بين الشخصيات المعروفة ما بين القرنين التاسع عشر والعشرين عثرتُ على اسم Felicjan Szopski (١٨٦٥ ـ ١٩٣٩). خلال وجود الكاتب في ليبيا كان عمره حوالي سبعين سنة وليس مستبعدا أن يكون «سوبسكي» حفيدا له. فِليتسيان كان موسيقيا وناقدا موسيقيا، كاتبا ومدرسا جامعيا بدرجة بروفسور في مدينة كراكوف ثم في وارسو. منذ سنة ١٩٠٨ عمل في المؤسسات الحكومية وكان معاون رئيس تحرير المجلة الفصلية الخاصة بالموسيقة Kwartalnik Muzyczny له العديد من الكتب في مجال الموسيقى والموسيقيين، سيما البولنديين منهم.

بتقدير عال من قبل الجميع، إذ يؤدي واجباته خير أداء، فهو يسهر على تأمين وسائط الاتصال بالعالم المتمدن البعيد.

كلَّ أسبوع، وبالتحديد في صباح كل يوم ثلاثاء، تقف أمام مكتب البريد سيارةُ شحن مغبَّرة يُقذف منها كيسٌ مختوم بالشمع والرصاص. يقوم سوبسكي بتوزيع الصحف والرسائل على أصحابها بعد الظهر. آه للرسائل المرسَلة من الوالدين أو الأهل أو ربما بخطِّ الخطيبة أو الأصحاب، فهي تصل بعد رحلة طويلة تقارب أحيانا ثلاثة أسابيع، وكمْ تُدخل من السرور والبهجة في قلوب المنفيِّين عن أوطانهم الذين يعيشون في الصحراء القاحلة والربوع المنسية.

فلا غرابة إذن أن يكون يوم الثلاثاء اليومَ الوحيد في الأسبوع الذي ينتظره هؤلاء المغتربون بفارغ الصبر. ترى الأوروبيين الذين يسكنون في مرزق على الرغم من قلة عددهم عندما يسلّمون على بعضهم قبل يوم الثلاثاء لا يستخدمون التحية التقليدية «يومك سعيد» أو «كيف حالك»، بل يُحيّي واحدهم الثاني بابتسامةٍ خفيفة عميقة المغزى وبعبارة: «غدا البريدُ!».

لهذا ترتفع قيمة أسهم السيد سوبسكي عشيّة كلِّ يوم ثلاثاءٍ في سوق الصَّرْف المحليّة لتبلغ أوجَها في الساعات الصباحية، ثم تبدأ بالهبوط وتستمر حتى نهاية الأسبوع، حيث من جديد يتوجه خطها البياني إلى الأعلى. وهكذا دواليك.

يمتاز محمد بن علي، الرجل الضخم في بنيته والمشرف على خدمتي، يمتاز بعادةٍ خالية من اللطف. يوقظني من نومي يوميا في السادسة والنصف صباحا وبيده فنجان مليء بالقهوة السوداء. يوقظني بعد أن يسحب اللحاف من على جسمي وينادي:

- استيقظْ! إنها ساعةٌ متأخرة. يكاد سكان فزان ينهون سقيَ الحقول.

أنا لا أستوعب علاقة نومي بعملية سقي المزروعات، إلا أنَّ التصميم المرتسم على وجه محمدٌ والعزم في نبرة صوته يجعلانني أستسلم دونما أية محاولة لانتشال اللحاف من بين يديه القويتين.

ما عليَّ إلا أن أجرع القهوة. تليها عملية رشّ الماء البارد على جسمي. أصرخ على إثرها كالمسعور، إلا أن محمدا لا يرحمني.

إزاء نظرات محمد التي لا تنفكّ عني أضطرُ أخيرا إلى الخروج إلى الفناء لابسا القميص الرياضي والسيلواره والبنطلون الضخم الفضفاض المقلّم بحزام أسود، المطرّز تطريزا جميلا الذي اشتريته هنا. والأفضل القول، أن هذا السروال نوع من أنواع الثوب النسائي الذي يتدلى مثل التنورة. تبدأ حوافيها السفلية الضيقة (التي تغطي الرِّجل) على ارتفاع بضعة سنتيمترات من كعب القدم.

تهرع الغزلان نحونا بِعَجَلةٍ، يلحق بها الماعز البري الذي أُطلق عليه اسم رنّان «آرينو». راح الماعز يندفع باتجاهي. حينما وصل إليَّ لاحظتُ أن نيَّته ليست صافية. لا أعرف هل التصاقه بي دلالةٌ على التعاطف معي أم عكس هذا. على كل حال مازلت أشعر بألم ضربات قرونه منذ اليوم الأول من قدومي، حينما كان قد انطلق ينطحني دون رفق. ولئلا تتكرر هذه العملية أُجبرتُ أن أطلق ساقيَّ للريح هاربا. قفزتُ لأستقر على السور العالي. ثمة لا تطالني قرونه المخيفة. رحت أتفرج عليه من علٍ وهو يرمقني بنظرات ملؤها التحدي كالذئب الذي يكرّ ويفرّ في ساحة المعركة.

سمعت الكثيرَ وقرأت أكثر عن وفاء الغزلان الذي يُضرب به المثل، ولكن تصرفات آرينو العدائية كذّبت كل ما قيل. على الرغم من عملية إخصائِه ـ لا رفقا به، إنما لتهدئته ـ ما زال يهاجم الجميع دون استثناء. لا يهاب أحدا. أكثر الناس الذين لا يطيقهم هم الأطفال والكلاب.

خلف أسوار البلدة، عند قاعة النخيل، تلمع خِيَمُ العساكر، أيْ الجنودِ العرب، بياضا ناصعا. لا يطيق العربي الحياة داخل الثكنات. يختنق فيها. لا يرتاح إلا عندما ينام في الهواء الطلق. ثمة يمتلئ صدره بالنسيم الدافئ الذي يهب من عمق الصحراء.

أُسنِدت كلُّ خيمة إلى جذع نخلةٍ وعُلِّقت على جذع الشجرة بندقية وفانوس للإضاءة. أما أرضية الخيمة فتجدها مكسوة بالسجادات مع بضع طناجر طهي وسعفٍ جافٌ لإشعال النار بالموقد. في إحدى الزوايا أكياسٌ وحقائبُ. تغلي فوق الموقد القهوة أو الشاي في إبريق صغير. تجثو عند مدخل الخيمة ناقة جميلة.

خلف الساحة التي نُصبت عليها الخيام تتراءى أعمدة وألواح خشبية متصالبة فوق بئر يقع عند حدود الحقول المزروعة بالشعير. سنابل الشعير بلونها الربيعي تغازل الإنسان بلطف، تدغدغ عيونَ الناظرِ إليها.

أعاين فوق الرمال الصحراوية الصافية زرائبَ مبنيةً عادة في المكان الذي لا ينمو فيه أيُّ نباتٍ. لا يجوز هدرُ ولا شبر واحد من الأرض الصالحة للزراعة.

الزريبة مبنية بكاملها من سعف النخيل المتشابكة مع بعضها. وتُقسم الزريبة إلى قسمين: الأول مسقَّفٍ يُستعمل كمسكن للناس، أما الثاني فبدون سقف ويُستخدم كحظيرة للحيوانات البيتية.

ألقي نظرة سريعة داخل حجرة المواشي بعد أن أبعدتُ سعف النخيل دون رُشْدٍ ولا تعقُّل أو حذر. شاهدت فيها امرأة «زويلة» ببشرة سوداء قائمة تحلب نعجة.

ـ أنا أيضا أريد أن أتعلم هذه الصنعة وفنَّها ـ اقترحتُ.

أجلسُ على الأرض. تثغو النعجة. امتلأ خروفها رعبا وراح يقفز حول أمه. يتدفق الحليب على وجهي وتستقر قطراته على السلوارة. مهما جرَّبت مسكَ الحلُمات بزوايا مختلفة يرفض الحليب أن يتوجه إلى قعر الوعاء الآجري. تفقع زويله فرحا، تضرب يديها بركبتيها كاشفة بالمناسبة عن أسنانها الصفراء ولثتها الحمراء كالدم في ابتسامة عريضة.

الحقُّ معها: ماذا جرى لهذا «الرومي» الأبيض الذي يُقال إنه ذكيٌّ ويجيد القيام بكلِّ عملٍ وقد فَقَدَ رأسه في عراكه مع نعجة واحدة صحراوية غبية رفضتْ أن تطيعهٌ!

تجمّعت أمام زريبة أخرى حوالي خمس عشرة امرأةٍ، أعمارُ بعضهن اثنتا عشرة أو ثلاث عشرة سنة، حاملات أطفالهن على الأيدي. الأكبر سنّاً بينهنّ شعر رأسها يلمع بياضا، تشبه بهيئتها العفريتةَ وتمسك بيدها عصا غليظة طويلة بنهاية مدبّبة وتضرب بها عجوات التمر الموجودة داخل جرن محفور في جذع شجرة نخيل. تدقُّها بقوةٍ. الغاية من العملية تكسير العجوات. ثديها الضخم الذي يتدلى تحت قميص أسود كان يتلولب على إيقاع حركاتها، يصطدم جزآه ببعضهما مع كل رفع أو سقوط للعصا. تجري على مقربة منها عملية تجميلية صحيّة: مدّتِ إحدى الفتيات جسمها بحيث يلامس بطنها الأرض وأَسندت رأسها على ركبتَي صديقة لها جالسة. مسكت الجالسةُ عودا رفيعا حادّاً النهاية بيدها وراحت «تحرث» به رأس الأولى، تفلفل شعرها الجعد الكثيف، تنقب فيه، تستأصل منه القمل.

تشير العجوز بإصبعها نحوي وتنطق ببعض الكلمات. تنفجر الواقفات ضحكا وقهقهة. لم أفهم ما في الأمر.

تقترب إحداهن نحوي، تمد يدها وتشير بإصبعها إلى وجهي، ثم تُقهقه ضحكا وتهرب.

أعتقد أنني فهمت سبب المرح واستهزاء الليبيات بي. إنه أنفي المحروق من أشعة الشمس، حيث احمرّ كثيرا وتشقّق جلده.

يبدو أن شيئا ما قد أصيب بالعطل عند البئر. يهرع ثلاثة رجال سود، يمسك واحدهم ببرنس الآخر ثم يجرّه ويدفعه ليكون هو الأول. يطلق كل منهم أصواتا عالية. تبين أن الحبل سقط من على البكرة التي تشده فوق فوهة البئر.

- إنها فرصتي. أسرعتُ لأسبقهم إلى البئر. رفعت الحبل وركّبته من جديد على البكرة دون أية صعوبة.

الكل يتمطق ويحدث أصواتا كمن يتلذذ بمضغ لقمة طعام شهي تاركا فاه مفتوحا ويستغرب.

ـ الرومي حكيم! الرومي يعرف كيف يُزيل العطل!

بالتأكيد هم أيضا كانوا قادرين على إزالة هذا العطل البسيط، لكنهم ـ مثل الأطفال ـ احتاجوا لمن يرضيهم مع بعضهم.

يرفع الدلو كميات معتدلة من الماء بانتظام. يتدفق الماء أولا عبر مزراب ثم قناة وبالتالي يصبّ في حوض صغير. هنا تغسل فتاة بعض اللباس، هناك يدسّ طفل صغير رفشه بالحوض ويسكب الماء على نبات الشعير. في حقل الشعير قد نُصبتْ فزّاعة لتخويف الطيور وحماية السنابل، تتكون من جلد خروف وعظم ناقة مربوطين بعود طويل.

إلى جانب المزرعة يقع بئر بدائي كأنه من العصور الغابرة. تلقي فيه امرأة عمرها حوالي ثلاثين عاما سلة مربوطة بحبل وتسحب الماء ثم تصبّه على قطعة أرض مزروعة بالبصل. تتدلّى في أذنَيْ المرأة حلقاتٌ كبيرة وزُيِّن معصما كلتا يديها بأقراص معدنية عريضة. منخرها مغروز بخاتم فضي، شعرها مُنَضَّضٌ بجدايل ومسترسل على جبهتها كأسنان المشط. يقطر الزيت منه.

عند الزرائب توجد كتلة كبيرة من سماد الجمل والحمير الذي جُمع بتأن ليُستغل كوقود. تبحث قطعان من الغنم والماعز والحمير عن غذاء، تقوقيء الدواجن الفزّانية الصغيرة القليلة الرِّيش.

ترسل الشمس العمودية في سطح السماء أشعتها النارية الحارقة. لهيب.

بدأت مناورات الجيش. غادر الضباط مع الفصائل الصحراوية لينصبوا الخيام على الرمال. بقيتُ وحدي في الواحة، أهيم على وجهي، أبحث عن مكان ما لم تطأه قدمي بعد، لم أشم رائحته قبل الآن.

عبر الشارع الرئيسي فجأةً انزلقتْ سيارةُ شحن من طراز بيدفورد سيكس، مغبّرة ومحمّلة بالأكياس والصناديق. وقفتْ أمام أحد الحوانيت لتفرغ فيه حمولتها.

خطرت على بالي فكرة العودة إلى سبها وحاولتُ أن أستفسر عن هذه الإمكانية.

اقتربتُ من السائق وهو شابٌ إيطالي لابس كنزة حمراء. كان محاطا بمجموعة من السكان السود.

ـ متى سيغادر السيد؟

ـ بعد إفراغ السيارة مباشرة.

ـ أممكن أن أسافر مع السيد؟

ـ طبعا. المكان متوفر في السيارة.

ـ وكم سيكلّف هذا؟

تغيّرتْ ملامح وجهه فورا. كانت مرِحةً وتحوّلت إلى حزينة عبوسة.

ـ كما يعرف السيد الطريق سيئٌ وسبها بعيدة. يُزيد الراكب من جهد المحرّك. وعدا هذا فهناك مسئولية أتحمّلها أمام صاحب السيارة. لو سمع أنني أخذت شخصا على ظهر سيارته قد يطردني من العمل.

ـ إذن، كم تطلب؟ ـ قاطعْتُه.

ـ الأفضل لو أجّلنا الحديث عن هذا إلى وقت لاحق. لا تدخل في الحسبان مئات الليرات...

وافقتُ مرارا على تأجيل الحديث عن أمور كهذه «إلى وقتٍ لاحقٍ» وكنت أندم دائما، إذ أعرف أن هذا «الوقت اللاحق» قد يكلّف كثيرا. قرّرتُ هذه المرة ألا أستسلم. وما هي إلا دقائق حتى اتفقنا على السعر. سأصل إلى سبها بمبلغ عشرين ليرة.

كان علينا أن ننطلق في السادسة بعد الظهر. وفي هذا الموعد بالضبط وقفتُ عند السيارة وحقيبتي بيدي. السائق غير موجود. أعود في الثامنة ـ مازال غائبا.

بقيت واقفا عند السيارة برهة ثم رحتُ أتجول في أزقة البلدة التي قسْتها عدة مرات ذهابا وإيابا. ألمح السائق متجها نحو السيارة في الحادية عشرة ليلا. كان يترنّح يمينا ويسارا تحت وطأة السَّكَر.

ليلٌ قمري. تتلألأ النجوم في سمائه مضفية عليه هالة من البياض. بقيتْ بلدة مرزق خلفنا. تتراءى فقط ملامح القلعة التركية التي تبدو في أشعة الضوء القمرية المتساقطة عليها والمنعكسة منها أكبر حجما. غابت هي الأخرى عن أنظارنا بعد فترة قصيرة.

نزحف عبر طريق مستو وملتو. ترسم سيارتنا حرف السين اللاتينية (الهمزة العربية). ترقص على الحجارة رقصا. بمحاذاة طريقنا يمتدّ درب حَجَريٌّ مدكوك حديثا. يلفع البرد وجوهنا. يستسلم السائق كليا لأعراض الكحول الذي صبّه في جسمه. غدت رحلتنا مغامرة كبيرة لا تقلقه هو، بل تزيد من قلقي أنا. أَصرَّ السائق ألا يوجِّه السيارة إلى الطريق المُعبَّد المريح، بل الاستمرار بالزحف عبر هذا القفر المتعب وبسرعة سبعين كيلومترا في الساعة. حمولة الشاحنة التي تتكون مني ومن السائق تجعل السيارة خفيفة كالريشة. نحسُّ أَلَماً بكل حفرة وكل حَجَر في الطريق.

راح السائق يتذكر عندما كان يقود السيارةِ ذاتَها مع رتل من السيارات الأخرى في جبال الألب. اندفع يقصُّ عليَّ تفنُّنه وراء المِقْوَد ومناوراته العجيبة خلال سفراته الجبلية، ثم راح يمتحن سيارته المسكينةَ في هذه الظروف الجديدة. صارت السيارة أخيرا تدور فينا مشكّلة دائرة يضيق قطرها بعد كل دورةٍ.

احترتُ في أمر هذا السائق الأحمق. تساءلت في قرارة نفسي أعليَّ أنْ أبقى مكتوف الأيدي ملتزما الصمت، أم القيام بأيِّ شيء قد ينقذنا من كارثة ما كنتُ أتوقع وقوعها لو استمر في مغامراته. راحت تتزاحم في مخيلتي شتى الاحتمالات، كان أسوأها بقائي في هذه الصحراء مشدوخ الرأس أو مكسور القدم.

فجأة خطرتْ على بالي فكرة رائعة طَرَحْتُها عليه:

ـ أنا مقتنع أن السيد يتجنّب الطريق المُعبَّد لسبب بسيط ألا وهو عدم قدرة السيد على قيادة السيارة وسط الطريق ولا المحافظة على خط مستقيم يبتعد عن كلتا الحافتين بنفس المسافة.

ـ أتشكُّ بإمكانيات سائقٍ مخضرم مثلي؟!! .

وما هي إلا لحظات حتى تم ما توقَّعتُه. تواجدنا وسط الطريق العام. بدأت سيارتنا تزحف بسرعة فائقة لم تستمر طويلا. تراءت أمامنا خيام يحتمي تحتها العمال.

ـ ما رأيك لو حاولنا أن نقضي ما تبقّى من الليل هنا ـ اقترحتُ عليه.

ـ Va bene!

ـ لنجرِّبْ حظَّنا. نترجَّلُ. ثلاثُ خيمٍ. اثنتان محجوزتان مغلقتان والثالثة مفتوحة فارغة. نلفُّ جسمنا بالبطانيات ونتمدد على الأرض. راح رفيقي بعد هنيهة يشخر ويتنفَّس من أنفه بصعوبة.

ما كاد النعاس يتسلط على عيوني بعد أن ارتخى جسمي حتى شعرتُ أن شيئا قد تسلل خفية تحت بطانيتي.

ـ أَهِيَ أفعى قرنية! ـ مزحتُ مع نفسي.

نهضتُ قفزا وانتصبتُ على قدمي بسرعة البرق. ألقيتُ ضيفَ آخر الليل خارج الخيمة بِرَفْسةٍ قوية. . .

أنين حزين ملأ الأرجاء وجعلني أخرج من الخيمة. ألمح في الضوء الزاهي للنجوم كلبا صغيرا من كلاب الصيد ملقىً على الأرض ويئن بحزن وشفقة. حملتُه على يدي ووضعته بجانبي تحت البطانية.

طار نومي نهائيا. أما السائق فما زال مستمرا في شخيره ويردد في حلمه اسم مارغاريت ـ اسما شاعريا أكرهه كثيرا. ثم راح صاحبي في عمق نومه يسحبُ بطانيتي كلها إلى طرفه. بقيتُ مع الكلب المسكين دون غطاء، معرضين للبرد الذي يتسلل من فتحة في الخيمة واقعة فوق رأسي مباشرة. يندب الكُلَيب ويرتعد جسمه مطلقا بين الآونة والأخرى عواء خفيفا وأخيرا يندفع خارج الخيمة ويختفي بسرعة.

تركته وشأنه ولكن بقي ضميري يؤنّبني. لفّيتُ رأسي «بزماله» ومكثت مطروحا أرتعش من شدة البرد.

«الزماله» قطعةٌ من القماش الأبيض بطول خمسة ـ ثمانية أمتار وعرضها حوالي نصف متر، يلفُّ العرب بها رؤوسهم ورقابهم بفنٍّ وذوق رفيع. يبدو الإنسان فيها كأنه قد أصيب بجرح بالغ في رأسه المربوط بضماد ليحميه حماية كاملة. لا تُرى من تحته سوى عينيه.

يعود الكلب ليرقد إلى جانبي. وما هي إلا لحظات حتى استسلم لنوم عميق بعد أن ضمّ جسمه مثل الكرة تحت إبطي. الحرارة التي تنبعث منه تُدفىء الجزء الأيسر من جسمي.

أرفع رأسي وجسمي المثلّج المكسّر بعد مُضي عدة ساعات. أعتقد أنني قد أُصبتُ بالزكام. أنظر إلى الساعة: الخامسة فجرا. أخرج من تحت الخيمة وإذا برِجْلي تُضْرب بفأرة ميتة، راح الكُليب يشممها بسعادة فظيعة. أَهِيَ كانت سبب قلقه طول الليل؟

يبدو أن الشمس تستعد لمغادرة وكرها. بدأ الظلام يتراجع رويدا رويدا. على مد البصر المنظر نفسه: رمال خشنة بلون أصفر رمادي مغلقة في دائرة الأفق. خط تماس الأرض بالسماء يفصله شريطٌ أسود. ها هي كتلة حمراء كبيرة تترنح برزانة لتضيء بأشعتها الفضية بقعا مبعثرة هنا وهناك على طبقة الصقيع الأبيض الذي كسا بها الضباب سطح الأرض.

أتجول بدون تخطيط حول منطقة الخِيم. حوَّلت جحورُ الفئران الأرضَ إلى ما يشبه الغربال. بماذا تتغذى هذه الحيوانات في قفر كهذا؟ هل تأقلمت على هضم الرمال والحصي؟

يخرج السائق من الخيمة بحركة كسولة. يبدو أن الكحول قد تبخَّر من تحت رأسه. نتسلق السيارة ونكمل سفرنا.

انغرزت السيارةُ فجأة في الرمال. حدث هذا عندما كانت تزحف بسرعة على

سطح من الحصي ولم نر الشريط الزاهي من الرمل الذي كان واقفا لنا بالمرصاد. تدور عجلاتها في مكانها، تتطاير سحاباتٌ من الغبار خلفها.

حَرٌّ جهنمي. نخلع ألبستنا عدا القمصان. ندفع السيارة. تُغرّز عجلاتها في الرمال ثانية بعد كل حركة بسيطة إلى الأمام. نجرِّب مرة أخرى - بدون نتيجة. نجمع حجارة، نصفُّها أمام السيارة المستعصية المتمردة، ندفعها باتجاه الحجارة. من جديد فشلنا - تقف نعومة الرمل المفلفل عائقا أمام محاولاتنا. حركة الدواليب تؤدي إلى اختفاء الحجارة في الرمل.

نجلس على الأرض مكتوفي الأيدي، نمسح العرق من على جباهنا الذي حوّل الغبار المستقر عليها إلى طين.

ما العمل؟

- ما علينا إلا الانتظار، ريثما تمرّ سيارة ما - قد يستغرق هذا ساعات طويلة، وليس مستبعدا أن يُكتب علينا البقاء هنا عدة أيام. لحسن الحظ توجد في حوزتنا كميات كافية من الماء والغذاء - يعلن السائق بنفس باردة.

كم كان غُبني كبيرا إزاء السائق. أحسُّ بأن نفسي تُملي عليَّ أن أنهره.

طرحتُ نفسي على الرمل. رحت أحدِّق بالسماء التي تتطاير منها كتل نارية. السماء صافية الزرقة، لا أثر للنجوم فيها. أحتمي أخيرا داخل السيارة هربا من الحرّ. جعل التعب جسمي يستسلم للنوم.

يوقظني صراخ مفرح:

- ابشرْ. قافلة! قافلة!

تخطو ثلاث عشرة ناقة ببطء وكبرياء. كنت أكره العدد ١٣، لكنني من الآن سأحني هامتي خشوعا أمام هذا الرقم.

أنقذنا سيارتنا من الدوامة الرملية بمساعدة العرب. سحبتْها الجمال المباركة إلى السطح الصلب. بعد تبادل تحيات قصيرة «سلام» بقيتْ القافلة خلفنا.

نزوّد أنابيب تبريد محرّك السيارة بالماء في واحة غدوة. تفصلنا من هنا عن سبها مسافة اثنين وسبعين كيلومترا. نقطعها خلال أقل من ساعة ونصف الساعة.

[12]

وادي الآجال رياح سَموم

أقضي ليلتي في سبها حيث تمكنتُ أخيرا أنْ أتمدَّد على فراشٍ مُريح جعلني أشعر أنني في نعيمٍ. زوَّدتُ نفسي بالمؤونة ثم تحرَّكتُ في سبيلي لأقرأ الرسائلَ الموجهة لي من أوروبا، وهي الخطاباتِ الأولى التي استلمتُها مذ داستْ قدمايَ الأرضَ الليبية. وُجْهتي واحةُ غات. يؤدي الطريق إليها نحو الحدود الجنوبية للجزائر.

يتناقل الرُّكابُ في السيارة أصداءَ كارثةٍ مرعبة جاءت نهايتُها شبيهةً بالكوارث الأوروبية. في واحة مندره[1] الواقعة وسط الرمال الصحراوية قام رجلٌ بطعْن زوجته عشرين ضعنة بسكين بسبب خيانتها له مع رجلٍ آخر، يُقال أنه كان شاهدَ عيانٍ لما حدثin flagrant ، عقدتْ على إثره المحكمةُ العسكرية في سبها جلسةً مُخصَّصة لهذا الموضوع وحَكَمت فيها على القاتل بالسجنِ المؤبّد وسيق مُكبَّلا بالقيود إلى طرابلس. على متن السيارة يسافر معنا سبعةٌ من الشهود الذين استُدْعوا لحضور جلسة المحكمة، هم في طريق عودتهم إلى بيوتهم. كلُّهم من العرْق الأسود الهجين، بينهم ثلاث نسوةٍ: أمُّ المقتولةِ وابنتُها وجدَّتُها، جالساتٍ القرفصاء على أرضية السيارة ورؤوسهنَّ مكسوّة بقطع من الأقمشة.

---

(١) كانت هذا الواحة ضمن الواحات الليبية التي وقف فيها الرحّالة البولندي كاجيميش نوفاك المذكور في التعليق رقم ٢ من الفصل السابق.

خارج سيارتنا ضباب وأمطار. لا أعرف كيف ومِنْ أين ظهرت الغيوم في سمائنا. بين الفينة والأخرى تفلت منها قطراتٌ محدودة من المطر.

لا يستغرق سقوطُ المطر طويلا. يتبدَّد كذلك الضبابُ ليزيح الستارَ عن الشمس التي بدأت تسطع. تزحف سيارتنا عبر سهلٍ واسع مرتفع بلون أصفر زيتوني تكسوه روابٍ سوداء. طريقنا مستقيم، إلا أنه بارتفاعاته وانحداراته الحادة يشبه ظهرَ الجمل المسنَّم.

بعد ثلاث ساعات وصلنا إلى قرب واحة الأبيض. يبدأ من حدودها وادي الآجال، أهم مقاطعة في فزان. الواحة تجاور الواحة والمسافة بين الواحدة والأخرى ليست كبيرة. فيها مجموعاتٌ من أشجار النخيل وزرائبُ سكنيةٌ وحقولُ شعيرٍ وفاصولياء.

يمتد سطح الوادي بعرض أربعة ـ خمسة أمتار. تحدُّه من إحدى جهتيه مرتفعات رملية بلون أصفر مائل إلى الذهبي على ارتفاع قمم النخيل. ومن الجهة الثانية تبدو سلسلة جبلية عالية تنحدر من على سفوحها غدران وسط ممرّات من الحجارة السوداء اللامعة.

العين المُنْهَكة بالنظر إلى نفس المناظرَ الشاحبةِ المتكررة المملّة ترتاح كثيرا عندما تقع على شيءٍ مُمْتع مدبَّج بثلاثة ألوان زاهية مثل هذا الوادي الأخضر والرمال الصفراء والجبال البنية السوداء.

يَلفت اهتمامَ عابرِ السبيل بناءٌ يشبه الخان بجانب الطريق، مُشادٌ من الطين. جدرانه قليلة الارتفاع ومطليّة بلون أبيض، تتساقط منها طبقة الجص التي تكسوها. في زواياه الأربعة تشهق بُروج مثلّثيّة الشكل. البناء على وشك التهدم بسبب قِدَمه.

يُستخدم هذا المبنى كمأوى للقوافل التي تتوقف هنا ليلا. ينام الناس في الداخل، بينما الجمال تبقى في الخارج، فوق الرمال، تمضغ الأعشابَ الجافة

القاسية النامية هنا وهناك أو تلتقط بواسطة شفتيها بدقّةٍ متناهية الوُرَيقاتِ الخضراءَ من بين أغصان الشُّجَيْرات الشوكية القصيرة.

موزِّعُ البريد هنا عسكريٌّ عربيٌّ ثرثار ذو شوارب طويلة. أراه يقصُّ حكايةً ما على مسعود السائق الذي ارتسمت علاماتُ الخوف والرعب على وجهه الملوّث بزيت السيارة. يدير مسعودٌ وجهه بين الفينة والأخرى بغضبٍ وترتسم عليه عباراتٌ كمنْ يقلّد ممثّلا على المسرح في دور إنسانٍ مُضطَهدٍ. تحيد السيارة عن طريقها بعد كل لفّة لرأسه إلى الوراء وتُحْدِث جلبة متواصلة وهديرا.

راح موظَّف البريد يسرد حكايةً ثانية تبدو مَرِحةً هذه المرّة. يقهقه الجميع ضحكا. طبعا لا أفهمُ شيئا مما يقوله، لكنني بدأتُ أضحك مثلهم، ناظرا إلى وجه السائق الملطّخ بالزيت. مازالت ملامحه توحي أنه جافٌ وغاضب.

بين الركاب امرأتان فقط، ظلّتا مسمَّرتين في مكانهما دون مشاركة بما يجري ومتقوقعتين على نفسيهما وعلامات الغبن بادية على وجهيهما.

الواحات التي نجتازها شبيهةٌ ببعضها كأنها قطع المشكال المتحركة. مع تراجعها تجرّ خلفها آلافَ الآبار واهبة الحياة لبلدة آجال.

سكانها ببشرة سوداء، طوال القامة نحيفوها. تحمل وجوهُ العديدِ منهم ملامحَ يطيب للإنسان النظر إليها: توحي أنَّ أصحابها يتحلَّون بثقافة عالية. الرجال مرتدون ألبسة بيضاء ورؤوسهم ملفوفة بعمامات، بينما لباس النساء يتألف من قمصان زرقاء ومناديل كبيرة على الرؤوس بلون أزرق ضارب إلى الخضرة، وقد زُيّنت معاصمهن بسوارات جلدية مطرّزة بالخرز الملون. وجوههن مكشوفة.

أنقاض جمّة لقلاعٍ تركيَّة، أساساتها المستطيلة الضخمة بُرهانٌ قاطع أنها كانت تشكِّل يوما مراكزَ عسكريةً كبيرة وثكناتٌ واسعة للجنود حرّاسِ نظامِ الإمبراطورية العثمانية في هذه الربوع.

تُفَرْمل السيارة فجأة. تتسمّر في مكانها. يخرج مسعود ويركض إلى الخلف بخطوات سريعة. يعود بعد عدة دقائق وهو يزرِّر حزاما جديدا أصفر اللون على خصره. وَجَدَهُ مُلقىً في الطريق.

ـ هل ستبحثُ عن صاحب الحزام؟ ـ سألتُه.

ـ هو بنفسه ألقى حزامه على الطريق. يبدو أنه قد ملَّ منه. رماه ليتخلص منه ـ يجيبني بكلِّ ثقةٍ وقناعة بما يقول.

وصلنا في ساعات الظُّهر إلى مقرِّ المديرية في رغيبة ـ يملك مديرها صلاحياتٍ شبيهة بالمختار البولندي.

بمحاذاة الجدارِ الأبيض الخارجي للمبنى أشاهد مقعدا من الطين اليابس (دكّة) يجلس عليه عادة الذين ينتظرون مقابلة المدير. أما الآن فالدكّة قد حُجزت من قِبل مجموعة من الأطفال. يَعْرضون للبيع بَيْضَ الدجاج. نَشْربُ المُحَّ، أما البياض الدبق فنلقيه على الأرض.

يدعونا المدير العربي واسمه حسين إلى مكتبه لنشرب القهوة السوداء.

حُجرةٌ ضيِّقة بنافذة صغيرة. سطح الطاولة مُلطَّخٌ بِبُقع الحبْر وعليه الكثير من الأوراق. بجانب الطاولة كُرسيّان. على الجدار عُلِّقتْ خريطةٌ مُمزَّقة مُلْصَقة قُصَيْصاتها بشريط شفاف تمثِّل منطقة تريبوليتانيا.

استقرَّ بَصَري على لوحتين جذّابتيْن مُعلَّقتيْن على الجدار بواسطة مسامير غليظة مغروزة فيها، مُنْجزتيْن بتقنيةٍ رائعة بقلم رصاص أزرق. تمثِّل كلُّ رسمةٍ امرأةً صغيرة في السن، مرتديةً سترة رياضية وقبّعة مستديرة مسطّحة ليّنة تبدو من تحتها خُصَلُ الشعر الأشقر الكثيف. ملامحُ وجهٍ إنكليزي.

أحدّق بالمدير الذي يبدو أنه قرأ في عيوني صيغة سؤالي وقبل أنْ أنطق بكلمةٍ راح يضحك بصوت عال، مجيبا:

ـ لم يتوقع السيد أنْ يجد في رغيبة وجوهاً قريبة للتي تعوَّدَ عليها. أليس هذا

صحيحا؟ ـ يسألني المدير ثم يضيف: لا تُتْعبْ نفسك بالتفكير. سأفسّر لك مغزى هذه الرسوم. أنا لم أشاهد هاتين المرأتين. شتّانَ أنْ تلتقي في هذه الديار بامرأة أوربية أو عربية مهما حاولتَ البحث، حتى لو استخدمتَ المنظار. لا يقصد مَكْتبي سوى الرجالِ السود من فزان أو الطوارقُ الرمليّين الذين من عادتهم أن يقفلوا الأبوابَ بالمفاتيح على زوجاتهم. آخ يا طرابلس، طرابلس، متى سأعودُ إليكِ ـ يطلق حسراتٍ عميقة.

ـ أَنجَزت هاتين اللوحتين أناملُ الملازم المسئول عن جنود الرماية الذي توقّف هنا قبل شهر في طريقه للسفر إلى حيث كان سيقضي عطلته ـ أضاف المدير.

أفرشُ البطانية أمام مبنى المديرية. أتهيأُ لتحضير وجبة الغداء. خبزٌ من الشعير بلون رمادي وبَيْضٌ طازج وعلَبُ سردين وعلبة سمك الطون. لكي أزداد تأكيدا وقناعة بأنني نسيتُ السكين والشوكة في سبها قمتُ آكلُ بيدي. الزيت الذي بدأ يسيل على أصابعي وذقني اجتذب أسرابا من الذباب حولي. راحت هذه الحشراتُ تقتحم العيونَ والأنفَ والفمَ ولا يمكن التخلص منها بأية حيلةٍ.

أَحاطَ بي الأطفال الذين تكاد أفواههم لا تُغْلق من الحديث، ربما يفسّرون لبعضهم البعض قصّةَ معركتي الفاشلة مع الذباب والحركاتِ التي أقوم بها. شعرتُ كأنني ممثّلٌ فاشل يقدِّم أوّلَ تمثيلية له على خشبة المسرح.

تربَّعتِ الواحةُ عند قدم جبلٍ رمليّ عالٍ تبدو جدرانُه أشبه بالمدرّجات المتموّجه التي حُفرت تحت تأثير الرياح. ياله من منظرٍ خياليٍّ كالذي نشاهده على شاشة السينما. تكاد أشعة الشمس تحمّص الجلد على الإنسان. يتدفق العَرَقُ على العيون بغزارة.

يقع وادي الآجال بعيدا عن البحر وعن بحيرة تشاد. تزمجر في إحدى جهتيه الرمال المتحركة، أما في الثانية تتراءى تلال سوداء هي مرتع لمختلف الأفاعي القرنية.

يلتوي طريقنا بين كتلٍ صخرية بازلتية عالية تترك عند الناظرِ انطباعاتٍ كأنها جذوع أشجار متحجِّرة ومُكَسَّرة إلى قطع ذوات أحجام متباينة لا أثر للحياة فيها. لا تعثر على أية نبتة هنا مهما كانت صغيرة.

ندخل من جديد صحنَ الوادي. نصل إلى حصن أوباري بعد عدة ساعات، تاركين خلفنا شهود جلسة المحكمة أولئك. نزلوا هنا في طاقرطيبة. سيُجبَرون على السير مشيا لمدة ثلاث ساعات عبر طريق رملية حتى يصلوا إلى ماندري.

اوباري محاطةٌ بأشجار نخيل كثيفة السعف وبأشجار الطرفاء الأحادية النحيلة التي تتدفق هنا وهناك من بين الرمال. يشهق على مسافة بضعة كيلومترات إلى الأعلى جبلٌ وحيدٌ بسفوحه السوداء وقمّته المسطّحة كأنها مقطوعة قطْعا. أعاد هذا المنظر لبالي كتابيَ المحببَ في الطفولة «في الصحراء والدّغل». ذكّرني بوصْفِ ذلك الجبلِ الذي منه كان «ستاش تاركوفسكي» يطلق طائراتِه الورقيّة طالبا الإسعاف لنفسه وللفتاة الصغيرة «نيل» [1].

يقودني الرقيب الأول إلى العنبر الذي يقومون بترميمه. تبدو طبقةُ الجصّ حديثةً على جدرانه. أرضيته مُلطّخة بِبُقع الطلاء ومغبّرة ويتكوّن أثاثُه من فرشة محشوه بالتبن إلى جانب برميل خال من البنزين. ألقي بنفسي على الفرشة وأستسلم للنوم.

عندما استيقظتُ كان الظلام الحالك يخيِّم على المعمورة التي تحيط بي. خرجتُ إلى الواحة حيث التقيتُ بقائد الحصن. وجدتُّه ينتهر الجميع دون استثناءٍ بسبب عدم إحاطته علما بقدوم الضيف. وَضَعَ تحت تصرُّفي أفضلَ غرفةٍ يملكها في الحصن ووَعَدَني أنه سيسهر على راحتي.

يتكون طاقمُ الحصنِ من سريّة العسكر الإريتري وبعضِ عمال التلغراف

---

(١) عنوان أحد كتب الكاتب البولندي المشهور هنريك شِنكيفيتش (١٨٤٦ ـ ١٩١٦) الذي زار أفريقيا سنة ١٨٨٨. هذا وقد تم تصوير أحداث الكتاب في فيلم عُرض في دور السينما وفي التلفزيون البولندي سنة ١٩٧٣ وأعيد تصويره مجددا سنة ٢٠٠٣.

بالإضافة إلى الرقيب الأول وقائد السرية الملازم كومينوتتي الذي بدا إنسانا مَرِحا، يشبه محيّاه وجهَ المُلاكمين. ينحدر أصلا من عودين.

القائد مِنْ عشاقِ كرةِ القدم. كرّسْنا سهرَتنا كلَّها للحديث عن اللاعِبِين في فرق النوادي الإيطالية. مَدَحْنا كثيرا مهاراتِ آمبروسيانو الذي أسقط نادي يوفينتوس وبذلنا الكثير من الجهد لنقوم بفكٍّ لغز خسارة إيطاليا أمام النمسا خلال مباراتهما الدورية الأخيرة.

انتهت مناقشاتُنا حوالي الساعة الثانية ليلا، توجَّه بعدها كلّ منّا لمكان نومه. رحتُ قبل أن أنعس أتصفّح مجلة السينما المصرية "Images"، وإذا بي أرى ظلاً أسود يتحرك على الجدار. سقط بعد لحظة شيءٌ على لحافي.

صرصور!

نهضتُ بسرعة. أمسكتُ حذائي بيدي وبدأتُ عملية الفتك الجماعي. كلما قتلتُ منهم لا ينقص عددهم. راحت تتدفق هذه الكائنات البشعة من كلٍّ زوايا الغرفة بأعدادٍ كبيرة. استسلمتُ أخيرا بعد أن نقلتُ سريري إلى وسط الغرفة. رقدتُ عليه. نعستُ.

تجري أمام الحصن الإعداداتُ لتحضير ساحة اللعب بالتنس وملعبٍ للعب القناني الخشبية ـ يدرك الزائرُ من أول نظرة وَلَعَ قيادة هذا الحصن بالرياضة.

ـ قريبا ستُقام على مقربة من حصننا مناورات الجنود الصحراويين. أريد أن يلمح القادمون بأمِّ عيونهم كمْ تساوي اوباري وماذا تعني هذه التسمية ـ يعلن كومينوتتي بكبرياء.

ـ لو حاول السيد القائد بمناسبة هذه الحملة القضاءَ على الصراصير؟

ـ هذا أمرٌ تافه! تعوَّد الجنود عليها. وجودُها يدلُّ على وجود الحياة. ترتاح العين عندما تقع على الصراصير.

تزحف السيارة ساعات طويلة بمحاذاة سطح السهل الواسع الذي يرتفع

وينحدر بزاوية حادة. بقيتْ آجال خلفنا على مسافة بعيدة. يمرُّ دربُنا عبر سريرٍ مكسو بشجر الأكاسيا ثم ننتقل إلى طريق حَجَري أسود.

بعد ست ساعات من السفر يتحول طريقنا من جديد باتجاه سرير. نجتاز مجموعة من العمال الذين يقومون بإصلاح الطريق العام. يدقُّ الحصى بأرضيَّةِ الطريق حوالي خمسة عشر عامل أسود بواسطة مطارق خشبية يدوية.

خيمتان وإلى جانبهما سيارة ومطبخ متنقّل مصنوع من خزان مقلوبة فوهته إلى الأسفل كان يُستعمل لنقل البنزين. ثُقِبَت في الجدار الدائري للبرميل الذي نهايته تمسّ الأرض فتحة منها يتم إدخال الخشب إلى الداخل. بينما قاعدة البرميل العليا تُستخدم بمثابة صاج الفرن. توضع عليها طناجر الحساء الذي يحضّرونه من المعلّبات وتُشوَى عليها لحوم الأغنام.

تقترب من هذا المكان سيارةٌ أخرى في طريقها إلى أوباري. يقودها سائقٌ إيطالي الجنسية. يوجد على متنها راكبٌ هو الآخر إيطاليٌّ. بدا أنه جنديٌّ حصل على عطلة.

دعاني سافيوتي، وهو المشرفُ هنا على الأعمال، كما دعا السائقَ والراكبَ لنتناول وجبة الغداء معا. قُدِّمت لنا المعكرونة النادرة في هذه الأصقاع مع شوربة محضَّرة من المعلبات ومربًى كانت هي الأخرى محفوظة في المعلبات.

أثارتْ انتباهي هيئةُ سائق السيارة المستخدمة في أعمال إصلاحات الطريق. وَجْهُهُ عريضٌ، عظامُ وجنتيْه ناتئةٌ، ذقنُه أسود، على رأسه قبَّعة من فرو الغنم. نموذجٌ بحتٌ لإنسان روسيّ.

رأيتُه يتناول الطعام برزانةٍ وصمتٍ. عندما لاحظَ أنَّ نظري الفاحص قد استقرَّ عليه، وضع الملعقة جانبا، رفع عينيه ثم راح يحدِّق بي كأنه يريد أن يستفسر عن سبب اهتمامي.

ـ أنت روسيٌّ، أليس كذلك؟ ـ سألتُه باللغة البولندية علّني أصيب كَمَنْ يوجه نشّابه نحو الهدف.

ـ أجلْ، أصبْتَ المرمى في الصميم. اسمي آتوس راديانسكي، ملازم في قطعات المشاة. خدمتُ سنتين في سرية عسكرية في وارسو وهناك تعلمتُ قليلا اللغة البولندية ـ يجيب بلهجة ركيكة.

ـ إذن، ما الذي قذف بك إلى هذه الصحراء البعيدة؟

ـ توفقتُ بعد اندلاع الثورة في روسيا في الهرب من مدينة أوديسسا إلى استنبول. بعد تنقُّلي من مكان إلى مكان تواجدتُ في أبولونيا (مقاطعة إيطالية). ذُقتُ فيها مرارة الجوع ولم أُوفَّقْ في الحصول على أي عملٍ حتى سمعتُ مَرَّة أن الحكومة الإيطالية تبحث عن سائق للعمل في أفريقيا. كنتُ أجيدُ قيادة السيارات من قبلُ. زاولتُها في بَلَدي في زمن اليُسْر فسجَّلْتُ نفسي في دورة مُختصرة لقيادة السيارات ثم حصلتُ على الجنسية الإيطالية. وها أنا أعمل في بناء الطرق في الصحراء هنا منذ إحدى عشرة سنة.

يعملُ أقراني في تقديم برامج راقصةٍ في المسارح. منهم مَنْ يشغلُ وظيفةَ بوّابٍ أو حارس في فندق أو نادل في مطعم ـ يزْوي بعد فترة طويلة من الصمت. ـ حاولتُ جاهدا ألا تسقط نفسي في هاوية كهذه. رفضتُ الذلَّ لإسمي الذي أريد أن يبقى نظيفاً، عاليا. أحترم مرتبتي كضابط في الجيش. أتعبُ هنا في الصحراء بِشرفٍ وعَرَقِ الجبين لقاء أجرٍ بسيط. والأهم من هذا هو عدم شعوري بالإهانة. وما يجعلني أكون مرتاح البال والنفس هو أن الملازم راديانسكي ساهم ولو لفترة قصيرة في رفْع صرْحِ الثقافة العالمية. بِنَهَمٍ أطالع الصحف العالمية باحثا فيها عن أخبارِ وطني البعيد الذي فقدتُه. براعمُ دولةٍ عظيمة قد تفتَّحتْ هناك على أرضي! بعثَ لي صديقي قبل فترة من باريس كتابا بقلم الكاتب الروسي بوريس بيلنياك[1]، عنوانُه «نهر الفولجا يصبُّ في بحر

---

(١) Bori(y)s Pilniak (١١/ ٤/ ١٨٩٤ ـ ٢١/ ٤/ ١٩٣٨). كاتب روسي ذائع الصيت. من أهم كتبه: «السنة العارية»، «الآلات والذئاب». لم يكن من المتحمسين للثورة البولشفية فحكم عليه بالإعدام في موسكو.

قزوين». سالتْ دموعي بعد قراءته ـ أطالع هذه الملحمة يوميا. ولّى عصرُ الجمود والفوضى والانحطاط في الأدب الروسي. تتدفق الكتب الروسية الآن قوةً، تفيض إيمانا وعزما وثقة بالنفس. تدغدغ الروح، تغازل الفؤاد أناشيدُنا القومية. كمْ فيها من صورٍ جميلة...

انطلقَ راديانسكي يُغنّي بصوتٍ جهير إِذاعِيٍّ ورنّان أنشودةَ «جريناده» لكاتبها سفياتووفا[1].

عندما وصل إلى منتصف الأنشودة راحتْ دموعُه تنهارُ بغزارة. من جديد استسلم لصمتٍ عميق.

ـ ما به؟ ـ يتساءل الإيطاليون باستغراب وقلق.

ـ إنه الشوق والحنين لسنوات الطفولة!

يهزُّون رؤوسَهم تفهُّما. انطبعتْ على وجوهِهم معاني التضامن وأمارات الجدية وعلامات الإثارة.

ـ لماذا لا تحاول الرجوعَ إلى مسقط رأسك حيث ذكريات الطفولة ـ غامرتُ بسؤالي الذي ربما صغته بأسلوب جاف نوعا ما ومجرَّدٍ من التحفظ وخالٍ من التعقُّل والكتمانية.

ـ وا حسرتاه! لو كان هذا ممكنا لكنتُ سأترك كلَّ شيء وأقصد بلدي فورا. لا مَنْ يواسي النفسَ الجريحة. إسمي موجود في قائمة المحكومِ عليهم بالإعدام. مَنْ هو آتوس راديانسكي؟ هو مَنْ أطلق النار على الجنود الفارين من الخنادق الأمامية. هو مَن أصيب سبعَ مراتٍ بجروح بليغة. كلُّ هذا لا معنى له اليومَ. كنت وسأبقى نبيلَ الاسم، صافي النسب، وما عليَّ إلا أن أجرع كأس

---

(١) Michaił Swietłw (١٩٠٣ ـ ١٩٦٤) شاعر سوفييتي ذو قريحة غنية في كتابة القصيدة الغنائية. من أشهر أعماله التي ترجمت للغة البولندية ونشرت سنة ١٩٣٦ هي GrenadaÁ هناك اليوم مشاريع أكاديمية لنشر المزيد من إنتاجه الأدبي.

العلقم بسبب خطايا طبقتي التي أنحدر منها والتي طالما قارعت أشرَّ الأشرار للمحافظة على اسمها.

ـ أين يقع مكانُ ولادتك ـ سألتُه.

ـ مسقط رأسي مدينة كييف. يالها من مدينة جميلة. فيها أنهيتُ مدرستي الثانويةِ. فيها تعرَّفتُ على إنسانٍ بولندي اسمه «ر»، طويل القامة، أشقر الشعر، مَرِح ولطيف للغاية. كان طالبا في جامعة العلوم الهندسية.

ـ ما هذه المصادفة النادرة العجيبة! أعرف ذاك المهندس «ر» معرفةَ عميقة وكاملة. رحتُ أتحدث عنه وعن إنجازاته في بولندا. كان صديقا حميما ومقرَّبا جدا لوالدي. لكنه فارق الحياة قبل عدة سنوات.

لاحظتُ في إحدى زوايا الخيمة إناءً زجاجيا كبيرا محشوا بالعقارب والفئران وحيوانات أخرى تشبه الضفادع ـ رحتُ أنظرُ إليها بدهشة واستغراب.

هرع سافيوتتي يقصُّ عليَّ الحكاية الطريفة لهذه الحيوانات: جمعناها بِطَلَبٍ من البروفيسور سكورتيسي الذي سيُجري عليها أبحاثه المخبرية. هو أعطانا هذا الإناءَ المملوء بالكحول، طالبا أن نلقي فيه كلَّ حيوان صغير نجده. زَوَّدَنا كذلك بمصايد للفئران. سيأخذ البروفيسور حيواناته بعد رجوعه من غات.

سمعتُ سافيوتتي مرارا يؤكد أن أصلَه من روما ويسميها بفخرٍ واعتزاز أفضلَ مقاطعةٍ في إيطاليا. منها ينحدر كلٌّ من موسوليني وبالبو.

ثم راح يُخبرني أنه يتذكَّر رجلا بولنديا مهنته نحّاتٌ، كان قد تعرَّف عليه خلال عطلته التي قضاها العام المنصرم في طرابلس.

ـ هل تتذكر اسمه ـ طلبتُ منه بإلحاح.

ـ هيهات. لا أظن. نسيتُ اسمه. كان اسمه قصيرا. عمرُه حوالي خمسين سنةٍ. كان البياض قد زحف إلى شعْره. التقيتُ به في مطعم "Aquila d'Oro" حيث تناولنا الطعام معا.

ـ ألَمْ يكنْ اسمه زاريخ؟ ـ أحاول أن أذكُره ـ لأنني على علمٍ بأن زاريخ هذا كان في يونيو/ حزيران (الصيف) في طرابلس.

ـ نعم! نعم! زاريخ! تذكّرتُ اسمَه. كان يقضي اليوم كلَّه جالسا على شاطىء "Piazza del Kasb" ليرسم هيئاتِ الزنوج والعرب. ما كان يجيد لا اللغة الإيطالية ولا الإنكليزية، إلا أنه يتفاهم مع كل فرد. إنسانٌ جريء. كان الحديثُ معه ممتعا ومفيدا، سيما عن مواهبه في الرسم.

تراجعتْ أشعة الشمس. علينا أن نودِّع هذا المكان لنكمل رحلتنا.

كلما تقطع سيارتنا مسافة عشرة أو عشرين كيلومترا تنزلق بنا عبر طريق منحدر بزاوية حادة كَمَنْ يقفز على درجات السلّم. يبدأ السهل المرتفع بالانخفاض تدريجياً. علوُّ كلِّ مدرَّجٍ يتراوح بين الستين مترا والمائة متر. بعد أن قطعنا المدرج التاسع كان على السائق أن يوجِّه السيارة برباطة جأشٍ عالية ومهارة كبيرة لتتغلب على كوع حادٍّ محفوفٍ بالمخاطر على سفح السهل المرتفع. اجتازت السيارة الامتحان الصعب دون أن تصاب بأذى. خرجنا نحن كذلك من المأزق منتصرين بفضل قدرات السائق. طريقنا الآن مريحٌ ومستقيمٌ. بعد ربع ساعة تواجدنا في حصن صغير يدعى العوينات، تشرف عليه سرية من الجنود الصحراويين.

تشهق بجانب الحُصين شجرة الأكاسيا ألبيدا المتفرعة إلى فروع عديدة، بتاجٍ مسطَّح مستوٍ وأوراق صغيرة. هي النموذج الوحيد في فزان ـ شجرةٌ مقدسة ممنوع انتهاك حرمتها. تُعتبر مزارا للطوارق ورمزَ ولائهم.

باستثناء هذه الشجرة لا تجد سوى بعض النخيل الجاف. يمتد شريط جبلي باتجاه الجنوب الغربي. وما تبقَّى ليس إلا مساحة صحراوية صخرية خالية كليا من التربة والنبات وتبعث التشاؤم في النفس ـ هذا ما تتميز به العوينات.

تبدو حول الحصن بعضُ الزرائب المسكونة من قبل مواطنين سود البشرة مع مزار أبيض مُشاد من اللبن ترفرف فوقه شارات بيضاء. هناك ثلاثة أو أربعة

حقول مزروعة بالشعير وأبنية طينية منخفضة محاطة بسورٍ هي ثكناتٌ للجيش الصحراوي.

قائد الحصن هو الرقيب فاسكون. ينحدر من بادوي ويقيم في تريبوليتانيا منذ ثمان سنوات، لم يسافر خلالها ولا مرة واحدة إلى بلده.

إلا أنه يقوم الآن بتهيئة نفسه ليقضي في إيطاليا ثلاثة أشهر. تراه يكاد يطير فرحا، فلا تسمعه إلا يتحدث عن مخططاته وكيفية قضاء عطلته في ربوع بلده وبين أهله وأحبائه.

عندما كان يحدثني عن هذا الموضوع دخل أحد الجنود من محطة التلغراف ليناوله برقية وصلت توا.

يفتح فاسكون الخطاب بدون حرصٍ. وما أن وقع نظره عليه وإذا بوجهه يبيضُّ كالورق. تتجمع الدموع في مقلتيه. يخفي وجهه بين ذراعيه. راح بعصبية وقوة يلطم الطاولة بمقبضيه.

كان الخطاب يحوي أربع كلمات: «أخوك على وشك الموت. أسعِفْنا ماديا».

ينظر إليَّ بنظرات خالية من التعبير، كأنه قد أُغمي عليه، ثم أردف قائلا:

- تبدّدتْ أحلامي المربوطة بالعطلة. سأرسل لعائلتي كلَّ ما وفَّرتُه. كُتِب علي البقاء في فزان. لتكنْ ملعونةً فزانُ. سأبقى هنا. سأبقى! - راح يعيد هذه الجملة بأعصاب منهارة ونفس مكسورة.

هبَّت رياح شديدة على حين غفلة. تُصفِّر من تحت الأبواب والنوافذ المطلَّة على الفناء الداخلي، تكسر الزجاج. في الفناء خزانُ ماءٍ يلمع بياضا في ضوء المصابيح.

- أغلقوا النوافذ - دوَّى نداءٌ عالٍ يأتينا من الخارج. - هذه سموم!

- إنها تحيات لطيفة مرسلة لنا من الجزائر - يضيف فاسكون. ستجعلنا نذوق

الأمرَّين طوال اليوم. ستحملُ لنا أطناناً من الرمال. علينا أن نلزم فراش النوم على الرغم من شكوكي أنه قد لا تُغمض عينك على صوت هذه الموسيقى الجهنمية.

فعلا! لم يغمضْ لي جفن طول الليل. كانت الرياح تزمجر وتئنُّ. قرقعة الأبواب والنوافذ لم تبطل حتى الصباح. تسللت عبر شقوقها اللامرئية كميات من الرمل الناعم إلى داخل الغرف.

اشتدت سرعة الرياح منذ أول ساعات الصباح أكثر من ذي قبل. يتمايل النخيل. تكاد سعفاتُها تصل الأرض. غطَّت طبقات الرمال كلَّ شيء. حجبت سحاباتُها السماء.

ـ طقسٌ ملعون ـ يصرخ فاسكون كأنه يحاول بصوته العالي أن يطغي على زمجرة الريح الصحراوية ـ أنصحكم بالمكوث هنا حتى تهدأ الأحوال. قد تُغرزون في مكان ما هيهات أن يصلكم مُعين. ستعضُّون حينها أصابع الندم.

ـ تقضي الأوامرُ بضرورة توصيل البريد إلى غات ـ يذكُر قائدَه أحدُ الجنود حاملا بيده أكياسا محشوة بالرسائل.

ـ ما علي إلا أن أدعو لك بالتوفيق. لتكنْ الآلهة فورتونا[1] في عونك. الواجبُ واجبٌ.

---

(١) هي نفس الآلهة المعروفة عند الإغريقيين تيخِه (tyche) التي قيل أنها أخت الآلهة نِرِئيد (nereid) أو إبنة الإله بروميتيوس (Prometius) أو أخت دزِئوس (Dzeus)، انطلاقا من العادة الدارجة في الميتولوجيا الإغريقية التي ترى في دزِئوس أباً لكل الآلهة والبشر. كانت تِيخِه آلهة الطالع والحظ وتُبجّل في العديد من المدن كشفيعة. بفضل حمايتها كانت البواخر تصل إلى المرافىء بسلام ورحى الحرب تدور لصالح الإغريقيين وفي أيام السلم تُسقِط السلاح من يد الذين لا يتقيدون بشروطه. تغنى بها الشعراء وكتب عنها بلينيوس (Plinious) في القرن الأول الميلادي: «في العالم بأسره وفي كل مكان وآنٍ تُرفع لها الأدعية وباسمها يُنادى. يقولون أنها مصدر كل الأشياء». صوّرها الناس برأس مزود بقرن وبمِقْود كونها آلهة الخصب والغنى ومدبّرة مصائر البشر. وعلى رأسها يوجد إكليل يمثّل أسوار دفاعية لأنها تحرس المدن. في العديد من المدن التي بناها اسكندر المقدوني في الأصقاع البعيدة بُنيت لها معابد. أما عند الرومان تُعرف بـ فورتونا (Fortuna) وبنيت لها عشرات المعابد وفي عهد القياصرة كانت تقدم لها الأضحية. القيصر أغسطس بعد انتصاراته في الشرق أقام لها معبدا ضخما تحت اسم فورتونا رِدوكس =

يُقبل في هذه اللحظة جنديٌّ عربيٌّ منقطعَ الأنفاس.

ـ يا حضرة الرقيب! الرياح خلعت بوّابةَ الثكنة.

ـ هل وعيتَ يا فيجايسكي الآن كَمْ تحمل هذه الرياح مِنَ القوَّة؟ ليس مستبعدا أن تدحرج سيارتكم.

ـ لا أتوقع هذا الاحتمال، فالسيارة مشحونة وهي ثقيلةٌ ـ أجبته.

ما كدتُ أتفوّه بكلمة أخرى حتى سمعتُ طقطقة عالية تأتينا من المحرّك. ينزل السائق من حُجرة السيارة. انكسرتْ مرْوحة خزان التبريد. ـ ما العمل الآن؟ ـ يتساءل بحِيرة.

نأخذ قطعة من الخشب. بعد ساعتين من المحاولات تمكّنا بواسطة فأرة النجّار والمنشار والمثقاب والسكين والأسلاك المعدنية المحمَّرة بالنار و. . . تمكَّنا من صنع مروحة بدائية جديدة.

كانت ورشة عملنا تقع بالقرب من المطبخ ومنه يصلنا غناء الطباخ. يدندن أغنية شائعة قبل سنتين: How do you do, mister Brown.

يتوقف الغناء بعد لحظة. عبر الباب المفتوح جزئيا نسمع مناجاة غريبة: «البارحة لحم غنم. اليوم لحم غنم. غدا لحم غنم. وبعد أسبوع لحم غنم. سموم. قبلي. رمال. اللعنة على هذه الحياة»!.

راح الرَّجُلُ يغنّي من جديد. هذه المرّة كان النغمُ والنطقُ والكلماتُ رومانيةً بحتة (نسبة إلى مدينة روما).

Sole, che sorgi libero e giocondo,
Sui colli nostri i tuoi cavalli doma,
Tu non vedrai piu bella cosa al mondo,

= (Fortuna Redux) وفي الثاني عشر من تشرين الأول/ أكتوبر (التمور) من كل عام كانت تقام مراسيم تقديم العرفان لها بمشاركة رؤساء الكهنة وتقام مسابقات رياضية تستمر ثمانية أيام تدعي أوغسطاليا.

Maggior di Roma! Maggior di Roma!

أيتها الشمس الحُرّة التي تشرقين بفرح،
أَوقِفي خيولَكِ فوق تلالنا،
لأنك هيهات أن ترَينَ في أيِّ مكان من الدنيا
أجملَ وأضخمَ من روما!

وأخيرا نقوم بتركيب مروحتنا الخشبية ونشغل المحرّكَ: هل ستدور المروحة أم لا؟ هل علينا أن نعتز بما صنعناه أم سيذهب تعبُنا هباءً. لحسنِ الحظ كلُّ شيءٍ يدور كما يجب.

نلفُّ أجسامَنا بالمعاطف. نربط رؤوسَنا بالمناديل. نضع على عيونِنا النظاراتِ الصحراوية المزودة بمادة لدنة من البلاستيك اللين الذي يلتصق بالجلد ويغطّي العيون بإحكام لحمايتها.

بعد عدة دورات لعجلات السيارة تبقى العوينات خلفنا وتغيب نهائيا عن الأنظار في العجاجات الرملية. تقطع سيارتنا المسافات ببطءٍ. يصعب علينا التمييز بين الطريق وما يحيط به. إذا فقدناه ستتحقق تكهُّنات فاسكون. لا نستطيع أن ننحاز عنه لئلا تغرق سيارتنا في تل رملي أو تستقر في حفرة ما. ما زالت الشمس غير مرئية. أينما نظرتَ لا تجد سوى طبقة من الرمل الذي يتدفق إلى أجسامنا من تحت كل الملابس. تغرز حبيباتُه المجهرية في الجلد مثل الدبابيس.

ـ الحمد لله على كون طريقنا يمرُّ عبر الجبال ـ يصرخ السائق في أذني ـ أيمكنك أن تتصور طريقا كهذا على الرمال. إنه الجهنم بعينه. مسكينة هي القوافل الموجودة الآن على سطح السهول.

فعلا! يحملنا طريقُنا من جبلٍ إلى جبل، لكنني لا أعاين قِمَمَها. وما يدل على وجود الجبال هو تموُّج مسلكنا: مرَّةً إلى فوق وأخرى إلى تحت. شعرتُ

بعطش شديد فأمسكتُ زجاجة الماء وبعد أن رفعتها فوق فمي مَنَعَني مسئول البريد قائلا:

- انتظر يا فلان. غادرنا الحصن منذ ساعتين فقط ومَنْ يعلم متى سنصل إلى غات. علينا أن نحرص على توفير الماء. فلا بئر واحد في طريقنا.

نعبر كتلة من الحجارة على هيئة مخروط.

- نحن الآن في منتصف المسافة - ينادي السائق.

نغادر المنطقة الجبلية. تزحف السيارة فوق سطح صحراوي مكسو بالحصى. دونما عراقيل تهب هنا زوابع الريح التي يسمونها سَموماً. لا شيء يعترض سبيلها سوى سيارتنا التي تكاد أحيانا ترتفع فوق سطح الأرض. الحجارة التي تحملها الرياح في حركتها التموجية تتساقط على سيارتنا بشدة، كأنها قنابل. صفير مزعج في الآذان. جفَّ حلقي كلياً.

لا أستطيع أن أُبعدُ عن ذهني أنه عليَّ أن أتحرر من عبء الأفكار التي تتزاحم في مخيلتي، ألا وهي احتمال حدوث عَطَلٍ ما في المحرّك. كلما حاولتُ طردَ هذه الحسابات الجنونية من رأسي عادت تقلقني من جديد.

وأخيرا لم أصبرْ. فقدتُ رباطة الجأش فصارَحتُ مسئول البريد بهذا:

- وماذا لو توقَّفَ المحرِّك؟

- عندنا حالياً ما نشرب ونأكل. مازالت هذه المؤونه في السيارة وفي متناول اليد. سنقضي ساعاتِ لَهْوٍ ومَرَحٍ وقهقهة. بعد أن ينضب الماء وينتهي الطعام ستبدأ التعاسة ببطء تشق طريقها إلى نفوسنا. حينها ما علينا إلا أن ننتظر قدوم مَنْ يسعفنا. وإذا لم يُعْثَر علينا في الوقت المناسب ونحن على قيد الحياة، ستكتبُ الصحف عنّا بعناوين عريضة: «ضحايا جديدة فتكت بها السموم» أو «كارثة في فزان».

ـ اسكتْ! ما بك تتكهَّن وتتفلسف كعادتك ـ يصيح السائق بعد أن أدار وجهه نحونا.

لفّت السيارة بسرعةٍ وفي طرفة عين اندسّت بالرمال. أنقَذَتْنا يقظةُ السائق، إذ راح يدفع السيارة إلى الخلف بكلٍّ ما في المحرك من استطاعة. تخلَّصْنا من مصيدة الرمل اللعينة.

تكدست الرمال على أجسامنا. لا تختلف هيئاتنا عن كُتَل الرمال المحيطة بنا على جانبي الطريق. تتدفق الدموع من العيون تلقائيا. وجدتْ حبيباتُ الرمال سبيلا لتتسلل إلى عيوننا عبر النظارات أو من تحتها. تخدش العيون ألماً. مازالت الريح تزمجر وتصفّر. السيارة تقرض الرمالَ، تبلعها. يُسمع هدير وصرير كلِّ قطعة فيها. الطريق يمتد ويطول بلا نهاية. بسرعة السلحفاة وببطء مُمِلٍّ مخيف نقطع المتر بعد المتر.

انتهى كلُّ شيء بسلامة. وصلنا بكامل أجسامنا وصحتنا بعد أن خارت قوانا واضمحلت عيوننا وانهارت أعصابنا. السفر المضني والمحفوف بأشد المخاطر عبر المسالك الجهنمية استمر ثمان ساعات. ها هي غات تفتح ذراعيها لنا. ترحب بنا هذه المدينة التي تبعد مسافة ألفٍ وستمائة كيلومتر عن شاطىء البحر الأبيض المتوسط، المدينة الواقعة على درب القوافل الذي يربط مدينة الجزائر ببحيرة تشاد.

[13]

غات البروفيسور سكورتيسسي

يُوقِظني من النوم دقٌّ منتظمٌ على الطبول. أنهضُ بسرعة وأرتدي لباسي ثم أتوجه راكضا نحو مجموعةٍ من النخيل، حيث تنبعث أنغامٌ موسيقية أثارت رغبتي وفضولي للوقوف على كنهها.

تبيَّن أن العاصفة قد سبَّبتْ تعطيلَ أقنيةِ الريّ، لا بل سدَّتْها وطَمَرَتْها بالرمال، فأُجبر السكان المتضررون على أن يجمعوا شمْلَهم لتنظيفها. حمل كلٌّ منهم رفشا بيده وراح يغرزه بسرعة في القناة ليلقي بالرمل المتجمّعة جانبا. أربعةٌ من الحاضرين كبيرو السن يدقُّون الطبول الخشبية المغلَّفة بالجلد لإثارة الاندفاع عند العمال وتشجيعهم على الاستمرار في النشاط والمحافظة على تناسق حركاتهم مع إيقاع الموسيقى. يشرف على الأعمال قائدُ الحصن، الرائد موككا، ابن نابولي المعروف هنا بلطافته.

تلفظ رياح «سموم» أنفاسَها الأخيرة، إلا أنَّ سحاباتِ الغبار ما زالت معلَّقةً في سماء الواحة. أشعر بثقل الهواء وبصعوبة في التنفس.

تمتاز غات بموقعها الفاتن. بيوتُها الملتصقة إلى بعضها والمطليّة بلون أبيض تشهق كأنها مدرَّجات. تُهَيْمن فوقها بكبرياء وغرور أسوارٌ بلون بنِّي للحصن الرابض على قمةِ جبلية، يتطلب الوصول إليه المزيد من الجهد بسبب انحدار الطريق بزاوية حادة، أما احتلاله فيبدو صعبا جدا حتى

لجيوش المشاة المزوّدة بالمعدات العسكرية الحديثة، فكيف لو حاول الطوارقُ شنَّ هجومٍ عليه.

شبكة من الممرات والأزقة الضيقة الملتوية والمسدودة نهاياتها. يمكن للإنسان الغريب أن يتيه فيها بسهولة. الأبنية مشادةٌ من اللِّبْن. توجد في الجدران الداخلية محاريب بدون نوافذ، لكنها مسقَّفة بشكل أقواس نصف دائرية. قد تحوَّل الكثيرُ من البيوت إلى أنقاض بعد مغادرة سكانها. حُجْرات المساكن مظلمةٌ وَسِخة وينام الناس على الحُصر ويطبخون الطعام في طناجر بدائية. يتكون غذاؤهم الأساسي من العدس والتمر والفاصولياء المزروعة هنا بكميات كبيرة.

توجد عند الشارع الرئيسي بعض الدكاكين مع مقهى يقشعرُّ البدن من الأوساخ التي تجمَّعتْ فيه. خلف المنضدة الطويلة المصنوعة من الألواح الخشبية أرى صاحبَ المقهى واسمه علي واقفا غاثم العينين ومنهمكا بتحضير مشروب عَكِرٍ من القهوة أو الشاي المرِّ كالعلقم. الجدران مُزيَّنة بصوَر النجوم السينمائية التي قصَّها من المجلات الملوّنة المكرَّسة لمواضيع الأفلام. تصل هذه الصحف إلى هنا.

السكان سود البشرة، طويلو القامات، أجسامهم نحيفة ومتناسقة البنية. أما النساء فيخرجن دون تغطية وجوههنَّ. يبدو أن نسبة الأطفال عالية في هذا المجتمع. كلهم في مرح وثرثرة. أراهم يدنون ليخاطبوني ويجاملوني. تحمل الفتيات أقراصا كبيرة في الآذان وجدائلهنَّ مسترسلة. أما الصبيان فشعرهم محلوق عدا شريط طويل رفيع يمتدُّ من الجبهة إلى مؤخرة الرأس يشبه عرْف الديك. وما يثير دهشتي عدمُ مبالاة هؤلاء الصبيان إزاء أسراب الذباب التي اختارت وجوههم مرتعا له. يندفع في عيونهم وأفواههم وآذانهم بحرية. لا أحد منهم يحرّك ساكنا ليطرد هذه الحشرات التي طالما تضطهده.

تعْبر بين الحين والآخر أمام ناظري هيئاتُ رجال من الطوارق ذوي البشرة

البنّية الزاهية بملامح وجه أوروبي. خطواتهم رزينة تنمُّ عن ثقة بالنفس. برانسهم فضفاضة، رؤوسهم ملفوفة بمنديل (زماله)، نساؤهم مخفيات ولا يظهرن على الملأ نهائيا. يقيم الطوارق مع قطعان أغنامهم في الصحراء خارج الواحات ويتنقّلون معها من مكان لآخر بحثا عن الكلأ والمراعي.

لهي خلاّبة حقا هذه المناظر المحيطة بغات. تبدو لعيون الناظر إليها من الحصن كأنها مرسومة بريشة فنان ماهر، ثمرة أتعاب رسام عبقري ذي خيال خارق. قد تربّعت عند قاعدة الحصن بيوت المدينة ببياضها الناصع. تندفق خلفها من بين الرمال صفوف من النخيل التي تدل ضائع السبيل إلى مواقع الواحات. على بعد عشرات الكيلومترات غرباً ألمح سلسلة جبال طاسيلي التي تحدّ المستعمرات الفرنسية. يربض وراءها حصن فرنسي يدعى جانيت. أما في الجنوب فتتراءى بلدة تدراميت الواقعة في واحة غات. يمتد خلفها وهد سبخة مالحة: سطح مستوٍ كأنه ساحة لمطارٍ طبيعي مغطاة بطبقة من الملح الذي يلمع في ضوء أشعة الشمس. أعاين في الواحات القريبة والبعيدة مجموعات من النخيل. في الجهة الشمالية تحت أقدام المرتفعات الجبلية تُهَيْمن صحراء واسعة متموِّجة من الرمال والحصى. تبدو خلفها ملامح رائعة الجَمال للجبال التي تُدعى الشيطانية ـ «جاف جنون». أما في الاتجاه الشرقي فأشاهد جبلا رمليا متموج الأطراف من تأثير الرياح والعواصف، لوْنُه بلونِ البرتقال الناضج. تتلألأ في الأفق البعيد سلسلة جبال أكاكس بِقِممها المحدَّبة وسفوحها الشديدة الانحدار المائلة بزاوية شبه قائمة كأنها جدران منحوتة بإزميل.

تمرُّ عبر غات كل طرق القوافل المؤدية من السودان إلى الجزائر أو بالعكس. لهذا تُعتبر محطة رئيسية ومركز تموين بمختلف أنواع السلع. توجد فيها سوق تجارة الحيوانات. هنا تُشترى المواد الغذائية وتُملأ الخزانات باحتياطي المياه الضرورية خلال السفر الطويل في الصحراء الجافة. بينما القوافل القادمة من السودان تَحمل إلى سوق المدينة مختلفَ المنتجات اليدوية

الرائعة في أصالتها والنادرة في تفاصيلها وبنيتها المصنوعة من الجلد أو القش أو من بَيْض النعام وغيرها.

أما مدينة تدراميت فتشتهر بالحدّادين الذين يصنعون العديد من الأدوات النحاسية المخصصة للبيع في غات: أقفال بأشكال هندسية مستساغة، مطارق لكسر كتل السكر، وغيرها. وما يلفت النظرَ اللجوءُ إلى استخدام إشارة الصليب كنقش شائع تُزَخْرف به السوارات المعدنية التي تُلبس حول معاصم اليد ـ أحد أسباب الافتراض أن الديانة المسيحية كانت سائدة يوما في هذه الأقاليم.

من الصعب أن نتصور المساحات الشاسعة لفزان بدون قوات قطعات الجنود الصحراويين. تمركزتْ هنا فرق «الخيالة»، أو بالأحرى «الجمّالة» ـ فهم يستخدمون الجِمال عوضا عن الخيل. تتكون هذه الفرق من الجنود العرب والضباط وضباط الصف الإيطاليين. يُقْبَل فيها كلُّ مَنْ ينوي التطوع بالجيش بمحض إرادته وبطلبٍ منه، دون أنْ يُفْرَز إلى قطعة مُحدَّدة خاصّة بنوع سلاحها متمركزة في مكان بعيد. التقيتُ في صفوف الضباط الصحراويين بمنْ هم من الخيالة ويمن يخدم في المدفعية والمشاة.

يلبس الضابط قبّعةً عادية على رأسه وسترة عسكرية مزوّدة بشارة على الكتف تُبَيِّنُ نوع السلاح الذي ينتسب إليه. تختلف المجموعة الواحدة عن الأخرى بشكل البناطيل «سيلواره» والصنادل الجلدية التي تُلبس على الأقدام العارية بدون جوارب. يرتدون خلال التدريبات قمصانا وسلاور (جمع سلواره) وزُمُل (جمع زماله) بلون كاكي. أما زيهم خلال العروض العسكرية فأبيض اللون، يتميز بشارة طويلة تُحزم على الخصر لتبيِّن نوع الكتيبة التابعين لها. مجموعات غات لونها أحمر، مرزق ـ أخضر، براك ـ أسود. مِنْ بين الفِرَق السبع التي تواجدتْ هنا، ثلاثٌ قَدِمت من فزان حيث يقع مركزها الرئيسي.

تشتهر المجموعة الأولى التابعة لغات بالإبل الصامدات القويات الذي لا

مُنافس له في ليبيا كلها، إذ فازوا مرتين على التوالي بالجائزة الأولى خلال مسابقات الفروسية البعيدة المدى التي تقام هنا. وإذا حالفهم الحظ وفازوا في مسابقات هذا العام سيصبح الكأس المُهدى من جمهور المشاهدين مُلكا ثابتا لهم.

ها هو أحد الضباط برفقة خمسة عساكر يعدُّون أنفسهم لخوض المسابقة. الشرط الأساس للمشاركة في المباريات النهائية هو أنْ يقطع كلُّ أعضاء الفرقة كاملَ المسافةِ المقررة وأنْ يصلوا في نفس الزمن إلى الخط الأخير، أي إلى الهدف. كانت مسافة السباق في العام الفائت تساوي طول الطريق بين مرزق وسبها، بينما في هذا العام قد تم اختيار الطريق الواصل بين القداحية ومصراته. هذا، ومن المرجَّح أن الفارس الذي سيفوز بقصب السبق في هذا العام هو فافيلله، نفس الفائز بمسابقات العام الفائت.

تفرَّجتُ في غات على الوحدات التي تعدُّ نفسها للقيام بالتدريبات والمناورات. وقفت فصائل الجنود صفا متراصا فوق كثيب أصفر خلف الحصن بجانب الجِمال المتربعة على الرمال. كل منهم يحمل على ظهره سرجا أصليا يُعرف هنا باسم «ركله». يتكون السرج من هيكل خشبي مرتفع النهايتين، عميق في الوسط ومكسو بقماش أحمر أو بلون آخر يختلف من مجموعة إلى مجموعة. توجد في مقدمة السرج قطعة خشبية ناتئة تشبه الصليب وبها يُربط الرسن. هي سريعة الكسر كي لا تُلحق الأذى بالخيّال في حال سقوطه من على ظهر الجمل. يوضع الرسن على سنام الإبل ويسند الراكب رجليه على رقبة الناقة. في هذه الوضعية المفروضة يصعب على الخيّال المحافظة على التوازن. أقلّ عثرة أو ارتباك للحيوان أو شرود ذهن الخيّال قد يؤدي إلى تدحْرجِهِ من على ظهر الجّمل. وعدا هذا، فإن الجمل يختلف عن الفَرَس. فالأول عنيد، بينما الثاني مطيع على الأغلب، خاصة إذا كان الخيّال ماهرا ويجيد قيادته. لا يمكن التكهّن أبدا بتصرفات الجَمل ولا يَفهم مزاجه المتقلب إلا من ندر من

البدو. فتراه مرة ليِّناً في طبعه وأخرى قادرا على عضّ من يركبه؛ مثلا خلال المداعبه والملاطفة. وبشكل عام لا يتعلق الجَمَل براكبه ولا يرتبط بأواصر الألفة كما يرتبط الفَرَس. فالجَمَل ليس من عادته أن يرفس، بل من عادته أن يعضّ أو حتى أن يسحق الإنسان بجسمه الثقيل.

توجد خلف الرسن قطعٌ من السجاد مفروشةٌ على ظهر الجمل رُبِطت بها الحقائب والأكياس التي تحوي بعض الضروريات من الطعام والعدّة. دائما العسكري يحمل معه كل شيء قد يحتاجه.

تُعزف على البوق أنغام الاستعداد، يتهيأ على إثرها الجنود، كلٌّ بجانب جَمله ذي الظهر المحدّب. يحمل ثلاثة جنود رايةَ القطعة العسكرية ويقفون في الجهة اليمنى من الصفوف. منظر جميل ونادر لم تألفه عيني من قبل.

ها هو القائد، الرائد موككا يتفقَّد القطعات. بعد أن يُقدَّم له تقرير قصير يودِّع الرائد الجنود الباقين هنا مصافحا كلاً واحد على حدة دون تمييز بين القطعات والرُّتَب. أخيرا يمتطي ظهر جمله.

- يا فصائل العسكر، إلى الأمام سِرْ من ورائي! - يعطي الرائد إيعازه.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى تلاشت الفصائل عن نظري خلف الكثبان الصفراء المتموّجة.

قررتُ أن أشتري لنفسي أيَّ شيء من هنا ليذكِّرني في المستقبل بالأيام التي قضيتها في غات. فقصدتُ ورشة حدّاد في تدراميت. في وسط ساحة صغيرة تُشعُّ ألسنة نار متطايرة من فرن صغير، بجانبه رجل زنجي جالس القرفصاء. يحمل بيده مطرقة يدقُّ بها قطعة نحاسية متوهجة على سندان صغير. يؤجِّج المساعدُ النارَ بمنفاخ بدائي مصنوع من جلد الماعز.

جلستُ بالقرب منهما على الأرض ورحت أحدِّق بنظرات باردة خالية من أي تعبير، كما درجت العادة هنا عند القيام بصفقة تجارية ما.

- هل عندكَ أقفال للبيع - سألته بصوت خافت انطلقَ تلقائيا من ذاتي.

ـ لا! ـ يردُّ عليَّ الحدّاد بجواب قصير ونظرات تنمّ عن الشكوك.

ـ وما هذا؟ ـ أمسكتُ قفلا بيدي كان في صندوق خشبي قريب مني.

ـ هذا طَلَبية من السينيور (السيد) ـ يشير بحركة رأسه إلى زنجي رثّ الملابس ممدود على الرمل.

ـ لا يبدو هذا الإنسان سينيورا (سيدا) بأي شكل من الأشكال، بل زنجيا فقيرا لا أعتقد أنه يملك ثمنَ قفلٍ ـ أبديتُ رأيي بالمُنافس.

ـ ماذا قلتَ؟ ليس بمقدوره؟! ـ يعقب الحداد على كلامي بدهشة.

نطق ببعض الكلمات السريعة التي وجّهها للزنجي المسكين. وما إن سمعها الزنجي حتى رفع نفسه من على الأرض، أخرج الدراهم من جيبه وبملامح تنمّ عن عزة نفس وكبرياء أخذ القفل الذي كنت أتمنى أن يكون لي، ثم غادر المكان.

لهي خسارة رضيتُ بها. لكنني لاحظتُ في الصندوق مطرقتين مزخرفتين يدويا.

ـ كم تريد ثمنا لها؟ ـ سألت الحداد بعد أن أمسكتُ الكبيرة منهما بيدي.

ـ وكم تريد أن تدفع أنت أيها السينيور الغنيُّ لهذا الأسود الفقيرِ؟

ـ كم؟ كم؟ ـ فطنتُ مليّاً.

ـ عشرين ليرة!؟ ـ اقترحتُ دونما علمٍ هل هي قليلة أم كثيرة.

ـ لا! ـ رفض الحداد.

ـ خذْ المطرقة الصغيرة بثماني ليرات ـ ينصحني.

ـ ولكن خياري وقع على الكبيرة ـ أكّدتُ له.

ـ لماذا هذه الكبيرة، لا أظن أنك ستحتاجها لتكسير كتل السكّر. أنصحك بالصغيرة، هي أجمل وأفضل.

وأخيرا اتفقنا على السعر. اشتريت المطرقة الكبيرة باثنتي عشرة ليرة مع

منجل أصيل بمقبض خشبي عريض مغرزو شاقوليا، مسنّن بأسنان عميقة خفيفة الانحدار. وكم كنت أتمنى شراء المنفاخ الضخم كذلك، لكن رفض الحداد بيعه رفضا قاطعا.

أسمع على مقربة سَيَلان جدول مائي حوله عادة تتجمع النسوة لغسل الألبسة. مشيتُ باتجاهه، وإذ بي أعاين مشهدا غريبا جدا. لمحتُ وسط الجدول رجلا فزانيا أسود يغسل كامل جسمه بدقّة متناهية مستخدما الصابون. غطت الرغوة وجهه ورقبته وأذنيه.

لتعشْ القدرات الحضارية التي يمثلها الطليان! عليَّ بالضرورة أن أهنىء مارسيلو على هذا الإنجاز[١].

أُجبرتُ خلال إقامتي في غات على السكن في عيادة طبية مدنية بسبب فقْدان مكان في الحصن. تبيّن أن غرفتي فارغة من الأثاث والشيء الوحيد الموجود فيها سريرٌ حديدي. بدتْ الغرفة مضيافة للعديد من الحشرات الغريبة: عديدة القوائم، أمشاط الأفاعي الطويلة منها والمفلطحة الزاحفة بدون انقطاع على الجدران.

نعم! عليَّ أن أذكر بأن أمهات الأربعين هذه (المثينية، الحريش) قد قدَّمت لي خدمة كبيرة، قرَّبَتْني إلى البروفيسور سكورتيسسي، عالم الحيوان من متحف ميلانو الذي يقوم بدراسات هنا على حيوانات فزان وأبدى اهتماما كبيرا بما سلَّمْتُه له من نماذج نادرة لَقَطْتُها فوق سريري.

البروفيسور رجل طويل القامة نحيفها، بعضلات ملتوية، رشيق الجسم فهو يمارس الرياضة. وجهه بشوش بملامح جدية رزينة ويختلف جذريا عن «لاقطي الذباب» الذين يُضرب بهم المثل، أولئك الذين تعوَّدْنا أن نقرأ عنهم في الصحف الساخرة بأنهم غليظو الهيئة، تتدلى النظارات على مناخرهم ورفيقهم الوحيد هي شبكة في يدهم لاصطياد الفراشات.

---

(١) هذا إجحاف، فالصابون معروف في الشرق الأوسط منذ العصور السومرية.

قضيتُ مع البروفيسور عدة أيام لا تُنسى. كنا نخرج معا لصيد الحيوانات محمَّلين بأنابيب مخبرية زجاجية مغلقة بإحكام بواسطة فلّين. تحوي بعضها سائلا كحوليا وأخرى معبأة بنشارة خشب مشبعة بالإتير المستخدم كمخدِّر - توابيت جاهزة للحشرات التي سنلقطها في برية فزان.

كان يرافق البروفيسور معاون اسمه مهدي ببندقية صيد وكيس على ظهره وشبكة بيضاء كبيرة معلقة على عصا قصيرة.

يقترب طائر يحلّق في السماء وحيدا. إنه الخطاف الصحراوي بلونه الرمادي (طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل). يوجّه مهدي بندقيته. أصابه. جلس سكورتيسسي على الأرض وراح يحنِّط فريسته بواسطة مقص وموس رفيعين وحادَّين. أولا يفرّق الريش الذي فوق البطن على الجانبين ثم يشقُّ الجوف بالموس على طول خط مستقيم. يُدخل بعدها إصبعيه المعقوفين تحت الجلد لتسهيل إخراج أحشاء الطائر بأقصى سرعة ممكنة. يتطلب هذا بعض الخبرة والحس. يلي هذه العمليات شقُّ العمود الفقري بالموس وإخراج المخ من الجمجمة بواسطة المبضع. وفي النهاية يقوم بتنظيف السطح الداخلي للجلد من بقايا اللحم عن طريق الحكِّ والكشط والخدش والنبش والهرش والخ، ثم يدلكه بمسحوق الفورمالين. وبعد أن يحشو جوف الطائر بالقطن يصقل ريشه بتأن، وأخيرا يضعه في كيس من الورق. وفي المساء سيكمّل عملية تحنيط الطائر الذي سيوضع بصندوق معدني وسيُرسَل إلى الورشات العلمية التابعة لمتحف ميلانو. هناك سيبنون له هيكلا من الأسلاك المعدنية وسيضعون له عيونا زجاجية وسيتم تثبيته خلف نافذة زجاجية ليُعرض على الزائرين كعيِّنة تمثِّل عالم الحيوان في غات.

تزحف بسرعة فائقة على الأرض أصناف غريبة من النمل بلونها الفضي، تاركة خلفها أثرا خفيفا شبه خطوط متعرّجة. عندما تقف في مكانها دون حركة لا يمكن للناظر أن يميّزها عن الكثبان الرملية. تبدو كأنها جزءٌ من ذراته.

أعاين تحت الشُّجيرة حفرة وبجانبها جلد أفعى يبدو أنها اختارت هذا المكان لتغيير كسوتها. ينحني مهدي، ينتشل الجلد من على الأرض ثم يضعه في الحقيبة. أما أنا فقمتُ بإزاحة طبقات التراب لأصلَ إلى مخبأ الأفعى - صاحبة الجلد.

- محاولاتكَ ستذهب هباءً! منْ يعرف كم مترا يساوي طول الأفعى وكم يبلغ عدد المخابىء والجحور التي تتفرع من قعر هذا القصر تحت الأرض - يضحك سكورتيسسي.

كتلة ضخمة من التراب الرملي، فيها ثقوب عديدة كأنها الغربال - مرتع النمل الأبيض. بعد أن كسَّرنا الكتلة الجافة بضربات قوية بدأت حالة استنفار وهيجان وتهيؤ كأن جنود النمل بكسوتهم البنّيّة يترقبون لحظة وصول الأوامر للسطو على العدو. يكشفون عن مخالبهم وتتراكض حولهم صفوف من العاملات بلونها المائل إلى البياض في محاولة إصلاح العطل الذي حل بأوكارهم وإعادة النظام إليها بعد هذه الهزّة. يتزاحم الذكور العاجزون عن القيام بأية حركة للدفاع عن النفس. أجنحتهم الملتصقة بأجسامهم مهدّدة بالقرض والالتهام، ربما ستُكتب عليهم الحياة بالعبودية في محيطهم المغلق.

يركع سكورتيسسي فوق جُحر النمل. يبدو أن جماعات النمل بنت لنفسها بيتا أسندته إلى جذع نخلة. فيه ممرات ودهاليز وفتحات هوائية دقيقة معجونة من التراب. يبلغ ارتفاع العمارة حوالي المتر. تشبه بْسْكَويت العجين المقلي المُحضَّر عندنا (في بولندا) بمناسبة الكرنفال بعد رشِّ محلول رماديٍّ ما عليه.

نصل إلى الحدائق التابعة لمصطفى. صفوف كثيفة من النخيل المتزاحم بعضه مع بعضٍ وفي وسطها حقول مزروعة بالشعير والفاصولياء. هنا وهناك بحيرات طفيفة صغيرة بمساحة خمسين - ستين مترا مربعا، مكسوة بالطحالب.

تطفو فوق سطح الماء إناث ضفادع الطين الضخمة (العلاجم) ببراثنها

الممتدة وإلى جانبها أزواجها بأجسامهم الصغيرة النحيفة. تحدِّق بثباتٍ وعلى نحو خال من التعبير باتجاه هيئاتنا التي تتحرك بالقرب من مملكتهم.

رافقنا في جولتنا هذه ثمانية زنوج صغار. بأفواه مفتوحة يراقبون وسع عرضها كلَّ حركة نقوم بها أو مبادرة نُقْدِم عليها. يكافئوننا بزغاريد عالية على كل ضفدعة نمسكها.

يبدو أن هذا المكان غالبا ما يؤمه الأطفال. أراهم يصطادون الضفادع والعلقات المتطفلة ثم ينظِّمون سباقا فيما بينها. فها هو أحدهم بوجهٍ لطيف قد يبلغ عمره ست سنوات يطارد ضفدعة كبيرة. كلما يقترب منها ويحاول إمساكها بيده، تراها تقفز على حين غفلة، مما يخيف الطفل الذي على إثره يتراجع فورا. إلا أنه عنيدٌ، لا يستسلم. فبعد أن يجمع قواه يلاحقها من جديد. تستمر هذه المبارزة طويلا وبنفس النتيجة. أما بقية الأطفال فكانوا يتفرَّجون على مغامرات زميلهم، وأخيرا راحوا يستهزئون بصيَّاد الضفادع الذي رفض الحظ أن يبتسم له. وبعد أن كلَّت قوى الزنجي الصغير المشئوم، طَرَح نفسه على الأرض بجانب الضفدعة، أمسك بقدميها الخلفيتين وراح يسحبها حيث كنا واقفين ببهجة الذي ينتصر في معركة.

- يحلِّق فوقنا طائر كبير - يصرخ مهدي بلغة إيطالية مكسَّرة.

تتحرك رقعة طيف واسعة متنقلة فوق رؤوسنا. أخيرا يحطُّ الطائر على قمة نخلة قريبة.

يُعدُّ سكورتيسي نفسه ليصوِّب بندقيته نحو الطائر. بغمضة عين يسقط بَلَشون رمادي اللون فوق حقل مزروع بالفاصولياء.

يزغرد الأطفال فرحا ويتراكضون في سباق نحو مكان سقوط البلشون. واحدهم ينتشله من يد الآخر.

جاء دور تصوير الأطفال الذي أضافوا إلى زيارتنا رونقا وبهجة. يشقُّ صراخهم عباب السماء، يريد كل منهم أن يمسك البلشون بيده أثناء التصوير.

وأخيرا وصلوا إلى اتفاق: بعضهم أمسك بجناحيه، بعضهم بمنقاره ووضع البعض الآخر أياديهم على رأسه. يتزاحمون، يدورون بخفَّة ونشاط، كل منهم يريد أن يكون في الصف الأول. وعندما بدا المكان غير كاف لوقوف الجميع، تفجَّر أحدهم بكاءً، ثم بعد لحظة أمسك بيده عصا وغرزها في منقار الطير وهو يثرثر بدون وضوح بطريقة فكاهية وهزلية مشيرا بإصبعه مرَّة إلى البلشون وكرة أخرى إلى نفسه. لم أفهم ما كان يقصده. عند جهينة الخبر اليقين.

نقوم بشق شاطىء البركة بسكِّينٍ عريض ونزيح التراب جانبا. تمثل كل طبقة من الأرض حقبة تاريخية ونمطا فريدا من الحياة: صرار الليل (الجدجد)، النمل، خنافس كبيرة، حشرات أم الأربعين وغيرها كثيرة القوائم، عناكب.

ـ لاحظْ يا سيد ـ يقول البروفيسور ـ هناك اعتقادٌ أن القشرة تحت سطح الأرض خالية من الحياة، وهنا، تفضَّلْ، ما هبَّ ودبَّ من الحيوانات بكامل حيويتها.

يمسك الحيوانات بملاقط طويلة ويدفعها في الأنابيب المخبرية.

يقترب غروب الشمس. ها هي تيجان أشجار النخيل تبدأ بالاحمرار وتُلقي ظلالها على الأرض. نجلس على ساق مقطوع لإحدى الأشجار في ترقُّب الخفافيش.

راح مهدي «المنتظِي» يقصُّ علينا حكاية انتسابه إلى الجيش.

تُناسِبُ رتبة «المنتظِي» في جيش المستعمرات الإيطالية رتبة عريف ـ أما الدرجات العسكرية الأعلى فهي بومباش وشيلوكباش، ويمكن مقارنة هذه الأخيرة برتبة رقيب. لا يحقُّ للمتطوعين في الجيش من السكان الأصليين أن يترقُّوا درجات أعلى من هذه.

ـ كان هذا قبل خمس سنوات ـ يبدأ مهدي حكايته ـ ذهبتُ في أحد الأيام إلى سوق الجمعة برفقة خالي الذي كان رجلا كبير السن. تجمهر عدد من الناس عند إحدى نقاط البيع. حبُّ الاستطلاع دفعنا لنستفسر عن سرِّ هذا

التجمع وماذا يجري هناك. لاحظنا شرطيًّا زنجيًا يفرّق المتجمعين بقسوة وغضب وبكلمات خالية من الأدب. وعلى إثر تفريقه للواقفين سقط خالي أرضا وتألَّم كثيرا. أما أنا فما كان عليَّ إلا أن أسرع للدفاع عن خالي. وبالنتيجة راح الشرطي يضربني ثم زجّني في المعتقل. حُكم علي بالأعمال الشاقة لمدة يومين قضيتهما في تنظيف حديقة السجن.

بعد هذا الحادث قررتُ أن أنتقم. كان لي صديق برتبة بومباشي وبمساعدته انخرطتُ في السلك العسكري. بعد سنتين من الخدمة قدَّمتُ الامتحان المطلوب وترفَّعت إلى درجة منتظم. أما عدوِّي ذاك فمازال جنديا قديما.

ـ أنا لا أرى فيما قلت شيئا من الانتقام!.

ـ كنْ مطمئنا! التقيتُ قبل فترة بعدوِّي في الشارع. تناسى أن يقدِّم التحية لمن هو أعلى منه رتبة، أي لي. استغلَّيْتُ هذه المناسبة لأنتقم. وفعلا قدَّمتُ تقريرا بهذا الخصوص. عوقب على إثره بالفلقة: خمسٍ وعشرين ضربة خيزران على قدميه العاريتين ـ يبتسم مهدي فرحا.

ـ كم زوجة عندك؟ ـ سألته.

ـ واحدة، وهي كافية. قبل ثلاث سنوات تزوَّجتُ للمرة الثانية، إذ الزوجة الأولى وافتها المنية خلال الولادة وهي بعمر خمس عشرة سنة ـ كان جسمها ضعيفا، لم تتحمل آلام الولادة. أما عمري فكان يبلغ حينها سبع عشرة سنة. الآن أنا أكبر بعشر سنوات.

ـ لماذا تزوَّجت مبكّرا بهذا العمر الصغير؟

ـ بعد وفاة والدي عُقد القران بين والدتي وعمِّي. هما اختارا فتاةً لي وأمراني أن أتزوجها. ما كان عليَّ إلا أن أطيعهما.

ـ أتعْرفُ ـ يضيف مهدي بنوعٍ من الفخر والكبرياء ـ والدتي لم تخرجْ بعد من طرابلس. لا تعرف من ليبيا غير هذه المدينة. أما من البيت فتخرج لا أكثر من مرة واحدة في الشهر.

ـ لماذا؟ ـ سألته.

ـ مكان المرأة البيتُ. لا يوجد في الشارع شيء يناسبها ـ يردُّ مهدي بكل قناعة وثقة. ـ عليها الاهتمام بالبيت والأطفال. مثلا لم تخرج زوجتي الثانية من البيت خلال سنتين كاملتين. كانت الخادمة تقوم بشراء ما نحتاجه من مواد.

ـ كيف هذا. فهي لا تزور حتى والديها على الأقل؟

ـ الآن، بعد سفري مع البروفيسور، ذهبتْ زوجتي إلى بيت والدها. ستبقى هناك دون إمكانية إشباع رغبتها بأشياء كثيرة كانت عندي متوفرة لها. لن أمارس الضغط عليها لأجبرها على العودة. ستعود بنفسها بعد أن تفرغ جعبتها وجعبة والدتها من الحكايات النسوية.

غريبة هي فلسفة الحياة هنا وأكثر غرابة هي النظرة السائدة لهذه المسألة الأساسية، ألا وهي التعايش المشترك بين شخصين.

يسدل الظلام الحالك ستاره على الإقليم ليهيئ الأجواء للخفّاش الذي رأيناه يحلِّق بالقرب منا بسرعة وهدوء. كم هي نادرة هيئة هذا الحيوان الذي يحوم على سطح ماء البحيرة الصغيرة مثل الآلة الدقيقة التي ترسم دوائر وتعرّجات منتظمة كأنها لوحةٌ مُصغَّرة لطائر ما من عصور ما قبل الطوفان. وما هي إلا دقائق حتى يزداد عدد هذه الحيوانات الجميلة.

راح سكورتيسسي يركِّز بندقيته على كتفه مصوِّبا فوهتها نحو الخفاش. خاب الهدف الذي يكاد لا يُرى بالعين. أعاد المحاولة عدة مرات. دون نتيجة. يتمتم بعض الكلمات. بدا الطائر ذكيا. من الصعب التمييز بين جسمه وبين الظل الذي يلقيه على الماء. وأخيرا أصاب الهدف عند المحاولة السابعة. سقط الخفاش أرضا. تراكض الأطفال الذين كانوا قد ملُّوا وهم يراقبون مغامرات البروفيسور. تراكضوا للحال معا نحو الماء ليحملوا الطائر إلى الصياد.

أخذ مهدي الغنيمة الجديدة بيده. راح فجأة يطلق اللعنات بعد أن رماه على الأرض.

ـ ماذا جرى يا مهدي؟ ـ سألته.

ـ عضّني هذا الوحش ـ يمدُّ إصبعه الذي كان الدم يسيل منه بغزارة.

انتهت زيارتنا ومغامراتنا بصحبة مهدي والبروفيسور. قفلنا راجعين بعد أن لفَّ الظلام الداكن المنطقة كلها. نتسلق إلى فوق باتجاه الحصن الذي نعاين أضواءه الراقصة. نسمع هدير المحرّك الذي يولد التيار الكهربائي في محطة صغيرة.

[14]

في طريق العودة غزلان جرمانتي

غادرتُ غات. وبهذا بدأتْ نهايةُ رحلتي وتجوالي في مقاطعة تريبوليتانيا. اخترتُ هذه المرة طريقا آخرَ للعودة إلى طرابلس، مما يجعلني سعيدا حقا، إذ ما زالتْ تنتظرني مغامراتٌ وانطباعات كثيرة.

شحنتُ نفسي فوق سيارة منطلقة إلى اوباري. يبلغ عدد الهواةِ الراغبين في السفر عشرين شخصا، بينما الحمولة القصوى للسيارة تساوي ثمانيةَ أشخاصٍ. راح الملازم المشرف على الرحلة يصرخ، يلعن ويُبْعد الذين تشبَّثوا بالسيارة بأيديهم وأرجلهم معا. وأخيرا قرّرَ بحكمةٍ سُلَيْمانية ـ «سيسافر فقط الكبيرون في السنّ».

تحرَّكْنا في غمرةٍ من الفرح، فلكلٍّ منا دواعٍ مبرّرة. وما زادَنا أُلفةً مع بعضنا تقاربُ الأعمار. الشباب الذين ظلُّوا خارج السيارة كانوا ينظرون إلينا بعيونٍ حزينة ملؤها اللَّوم والتأنيب. تأثَّرتُ قليلا بسبب عدم إرضاء الكلّ. يجب أنْ تسود العدالةُ في هذا العالم ـ أقنعتُ نفسي بأن هؤلاء الشباب الذين لم يتجاوز عمرُ أيٍّ منهم العشرين سنةً، لا محالة ستُتاح لهم مستقبلا إمكانياتٌ ليحققوا طموحاتهم.

تنطلق سيارتنا بسرعةٍ غير مألوفة. بعد ساعتين وصلنا إلى سلسلةٍ صغيرة من جبال الجبله ـ «غاف غنوم» ـ قممٌ سوداوية ممزَّقة وفي وسطها مسلَّتانِ شاهقتان

قريبتان من بعضهما يُطلَق عليهما اسم «قرون الشيطان». تيجانٌ ليِّنة سهلةُ التفتُّت، قد حَفَرت فيها الرياح أشكالا هندسية تشبه البروجَ والبواباتِ وغيرها. تبدو كالمدينةِ الميِّتة لابسةِ السواد ومغطاةٍ بالظلال التي تلقيها على أسوارها الدفاعيةِ أشعةُ الشمس المنعكسةُ. ترتسم أمام عيوني صُوَرٌ وهميّة وليدةُ الخيال الخارق الذي لا حدود له عند الإنسان. تصوَّرتُ لوحاتٍ خرافية تمثّل جيوشا مدجّجة بالسلاح متربِّصةً خلف هذه الأسوار لتنقضَّ علينا بهجوم كاسح وعلى سيارتنا المستاءة الساخطة.

بعد هذه التصورات التي كانت تدغدغ نفسي تملَّكني المللُ بسبب الحرِّ الجهنمي والعطل المستمر للسيارة المشحونة فوق طاقتها، فكثيرا ما كانت تُغرَز عجلاتُها في الرمل، مما يجبرنا على النزول لإنقاذها باستخدام الأيدي العارية عوضا عن الرفوش. أينما حوَّلتُ نظري لا أرى سوى عين المشهد الذي لا يتغير وهذا يخلق انطباعا كأن سيارتنا واقفة في مكانها. تجرُّ ساعات هذا اليوم بعضَها بلا نهاية. الركاب العرب هادئون صامتون، أما الطليان فكانوا متذمّرين ويلعنون كل شيء بلا قيود ولا حدود أدبية، وأحيانا يطلقون العنان لأصواتهم في غناءٍ حزين يمجِّد الورود والحب والبحر الشافيري. كانت بعض الأناشيد عن مدينة نابولي التي «لا حياة بدونها». يبدو أنَّه غابَ عن بال الطليان أننا في الصحراء مطوَّقين بالرمال المترامية الأطراف من كل الجهات وعلينا أن نعيش بدون ورود ولا بحر. مازالت تتراءى في الأفق البعيد ملامح جبال «غاف غنوم» وجبال أكاكس، بينما قمّة فيزوف الملَّونة التي تطلُّ على نابولي بقيت هناك في إيطاليا.

الشيء الوحيد الذي يبهج النظر بين الحين والحين هي الغزلان. هاهي قد ظهرتْ أمامنا متَّخذةً من الشمس التي تكاد تميل نحو الغروب خلفيَّةً خلاّبة. يضغط السائق على دوّاسة المازوت، إلا أنَّ الهيئاتِ الأربعة الرشيقة للغزلان التي أمامنا قد ظلَّت في مكانها دون حركة، كأنها مقيَّدةٌ بقوة مغناطيسية. لم

يتملَّك العسكري الإيطالي نفسه (رتبته مساعد أول) فانتشل البندقية من يد أحد الجنود العرب وراح يصوِّبها باتجاه قطيع الغزلان. ذهبتْ ثلاث طلقاتٍ أدراج الرياح. راح المساعد على إثرها يلعن نفسه بعصبية كبيرة ويتساءل عن سبب عدم إصابته الهدف الواضح. أهيَ البندقية، أم ماذا؟ نفحص البندقية - بَدَتْ ماسورتها حمراءَ ومتآكلةً بطبقة من الصدأ الذي كساها وكانت كبسولة القدْحِ معقوفةً ومن القذيفة يتناثر مسحوق البارود.

- سأرفع تقريرا بحقِّك! - يصرخ المساعد في وجه الجندي بعصبيةٍ.

أما الغزلان فقد انحرفتْ قليلا عن الطريق. وقفتْ جانبا على بعد حوالي مائة مترٍ. تحدِّق فينا كعادتها المألوفة بنظراتٍ فاحصة، مما يجعلها هدفاً سهلا للصيادين. وما قد يلفت الاهتمام هو تواجد هذه الحيوانات في الأمكنة الخالية من مصادر المياه - يبدو أنَّ الرطوبة القليلة التي تحويها النباتات المعدودة هنا كافيةٌ لتطفىء عطشها.

نوقف السيارة، إذ قررنا أنْ نطوِّق الغزلان بشكل نصف دائري لنسوقها نحو السفح القريب الشديد الانحدار. نقترب إليها بهدوءٍ وحذر - وإذ بطَلْقةٍ تدوِّي فجأةً من خلفنا ارتدَّ صداها من السلسة الجبلية وأدَّتْ إلى الهروب الفوري للغزلان التي أطلقت سيقانها للريح. بسرعةٍ اختفت عن عيوننا دون رجعة.

أتعرفونَ من أطلق النار هذه المرة؟ إنَّه ذلك الجندي العربي صاحبَ البندقية الفخمة التي على الرغم من صدئها أطاعت راميها ولكن لم تصبْ الطلقةُ الهدفَ.

- ألا يكفيك أنك ستُعاقب بسبب عدم اعتنائك بالسلاح الذي سُلِّم لك! فكيف سَمَحَتْ لك نفسك أنْ تطلق النار من جديد - صاح المساعد بغضبٍ.

- بغضِّ النَّظر عن هذا وذاك عقوبتي فَلَقَةٌ بأربعين خَيْزرانه على قدمي. لا أتحمل أكثر من أربعين جَلدة. لهذا أطلقتُ رصاصة طائشة في الهواء طالما أحبُّ دويَّ العيارات النارية - يجيب الجندي بهدوء واتزان.

العقوبات التي تُتَّخذ بحق الجنود الليبيين المخالفين في فزان ليست سجنا بل جسدية، الفترة التي يقضوها في المعتقل حيث يتوفَّر سرير مريح ووجباتُ طعام كاملة وشهيّة تعتبر بنظرهم استجماما وراحة ليس إلاّ. وثمة لا يقوم المخالفونِ بإنجاز أيِّ عملٍ.

ـ لِيُطِل الله حياتي في هذا المعتقل ـ كان يكرّر باستمرار محمد بن علي الذي أُفرز في مرزق للقيام بخدمتي.

أرى المساعد الإيطالي قد ثارت ثائرته؛ إذ كان قد هيأ نفسه ليهاجم الجندي الليبي، إلا أنه أمسك أعصابه واكتفى ـ للتعبير عن غَضَبِهِ ـ بإمساك مِقْود السيارة بعد أن أزاح السائق جانبا. راح يسوق بأقصى سرعة ممكنة متمتما بعض الكلمات: «انطلقتْ الرصاصة من بندقيته، نعمْ، ستنطلق روحُكَ. . . !».

هاهيَ غزالة أخرى في طريقنا، مع صغيرها.

ـ هات بندقيتك يا هذا ـ يبدو أنَّ مزاجَ الرقيب قد تحسَّن.

ـ لا! المرءُ الكيِّسُ لا يقتل الأمَّ مع طفلها ـ أجاب الجنديُّ الليبي بفطنةٍ.

توقَّعتُ أنَّ دمَّ الرقيب سيفور بعد أن سمع هذا الرفض القاطع. تغيَّرتْ فورا ملامح وجهه وتلَّون أحمر على أصفر. كادت عيونه تخرج من مكانها وتعالى من حلقه صوت عميق غريب. إلا أنه، واعجباه، التزم السكوت ولم ينبس ببنت شفة. وأهم ما في الأمر أنه لم يلحق أيَّ أذى لا بالغزالة الكبيرة ولا بصغيرها.

هاهيَ تنسحب آخر خيوط الشمس الأفريقية الذهبية. غَمَرَنا ظلامٌ حالك. ما علينا إلا أن نجرع كؤوس المرارة لمدة عدة ساعات حتى تحنُّ علينا نجومُ السماء التي برفقة القمر سترسل نحونا ضياءها الخفيف. عتمةٌ، ليلٌ أسود، كما في ظلمات قارورة الحبر القاتم. زادت كآبتَنا كآبةً زمجرةُ الرياح وأمواج البرد. وأخيرا بعد جهدٍ وتنهّدات وصلنا إلى حصن «سيرديليس»، حيث فوجئنا بإعدادات جارية على قدم وساق لاستقبال كتيبة قادمة من الجيش الصحراوي.

يوافقون ـ بعد إلحاحٍ ـ على أنْ نبيت في الحصن تحت شرط مغادرته قبل الفجر. ولكن خلال هذه الساعات القليلة لم نذقْ طعم الراحة بسبب رياح «قبلي» التي بدأت تعصف منذ منتصف الليل مُحدثةً ضجَّة لا تطاق: تزمجر وتصفِّر، تصخب وتدفع الأبواب والنوافذ بقوّةٍ. جعلني الضجيج أشعر كأن الحصن بكامله قد تحوَّل إلى ورشتي نجّار وحدّاد معا. لم يغمضْ لي جفن.

ننهض في الخامسة صباحاً. نتابع طريقنا. علينا أن نقطع مسافة تسعين كيلومترا تسلُّقاً على ارتفاع مائتين وعشرة أمتار عبر عدة مدرَّجات جبلية يبلغ عرضها عشرين مترا ثم تهبط هذه المدرجات بانحدار شديد باتجاه حصن «سرديليس» الذي غادرناه. تركتْ عاصفةُ الليل تلالاً رملية على طول طريقنا. ولكن بدت سيارتنا العجوزة من طراز س ب آ التي تتذكر سنوات الحرب العظمى، بدت شجاعة قوية ومطيعة جدا في بلْعِها للكيلو متر تلو الآخر وفي تسلقها إلى الأعلى.

بعد أن قطعنا نصفَ مسافةِ الطريق الجبلي المرتفع انطلقتْ من جديد تهبُّ رياح «قبلي» على حين غِرّة وهي تقذف بين الحين والحين كمياتٍ سميكة من الرمال على سيارتنا. عشتُ حتى الآن ثلاثَ حالات مِنْ تمرُّد الطبيعة: كانت الأولى في الصحراء والثانية في المحيط، أما الثالثة في الجبال شتاءً. وها أنا أصرِّح بأنَّ أسوأها بدون منازع كانت الثالثة. صحيح أنَّ رياح «سموم» متعِبةٌ جدا، تمزِّق الأرض الرملية كالعصا، تحجب وتكسو كل شيء في طريقها، ولكن عندما يرتدي المرء لباسا مناسبا ويدير ظهره لاتجاه الريح ويزوِّد نفسه بقربةٍ مملوءة ماءً وجعبة مملوءة موادا غذائية، بمقدوره أن يصبر نسبيا في وجه العاصفة الجنونية حتى تهدأ. مُتعِبة هي كذلك العواصف العاتية في قلب البحر، ولكن عندما يثق الراكب بسلامة الباخرة، بمهارة وصلابة جأش طاقمها، يمكنه أن يتحمل آلام الجسد التي ليست مخيفة. والأسوأ منها هي العاصفة الثلجية في الجبال، عندما يندفع مِنْ عَلٍ إلى الأسفل تيهور من الكتل الحجرية يرافقها البرد

القارس الذي يسبب شلل أعضاء الجسم الحساسة ويثقل التنفّس وتتدلى من الأنف قطع جليدية ناشئة عن تجمّد الزفير. أضفْ إلى هذا عدم القدرة على التحرك خوفا من الوقوع في هوة ما أو حفرة مغطاة بالثلج. عشتُ حالة كهذه في جبال الألب، بالقرب من باردونيجا. ينتاب المرء حينها شعور غريب أن الموت الذي يحوم مع العاصفة الثلجية يكاد ينقضُّ على جسمه.

اختفى «قبلي» بنفس السرعة التي ظهر فيها ومِن الأضرار التي ألحقها الجفافُ الكامل لخزان تبريد السيارة. تبيَّن أنَّ السائق قد نسيَ تزويد السيارة بماء احتياطي عندما كنا في الحصن. وما علينا الآن، شئنا أم أبينا، إلا أنْ نُفرغ في الخزان ما في زواداتنا من ماء. كلنا لطشْنا السائقَ بمئات اللعنات.

ها هي المحروسة سيارتنا ـ لحسن الحظ ـ تزحف بسرعة عالية نسبيا دون مغامرات أو مفاجئات. تزحف فوق ما تبقى في طريقنا من مرتفعات ولم يهدأ بالنا حتى دخلنا أرضا مستوية. أمامنا صفٌّ من الخيَم الرمادية ـ مأوى العمال الذين يبنون الطريق. بعد محاولات مضنية وافقوا أنْ يُسعفوا محرِّك سيارتنا بسطلٍ من الماء الوسخ الذي كانوا قبلا قد استعملوه في الغسيل. زوَّدونا كذلك «بصحّارتين» من الماء النظيف للشرب.

«الصحّارة» عبارة عن زجاجة عادية فيها يُملأ عادة الخمر من نوع «جيانتي». بعد أن يفرغونها مما تحويه لا يلقونها جانبا، بل يلفُّونها بالقطن وبأشرطة طبّيّة تُستخدم عادة كضماد، أي بمواد عازلة. وبهذا يحصلون على ما يشبه «الترمس» الذي يحافظ نسبيا على برودة الماء ويبقى صالحا للشرب حتى عندما ترسل الشمس أشعتها النارية. الحاجة أُمُّ الاختراع!

يشير مقياسُ الحرارة المعلَّقُ داخلَ الخيمة إلى درجة زائد ٥٥. يلفح وجهنا وهجٌ قاتل يكاد يحبس النفس، كأنه جمْرٌ أحمر. تترنح سيارتنا تعبا عبر سطح مستوٍ يُسمى «السلاطين»، الحياة معدومة فيه. يتألق شمالا شريط جبلي أسود يُدعى «جبل الفان». نعاين في أمكنة كثيرة ظاهرةَ السراب التي إن دلَّت على

شيء فتدل على وجود بُقع كلسية في الصحراء أو ألواح حَجَرية مدبَّبة من فعل الرياح. فجأةً قَذَفَ جهاز تبريد السيارة قطعةَ قماش صغيرة مِن جوفه كانت قد سدَّت فوهته وبسرعة البرق التصقت واستقرت على جبيني. كادت تحرقه من شدة حرارتها. يبدو أن الخرقة كانت قد استُعملت من قِبَل العمال أثناء الغسيل. أشعر بأن قواي قد فارقتني، جسمي تكسّر بكامله، جفَّ. أنا في حالة يُرثى لها. قرأتُ نفسَ المزاج والشعور على وجوه الطليان، بينما وضع بقية الركاب من السكان المحليين يبدو طبيعيا جدا، لا يتألمون مثلنا نحن الأوروبيون.

كم هي قوية أجسام هؤلاء الطوارق! أليست ظاهرة غريبة تُلفت النظر؟ يؤكد الجندي الإيطالي الذي معنا بأن الطوارق يتحملون الكثير. راح يقصُّ عليَّ حكاية مرعبة عن أحدهم. قال: كان أحد الطوارق راكبا جَمَله في طريقه من سبها إلى غات. شاءت الأقدار ـ لسوء حظه ـ أن فارقت الحياة إبله، فأُجبر على قَطْعِ ما تبقى من المسافة مشيا على الأقدام، أي مائة وخمسة عشر كيلومترا. ولم يستغرق هذا سوى يوم واحد فقط مكتفيا ببعض التمور والقليل من الماء في قربته المصنوعة من جلد الماعز. تصوّرْ، كان عليه أن يقطع سلسلة جبال الأكاكس وكثبان لا تُحصى من الرمال وسرير. في النهار شمس حارقة وفي الليل برد وقشعريرة. تغلّبَ على كلِّ هذه العقبات ببطولةٍ نادرة. أجسامهم قوية جدا. يمتازون كذلك بصفات حميدة وأخلاق عالية، بصبر لا ينضب وإرادة قوية. وهذه الصفات مجتمعةً كانت متوفرة عند ذاك البطل الطوارقي.

علينا أن نقف كل خمسة كيلو مترات، إذ بعد قطع هذه المسافة يبدأ غَلَيان المياه في مُبَرِّد السيارة. نجتاز عمودا كُتب عليه ١١٠ كم ـ منصوبا في منتصف الطريق إلى اوباري. الدرب الذي نزحف فوقه حديثُ العهد. قبل أن يُبنى كانت تشرف على عملية شحن البريد من غات إلى اوباري دوريات خاصة من الجيش الصحراوي متمركزة على طول الطريق في أمكنة معينة مُتَّفَق عليها.

وصلنا أخيرا إلى اوباري حوالي منتصف الليل بعد أن قطعنا مسافة مائتين وعشرين كيلو مترا خلال تسع عشرة ساعة. قُدِّم لنا عشاء فخم كان نومنا بعده لذيذا جدا، لكن بدا قصيرا، إذ في السادسة صباحا راح أحد الجنود الإريتريين يوقظني ليقترح عليَّ «بالقوة» كأسا من القهوة السوداء ويساعدني في ارتداء ملابسي.

من تحت مشارف نافذة غرفتي تصلني أصواتٌ جماعية عالية ـ يقوم الضابط كومينوتتي بعملية الكشف الصباحي على الجنود التابعين له. سَمِعْتُه يقذفهم بعبارات خشنة. كم هو مملٌ هذا الروتين المتَّبَع في حصن صحراوي صغير كهذا للجنود وللضابط معا! يوميا تفَقُّد وتدريب، واجبات إدارية، تبليغ إيعاز المدير أو القائم مقامه في التجمعات السكانية الكبيرة. ناهيك عن استقبال المواطنين الزبائن والاستماع إلى شكاواهم وأمورهم التي تتطلب حلولها تدخُّلَ سلطاتِ الجيش. فللضابط هنا واجبات عديدة، مرة يمثِّل صلاحياتِ القاضي في الخلافات بين المواطنين وأحيانا كثيرة ـ في حال عدم وجود طبيب ـ بنفسه يقوم بهذا الدور مقدّما للمريض (مهما كان مرضه) نفس الدواء، ألا وهو الكينين (مادة شبه قلوية شديدة المرارة تعالج بها الملاريا) أو زيت الخروع. يكرِّس الساعات المسائية في تصفح الجرائد التي تحمل أخبار ما جرى من أحداث قبل أسبوعين، ثم يسمع المذياع والحاكي (الفونوغراف). وهكذا يوميا دون تغيير حتى في قائمة طعام الغداء الذي هو نفسه كل يوم.

تختلف حياة الجنود الصحراويين عن هذا النمط، إذ هي أغنى وأكثر تنوعا. في مراكز وجودهم يقومون بتنظيم دوريات كشف تشمل أحيانا مساحات واسعة. هم في حركة مستمرة هنا وهناك. والأخصائي في هذه الأمور هو الملازم باراديسي الذي يخدم في مرزق، غالبا ما يتجول لمدة ثلاثة أو أربعة أشهر مع فصيلته عبر الصحراء معتمدين على التمر فقط كغذاء وحيد. أما في فصل الربيع فيقل كثيرا عدد الضباط المتمركزين في حصون الجيش

الصحراوي، الأغلبية تتحرك نحو الوديان لرعي المواشي وتمكث ثمة عدة أشهر تحت الخيم.

هناك من يقول إنَّ الحياةَ في الصحراء فارغةٌ ومملَّة، لكنها يمكن أن تكون مثمرةً ومليئة بالعمل الجاد وبالحيوية وشتى الإنجازات. يعتمد هذا على الإمكانيات الخلاقة للفرد ذاته وقدرته على استغلال ما في أعماقه من تجارب وخبرات والاستفادة من الطاقات المحلية الموجودة ليلذّذ حياته ويجعلها ناجحة ومفيدة. فمن إحدى واجبات الضباط مثلا القيام بعمليات إحصائية للمواطنين، الإطلاع على عاداتهم وتقاليدهم وتسجيلها والاهتمام بالظواهر والأحوال الاقتصادية والاجتماعية. ويمكن للضابط أن يعير لهذه الأمور أهمية كبيرة أو بسيطة، أن يعتبرها ضربا من الرسميات أو ينظر إليها بجدِّيّة. ومهما كان، فهي فرصة أتيحت له لينوِّع مظاهر حياته ويستغل ما يملكه من غنى فكري وروحي لتكتسب حياته عُمقاً. فكم مِنْ كاتبٍ تفجَّرت قريحتُه في ظروف كهذه وأغنى العالم بأخبار عن شعوب منسية في التاريخ!

أَخرجُ من غرفتي بعد أن لفَّيت جسمي ببطانية لأن البرد في الخارج قارسٌ. ما زالت الشمس نائمةً. يخيِّم على المنطقة نورٌ ضارب إلى الزرقة. تهبُّ رياحٌ صباحية حادة.

ينادي صوت البوق للوقوف باستعداد. فوق السارية العالية ترتفع رويدا رويدا الرايةُ الثلاثية الألوان. مراسيم يومية! فقط خلال النهار لا ترفرف هذه الراية المزينة برمز سافِويه[1] فوق الحصون التي غادرها الجيش.

أمدُّ يدي إلى الملازم كومينوتتي. أصافحه بحرارة وأُلقي نظرة وداعٍ على المحيط ثم أقفز إلى داخل السيارة. بعد فترة قصيرة دخلنا وادي الآجال، نقطعه هذه المرة في الاتجاه المعاكس. جلس إلى جانبي الملازم باجلييريني وهو

(١) Savoia di Lucania ـ مدينة في إيطاليا تبعد ١٤٢ كم إلى الجنوب الشرقي من نابولي.

طبيب بيطري. راح يحدثني عن الأمراض التي تقع بها الجمال والأغنام. طابع عمله يجعله يتجول في فزان باستمرار، من حصنٍ إلى حصن.

نقف في واحة جرمه المبنية في العصور الفينيقية. بناها الشعب الجرمنتي - سكان هذه الأرض القدماء. على الشرق من الواحة ما زالت ماثلةً الآثار القديمة للمدينة الأولى، جرمه. ولعل أجمل وأكبر ما فيها هو قصر الوطواط[1] الذي قاوم عوادي الزمن وكذلك قصر الروم[2]. وعداها نجد مجموعاتٍ كبيرة من تيجان الأعمدة ولوحاتٍ حجرية منحوتة وأساساتٍ تدل على عَظَمة المدينة التي بُنيتْ هنا يوما. العربُ يسمون هذه الأنقاضَ جرمه القديمة.

إذا ابتعدنا عن هذا المكان قليلاً نعاين عند قاعدة سفحٍ صخري لسلسلةٍ جبلية أشهرَ الآثارَ الرومانية الباقية في فزان، ألا وهو مدفن سيسيليه بتاوتيلله، زوجةَ أو - كما ذهب البعض - عشيقةَ نائب الوالي لوسيوس كورنيليوس بالبو التي كانت ترافقه في حملاته الحربية وتوفيت في جرمه[3]. ارتفاع النُّصْب الذي أقيم هنا تخليدا لذكراها يبلغ خمسة أمتارٍ. شيد بالألواح الرملية الحمراء بشكل مربع وقد زُيِّنت أطرافه بتيجان أعمدة جونية (نسبة إلى جونيا).

كانت فزانيه (اليوم تدعى فزان) بحدود ألف سنة قبل ميلاد السيد المسيح بقعةَ مأهولة بسكانها الأصليين، الجرمنتيين. ينحدر هذا الشعب من عائلة كبيرة تمثل الليبيين، أقدم سكان فزان عرفهم التاريخ. عاصمتهم مدينة جرمه - مركز تجاري كانت تؤمه القوافل حاملة العاج من قلب أفريقيا باتجاه المستوطنات الفينيقية على شواطىء البحر الأبيض المتوسط.

ظل الجرمانتيون شعبا مستقلا خلال قرون طويلة. وقوفهم إلى جانب النوميديين في حربهم ضد روما الذي استمر سبع سنوات (١٧ - ٢٤ قبل ميلاد

---

(١) ترجمها الكاتب البولندي: «قصر الخفّاش».
(٢) ترجمها الكاتب البولندي: «مقبرة».
(٣) أنظر التعليق رقم ٢ في الفصل الثاني.

السيد المسيح) جعلهم عرضةً لهجوم الإمبراطورية الرومانية. فقدوا استقلالهم عندما شنَّ حملته ضدهم نائب الوالي الروماني بالبو على رأس عشرين ألف جندي من أويا (طرابلس) عبر سيداموس (غدامس). المسافة الأولى التي قطعتها السرايا الرومانية (خمسمائة كيلو متر) علَّمتْهم التحرك في الصحراء وتحمُّل المشقاتِ، لهذا كان النصر حليفهم في معاركهم ضد الجرمانتيين التي دارت رحاها على بقعة واسعة بمسافة ستمائة وخمسين كيلومترا عبر حمادة الحمراء، بعد أن حاصروا فزانيه وقطعوا طرق وصول الإمدادات. كانت نتيجة الزحف أنْ احتل كورنيليوس بالبو وادي الآجال وجرمه أيضا، لكنه لم يؤسسْ أيَّ تنظيمٍ عسكري أو مدنيٍّ. هذا، وبعد انسحاب القوات الرومانية أصبحت فزانيه من جديد موطنا مستقلا للجرمنتيين، ذا سيادة تامة. إلا أن روما أعادت حملاتها ثلاث مرات أخرى خلال القرن الميلادي الأول، مما سهل قدوم الموجة تلو الموجة من العِرقَيْن العربي[1] والسوداني اللذين غمرا بلد الجرمنتيين وقضيا عليهم. ونرى اليوم هنا عرقا بشريا زنجانيا متميزا بملامحه الفزانية الخاصة.

لفَتَ نظري خلال سفري هذه المرة تلالٌ صغيرة مبنيَّة من الحجارة بارتفاع خمسين ـ سبعين سنتيمترا، مبعثرةٌ بكثافة عبر الوادي. لم أر قبل الآن في أي مكان زرتُه في ليبيا تلالا كهذه وبهذا العدد. يخبرني الملازم بأنها مدافن سلاطين هذا البلد القدماء. عندما توقفنا في «تقرطيبة» لنتزود بالمئونة توجَّهتُ نحو مجموعة التلال المخروطية. بُنيتْ بالحجارة التي جُمعت من المكان نفسه، لهذا من الصعب تمييزها عن المحيط إلا بواسطة الظلِّ الذي تلقيه على الأرض.

بعضها قد تهدَّم. يبدو في داخلها النمط الهندسي نفسه للمدفن: ألواحٌ حجرية رقيقة تغطي ما يشبه المشكاة يوجد فيها على عمق حوالي متر هيكلٌ

---

[1] الموجة لعربية الكبرى بدأت مع الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي.

عظمي لإنسان. تدل الهيئة الشاقولية للقبر والوضعية الأفقية للهيكل العَظْمي على أنَّ جسم الميت أُسند إلى مرتفع وهو جالس بانحناء، بحيث يقع ذقنه عند ركبتيه. تعود كل الجماجم التي عُثر عليها للعِرق البشري ذاته.

تمتد هذه المدافن على طول وادي الآجال بمحاذاة قدم سفح صخري متموّج، أما عدد الأموات الراقدين فيها فقد قُدِّر بمئات الآلاف. لا يترك شكل المدافن وبنيتها الداخلية مجالا للشك أن أصحابها لم يكونوا من العرق العربي أو الروماني بتاتاً. هناك فرضيتان تحددان أصل هؤلاء الأموات. تقول إحداهما بالأرومة الجرمنتية القديمة وتعيد الثانية أصلهم لفترات أحدث، عندما كانت البلاد تحت هيمنة ملوك «الكانم» السود[1]. هذا، وتجدر الإشارة أن الفرضية الأولى أكثر رواجا وقريبة للواقع. مؤيدوها هم الأغلب في كل الأحوال بين جماعة الأخصائيين. وما يؤيد هذا الافتراض هي الحضارة العالية لشعب جرمنتي الذي كان يعيش هنا في عصر وصلت فيه إنجازات فزان إلى القمة. بينما فترة حكم ملوك «الكانم» أولئك كانت متزامنة مع عصر الانحطاط الذي شهدته المنطقة.

---

(١) كانت مملكة «كانم» تقع في الشمال الشرقي من بحيرة تشاد، وبدأ الإسلام يظهر فيها بعد إن هاجرت إليها قبيلة آل «سيف» في القرن التاسع الميلادي، حيث في القرن الحادي عشر اعتنقه بعض ملوكها. في عهد الملك «دوناما داباليمي» (١٢٢١ ـ ١٢٥٩م) اتسعت رقعة المملكة وشملت أغلب أراضي «تشاد» و«فزان» وجزءً من النيجر. ثم ضعفت مع حلول القرن الرابع عشر بعد أن أرهقتها الحروب مع قبائل «البولالا» التي تمكنت من طرد آل «سيف» (بحدود عام ١٣٩٦م) والاستيلاء على مدينة «جنة» عاصمة «كانم». استقر آل «سيف» في منطقة «البورنو» التي تقع غرب بحيرة تشاد وأسسوا فيها مملكة عُرفت بمملكة «البورنو» ثم استردوا «كانم» بعد أن انتصروا على قبائل «البولالا» في عهد «علي دوناما» (١٤٧٢ ـ ١٥٠٤م) وعُرفت مملكتهم الجديدة بمملكة «كانم ـ البورنو»، بلغت أوج مجدها في عهد «إدريس ألونة» «الثالث» (١٥٧١ ـ ١٦٠٣م)، إذ وطّد علاقاته بطرابلس والدولة العثمانية. بعد موته ضعف شأن مملكته. وفي أوائل القرن التاسع عشر تعرضت «البورنو» الى غزو بقيادة «عثمان فودي» وتم فصلها عن «كانم» واختير لـ «كانم» في سنة ١٨١٠م ملكا من خارج آل «سيف» هو «محمد الكانمي» الذي استطاع توقيف زحف «عثمان فودي»، إلا أن مملكته استمرت في الضعف».

ومهما يكن من أمر فليرقدْ الأموات بسلامٍ! أما نحن فما علينا إلا العودة إلى أمور حياتنا اليومية التي بَلْوَرَها في هذه اللّحظة بالذات العسكري المساعد الواقف على قارعة الطريق انتظارا للملازم باجليريني ليحيطه علما بمرض أحد الجِمال في الأبيض.

نغادر وادي الآجال. بعد أن قطعنا عشرات الكيلومترات تواجدنا من جديد في سبها وللمرة الثالثة خلال تجوالي عبر الصحراء الليبية.

[15]

سبها عرس في «جديد»

على ظهر الإبل عبر رملة الزلاف

مرتفعات منعزلة أحادية مخروطية أَطلق عليها سكانُ فزان إسم «غارة».

غدا أحد هذه المرتفعات قبل عشرين سنةٍ مسرحاً لكارثة مرعبة. على قمّته كانت قد تمركزت سرّيَةٌ من الجنود الإريتريين المرسلين من قبل إيطاليا بمهمة فتح فزان. وصلوا بعد أن خارت قواهم فاستسلموا لنوم عميق، وعلى إثره طوَّق السكان المحليون المكان ثم شنوا هجوما أدى إلى إفناء الجنود عن بكرة أبيهم.

تحيط اليومَ بهذا المرتفع سطوحٌ واسعةٌ بلون الظلام الداكن الضارب أحيانا إلى الصفار. يُسمع صفيرُ الرياح من فوقها كأنه أنينُ أولئك الجنود. تصطدم الرياح بجذوع النخيل السامقة التي تلقي بريقَ خضارها على الناحية الغربية من واحة الجردة. إلا أنَّ «الغارة» لم تعد قمّةً صحراوية عارية كما كانت. الآن يتربّع على قمتها حصنٌ دفاعي فخم يُطلق عليه اسم «سبها».

تؤدي إلى الحصن أدراج عريضة شيدت عند قاعدته ثكناتٌ للجنود مع نادٍ لهم وآخر لضباط الصف وبيت للضباط ومهاجع للسيارات وورشاتٍ تصليح ومخازن وفي وسط الحصن توجد ساحة جميلة لكرة المضرب. وتزود الحصن مياه تتدفق دون انقطاع من بئر إرتوازي. أحيط هذا كله بسور عال.

قائد الحصن، العقيد فارينيتتي، رجلٌ طويل القامة، يلبس نظاراتٍ وهو الشخصية الأولى والأهم في فزان: صلاحياتُ القيادة في مقاطعة سبها تختلف عن صلاحيات القيادات في المقاطعات الأخرى. فهنا في فزان، إلى جانب الأمور العسكرية، تشمل سلطة القيادة كذلك الأمور المدنية، مثل بناء الطرق وقضايا التعليم والشؤون الزراعية وغيرها. إذن المجالات التي يتحكَّم بها القائد واسعةٌ ومتنوعة.

يعلِّمنا التاريخ أنَّ لكلِّ رجلٍ عظيمٍ عَقِبُ أخيل (وتر العرقوب، وتر أخيل)، كذلك الكولونيل فارينيتتي يملك وَتَرَهُ الأخيلي. وَتَرُهُ هو الطريق المكسو بالحصي وعلى جانبيه تنمو أشجار الأوكالبتوس الشاحبة التي تمتد من الباب الخارجي لسور الحصن إلى المستوطنة القريبة المؤلفة من عدة دكاكين صغيرة. ويوجد في المستوطنة سوق ومطعم يحمل اسما فيه بعص الكبرياء والفخفخة «روما»، سيما لعابري السبيل وسائقي سيارات الشحن. يُمنع منعا باتا سير السيارات فوق الطريق ولا يمكن أن يخطو عليه حيوان من ذوات الحوافر، لئلا تثير الغضب الجوبيتري[1] للعقيد. شاءت الأقدار أنْ أصبحتُ شاهدا للحظةٍ انفجر فيها العقيد غضبا. سبب هذا كان مرور مواطن فزاني جرَّ بَعِيرَه عبر هذا المسلك المحرَّم والممنوع ارتياده، فتركت قوائمه بعض الخدش والأثر على السطح الحصوي الملس للطريق. رَدُّ فعل العقيد بدا عنيفا للغاية وراح يصرخ ويهدد بصوت عال. عُوقب الفزّاني المسكين بتقليص راتبه إلى النصف خلال أسبوعين.

لَفَتَ نظري أنبوب معدني رفيع ممتد من خزان الماء الكائن خلف السور إلى بئر صغير واقع بجانب جدار عال مبني من سعف النخيل. وجدتُ رَجُلَيْن

---

(١) في الميثولوجيا الرومانية صاحب السلطة المطلقة في السماء والأرض وفي مفهوم القادة والموظفين الرومان مصدر كل سلطة أرضية ومنها سلطتهم وصلاحياتهم. يُقارن إلى حد بعيد بالاله زيوس عند الأغريق واكتسب تقر كل صفاته ورموزه التي تتمثل بالعاصفة الرعدية والنسر.

فزانِيَّيْن يضخّان الماء الذي كان يتدفق بشدة عبر ساقية مطليّة بالإسفلت في قعر رملي ليختفي خلف الجدار. حَدَّقتُ نظري فشاهدت ما جعلني أستغرب. لاحظتُ بستانا حقيقيا من أشجار اللوز والتفاح والبرتقال والليمون أغصانها الخضراء الزاهية مغطاةً بثوب وردي من الأزهار وخلف البستان تبدو حدائق مزروعة بمختلف الخضروات: صفوف من الفاصولياء العالية والقرع والدلاع (الجبس، الرقي، البطيخ الأحمر) والبطاطا والخس. أعجوبة حقيقية في الصحراء! في سبها تتحقق معادلة الإكتفاء الذاتي اليومي من الفوالكه والخضروات الطازجة، لا بل يُصدّر فائض الإنتاج إلى حصون أخرى في فزان.

صاحب هذا الإنجاز وهذا الفردوس هو آموديو، الخبيرُ بمسائل القياسات الأرضية. عندما كان برتبة ملازم في الجيش الصحراوي قضى خدمته متجولا بين عدة حصون في فزان، فاستغل كلَّ لحظةٍ خارج الدوام في أعمال البستنة. وبعد أنْ أُحيل إلى الخدمة المدنية أنيطت به مهماتُ الأبنية والإنشاءات في سبها، فصبَّ كل خبراته وتجاريه ليحقق هذه المعجزة.

بالإضافة إلى زراعة النباتات يقوم آموديو بتربية الحيوانات الأهلية من ماعز وأغنام وأرانب. بنى لها حظائر عصرية بجانب الحديقة مع أبراج للحَمام. عند زيارتنا للمزرعة فوجئنا بتصرّف عدائي من دجاجة رومية جميلة المنظر، تبدو مغرورة بهيئتها وبلون ريشها المرجاني ورقبتها المزخرفة بحلقات بنفسجية من الوبر الناعم.

شَرَح آموديو مبتسما سبب استنفار الدجاجة: هي محرومة من زوجها فمنذ أسبوع ترقد على الْبَيْضِ منتظرةً لحظة فقْسها وخروج الصيصان. يلقي آموديو عليها وعلى غيرها من كائناته الصغيرة نظراتٍ ملؤها الحب والحنان.

أنهى سيريللو الطبيب المشرف على صحة الجنود في الحصن خدمته الإلزامية التي استغرقت ثلاث سنوات ويتهيأ للعودة إلى البيت بعد أن خلَّفه طبيبٌ آخر. وقبل مغادرته قرّر القيام بجولةٍ وداعٍ للمنطقة التي خدم فيها،

فاقترح أن أرافقَه إلى واحة «جديد». انطلقنا على متن سيارة إسعاف طبية. زرنا أولا بيت المرح واللهو وهو الأكبر في فزان، إذ راح يودّع الحسناوات اللاتي كان يشرف على صحتهن. عندما سمعن بأن طبيبهن سيغادر البلاد ترقرقت الدموع في عيونهن. هرعتْ صاحبة المؤسسة، ينادونها باسم مستعار «بومبارديا»، وصافحت طبيبها بحرارة مكررة عبارة: Adio signor dottore

تتعالى في «جديد» أصوات صاخبة وضجيج عال وجلبة مع دقٍّ عنيف على الطبول. سكانُ الواحة يحتفلون بزواج أحد الجنود مع بنت صديقه الجندي. تسير وسط المستوطنة ناقة مزخرفة بعزٍّ وكبرياء حاملة على ظهرها ما يشبه الهودج المكسو بإحكام بمختلف الأقمشة. كانت العروس جالسة في داخله ولا يحق لعين رؤيتها.

وطبقا للعادات الدارجة لا يحق حتى للعريس أن يلقي إلا نظرات خاطفة على خطيبته قبل الزواج. فقط حينما ترفع الغطاء عن وجهها. لا يعتبر هذا التقليد من الوصايا الدينية، إذ لم يأمر النبي محمد النساء بتغطية وجوههن. هو اجتهاد شخصي لقلة من رجال الدين، عُرف أقرّه بعض المفسِّرين خوفا من الجاذبية التي تملكها المرأة الحسناء.

تبدأ الفتاة التحضيرات للزواج بخمسة أيام قبل حفلة العرس التي تجمع عددا كبيرا من الناس. تتزين النساء بالحنَّة النكهة ويصببْن مختلف الزيوت والعطور على أجسامهن. في اليوم الموعود ترتدي العروس أفخم لباس وتركب ظهر ناقة في هودج معد لهذه المناسبة لئلا يطول انتظار العريس. عندما تقترب نحوه يدنو إليها محاطا بأعضاء «قبيلته». ترتفع أصوات الزغاريد ويطلق الرجال العنانَ لمهاراتهم في الفروسية، يجولون ويصولون ويطلقون من بنادقهم وابلا من العيارات النارية ثم يرافقون موكب العروس إلى البيت الذي ستسكن فيه مع زوجها. وهناك يخرج خطيبها ويقودها إلى «الزريبة» أو الخيمة. وبعد كل هذا تُعلَّق فوق باب الزريبة أو مدخل الخيمة قطعةٌ حمراء من القماش ـ دلالة على كون التي اختارها عذراء.

تلي هذه التقاليد وليمة العرس. يجلس إليها كلُّ المدعوين ويتلذّذون بمختلف الأكلات اللذيذة المحضّرة والمقدمة من قِبَل العائلتين. أفراح العرس بتفاصيلها وحذافيرها تتم بإشراف علماء الدين الذين يحرصون على سير المراسيم وفقا لتعاليم القرآن والشريعة. يُمنع مثلا استعمال الأواني الغالية والأزياء الباهظة الثمن والعزف الموسيقي وألعاب اليانصيب والهَزَرد والمرح المُبالغ فيه وأنواع اللهو اللاأخلاقي وحتى الحديث مع المرأة التي ليست من نفس العائلة. أما في «جديد» فيبدو أن التمسك بهذه التقاليد جزئي، إذ تُسمَعُ أنغام طرب طائش وتجوب مجموعات من الصبيان في الشوارع ركضا ولهوا وتطلق أصواتا عالية محوِّلة الواحة إلى ساحة من الفوضى والصخب.

كان عليَّ أن أسافر من سبها إلى براك برفقة موظفي البريد التابعين للمجموعة الصحراوية الثالثة المتمركزة في واحة براك في أقصى الشمال الشرقي من وادي الشاطىء، إلا أن صبري نفذ. فقررتُ السفر بنفسي بعد أن وُفِّقتُ في الاستعانة بدليل واستئجار جَمَلَيْن حمَّلْتُهما باحتياطي كاف من المواد الغذائية والماء. عندما كشفتُ للملازم عن نِيَّتي واستعدادي على مجابهة مخاطر السفر، رمقني بنظرات عميقة من أخمص قدمي حتى شعر رأسي ثم بصوت بارد وجاف راح يعاتبني ويؤنبني:

ـ يا أيها الشاب، ستفشل في محاولتك فشلا ذريعا. لست مستعدا لأتحمل مسؤولية حمايتك وبقائك على قيد الحياة عند مجابهة المخاطر التي قد تُفاجأ بها ولن أعطي الأوامر لجنودي للبحث عنك في متاهات الصحراء التي قد تبلعك بلعاً. أنهيتُ، وأحذِّرك أن تكفَّ عن هذه المغامرة الخطرة.

أقتنعتُ بوصية الملازم وقررت أن أنتظر. ثم أَعْلَمَني أنَّ هناك طائرتين عسكريتين من طراز «كابروني» استغرقت رحلتهما من مطار غدامس إلى سبها ست ساعات. ومن المحتمل أن أوفّق في السفر على متن إحداهما. أفرحني هذا الخبر. ثم قمت بنبش ذاكرتي لأحيي معلومات من كتب التاريخ عن الحملة

التي شنها بابلو يوما على رأس السرايا الرومانية. تساءلتُ في قرارة نفسي كم استغرقت مسيرتهم المضنية عبر الصحراء ليقطعوا المسافة نفسها من غدامس إلى سبها.

ـ وماذا لو أجبرتما على الهبوط القسري؟ ـ بحماقة سألت أحد الطيارين برتبة رائد في مقتبل العمر.

ـ لكان هذا نهاية لنا ـ يردُّ بمرح. ثم أضاف برزانة وجدِّية: أنصحك أن تتذكر بأن أسئلة كهذه لا تُطرح قطعا على الطيارين. ندمتُ على سؤالي الطائش والتزمتُ الصمت بعد أن لقَّنني ربان الطائرة درسا لن أنساه.

بعد أن تناولنا وجبة الغداء في الحصن توجهنا نحو مقبرة عسكرية. لوحة بيضاء كبيرة كتب عليها: «. . . الجنود الذين بوغتوا وسقطوا ببطولة ولسان حالهم يكرر أنَّ ما فُقد خلال سنوات قليلة سيعيش أبدا. غارة سبها ٢٨/ ١١/ ١٩١٤». تملَّك الصمت نفوسنا. على وجوه الضابط انطبعت ملامح تنمُّ عن الصلابة والقسوة.

حول سفرة العشاء خيَّم مزاج سيء سببه العثور على جندي ميكانيكي في الصحراء يكاد يلفظ أنفاسه الأخيرة. ماذا جرى له يا ترى؟ في الطريق بين سبها وهون تعطلت إحدى سيارتي شحن تابعتين لشركة خاصة وعجز السائقان العربيان عن إزالة العطل. فقفل أحدهما إلى سبها وطلب من الجندي المساعدة في تصليح السيارة، واعدا أنه بعد إزالة العطب سيعود به إلى وحدته العسكرية في سبها. ولكن بعد أن أصلَح الجندي السيارة لم يف السائق العربي بوعده، بل استغل مع زميله لحظة غفلة ليغادران المكان بسرعة تاركين الجندي وحده بدون غذاء ولا نقطة ماء. فما كان على الجندي المسكين إلا الإعتماد على نفسه والإنطلاق مشيا باتجاه سبها حتى خارت قواه وسقط مغميا عليه على قارعة الطريق. عندما عُثر عليه كان يحتضر. وعلى إثر هذا وُجِّهت برقيات إلى كل الحصون بملاحقة العربيَيْن وإلى طرابلس نفسها.

وأخيرا، بعد انتظار طويل، وصلتْ من براك مجموعة سُعاة البريد بعدد ثمانية جنود صحراويين بأحزمتهم السوداء تحت قيادة الرقيب الأول ميليس الذي ينحدر من ساردينيا. الإنطلاق معهم إلى براك حُدِّد في الرابعة بعد الظهر.

المترجم المستخدم هنا ويدعى علي بن علي راح يخبرني وهو يفتل شاربه الأسود الغليظ ويطبطب بكفِّه على بطنه الكبير المنتفخ، بأن الجَمَل الذي أَجَّرَهُ لي أفضلُ جمل في واحة جديد وسيكون جاهزا في الوقت المحدد. ذهبتُ مطمئن البال لأتناول غدائي الأخير، تلته تبادل النخاب وحديث خفيف ولذيذ، ثم دورة من اللعب بالقناني الخشبية. وهكذا حتى اقتربتْ لحظة الوداع. المجموعة تنتظرني في أهبّة الإستعداد، لكنني لا أرى أثرا للجمل الذي وُعِدْتُ به ـ بإلحاحٍ نُدير أنظارنا في كل الجهات علّنا نراه قادما. خيبة أمل كبيرة وعار أكبر. بعد التحقيقات في الموضوع تبيَّنَ أن المترجم المغرور بنفسه لم ينبس ببنت شفة لأيٍّ من السكان عن رغبتي في استئجار جَمَلٍ وما قاله لي كان كلاما فارغا. إتصلنا هاتفيا بالرقيب الأول في جديد وطلبنا منه المساعدة في حل الأزمة. ما كان علينا إلا الإنتظار.

في السابعة دعتني مجموعة الجنود لتناول العشاء. كنت مكسور الخاطر ومهموما، إذ لا أجد أي تفسير لتصرفات المترجم. يقدِّم الحاضرون أنفسهم لأتعرف عليهم، ثم سألوني من أين أنا، متى قَدِمْتُ وكيف مرَّتْ أيام إقامتي ورحلاتي وما هي أخبار وأحوال الجَمَل الذي أَجَّرْتُهُ ـ تزدحم الحكايات الهزلية في رأسي كما تتصالب السيوف الحادة.

بعد الثامنة جاءنا أحد العساكر بخبر مفرح: الناقة جاهزةٌ. نهرع كلنا إلى خارج الحصن. «سفينة الصحراء» تتأرجح بحركات ثقيلة، تدور حول نفسها، تُعرض أكتافها الغليظة وتحدق بي بنظرات عميقة كأن لسان حالها يريد أن يقول: أشكُّ بك كخيال يستحق أن يمتطي ظهري ـ وكذلك أنا، يا ناقة، لا أثق

بكِ كل الثقة. لا خيار آخر أمامي. ما عليَّ إلا أن أتظاهر بأنني سعيد وقادر على قيادة الناقة كأي إنسان آخر. بجهد تسلَّقْتُ ظهرها الناتىء. بدلا عن السرج والرسن أُلقيَ على ظهرها كيسان عريضان سطحهما خشن. قَدَما راكب الإبل تتدليان عادة على بطنها من جهة واحدة أو جهتين، وأحيانا تُمَدَّان على عنقها الطويل. يمكن كذلك الجلوس بوضعية القرفصاء، ولكن هذا يتطلب مهارات نادرة للمحافظة على التوازن.

بعد عدة محاولات وإعازات طويلة «خخ، خخ، خخ» وافقتْ الناقة على الركوع واستقبال جسمي المرتعب على سنامها. أما حقيبتي فقد غَرَزْتُها وسط الكيس المتدلي المعلق على طرفها. نسيتُ، ولسوء حظي، أن الناقة عند قيامها ترفع أولا رجليها الخلفيتين. فكانت العواقب وخيمة عليَّ، مع الإرتفاع المفاجىء للنصف الخلفي من جسمها تزحلقتُ على عنقها ثم تدحرجتُ وسقطتُ بكامل ثقلي على الأرض. انزرع أنفي في الرمل وأثار هذا عاصفة من الضحك والسخرية. تكسَّر جسمي، جُرح جلد وجهي في أكثر من مكان. بدأتُ مع الحاضرين أضحك من نفسي بصوت عال. محاولتي الثانية كانت أفضل، لا بل ناجحة تماما. عندما تحركنا في اتجاه واحة الجردة كانت حدة الظلام قد اشتدت.

نسوق جمالنا على مهلٍ. ركّزتُ جُلَّ اهتمامي على كيفية التشبث بظهر الناقة لئلا أسقط مرة أخرى سقطة عار وألم. كان جسمي مُقلَّصاً وناشفاً ومع مرور الساعات بدأتُ أشعر بتآلف مع الحيوان وانسجام مع حركات جسمه، تعوَّدْتُ على إيقاعات بدنه وذبذبات تموُّجه خلفا وأماما. وأخيراً وصلتُ إلى تكييف نفسي مع طبيعة وأنغام سيره. هاهي أضواء سبها تضمحلُّ وتختفي وفوق رؤوسنا تسطع نجوم كبيرة زاهية وصمت الليل يشقُّه من بعيد نباح وعواء لبنات آوى. بين الحين والآخر يُسمع صهيلٌ عالٍ لخيول الجنود الذين انطلقوا من الحصن لمرافقتنا.

على مقربة مني جندي صحراوي من «بركة» يسوق فرسه ورأسه متدل إلى أسفل. تبدو عليه علامات حزن عميق منذ بداية رحلتنا. سألته عن السبب. راح يقصُّ حكاية همومه: «قبل أسبوعين كان جملي مربوطا بحبل مشدود إلى سكة أمام حصن سبها. وفجأة أرعب الجمل هدير محرك سيارة عابرة، فقفز مذعورا، افلتت أربطة أرجله وهبّ فارا في الصحراء. وعلى الرغم من البحث المضني عنه لم يُعثر عليه. تشاؤمي زاد يوما بعد يوم، إذ كنت أعيش في أمل عودته بعد أن يشعر بالجوع، إلا أن هذا لم يحدث. قصدتُ براك مشيا على القدمين لأخبر بما جرى ـ كان رد فعل المسؤول جافا وقاسياً. انتهرني بشدة ثم طردني وأمرني ألا أعود إلا برفقة الجمل المفقود. فما كان علي إلا الرجوع إلى سبها ثانية، وهناك ساقوني إلى المحكمة وحُكِم علي بغرامة قدرها ألفي ليرة ستُقْطع من راتبي». سألتُهُ كم يتقاضى الجندي شهريا؟ ـ أجابني: الحد الأدنى سبع ليرات في اليوم.

نزحف فوق طبقة رملية بمحاذاة شريط من التلال العارية. رحلتنا المريحة نوعا ما في البداية غدت متعبة ومملَّة. بدأتُ أشعر بألم شديد وبِحكَّة في كل نقطة تماس جسمي مع حدبة الناقة. فضَّلْتُ أن أترجل وأمشي على قدمي.

ـ ماذا حلَّ بك. أبهذه السرعة تستسلم؟ ـ يلتفت ميليس لأول مرة بصوت فيه نبرة من السخرية والتهكم.

بعد عدة دقائق أحسُّ أن شيئا ما يعيق سيري ـ تبيَّن أن «السلوارة» التصقت بجسمي. انتزعتها بعنف وتأكدتُ أن الدم يسيل بغزارة من الجروح.

ـ هذا شيء تافه ـ يصرِّح الرقيب الأول ـ غداً سترى النتائج في مؤخرتك التي ستغدو كالغربال... كان هذا نصيب كل منا. إجادة ركوب الإبل كلَّفنا وسيكلِّفك دماً. وهذا سيُغني حكاياتَك وكتاباتَك عن مغامراتِك على ظهر الناقة في الصحراء. المبلغ الذي دَفَعْتَهُ سيعود عليك بالفائدة.

نقترب إلى وادي «عطية (Attia) رامي». قررنا أن نترجل لنقضي ليلتنا تحت

شجرة نخيل كبيرة ومتعددة الفروع. يوقد الجنود النار في موقد ويبدأون بالغناء المتكرر بلحنه وكلماته، أما الإبل فراحت تجأر بصمت وهدوء. وضعْنا القهوة على النار، شربناها وتمددنا على الرمل مغطين أجسامنا بالبرانس والبطانيات. من تحت أشجار النخيل يهب هواء بارد.

في الفجر العميق يوقظني إحساس غريب كأن شخص ما يزحف بأنفه على خدِّي. تذكَّرتُ أن هذه المناطق يغزوها نوع من القط البري يُدعى "gattopardo"، فنهضتُ مرتعبا وارتعبت كذلك الفرس التي كانت واقفة بالقرب مني.

من جديد استسلمتُ للنوم، ولكن هذا لم يدمْ طويلا، إذ في الخامسة استيقظتْ قافلتنا. نحمِّل الجمال ونلفُّ رؤوسنا بإحكام «بالزمالة» ونتحرك إلى الأمام عبر كثبان رملية متموجة. الرياح المحمَّلة بجزيئات الرمال تعصف في وجوهنا - قفر مترامي الأطراف، تحيط بنا صحراء بدون نهاية. بعد عدة ساعات من السير الشاق نعبر مستوطنة صغيرة تُدعى (Falta Nachum ثلاث نخيلات). في ساحة منخفضة السطح ألمح ثلاث أشجار مبرومة الجذوع، ملتوية الأغصان، هذا الشكل الهندسي حفرته الرياح - يبدو أن الرطوبة متوفرة على عمق طفيف. ومن جديد نزحف فوق كثبان رملية. القوافل المارة تترك آثارا ناتجة عن غرز العصي النخيلية بالأرض.

نلتقي بقافلة طوارق قُبْلتها أواسط منطقة «عديدن». تتألف من نساء ورجال، كبار وصغار. وجوه النسوة لم تكن مغطاة فراح الجنود يتباهون بأزيائهم البيضاء الفخمة وأحزمتهم السوداء، ثم أرخى كل منهم رسن فرسه ليعدو بأقصى سرعة حول القافلة. كنت متأكدا أن هدفهم إظهار مهاراتهم أمام النسوة لإثارة إعجابهن.

تزداد حدة الحر بدرجة لا تطاق. حوالي الساعة الثانية نجتاز بئر زرزور ثم نصل إلى وادي زلاف القريب المكسو بأشجار نخيل كثيفة الفروع وبالأقاقيا القصيرة وبشجيرات الصبّار المبعثرة هنا وهناك. قررنا أن نحطَّ هنا عصا ترحالنا لنجرع بعض الراحة. من جديد داهمتني مصيبة؛ عند نزولي من على ظهر الناقة فقدتُ

توازني وسقطتُ على ظهري متأرجحا إلى الخلف حتى استقر جسمي المكسَّح على ورقة جافة من نبات الأقاقيا المليء بالأشواك الحادة والطويلة. نهضتُ في الحال بألم شديد أحسُّ به في منطقة الظهر. كم مرة تفجرتُ ضحكا عندما كنت أعاين مشاهد كهذه على الشاشة، أما الآن بعد أن نزع العسكريُّ الشوكَ من جسمي المترنح ألماً تغيَّر مزاجي وتملَّكني العبوس. وبما أن سوء الطالع يُداهم الإنسان بالجملة فقد أصابني كرة أخرى بشرِّه ولم يمهلني لأنسى على الأقل نتائج الحادث الأول ـ فبعد أن تسلقنا أنا وميليس ظهر تلٍّ لتناول الغداء تحت ظل شجرة طرفاء وافية الفروع، هاجمتنا وقرصتنا قطعان من النمل الفضي اللون.

قطعنا الوادي ولاحظنا أن الأرض الرملية بقيت خلفنا. ندخل في رحاب سهل مستوٍ ومرتفع، مكسوٍ بحجارة بيضاء ملسة، بدا النظر إليها متعبا للعيون بسبب انعكاس ضوء الشمس فوقها. طبوغرافية هذه الطبيعة تختلف جذريا عن التي اجتزناها، كأننا تواجدنا في عالم آخر مستوي السطح شبيه باللوحة التي رسمتها ريشة فنان ماهر، كالصحن المنقوش بألوان الطيف الذهبية الزاهية للنباتات التي تميل نحو السواد كلما امتد نظرنا نحو الأفق البعيد.

وصلنا إلى نهاية السهل. وقعتْ عيوننا على مجموعة من الناس وهم يلفُّون ويدورون حول بعض الشجيرات. إنهم من سكان براك وقدِموا إلى هنا ليجمعوا الأغصان الجافة التي يستعملونها بمثابة وقود.

نسير نزولا. نعاين واحة براك، إلا أنها ما زالت تبعد عنا ١٤ كيلومترا. ولعلَّ أهم ما علَّمتني هذه الرحلة هو ركوب الإبل، ولكن مجرد التفكير أنه بعد وصولي القريب سأترجل من على ظهر ناقتي يبعث القلق في نفسي ويذكِّرني بالجروح التي في جسمي وهذا يجعلني أحسّ أن طريقنا لا نهاية له.

تُعتبر براك أجمل وأخصب واحة في فزان. شكلها دائري، من جهتها اليمنى يطل سهل مرتفع ومستو قاتم اللون، تنحدر جوانبه بزاوية حادة. بينما من الجهة اليسرى يمتد وادي الشاطيء وتتخلله أشجار نخيل مبعثرة هنا وهناك. الوادي عريضٌ (في بعض المقاطع يصل إلى ١٠ كم) مستو وغني بالجُزُرِ

الخضراء. نجتاز الحفرة الرملية تلو الأخرى. أشكالها المتطاولة والمتساوية الأبعاد تدل على قوة وغزارة السيول التي اجتاحت المنطقة. بسرعة تقترب فترة العصر. هاهي الواحة ماثلة أمامنا بكل بهائها وقد اكتست بثوب من الصمت الذي فرشه ظلام الليل على المعمورة.

بقي أمامنا التغلب على شريط رملي أخير تؤدي حدوده إلى وسط الواحه. وآخر مسلك كان شاطىء جدول صغير تسيل فيه المياه بتيار سريع وسط حقول من الشعير المزروع تحت أشجار النخيل. نصل إلى ما يشبه الحوض المستدير. على حافته لمحنا مجموعة من النساء المرتديات أزياء سوداء تحمل كل منهن دلوا بيدها لتتزود بالماء. نجلس على الأرض. نَقلَتْني هذه الأجواء إلى عالم الخيال، جعلتني أنسى كل ما حلَّ بي خلال الرحلة المتعبة حقا التي ستبقى متعلقة في بالي كمحطة جميلة في حياتي طالما تغلَّبتُ على العديد من الصعوبات وعن كثب جرَّبْتُ نمط الحياة اليومية لسكان الصحراء. ألمح أمامي هيئة إنسان يخطو خطوات سريعة لابس عباءة فضفاضة وقبعة بيضاء عالية على رأسه شبيهة بطنجرة الطبخ. يخبرني ميليس أنه بونجيوانني، القائم بأعمال قائد الحصن نيابة عن العقيد الذي خرج مع مجموعته للقيام بالتدريبات. قررتُ اللحاق به لأعرِّفه على نفسي. فوجئتُ بردِّ فعل غريب؛ بقي مُسمّرا في مكانه مكتفيا فقط بلفِّ رأسه المنحني نحوي، ثم راح يرمقني بنظرات عميقة صامتة. علمتُ فيما بعد أنه مصاب بشللٍ آنيٍّ نتيجة تعرُّضه للرياح الباردة. كان مريضا ويشكو من نوبة الحمّة.

ـ كلُّ غريب يحلُّ في براك هو ضيف معزَّز ومكرَّم ـ بهذه الكلمات الناعمة لـ بونجيوانني بصوت متقطع وبلهجة بيه مونتيه[1] تبدأ إقامتي في واحة براك التي تأخذ في الألباب.

---

(١) Piemontre منطقة جبلية سياحية في إيطاليا في مقاطعة تورينو.

[16]

براك صحافية من باريس موت في الواحة

يدعُوني الملازم الأول بونجيوانني لأقيمَ في براك فترةً طويلة. قبلتُ دعوتَه شاكراً حسنَ ضيافته. حتماً سأستغلُّها للقيام بجولاتٍ يومية عبر الواحة وبرحلاتٍ طويلة طائشة للمنطقة المحيطة بها. يُرافقنا في هذه المغامرات «الولو» ـ الكُلَيْب المحبوب للملازم. يقول عنه أنه لمْ يرَ قطُّ أجملَ منه في كل المستعمرات الإيطالية وهو أذْكى حيوانٍ أليفٍ في فصيلته، لا منافس له وربما لا مثيل له في إيطاليا.

براك واحةٌ كبيرة وغنيّة بمختلف أصناف النباتات. فيها ما يقارب الستة عشر ألف نخلة، أما عدد سكانها فيبلغ ألفَ نسمةٍ. تقع هنا عدة قرى، منها قرْيَتان رئيسيتان موجودتان وسط الواحة: «العافية» و«المصلة» (يفسِّر الكاتب معنييهما)، أما التجمُّعات القروية الأخرى فهي خارج الواحة، رابضة فوق الرمال. ولعلَّ أكبر ثروةٍ تملكُها الواحة هما نبْعان طبيعيان، قلْ مجموعة من عدة عيونٍ ـ تتدفَّق منها بغزارةٍ مياه صافية عذبة تسيل بتيّارٍ قويٍّ في غديرٍ رئيسيّ متفرع إلى جداولَ أصغر فأصغر. منها يشرب الناس وبها تُسقى المزروعات. أجملُ لحظةٍ في اليوم هي تلك الظاهرة التي تحدثُ بحدود السادسة مساءً، عندما تُفْتح الحنفيّات وتُرفع السدود. حينها تغمر الأراضي سيولِ المياه وخلال زحفها السريع تجرفُ كُتلاً سوداء من الأرض المتشققة بتأثير الشمس، كاشفة عن القعر الرمليّ الأصفر للسواقي. وصول المياه إلى جذور الشعير

والخضروات يبعث الحياة في أوراقها فتنتعش وتستقيم بعد أنْ التَوَتْ حول نفسها من شدَّة الحرّ. راحت الآن تتنفس بعمقٍ وحرّية. وبالإضافة إلى النخيل توجد في الواحة أشجارُ تينٍ وخوخ ورمّان، ومِنَ الخضروات نرى الفول والفاصولياء وكذلك الطماطم التي جاء بها الإيطاليون قبل فترةٍ غير طويلة والدلاّع (الرقي، الجبس، البطيخ الأحمر) وأصناف مختلفة من الخسّ وغيرها. عَمَلُ الإنسان القرويّ ليس إلاّ صراعاً دائما ونضالاً مستمرا لا يعرف الهوادة ضد أشعة الشمس الحارقة ـ تارةً تراه يُظَلّل حقوله وتارةً أخرى يَرويها أو يرفع التراب حولها عالياً ليحيط بالنبات من جوانبه ويحميه لتتمكّنَ جذورُه من الاحتفاظ بالرطوبة التي لا تُقدَّر بثمنٍ. وما يملكه المواطنون من الحيوانات الأهلية هو ثلاثمائة رأس غنم ومائة وخمسون حمارا وحصانان وثلاثة جِمالٍ وعدد كبير من الدجاج والحَمام. تتكون القرى من أكواخٍ صغيرة قريبة لِبَعضها مرصوصة تفصلها أزِقّةٌ ضيّقة كأنها أنفاق. للاحتماء من وهج الشمس غالبا ما يقوم السكان بتغطية الأسطح بإحكامٍ بسُعُفِ النخيل ويزرعون الأشجار بمحاذاتها.

المياه المتوفرة في عيون قرية «العافية» ملوَّثةٌ بجراثيم من نوع "ber arciosi"، إلا أنها تصلح للشرب ويمكن استعمالها في غسل الجسم ولكن ليس الجسم بكامله، إنما نصفه الأعلى، إلى الخصْر. تملك هذه الجراثيم القدرة على مهاجمة الساق والفخذ معاً وتندفع بسهولة سيما تحت أظافرَ القدم وفي منطقة الفتحة الشرجية. غالباً ما تَتَمَرْكز في المثانة وتتخذها مرتعاً لها وتعلن عن وجودها بتغييرها للون البول إلى أحمر. ليس هذا المرض مخيفاً، لكنَّه مُعيبٌ ومؤسف، يؤدي أحيانا إلى تدهور الحالة النفسية.

براك هي النقطةُ الرئيسية في وادي الشاطىء ومركز القيادة العسكرية للمنطقة. تقع فيها المحكمة العدلية ومكاتب الإدارة المدنية ومقرُّ أمين البلدية والقائمقام، بالإضافة إلى مدرسة حكومية ثانوية بعدد مائة تلميذٍ ـ بناؤها عصريٌّ نظيفٌ

ومؤثَّث بذوقٍ وأناقة. أما الحِصْن فهو حديثٌ ويقع خارج الواحة، في الجهة الشمالية. قبل أن يتم بناؤه كانت الفرقة الصحراوية الثالثة متقوقعة في عشٍّ تُركيٍّ صغيرٍ قديم مبنيّ من اللِّبْن في نهاية القرن الفائت، أما الآن فهو يُستخدم بمثابة عنْبرٍ عسكريّ تُخزَن فيه أكياس الشعير.

حَدَثَ مرَّةً أنْ أصبحتُ شاهداً لعملية تفتيش واستطلاع قام بها في ذلك الحِصْن العتيقِ الملازم بونجيوانني على حين غفلةٍ طالبا منّي أنْ أرافقَه. ندخلُ من بابٍ منخفض: لا أثر للجندي المناوب.

ـ أينَ أنت أيها المناوب! ـ يصرخ بونجيوانني.

سكوتٌ. لولا «لولو» لما عثرنا على الجنديّ العربي. هيَ كَشَفَتْه. بدا طويل الذَّقْن ووقف باستعدادٍ مقدِّما التحية للملازم ومصرِّحا أنه كان مشغولاً بتنظيف المخازن.

ـ أنتَ كذَّاب، بالتأكيد كنتَ نائماً ـ ردَّ الملازم.

تبدأُ إجراءات التفتيش. أول كائن فوجئنا به في فناء الحصن كانت عنزة ثاغية مربوطة بالرسن ووقَعَ نَظَرُنا على ثلاثة رجال عرب مدنيين جالسين القرفصاء بجانب موقدٍ صغير كانوا يحضِّرون الشاي فوقه.

بلغَ غَضَبُ الضابط أَوْجَه، راح يزعق يوعد ويهدِّد الجندي بالقصاص والفَلَقة، أنَّه سيجعله يعضُّ أصابع الندم على تقاعسه في أداء واجباته العسكرية، ثم راح يشكو من كسل السكان المحليين وهو إحدى صفاتهم. كان الملازم يقوم بحركاتٍ مُضحكة، تجده مرَّةً بعصبية ينبش شُعيرات شاربه الشاحب والرفيع جدا، ومرَّة أخرى يمسح أنفه الطويلَ جداً بطريقة هزلية. وبالكاد كان أنفه كافياً لِيُزيِّن حتى وجْهَ سيرانو دي برجراك(١).

---

(١) Cyrano de Bergerac (٦/ ٣/ ١٦١٩ ـ ٢٨/ ٧/ ١٦٥٥) فيلسوف وشاعر وكاتب فرنسي كوميدي وخطيب مفوّه من طبقة النبلاء. كان يتميز بأنف طويل. ترجمت أعماله الأدبية إلى عدة لغات ومنها البولندية («ذلك العالم»، ١٩٦٥) كما صوّرت في أفلام تلفزيونية. هناك اليوم =

مهما يكن من أمرٍ فقد تعمَّقتْ أواصر الصداقة بيني وبين هذا الملازم المرِحِ ـ شربنا معاً الكثير من الخمر الممتاز، تناقشنا طويلاً في مواضيع الأدب والقضايا الإقليمية وفي حيثيات خدمته العسكرية في فزان والتي ـ كما صرّح مبتسماً ـ يمثّل فيها كل الوظائف الحساسة. فهو القائد العسكري لِنِصْفِ المقاطعة ووزير التموين والعمران. بكلمة: هو صاحب القرار النهائي في كلِّ أُمور براك. مهماته جعلته بمثابة الدكتاتور. هو الضابط الوحيد الذي يخدم هنا منذ البداية ولم يُنقَلْ إلى منطقة أخرى.

من بين المشاريع العمرانية التي يشرف عليها نذكر بناء طريقٍ في المكان الذي سيتقاطع فيه مع مجرى المياه. يقوم الآن بحَفْر قناةٍ من الإسمنت المسلح بعمق ثلاثة أمتارٍ تحت سطح الأرض. أمّا مهدي بن عبد الكريم ـ الرَّيِس المحليّ الذي يتحلى بحركاتٍ رزينة ويهتمُّ بهِنْدامه وأناقته ونظافة البرنس الذي ينصع بياضا ونظاراته دائماً تتدلى على نهاية أنْفِه ـ فلا يقتنع بنجاح هذا المشروع ويشكُّ بجدوى نتائج الأعمال الجارية.

ـ سَتَرَى بأنَّ المياه ستجري ليس وسط القناة كما يخطِّطُ الملازم، بل ستنهمر خارجه، على طرفيه، لأنَّ المعبر عميقٍ ـ يؤكِّد الرَّيِس بكلِّ إيمانٍ وثقةٍ بالنفس.

ـ أمَّا أنا فأقول لك يا رَّيِس بأنَّ المياه ستجري في القناة وستخرج من فتحتها الثانية. أنا مستعدٌّ حتى أن أراهنك على وجبة كسكسي ـ يبتسم العامل الإيطالي ذو الذقن الكثيف.

يبدو أنَّ هذا التصريح الجاف لمْ يحلُ للرَّيِس، بلْ أغْضَبه، إذْ مباشرةً غادر المكان بأُبَّهةٍ مألوفة وبعلامات كبرياء. ـ من الصعب أنْ تشرح له قاعدة الأواني المُسْتَطْرقة ـ علَّق العامل في محاولةٍ لتبرير موقفه.

= مطعم في مركز مدينة كراكوف البولندية يحمل اسمه واختير أفضل مطعم خلال سنتين متتاليتين ٢٠٠٣ ـ ٢٠٠٤ من قبل مجلة «نيوزويك».

قرَّرنا أنْ نتوجَّه مساءً نحو سبخة واقعة وراء الواحة يُقال أنَّها مالحةٌ. سبب رحلتنا كان طائر البَلَشُون الذي لَمحْته يُحلِّق في الصباح الباكر. ولكن بونجيوانني لا يريد أن يصدِّقني؛ يقول أنني أحمقٌ ومبالِغ ولا أريد إلاّ إهانته وإصابته بخيبة أمل. ولكنْ بعد أنْ أكَّدتُ له بأنَّ نفس الطائر كان قد اصطاده البروفيسور سكورتيسسي في غات، وافق على القيام بهذه الحملة ليمتحن حظَّه في الصيد. بدا حظُّ كِلينا سيِّئا: تهنا طويلا قبل أن نعثر على الطريق الصحيح. تزداد السماء احمرارا، تفرز النباتات الرطبة روائح تكاد تعيق التنفس وتشقُّ الهواءَ سَقْسَقة الجُدْجُد (صرَّات الليل) مع إيقاعٍ تناغمي لنهيقِ جماعي للحَمِير - هذه الحيوانات المخلصة هي الرفيق الثابت للفزَّانيين.

عثرنا أخيراً على البحيرة المنشودة، إلا أننا لم نجدْ أيَّ أثرٍ للبَلَشُون. كانت الضفادع تنقنق عالياً على وتيرةٍ واحدة. فَتَرَكْنا المكان واتجهنا نحو المقبرة الرابضة في حماده. كمْ بدتْ لنا حزينةً مُهمَلة وفقيرة! قد أُلْقِيت فوق الأضرحة طناجر مُكَسَّرة وترفرف هنا وهناك شارة بيضاء مربوطة بعصا - دلالة على أن المدفن تابعٌ لأحد المرابطين. إلى جانب المقبرة توجد ساحةٌ دائرية مغمورة بالمياه المالحة قطرها سبعة - ثمانية أمتارٍ. فيها - كما قيل لنا - قد غَرِقَ جَمَلٌ، لهذا راح العرب يحذِّروننا لئلا نقترب من حافَّة الغَمْر، إذْ عيون «الشيطان» لا تنعس، والشيطانُ يَكيد للناس ويترصَّد الفرصة ليسحب فريسته إلى تحتٍ. تمتدُّ خلْف الغمر سبخة جافة متشققة القعر؛ تعكس أشعة الشمس بياضَ كُتَلِ الأملاح المترسِّبة فوقها وتبدو شبيهةً بحقولنا (في بولندا) التي بعد فلاحتها في فصل الخريف تتجمَّد نتيجة البرد القارس وتُكسى بطبقةٍ من الصَّقيع.

ترحِّب بالعائدين إلى الحصن أنغامٌ مَرِحَة يبعثها الحاكي. تبيَّن أنَّ معلمَ المدرسة، اسمه مارينو، من صقلية يبحث ليس فقط عن وسيلةٍ للتسلية، بل يريد أنْ نُسرعَ خطانا لنشاركه بلعبة الورق. ما أنْ جلسنا معاً إلى الطاولة حتى راح الملازم - كعادته كلَّ يوم - يشاكس ويعاكس المعلم الهادئ الخلوق،

مُتَّهماً سكان جزيرته ـ صقلية ـ أنهم متخلفون عقلياً، قليلو الآداب، غير مهذَّبين، وكما في كلِّ يومٍ بقِيَ مارينو ملتزماً الصَّمت عاجزاً عن الدفاع عن نفسه وردِّ تهجُّمات الملازم تجاه جماعته.

في أحد الأيام بعد الظهر، حيث كان لهيب أشعة الشمس يكاد يحرق الأخضر واليابس، بَلَغنا نبأٌ مثيرٌ مفاده أنّه قد ظَهَرَت في سبها سيدةٌ اسمها de Lyee de Bellau، صحافية من باريس تعمل كمراسلة لجريدة "Paris -Midi". بدتْ امرأةً متقدِّمة في العمر وأُمّاً لابنين في سنِّ الرُّشْد، لكنَّها تتميَّز بنشاطٍ عالٍ ومزاج مرحٍ وخفَّةٍ في الحركات وهِمَّةٍ عارمة. الرحلة التي قامت بها لوحدها إلى فزان تدلُّ لا محال على شجاعتها وتمتُّعها بحالةٍ صحّيّةٍ ممتازة، بأنّها قادرة على مجابهة المخاطر وتحمُّل المتاعبَ بصبرٍ وإرادة. كان قدومها مفاجأةً كبيرة، أَحْدثَ ضجَّةً وولَّدَ موجةً من التساؤلات عند سكان فزان ـ امرأةٌ بيضاء في الواحة! راح الرجال من بعيد يلمحونها بحيرةٍ وتعجُّبٍ وشوق، أما في عيون النسوة فقد قرأتُ علاماتِ الحَسَدِ ربما بسبب حالتهن الاجتماعية، إذْ يُعامَلْنَ من قِبَل أزواجهن كسلعةٍ وقوةٍ عاملة. مكانهنَّ دائماً في الصفوف الخلفية وأحيانا ليست نادرة تسبقها حتى الحيوانات الداجنة في الدخول والخروج وحسن المعاملة. من الصعب التكهُّن بما يدور في أذهانِهِنَّ، خاصةً بعد أَنْ شاهدْنَ السينيور الملازم يقفز حول الضيف قفزاً، يُريها كلَّ شيءٍ ويُجيب عن كلِّ سؤالٍ، يدل ويشرح ويعطيها الأولويّة المُطْلقة في الحديث والسَّير والجلوس.

يبدو أنَّ السيدة الفرنسية تحبُّ الثرثرة مثل كلِّ بنات جلدتها، وعلاوةً على هذا فهي تميل للتسلُّط مثل أغلبية نسائنا البيض. ومن عادتها أن تسخِّر الناس لخدمتها وأنْ تشدَّ الرجال إلى نِير. الفرنسية تريد مشاهدة وسماع وفهم كلِّ شيءٍ لتستغل هذا لمصلحة جريدتها وتسلية قرّائها.

قرَّرنا أنْ نزور البيوت الصيفية التابعة للضباط. نجد في وسط الواحة ساحةً تبلغ مساحتها هكتارا، محاطةً بسياجٍ من سعف النخيل، بُنِيت فيها

بيوت صغيرة ترابية مُغطّاة بسقوفٍ عريضة من القشّ. أينما وجّهتَ النظر تعاين حدائقَ مزروعةً بالورود وأخرى بالخضروات أو بالأشجار المُثمرة وإلى جانبها حظائر للماعز والغنم والدواجن. أثار دخولُنا القلق عند مجموعة من الدجاج الراقدات على طبقة من تبن الشعير كانت بصبرٍ تحمي وتُدْفِيء البَيْضَ حِرْصاً على ديمومة الأجيال اللاحقة. ولفتَ نظرَنا زَوْجٌ من الماعز وزَوْجٌ من الأيّلة مع صغارهما. حظيرتهما مفصولة إلى حُجْرَتين، إذْ عُزِلت الذُّكور عن بقية العائلة لئلا تفتك بالأفراخ التي تبلغ من العمر أسبوعين. بدت الافراخ مُطيعة واجتماعية، لمْ تمانع أنْ نلمسَها ونداعبَها وكذلك أنْ نحملَها على أيدينا. كانت أمهاتها تحدِّق بعيون عريضة مليئة بعبارات الفزع والحزن. في لحظةٍ من اللحظات هرع أحدُ الأفراخ مُسرعاً نحو أُمِّهِ وبدأ يمصُّ الحليب باهتياجٍ وولعٍ رافعا قوائمَه الأماميةَ باستمرارٍ، أما أُمُّه فراحت تبادلُه الحنانَ لاحسة جِلْدَ ظهره.

إزاءَ هذا المشهد الجميل أَخْرَجت السيدة «ده بيللاو» كرّاساً من جيبها وراحت بسرعة تخطخط المشهد بتفاصيله. كان كرّاسها مليئاً بشتّى الرسومات المنجَزة بدقّةٍ متناهية، تمثّل حيواناتٍ نادرة وأنماطا مختلفة من الوجوه البشرية صَوَّرتْها على الورق بيدٍ ماهرة وخِبْرةٍ عالية بأسرار الرَّسم. وأخيراً أَخْبَرَتْنا المدام بأنها نحّاتةٌ أيضاً وقد زاولت هذه المهنة في روما لمدة ثلاث سنواتٍ بمَنْحةٍ من أكاديمية الفنون الفرنسية.

غادرْنا المقرَّ الصيفيّ. قطعْنا الواحة وتسلَّقْنا على قمة كثيبٍ رمليّ كانت تتسابق فوق سطحه خنافس الرَّوث ذوي الحجم الكبير نسبيا. لونها أسود وأرجلها طويلة ـ نلتقط اثنين منها، إذْ خطرتْ على بالِنا فكرة تنظيم مبارزةٍ بينهما؛ قمْنا بتحديد المسافة المطلوبة ثم رحْنا تارةَ نطاردها بِعِيدانٍ من القشّ وتارةً أخرى نشجّعها بإطلاق هتافاتٍ عالية. هذا، وقد قرّر بونجيوانني أنْ يُسمِّيَ عدَّاءَه Guerra ـ البطل الأول في سباق الدراجات في إيطاليا، أما أنا

ففضَّلتُ أنْ أطلق على عدَّائي اسم كوسُتشينسكي[1]. لا أعرف لماذا أردْنا أنْ تكتسب لعبتنا طابع الهازارد، حتى هنا في الصحراء الجرداء وبحضور جمهورٍ من الخنافس المُضحكة. انفجرتْ في كلٍّ منّا طوعاً الاعتبارات والطموحات الوطنية. نراقب اجتهادات حشرتينا بتلّهف. يبدو أن Guerra الغليظ ذا الجسم المتشقق قد خارت قواه بسرعة، فتوقَّف في منتصف الطريق ورفض الاستمرار بالزَّحف على الرغم من محاولات الترغيب والإقناع والتهديد، بينما حَشَرَتي النّاعمة والنحيفة Kusy[2] فقد بذلتْ جهوداً تُشكر عليها ـ طموحها جعلها تصل إلى نهاية المطاف بسلامةٍ. على إثر هذه الخسارة تغيَّرت ملامح وجهِ الملازم غُبْناً وغضبا، ثم أعلن أنّه لا يعترف بنتائج المسابقة، مُدَّعياً أنَّ خُنفُسي انطلق قبل سماع صوت صفّارة الحَكَمِ. اتَّفقْنا على إعادة المسابقة، إلا أنَّ الحشراتِ أعلنت تمرُّدَها واختفتْ في الرَّمل.

عليَّ أنْ أعترف بأنَّ الملازم يحاول بشتَّى الطُّرُق أنْ يغمرني بكَرَمه لتكون إقامتي بين ظهرانيه مثمرةً ومفيدةً ومتنوّعة الإنطباعات، فراح يتفنَّن باستغلال كلِّ ساعة فراغٍ ليعرِّفني على طابع الحياة في براك والضاحية التابعة لها. ها هو يقترح الانطلاق في حمْلة صيد بنات آوى التي تُسْمِعُنا نباحَها المُدويَّ في الوادي كلَّ مساءٍ. وافقتُ مشكوراً. نرْكبُ سيارة شحنٍ بصحبة بعض العرب، محمَّلين بخَيْمةٍ وباحتياطيّ من المواد الغذائية. ولم ننس السلاح أيضاً ولا «لولو» ـ مرافقنا الأمين الدائم الذي لا يُعَوَّضُ. طريقُنا باتجاه الشرق. نلتفُّ

---

(١) Janusz Kusoci?ski (١٥/ ١/ ١٩٠٧ ـ ٢١/ ٦/ ١٩٤٠). عدّاء بولندي مشهور. شارك في الدورة العاشرة للألعاب الألمبية في لوس أنجلس سنة ١٩٣٢ وأحرز الميدالية الذهبية في الركض مسافة عشرة آلاف متر وحطم القياس العالمي في الركض على مسافة ٣ كم. وفي سنة ١٩٣٤ نال الميدالية الفضية في الركض على مسافة خمسة كيلومترات في بطولة أوروبا. كان أسرع عداء في بولندا خلال ثمان سنوات متتالية لمسافة ثمنمائة متر وعشرة كيلومترات. بعد احتلال بولندا من قبل النازيين تم القبض عليه وإعدامه. وتخليدا لذكراه وضع اسمه على ألعاب القوى التي تقام كل عام في بولندا.

(٢) تصغير اسم كوسُتشينسكي.

حول نجْدٍ مرتفعٍ تتخلَّله نتوءاتٌ صخرية ثم نعْبر واحةً صغيرة تُدعى «اعصيده» وأخيراً ندخل في سهلٍ واسع أصفر اللون شاحبه، مكسوٌّ بالرمال الخشنة على مدِّ البَصَرِ. أحدِّق بالأُفُق المتباعد بحركاتٍ مترنِّحة، أستسلم خشوعاً أمام شينكيفيتش العظيم الذي ترَكَ لنا وصْفاً شاعريّاً بدقَّةٍ فنّيّةٍ متناهية متغنّيًا بجمال الصحراء وسِحْرِ صُوَرِها وعُمْقِ كنهها[1].

ها قد وصلْنا إلى هدفنا المنشود بعد ساعةٍ من السفر. أمامنا مجموعاتٌ صغيرة من النخيل السامقة شموخاً فوق هضبةٍ في الوادي. يُسرع المرافقون العرب بنَصْبِ الخَيْمَة، أمّا نحن فقمْنا برحلةٍ استطلاعية في الواحة. تعيش هنا عائلةٌ واحدة قوامُها عدة أفرادٍ ـ يملكون زريبه مع تمورٍ وبئرٍ وقليلٍ من الشعير، أي كلّ ما يحتاجه الإنسان الصحراوي في حياته اليومية. المساءُ فاتنٌ يعجز القلم واللسان عن وصف جماله الأخّاذ. تزداد السماء زرْقةً صافية وتكاد الشمس في انحدارها التناغمي التغازلي تحترق بأشعةٍ أرجوانية وهي تنزلق ببطءٍ لتختفيَ خلف صفحة سطحٍ ضخم من الأفق الشاحب. تعتدل ألوان المعمورة، تلين حزناً على غياب مليك الكون، تملأُ السماء الغربية أطياف وردية بنبَراتٍ خفيفة لأحجار الأُوبال الكريمة. وبعد كلِّ هذا يحلُّ غَسَقٌ قصيرُ العمْر ثم ليلٌ مُعتم يحتضن بلطفٍ وهدوءٍ ولغزيَّةٍ واحةَ «دير» في وادي الشاطىء.

حان أوان العشاء: معلَّبات مع خبْز. . . وخمرٍ. نُلقي أجسامَنا على الأرض ونترقَّب ظهور بناتِ آوى. مِنْ أجْلِها جئْنا!. بعد انتظارٍ طويل يصلنا على حين غفلةٍ نهيقٌ مُرْعبٌ مروّعٌ يشقُّ سكوت الليل.

ـ يبدو أنَّ الحمار قد أحسَّ بقدوم بنت آوى ـ يقفز بونجيوانني على قدميه.

نمسكُ البنادق ونعْدو ركْضاً. نلفُّ حول السياج ونقف باستعدادٍ في المكان الذي منه تعالى النهيق. نلقِّم السلاح. يمضي الوقت دون أن نلمح أثرا لبنت

---

(١) مرّ تعريف شِنكيفيتش في الحاشية ١٦ من الفصل الرابع والحاشية ٢ من الفصل الثاني عشر.

آوى. وأخيرا نسمع صوت حَرَكةٍ، وإذ بالكلب «لولو» يهرع نحونا بنباح يدلُّ على الفَرَح. تأكَّدْنا أنّه هو كان سبب تخويف الحمار.

نعود إلى خَيْمَتنا بعد أَنْ أُصِبْنا بخيبة أمَلٍ. ها هي الظُّلمات تتبدَّد: قَمَرٌ ضخمٌ يغادر الأفق وآلافٌ مؤلَّفة من النجوم ترسل هالةً من الضوء الأزرق الضارب إلى الخضرة. أتمدَّد مسترخي الأعصاب وأحدِّق بصفحة السماء. أما رفاقي فراحوا بشغفٍ وولعٍ وانفعالٍ يتناقشون حول موضوعٍ يبدو أنهم يهتمون به من باب الهواية، ألا وهو: الجبال.

بونجيوانني هو ابن جبال بيمونت. كان جندياً برتبة رقيب أول لفرقة الرماية في جبال الألب. أما المرأة الفرنسية فقد اعتادت منذ سنواتٍ أنْ تقضي كلَّ عطلةٍ صيفية في الاستجمام تحت خَيْمةٍ في الجبال. راحت تسرد حكايات مغامراتها الفريدة، أنها قبل اندلاع الحرب الأوروبية سقطت في وهدٍ في الجبال البيرينيه[1] وتكسَّرت قدماها وإحدى يديها وأُصيبت برضوض في رأسها. بأعجوبة تم إنقاذها وربط الأجزاء المتفتتة، إلا أنَّ هذا الحادث لمْ يثنِ عزيمتها ولمْ يُطفيء شغفها العارم بالرحلات الجبلية. أَسْمَعُهُما يعدِّدان بأسلوبٍ ورعٍ وخشوعيٍّ أسماء عشرات القمم الشاهقة والمضايق والسهول، كمن يتعبَّد للمقدسات.

ـ أنا أفضِّل البحرَ ولا أرضَى عنه بديلا ـ أخيراً نطقْتُها ـ فالبحر في تغيُّر أبديٍّ. هو خلاّبٌ دوماً وفاتنٌ. يعطي الإنسانَ راحةً بَدَنية كاملة كالبلسم العجيب الذي يكْوي جراح الروح وآلام النفس وحَسَراتِ القلب. وهذا الانتظار ثم الانتظار لمفاجأةٍ ما في الأفق البعيد، حيث تتداخل المياه بالسماء اللامتناهية

---

(١) إحدى أجمل السلاسل الجبلية العالية في أوروبا. تقع بين اسبانيا وفرنسا وتشمل أمارة أندورا. تمتد من المحيط الاطلسي في الشمال الغربي إلى البحر الأبيض المتوسط في الجنوب الشرقي بطول ٤٥٠ كم وعرض ٥٠ ـ ١٤٠ كم. ارتفاع أعلى قمة في اسبانيا يبلغ ٣٤٠٤ م عن سطح البحر، في فرنسا ـ ٣٢٩٨ م وفي أندورا ٢٩٤٦ م.

مشكّلةً قطعة واحدة بدون أبعادٍ وتحتفل الانطباعات في عرسها. يا له من شعور كامل بالحرية الحقيقية. . . !

ما إنْ أنهَيتُ كلامي حتى راحا بكل خشونة يعارضانني الرأي! أين الحرية التي تشعر بها وأنت مسجون في سفينة ضيِّقة، وماذا عن الملح الذي يتغلغل بالجسم كما تُملّح الأسماك؟ أليس كلُّ جبلٍ لُغزاً كاملا بحدِّ ذاته؟! فَضَّلتُ السكوت إزاء هذا التهجُّم وما كان عليَّ إلاّ أن أستسلم: قوة الشرِّ تغلب الوحيد!

حوالي الثالثة ليلاً سمعنا صوت بوقٍ ينبعث من سيارة شحنٍ قادمة باتجاهنا. يبدو أن بنات آوى رفضت مقابلتنا.

بدلاً منها أقبل الموت الذي انتشل في لحظة واحدة ثلاث ضحايا. توفيَ بمرض السرطان عسكريٌّ أسمر البشرة مع امرأتين سوداوين من فزان ـ غَرقتا في خزّان الماء. حلَّ في براك يوم أسود. فاجعة حقيقية. كان لها وقْعٌ مؤلمٌ في ضمير بونجيوانني الذي تجده يتَّقد غضباً كالمسعور. طال كثيرا انتظار الملازم لوصول الطبيب، فأبْرَق إلى سبها لاعنا كلَّ شيءٍ وكلَّ إنسانٍ ـ يُثَنّي على هذا مارينو موضّحاً أنَّ الغارقتين لوَّثتا نبْعَ المياه التي منها يشرب طلاب المدرسة. تبدو جثّتا المرأتين في حالة يُرثى لها، خاصة الأصغر سنّاً بسبب المدة التي بقيت فيها في المياه: عدة أيام. يقال أنها كانت مصابة بمرضٍ عقلي. خرجت من البيت ليلاً عندما كان باقي أفراد عائلتها نائمين. ولم تعدْ. وبما أنّه لم تكنْ هذه المرّة الأولى لفرارها من البيت ليلاً، بل هي عادتها شبه الثابتة التي تتكرر بين فترة وأخرى، لهذا لمْ تهتمُّ العائلة كثيراً بأمر غيابها ولمْ تحرّك ساكناً لتنظيم حملةٍ بحثٍ عنها ـ ولكن ما أنْ غرقت امرأةٌ أخرى وكانت كبيرة في السنِّ حتى هرع الناس ليتفقّدوا مصيرها. وعند العثور عليها في خزان الماء وجدوا فيه أيضاً ـ عن طريق الصدفة ـ تلك المُعاقة عقلياً. أما العسكري فلا أحد يريد لمْسَه، لا بلْ يتجنّبون حتى الاقتراب منه، لاعتقادهم أنَّ مرضَ السرطان ينتقل

عن طريق العدوى. وعلاوةً على هذا تُعتبر الجُثَّة - باعتقاد المسلمين - من المحرّمات النَّجِسة. وأخيرا قرّر الملازم أنْ يأخذ القضية على عاتقه، فأعطى أمراً عسكريا للاهتمام بالميِّت.

اجتمع سكان الواحة عن بكْرَة أبيهم حيث طُرِحت جثَّتي الغريقتين. وقَدِمت حتى النسوة العربيات زوجات الجنود (العسكر) الساكنات تحت الخِيَم في معسكرٍ قريب. المعسكر محاطٌ بسياجٍ من الأسلاك الشائكة ويُمنع أيّ رَجُلٍ أبيض من عبور حدوده. من تحت الستائر تلمع عيونهن المتَّقدة بياضا والمتعطشة للمشاركة بِجَمْهرةٍ أو حَدَثٍ يحمل علامات الانفعال والاهتياج. راحت السيّدة دي بيللاو تملأ صفحاتٍ جديدة من كرّاستها وبعصبيّة تعضّ قلمَها وتحرّك حاجبَيْها. يا ليت شعري، سيثير هذا الخبر مشاعرَ قرّاء جريدتها Paris-Midi وربَّما سيحمل عنواناً مثل Un cadavre mysterieux en Fezzan أو شبيها له.

بعد أنْ أمَرَ بونجيواني بدَفْنِ الموتى على مسئوليته وصلَ الطبيب المُنْتَظَر de Quattro الذي بهدوءٍ تقبّل التوبيخات المرّة من الملازم وتأنيباته بسبب تأخُّره في القدوم. شمَّر الطبيب عن ساعِدَي العمل مباشرة وأعدَّ تقريراً قانونيّاً مُصدِّقاً بأنَّ ما جرى كان حادثا، ثم - بفكاهةٍ ومَرِحٍ - جلس إلى طاولة العشاء.

بعد أنْ سدَّ طبيبُنا جوعه تمدَّدنا مسترخين الأجسام على أسرَّة حدائق مركّبة من قماش الكتّان. رحنا نتجاذب أطراف الحديث. سألني de Quattro دون أية تمهيدات - هل أنا مُلَقَّحٌ ضد مرض الكوليرا.

- لا - أجبته باندهاشٍ.

- لا! - كيف هذا، ألا تخشى مرضَي التيفوس والجدري؟

- لا، قطعاً.

- إذن لا خيار أمامك. التلقيح ضروري. سأكون غداً صباحاً في انتظار السيّد في الحُجْرة الطبيّة - يطلب منّي بصيغة الأمر.

ـ حلّ عنّي، يا هذا! طلبُك لن يتحقق أبداً ـ أجبته بغضبٍ ساخط وتهيّج.

ـ يتمنى طبيبُنا إجراء تشريح كلِّ جسم ثم تحويله إلى مُخَلّلاتٍ بعد غطسه بالكحول ـ علّق بونجيوانني مُبْتَسماً.

يحدِّق الطبيب بنظراتٍ عميقة فاحصة تكاد تخترق جسمي ثم سأل بإلحاحٍ عن الأمراض التي وقعتُ بها طول أيام حياتي.

ولكي أطفيَ ظمأه وأتحرَّر من مخالبه قلتُ له أنني كنت مرّة قد أُصِبْتُ بالحمّى الاستوائية في مدينة ريودي جانيرو وتعرَّضْتُ بعدها لمرضٍ خلال رحلةٍ في الباخرة عبر المحيط الأطلسي. ما أنْ سمع de Quattro تصريحي قفز فرحاً كمن يعثر على ضالَّته.

ـ إذنْ! ألمْ أقلْ لك منذ البداية أنّه عليك أنْ تفحصَ جسمك؟ كنتُ واثقاً أنَّك تشكو مِنْ خللٍ في حالتك الصحّيّة وتريد أنْ تُخْفيه. هذا سبب الرَّعشة في يدَيْك والذبول في مُقْلَتَيْكَ والشحوب في نظرِك. . . . ألا تحسُّ بهذا؟ غداً سنطرحك على السرير.

انتابني شعورٌ غريب مع بعض اليأس والقنوط، إذْ كنت لتوِّي مقتنعاً أنني مُعافًى وأتمتَّع بكامل الصحّة، أما الآن ـ ربّما بتأثيرٍ إيحائيّ للطبيب ـ داهمني فجأةً شبه ألمٍ في الرأس مع ارتخاءٍ في الجسم والمفاصل، لا بل يداي المسترخيتان الهادئتان على الركبتين راحتا ترجفان. ليت شعري، فقد تسلَّط عليَّ إحساسٌ مزعج.

ـ لتكنْ لعنةُ الشيطان عليكَ يا هذا ـ وأخيراً تفجَّرتُ غضباً ـ هل لا توجد عند السيّد مواضيع أخرى للحديث.

ـ أنا لا أفهم ردّ فعلك هذا ـ يجيب de Quattro فنحن نتحدث بلطافة ليس إلاّ. . .

ـ ما لي أراك شاحبَ اللَّون: كئيبا، واهن العزيمة: مغموما ـ يدلي «مارينو»

بِدَلْوِهِ في بئر بُؤْسِي مضيفاً هو الآخر إلى هُمومي هُموما. يبدو أنَّ «إسكولاب»[1] المحترم قد تنبّأَ لك بالموت العاجل أو ـ في أحسن الأحوال ـ بمرضٍ خطرٍ. لا تهتمّ يا هذا ولا بكلمةٍ واحدة ممّا قاله الطبيب. فلو كانت تكهُّناته قد تحقَّقت، لكنتُ منذ سنتين في عداد الأرضِيِّين، أتغذّى بالرمل، ولكن ـ كما ترى ـ مازلتُ حيّاً أُرزق، أمشي وأزرع المعرفة في الرؤوس المُغْلقة للفزّانيِّين.

يبدو أن مداخلة «مارينو» أغاظت de Quattro. جعله هذا التصريح يدير ظهره حالا، فأخرج سيجارةً من نوع «تريبولي» ووضعها في فمه ليُحاطَ بسحابةٍ من الدخان الأسود النَّتِن.

---

(١) Eskulap عند الرومان، Asklepios عند الإغريق ـ إله الطب. ولإعطاء كلِّ ذي حقٍّ حقَّه تجدر الإشارة أنّ رمز الأفعى الذي اعتمده هذا الإله (والذي يُستخدم اليوم كعلامة تزين الصيدليات) نَجِدُهُ عند أقدم سكان بلاد مابين النهرين (دجلة والفرات) من السومريين والبابليين والآشوريين قبل أن يقتبسه اسكلييوس بألفيّ عامٍ.

[17]

الاحتفالات بالعيد الكبير

في قلْب الواحة وفوق هضبةٍ صغيرة يقع ضريحُ أحدِ الأولياء «القدِّيسين» يُدعى المرابط عبد الجليل. تمرُّ إلى جانبه طريقٌ تتراءى خلفها حقولٌ مزروعة بنبات الشعير بتأنٍّ وعناية وتحيط بها زرائب تُظلِّلها عدةُ نخلاتٍ. تُعتبر هذه الأملاك تابعةً للوليّ القدّيس ويُخصَّص الدخلُ الذي تعطيه للاعتناء بالضريح وشراء شاراتٍ بيضاء تُلَوِّنه وترفرف دائماً فوقه.

نحن في فترة الظُّهر. تساوي الحرارة في الظلِّ خمسين درجة مئوية فوق الصفر. يتساقط من السماء لهيبٌ من النار بتموّجاتٍ صفراء يكاد يحرق الأخضر واليابس. يلمع كلُّ شيءٍ بياضاً ناصعاً كما في الأتون. جفَّت وتقلَّصت سُعف النخيل، شَحُبَ لَوْنُها وتلاشى ظِلُّها، ذَبلَت كذلك واضْمحلَّت أوراق الخضروات ومعها جذوع الشعير الذي الْتَوت هيئتها العمودية وتكاد تصل الأرض. تبدو الواحة كأنها تلفظ أنفاسَها الأخيرة. اخْتمَت الحيواناتُ تحت ظلِّ الأسطح واخْتفَى الناس في بيوتهم حيث استلقوا للراحة بعد أنْ نضبَت قواهم وامتصَّت حرارة الشمس نشاطَهم. أمشي طائشاً في الأزقَّة الفارغة وألقي نظري على كلِّ شيءٍ حتى راح العَرَق يتصبُّب منْ جسمي. وأخيرا وصلتُ إلى حالةٍ يُرثى لها كَمَنْ فَقَدَ وَعْيَه أو أصيب بالغَثَيان فسقطتُ أرضاً عند قاعدة ضريح المرابط. لستُ هنا وحيداً تحت وهج الشمس الحارقة. نحن اثنان: أنا مَنْ يمثِّلُ عالَمَ الأحياء والقديسُ عبد الجليل الراقد تحت حَجَرةٍ بيضاء. علامة

الوصْلِ بيننا أسرابُ الذبابِ الأسود الذي يبعث الازدراء في النفس؛ هو الرفيق المخلص للإنسان في حياته ولا يرضى مفارقته حتى بعد مماته. تندفع هذه الحشرات اللعينة في عيوني وفمي وأُذنَيَّ. تهاجمني من كلِّ جهةٍ بلا هوادة ولا رحمة ـ احتدمتْ بيني وبينها صولاتٌ وجولات وأخيرا يئستُ من الدفاع عن نفسي فتراجعتُ مستسلماً بعد أنْ خارت قوايَ. تمدَّدتُ على التراب بدون حركةٍ كالجثَّةِ الهامدة بلا روحٍ، كلقمةً سائغةً لهذه الحشرات البغيضة المقرفة والمثيرة للاشمئزاز.

توقَّفتِ الحركة في واحة براك. أفْقَدَها الحرُّ الرهيب طابَعها كمركزٍ يطفح حيوية وسط القفْر المحيط بها ـ بقيتْ حقيقةً جغرافيةً ليس إلا، نقطةً استراتيجيةً في خرائط العالم، ربما في هذه اللحظة وضع إصبعه عليها إنسانٌ ما مِنْ هواةِ المغامرات السياحية ولسان حاله يقول: سأقصد هذا المكانَ حيث تسيل المياه الصافية ويشهق النخيل وتتوفر شروط الحياة للإنسان الأبيض.

ما أهميةُ براك لإيطالية؟ بالتأكيد راودَ هذا التساؤلُ أذهانَ سكانها الأصليين. عندما شاهدوا قوافل الجيش الإيطالي بقيادة «مياني» تتوغل في الواحة راحت عيونُهم المرتابة تستفسر:

ـ ماذا تريدون؟ عن ماذا تبحثون في هذه الأرض المنسيّة حتى من قِبَل الله، الأرض التي سبق للحكومة العثمانية أنْ امتصَّت كلَّ ما فيها من خيراتٍ؟ ماذا تُرِكَ فيها ذات قيمةٍ لتأخذونه أنتم؟ أبقايا شعيرٍ وتمرٍ، أمْ النسوة المتعَبات المنهَكات الذابلات؟ ـ هذا كلُّ ما نملكه ولا نملك شيئا غيره. . .

وبالتأكيد كان استغرابهم شديداً عندما لاحظوا أنَّ المستعمرين لم يسلبوا شيئاً ولم يطلبوا شيئاً، بلْ شمَّروا عن سواعد العمل. كانت أول مبادرة لهم التحكُّمِ بمصادر المياه لمنْع هدرِها وتمكين استغلالها بحكمة وإدارة وفقا لمبادىء الاقتصاد. فقاموا ببناء خزانات إسمنتية بجوار المنابع لتوفير احتياطيّ مناسب من المياه. هرعوا يوزعون على المواطنين بدون استثناء بذور الخضروات وشتلات

الأشجار المثمرة ولم ينسوا ترميم المسجد وتجديد البيوت الطينية. أقاموا حصنا وبنوا مدرسة. وليس من الصعب أنْ نتصور مدى أهمية هذه المشاريع العمرانية لسكان الواحة الفقراء وكمْ كانت ضرورية لهم. وهكذا تدريجياً اكتسب المستعمرون ثقةَ ورضى المواطنين، يقصدونهم طلباً للنصائح والأدوية، بدأوا يرسلون أولادهم إلى المدرسة. عندما يلتقون اليوم بضابطٍ إيطاليّ في المدينة يعاملونه بلطفٍ وابتسامة وهتافات : salam, signor rumi

كَوْن واحة براك واقعةً تحت تصرّف الإيطاليين لا يعطيهم أيةَ فوائد مادية ملموسة، إنما تدخل في الحسبان اعتبارات ذاتية أخرى، ربّما أهم، ألا وهي تحقيقُ معادلة الشعور بالعظمة وترسيخُ الثقة بالنفوذ السياسي وتأمينُ القدرة على المبادرة التكتيكية عند الحاجة وتطويقُ الصحراء وشدُّ القبضة على عصاباتها البدوية المسلحة التي غالبا ما تهدّد راحة وأملاك سكانِ المدنِ. وبالإضافة إلى هذا فإنَّ كلاً من براك ومرزق وغات تقع على درب القوافل الكبيرة التي اعتادت أن تسلك طريق بحيرة تشاد ـ البحر الأبيض المتوسط، السودان ـ الجزائر ـ تونس، الجزائر ـ مصر، أيْ المحطّات الأساسية التي تُفرَغ وتُحمَّل فيها البضاعاتُ. فالطليان إذن، بِفَرْضِ هيمنتهم على هذه الواحات، سيراقبون نبضَ التجارة الصحراوية في ليبيا قاطبةً. وقد أيقظتْ فيهم هذه الطموحاتُ فكرةَ مشروع بناء خط حديدي استراتيجي يربط طرابلس في أقصى الشمال ببراك انحداراً، وبراك بسبها، وسبها بمرزق، ومرزق بتومّو في أقصى الجنوب، وإلى بحيرة تشاد. وكانت إيطاليا تبغي منافسة خطة السكة الحديدية عبر الصحراء المزمع مدّها من قِبَل فرنسا ابتداءً من مدينة الجزائر.

يقترب يوم الخامس والعشرين من شهر آذار، مارس (الربيع)، يوم العيد الكبير. يخيِّم داخل الواحة جوٌّ من الهيجان والانفعال. في كل زاوية ومكان نجري على قدمٍ وساق أعمالُ التنظيف ومسحِ الأرصفة والشوارع والساحات. تُلاحَظ هذه الحركة خاصة بين النسوة، فتراهنَّ منهمكاتٍ بحياكة برانس جديدة

في ورشات نسيج تحوي أنوالاَ بدائية أو تعجنَّ الطِّينَ ليُحَضِّرْنَ منه أواني مطبخيةً خشنة المنظر بعد تجفيفها تحت أشعة الشمس ستُطْهَى فيها أكلاتُ العيد اللذيذة: كسكسي وبيلاف، إذ قامت كلُّ عائلة بتسْمِين ربيطة من الغنم لتُنْحر صبيحةَ يوم العيد طبقا للطقوس الدارجة المراعاة هنا.

يقصد الشيخُ المنذور (المرابط في الواحة) الملازمَ عشيّةِ يوم العيد. يطلبُ منه الموافقةَ على تنظيم الاحتفالات الدينية في ساحة الحصن الواسعة. حصل على الرُّخصة مباشرة وبدون تردّد.

وما يلفت نظرَ القاصي والداني الاهتمامُ الكبيرُ للنسوة في هذه المناسبة بهيئتهنَّ الخارجية، فتراهنَّ بعنايةٍ لا مثيل لها يعزْنَ جلَّ الاهتمام لمسألةِ الهندام والزينة. تريد كلُّ واحدة أن تبدو في هذا اليوم الهام بهيّةَ الطلعة، فاتنةً وأنيقةً، تتباهى بجمالها لتوقظ إعجابَ الرجال وتولد الحسَدَ عند رفيقاتها. ليت شعري كمْ هي مضنية عملياتُ التجميل التي تتعرض لها الأيادي والأرجل باستخدام الحناء ذات اللون القرميدي. والأكثر غرابةً أنَّ الجسم بكامله يُلَفُّ ـ حسب الطريقة المألوفة الشديدة التعقيد ـ بطبقاتٍ من الضّماد مع تَرْك بعض الأمكنة المكشوفة التي ستُغَطّى فيما بعد بالحناء المسحوقة المخلوطة بزيت النخيل. وهذا كله سيُربَطُ بإحكامٍ بواسطة أشرطة من القماش الوَسِخِ. لا تَستطيع المرأةُ أنْ تقوم بكلِّ العمليات بنفسها، لهذا تسارع الكبيراتُ في السنِّ (يستخدم الكاتب تعبير «عفريتات») بخدمةِ الفتيات اللاتي تبدو أيديهنَّ وأرجلهنَّ كأنها قد وُضِعت بقالبٍ من الجبس وبهذا الثِّقْل يرقدنَ حتى الصباح، إذْ تحتاج الحناء وقتا حتى تجفّ. بعد خلْعِ الضّماد تبقى في الأمكنة التي لَمسْتها الحناء بقعٌ حمراءُ مطبوعةٌ على الجلد وموزَّعةٌ بتناسقٍ. أعاين الآن إحدى أميرات الحسن من العرْق الأسود. يخوّلها جمالُها النادرُ الخلاّبُ لتُعْرِضَ نفسَها بكلِّ قناعةٍ وثقةٍ وإيمان أمام حكْم عيون ممثّليّ الجنس الخشن مهما كان ذوقهم مُرهفاً وتقييمهم قاسياَ، سيّما وأنَّ شَعْرها أيضا قد طُلي بأناقة ودُهِن بالزيوت.

يحلُّ اليوم الموعود. يوقظني الجندي الذي يشرف على خدمتي وراحتي في السابعة صباحا بقسوةٍ وإصرار. هو بربريٌّ من غريان اسمه أحمد بن محمد. يطلب مني أن آخذ جهاز تصويري حالاً والتقطَ له صورةً بدون مماطلة ـ تخليدا للمناسبة التي فيها حلق شَعْره وتزيَّن بأفخر الألبسة.

أتجوّلُ في الواحة. تخيِّمُ أجواءُ العيد في كلِّ مكانٍ. أرى الرجالَ لابسين برانس تلمع بياضا ورؤوسهم مغطاةٌ بطرابيش عُلِّقت بها خصْلة من الشراشيب السوداء. يتحركون برزانة وكبرياء وعزة نفس. ولا تقل النساء عنهم أناقةً. أجسامهنَّ ملفوفة بمناديل ملوَّنة مزركشة وقد تزيَّنَّ بعددٍ كبير من الحلي الفضية: حلقات حول المعاصم والأقدام، سلاسل غليظة طويلة معلَّقة في الرقاب، أقراط في الآذان، لا تفارق محياهنَّ علاماتُ التباهي، تتطايرُ من عيونهنَّ ومْضاتُ ضوء. أقتربُ نحوهنَّ مبتسماً، كلّي رغبة وأملا في الحديث معهنَّ. يزْعَقْنَ: barra rumi، إلا أنَّ حركاتهنَّ الناعمة توحي ـ والحق يقال ـ بالتملّقِ والدَّلالِ، تطفح غروراً وغِنْجاً.

قد رُبِطتْ أمامَ البيوت والأكواخ والزرائب الأغنامُ الدَّسِمة المنذورةُ لتُقَدَّم ذبِيحةً لله. ستتلذَذ بطعمها ألسنة وأغشيةُ أفواهِ المؤمنين به والمخلصين له. ينتظر كلُّ أفرادِ العائلة لحظةَ مراسيم الذَّبح الطقسي بصمتٍ وفارغ صبرٍ. أقفُ أمام أحدِ البيوت في قرية الزاوية وأترقّبُ سيْرَ التحضيرات. هنا طفلٌ صغيرٌ مُمسكٌ رأس حبلٍ منسوج من سعف النخيل قد رُبط به حيوانٌ مُساق للنَّحْر. وهناك مجموعة من النساء المنهمكات بِحَفر حُفْرَةٍ في الرَّمْل سَيُسيل فيها الدَّمُ بعد قَطْع حنجرة الحيوان. هَدْرُ الدم ممنوعٌ ولا يُسمح لِقَطْرةٍ واحدة أنْ تذهب هباءً أو تُقْذَفَ جانباً. أعاين رجلاً في مقتبل العمر، أبيضَ الشعر، مرتدياً برنسا بلون بنّيّ يَسِنُّ السكين بحَجَرةٍ مُسطَّحة.

أفضِّل أنْ أتفرَّجَ على هذا المشهد من بعيدٍ. مُجرَّد لَمْسِي للنعجة أوْ حتى إذا تطايرتْ عليَّ قطرةٌ واحدة من دَمِها سيجعل الحيوانَ مُحرَّما كوني «كافراً». وهذا

بالتالي يعني إلغاء المأدبة اللذيذة المُنتظَرة طويلاً. خوفاً من حدوث شيءٍ من هذا القبيل أراهم يلوِّحون بأياديهم بإشاراتٍ إيمائية خفيفة مفهومة ـ ابتعدتُ أكثر. بدأتْ الطقوس المترقّبة. يقْلِبون النَّعجة على جانبها بعد توجيه رأسِها نحو مكة ثم يضغطون برُكَبِهم بقوة على جسمها المرتبك وهي تطلق ثغاءً موجعاً ـ يَفُوه الرجل العجوز ببعض الكلمات الرسمية سمعتُ منها عبارةً تتكرَّر باستمرارٍ ـ «الله». يوقف الصلاة في إحدى اللحظات، يركع على ركبتيه ويبدأ بنَحر رَقَبَةِ الضحيّة بتأنٍّ. استمرَّ في هذا حتى وصول الْمُوس إلى حلقات العمود الفقري. أحدثَ هذا صوتا شبيها بِحَكِّ قطَعٍ معدنيةٍ ببعضها. راح الدم يتدفَّق من الجثة في تيّارٍ متقطِّع ويصبُّ بالحُفْرة. ينظر الواقفون بخشوعٍ إلى الحيوان الذي يلفظ أنفاسَه الأخيرة.

تُترَكُ الأغنامُ المذبوحةُ بعضَ الوقت معلَّقةً أمام البيوت لتثير إعجابَ مَنْ يُلقي نَظَره عليها ـ أنَّ أصحاب البيت أغنياءٌ، ثم تُنقلُ إلى الداخل حيث تتم عملية سَلْخ الجلد عن الجثة مع الحرص على استغلالها استغلالا كاملا. الهدرُ ليس من العادات المتعارف عليها هنا. يطوف بمناسبة العيد أكثرُ مِنْ شحّاذٍ أَمَلاً في الحصول على نصيبِه من اللحم. بعضهم يلتهمونه طريّاً طازجاً. بعد مضي عدة ساعات تلمح في كلِّ مكانٍ جثثاً معلقة على الحبالِ المربوطة بين وَتَدَين مغروزَين بالأرض، ترى قطعاً من اللحم تجفُّ في الشمس. الدم الذي يسيل منها حوَّل لونَ الرَّمْلِ إلى أحمر قانٍ، تحوم حولها أسرابٌ من الذباب الجائع. أعدَّ العيدُ مأدبةً فاخرةً لهذه الحيوانات.

بعد الظهر يتعالى في الواحة ضربٌ متواصلٌ وقرعٌ إيقاعيٌّ على الطبول مع تصفيقٍ حاد بالأيدي وصراخٍ متزامن لا تنقطع وتيرته. تسلَّقتُ على بُرَيْج الحصن لأعاين الجموعَ المتزاحمة: موكب طويل من مئات الأشخاص يلمعون بياضا ناصعا ويقتربون نحو الحصن. على رأسهم وقف المرابط المنذور، جسمه نحيف، ذقنه طويل أبيض، يلبس صدرية خضراء وعلى رأسه طربوش

مستو بلون القش وبحوافٍ عريضة. أرى جسمه يهتز ويرتعش، مرَّةً يركض ويقفز ومرة يلقي نفسه بكامل ثقله على الأرض، ثم ينهض فجأة بشدةٍ وحزم. أسمعه يطلق صيحاتٍ وهتافاتٍ وأصواتٍ مرعبة بدون انقطاع. يلتقطها الجمهور ويردّدها بحماسٍ وغليانٍ وانفعالٍ. يمشي بجانب المرابط صبيٌّ صغير مُمسك بيده عصا طويلة مربوطة بعريضة خشبية محفورة كالغربال. غُرزت في فتحاتها أدواتُ التعذيب المخصصةُ للدراويش الذين ينجزون الآن ضربا من الرقص الطقسي. أرى بين هذه العدة مساميرَ مستديرةً يبلغ قطرها حوالي نصف سنتيمتر، محاورها مدبَّبةٌ طويلة ومنتهية برأسٍ خشبيٍّ كبير كرويٍّ الشكل مفلطحٍ، وظيفته تسهيلُ عملية إمساك العصا بكفِّ اليد للتحكم بها أثناء القيام بعملية تعذيب الجسم.

أما غرْز المسامير بالبطن، وهذا ما شاهدته مرة بأم عيني، فإنه من اختصاص وأسرار الدراويش. يغرزون المسامير بمهارةٍ تحت النسيج الجلدي، دون إصابة غشاء البطن أو جرحه. وقد تزعزع في تريبوليتانيا الإيمانُ الأعمى بالقدرات الخارقة لهؤلاء الدراويش. تمّ هذا على يد أحد الضباط الطليان من مصراته. بعد أن أصيب بنَوبةٍ عصبيّة عنيفة انتابته حالةٌ من الهِستيريا والاهتياج، فراح يغرز الخناجر ببدَنِهِ ولم يعاقبْه الله على فعله الكافر الأحمق وتدنيسه للمقدسات. لم يُصبْ بأيِّ ضررٍ صحيٍّ أو عاهةٍ جسمية.

ها هو الموكب قد وصل. يدخل إلى فناء الحصن ويصفُّ حول مداره مشكلاً دائرةً كبيرة. اختار العازفون مكانا تحت شارة النبي بلونها الأخضر المعلقة على أعمدةٍ عالية. هناك راحوا يدقّون بأكفِّهم على الجلد المتوتر فوق الطبول، أما في منتصف الدائرة ـ على ما تبقّى من مساحتها الصغيرة ـ فقد وقف المنذور وهو ينطُّ ويدور حول نفسه ويكرّر هتافاتٍ مثيرة بانفعاليةٍ واهتياج وحماسٍ عميق وعاطفيةٍ متّقدة. سرعان ما تحولت النغمات الموسيقية التناسقية المعتدلة التي كانت تنبعث من الطبول والغناء الجاف المملُّ للجمْع الذي ينبع من أعماق الحناجر ويمجدون

به اسم الله بجملة واحدة متكررة، تحولت من إيقاعاتٍ هادئة نسبيا إلى ألحانٍ سريعة مثيرة جعلت الجمهور في حالة غليان وهيجان. ينطلق أحدهُم بين الفينة والفينة نحو المرابط ليقلّد حركاتَه الميمونية. وصل عدد المقلّدين بعد ساعة إلى العشرين بهيئاتهم البيضاء وبملامح وجوههم المضلّلة الناشزة كأنَّ أصحابَها قد وقعوا في غيبوبةٍ وهْميّة. كانت الرغوة تتدفَّق من أفواههم. بعد القفْز والدوَران على الحلبة يلقون بأجسامهم على الأرض، يحنونها انحناءاتٍ تشنُّجيّة عجيبة غريبة، كأنها خاليةٌ من العظام. يسقط أحدهم في حالة غثيان. يُغمى عليه. يرفعونه. يصبّون الماء عليه فيصحو. وبعد أن يرتاح قليلا يعيد ممارسةَ الرقص المقدّس، تخور قواه ويفقد القدرة على الحركة.

ينتهي الاحتفال بفقراته الفنية المدهشة في السادسة مساءً. يغادر المؤمنون الحصنَ محمَّلين بثلاثة أكياسٍ من الشوفان ـ هديّة عيدانية من الملازم، إذ حان أوانُ أداء صلاة العصر. أما أدواتِ التعذيب المقدس فبقيتْ دون أنْ تلمس جسمَ إنسانٍ. راح المنذور وحدَه ـ وعلى محياه انطبعت ملامح كمن يستشهد ـ راح ينظّف بنهاية أحد المسامير زاويةَ عينه من الأوساخ والإفرازات التي تجمعت فيها. يبدو أنه يقوم بهذه العملية لأول مرة، إذ جفت تلك الأوساخ وغدت شبيهة بالقروح الدهنية للصيصان.

يبدو أداء فرض الصلاة الجماعية عند غروب الشمس مَشهداً فاتناً. شكّلت الهيئات البشرية الملفوفة ببرانس بيضاء صفا طويلا متوجِّها نحو القبلة حيث تقع مدينة مكّة. أرى المنذور واقفا في المقدمة. يرفع يديه ويحني ظهره راكعاً ويرتّل Allah Akbar[١]. يردد الجميع الجملةَ خلفه بصوت عالٍ. ثم راحوا يقرأون السورة الأولى من القرآن، تلوها بتأدية ركعةٍ عميقة. وبعد العودة إلى الوضعية المستقيمة السابقة هووا للسجود ملصقين جباههم وبطونَ أكفّهم وركبهم وإبهامات أقدامِهم بالأرض. جلسوا مستقيمي الظهر قاعدين، أحنوا

---

(١) يترجم الكاتب معنى الكلمتين إلى اللغة البولندية.

الجسم بعد تمديد الأيدي إلى الأمام، سجدوا مرة ثانية. من جديد نهضوا معتدلين مستقرين وبهذا انتهت صلاة الركعة الأولى. وبنفس الطريقة والتسلسل أعادوا مرة ثانية التكبير Allah Akbar والركوعَ والسجود.

توزَّع جميع الحاضرين بعد غروب الشمس في الواحة مُسرعين إلى وليمة العيد التي تنتظرهم. هذا وقد أدَّت أشعَّةُ الشمس دورها وبمشاركةٍ فعلية مشكورة من قِبل الذباب بتصفية وتطهير اللحوم من الدماء المتعلقة بها. يُعتَبر الدم في نَظَرِ تعاليم القرآن مُحرَّماً. الآن يستطيع المسلم الحقيقي الحريصُ على مبادىء الدين أنْ يُقْدِم بنقاوة ضميرٍ على تناول أكلته المحبَّبة، الكسكسي.

قرَّرتُ أنْ أنطلق في السادسة صباحا من اليوم التالي برفقة السيدة دي بيللاو على متن سيارة شحنٍ إلى واحةٍ قريبة تُدعى آقار. تزحف السيارة عبر وادي الشاطىء باتجاه الغرب ـ نعاين من الجنوب كثبانا رملية مضاءةً بالنور الذي تبعثه شمس الصباح، أما من الشمال فنرى نخلاتٍ متفرقة تابعة لواحة تمزاوه. سهلُ الوادي مُسطَّحٌ على الأغلب. نصل بعد ساعة ونصف الساعة إلى واحة كثيفة. آثرنا قبل أن ندخلها الوقوف جانبا، فعبرنا جدولا ضحلا. الجنديُّ المسافر معنا وهو المسئول عن التموين برتبة عريف يعطي أوامره العسكريةَ للسائق كيْ يقف تحت ظلِّ نخلةٍ سامقة كثيفةِ الفروع عريضة.

تهرع نحونا على إثر سماع بوق السيارة ثلةٌ من الأطفال. أحاطوا بنا بدائرة ضيقة. ظهر بعدهم مختار القرية لابسا برنسا قصيرا ملوثا. فور وصول المختار راح العريف يطلب منه بصيغة الأمر ثلاثين كيس من العشب بأقصى سرعة.

ـ العشب غير موجود ـ يصرِّح صاحب السلطان في القرية.

ـ أرسل النساء لحصْده وجمْعه ـ سأدفع كَيْلَيْنِ من الشوفان لقاء كلِّ كيس.

تبدأ عملية الاتفاق على السعر. أما أنا فانطلقت مع السيدة دي بيللاو لزيارة الواحة. حقا إنها غنية: فيها حقولٌ واسعة مزروعة بنبات الشعير في طور النضوج، أشجار زيتون، أشجار لوز مكسوة بالورود، خضروات. نصادف في

طريقنا جحُرا دائرية محفورة في الرمال بقُطْرٍ يساوي المتر ونصف المتر تقريباً يسمونها «عقلى»، تُستغل كعنابر لحفظ التمر. توضع الثمار في الجحُر ثم تُغطَّى بطبقة سميكة من الرمل ـ وبهذا يتم تأمينها ضد العفن وفتك الحشرات المضرة. الحفريات مليئة بالخنافس السوداء التي تغريها الرائحة الحلوة للتمر، لكنها لا تستطيع الوصول إليه. أعاين في أحد الأمكنة عقربا كبيرا أصفر اللون بحجم سرطانٍ صغير.

تقع قرية أقار على مرتفع في وسط الواحة. أبنيتها محاطةٌ بسور من الطين الصلب. الطريقُ الرئيسي كثير التعاريج كالحَلَزون ويلفُّ حول الهضبة وسط البيوت الترابية المنخفضة الملتصقةِ ببعضها. يتفرَّع منه عددٌ كبير من الأزقّة الضيّقة المسدودة، أما بوابات البيوت فهي مفتوحة على مصراعيها. تلمع أرضيةُ الساحات والغرف نظافةً ـ علامة واضحة تؤكد أن السكان احتفلوا البارحةَ بالعيد الكبير. وصلتْني في إحدى اللحظات أصواتٌ ليست غريبة عني، لم أسمعْها منذ فترة طويلة، فأدرْتُ رأسي نحو مصدرها. وقع نظري على عجلٍ بلون قرميدي، أولَّ حيوانٍ من قبيلة البقر التقيتُ به في فزان.

نعود إلى السيارة. نلاحظ ثمة عملية تنفيذ طلبية العريف. يبدو أن الجهتين قد توصلتا إلى صيغة مقبولة لهذه الصفقة. تحمل النساء أكياسَ العشب على رؤوسهنَّ، أما الجندي فكان مشغولاً بقياس وزنات الشوفان المتفق عليها بواسطة غطاءٍ مخروطي لإناء طهي الكسكسي، محاكٍ بأوراق نباتية جافة ـ تبلغ سعته الكيلو ونصف الكيلو غرام من الحبوب. يدفع العريف لقاء كل كيس من العشب قياسين من الشوفان. آخذاً بعين الاعتبار الظروف البولندية أرى بأن ثلاثة كيلو غرامات من حبوب الشوفان بسعر كيس واحد من العشب معادلةٌ مربحةٌ كثيرا لسكان القرية! ولكن نحن لسنا في بولندا، بل في ليبيا حيث للعشب تقييم آخر. هو من البضاعات النادرة. تحاول النسوة اللجوءَ إلى الحيلة، إذ أجد الأكياس مليئة بالعشب حتى نصفها فقط، إلا أنَّ العريف ذكيٌّ

ومفتوح العينين. يعطيهنَّ كمية من الحبوب أقل من المتفق عليه ـ مما أحدث في الأخير شجارا وضجيجا.

تقترح فتاة حسناء لا ينقصها من معالم الجمال شيء بمقلتين سوداوين عريضتين، تقترح بيع حفنة من التمر مبتسمة برقّة وتغنج وعذرية. إلا أنَّ اقتراحها لم يكنْ موجهاً لي ـ أنا الأوروبي الشاحب الألوان. الذي ألقى سحره عليها كان سائقُنا العربي الشاب الوسيم القامة ذي الشوارب السوداء القاتمة. هو أيقظ ودغدغ أحاسيسها، ولَّد الابتسامة على محياها الغض الناصع. ولكن هذا المحظوظ، ربما لسبب ما ـ قد لا يعرفه إلا جُهَيْنه ـ أدار ظهره لها بخشونة وجفاء. أراه متشبثا بقارورة مملوءة ماء، يرفعها فوق رأسه، يحدق بها كما يتغنى بعشيق ثم يفرغ الماء من علٍ في حلقه بجرعات سخية تحدث بقبقةً مزعجة. وبعد أن رمى القارورة الفارغة جانباً بغطرسة وعنجهية راح يصب جلّ اهتمامه على علبة سجائر إيطالية غير معروفة لي من قبل تحمل اسم "Giubek" توا أخرجها من جيبه. يرمقها بنظرات عطشى تواقة كمن يغازل حبيبه، ثم يطلق حسرات عميقة وآهات تنمّ عن إلحاح في تحقيق أمنية ما، ربما جنسية، مما جعل الفتاة تغادر المكان وعلامات اليأس والخيبة مطبوعة على وجهها. مطاردةُ المجهول غالبا ما تُعمي بصيرتنا والعدْوُ وراء الجديد يحجب الجمال ومغريات واقعنا. هذه الظاهرة معادلةٌ أبدية تتكرر تحت كل عرض جغرافي وفي كل مرحلة من مراحل النمو وفي كل ثقافة.

حان أوان الغداء. أسمع بطني يقرقر جوعا. علينا أن نعود إلى براك حيث ينتظرنا، كما في كل يوم، لحمُ الخراف المتبَّلُ بمزاجِ مرحٍ وفكاهاتٍ وضيافة أصلية لطيفة لصاحب الوليمة. أنظرُ إليه وبقلبٍ يعصره الحزن أفكر أنه بعد أيام معدودة سأغادر هذا الإنسان الذي طابت لي عشرته وأغناني حديثه. وَعَدني أننا سنجتمع يوما ما في وارسو، ولكن ليس مستبعدا أن ألتقي به قبل هذا في روما أو في تورينو، حيث سيقضي عطلته الصيفية في ربوع بلده. ليس بمقدوري أن

أتصور هيئته اللطيفة بمعزل عن المحيط الذي فيه اعتادت عيوني أن تراه ـ هل سيتيه وسط الحشد ويبهت لونه في الزي الأوروبي التقليدي على أرصفة الشوارع التافهة أو فوق كرسيٍّ في مقهى إحدى الحواضر الكبيرة؟ تآلفتْ نفسية الملازم مع هذا الزي الأبيض لضباط الصحراء، ذابت في قالب واحد مع ذلك الحصن وتلك الواحة، ومَنْ سيكون بعدَ أنْ يبتعدَ عن السحر النادر لهذه الربوع، بعدَ أنْ يتبددَ ويتطايرَ تألق هذه الأرض، بعدَ أنْ يُحاطَ ببحرٍ من الأمور اليومية التافهة التي تُذيب كلَّ شيء، وغالبا ما تُغرِق حتى الشخصيات الفذة، تبلع الأفكار الخارقة، تقضي على الذكاء الجامح.

[18]

الحمادة الحمراء وداعاً يا صحراء

لكلِّ شيءٍ نهايةٌ وكذلك إقامتي في تريبوليتانيا اقتربتْ من نهاية مطافها. بقيَ لي أسبوع واحد فقط. سأسافر غداً أنا والسيدة دي بيللاو في الخامسة صباحا على متن سيارةِ شحنٍ قَدِمت من طرابلس لتفرِغَ ما فيها من بضاعة في أحد الحوانيت العربية في براك.

أتجولُ في الواحة. ألقي عليها نظراتي الأخيرة. أودِّع كلَّ شيءٍ وكلَّ إنسان: المسالكَ التي مشيتُ، الأمكنةَ التي جلستُ، الناسَ الذين تحدثتُ معهم. كمْ هي مُرَّة فكرةُ مغادرتكِ يا براك، أنتِ التي فتحتِ لي ذراعَيْك الكريمتين وآويتيني بين ظهرانيك، يا لؤلؤةً وضّاءة لامعة في واحات مقاطعة فزان قاطبةً. هل الفترة الطويلة التي قضيتها هنا سببُ مرارتي، حيث تعرَّفتُ على حياة وأسرار الصحراء عن كثبٍ، على عادات سكانها السود، اطّلعتُ على نمط معيشتهم ونوعِ أعمالهم وأسلوب معاملتهم من قِبَل سلطات الحاضرة؛ بدأتُ الآن ـ بعد تجربتي الحيّة مع الصحراء وتعايشي مع رمالها ونخيلها ـ أقيّم العديد من الأمور بمعيارٍ آخر. تغيَّرتْ مفاهيمي. وفي براك بالذات امتدَّتْ بيني وبين الملازم العزيز أواصرُ صداقة حميمة، حَجَزَ مكانا ثابتا في قلبي وذاكرتي.

أجرُّ رِجليَّ خلفي. تداهمني شتى الأفكار. فجأةً وقع نظري على هيئاتِ لاعبي كرة القدم. «في المكان الذي يلتقي فيه إيطاليان، يجب أن يُبنى ملعبٌ

لكرة القدم» ـ ترافقُ هذه الغريزة الطليان أينما حلُّوا. إنهم يهوون ضربَ الكرة والركضَ خلفها. حتى هنا في براك عملوا على إعداد ساحة مناسبة ليزاولوا لعبتهم المحبوبة. قاموا بإزالة الحجارة وتسوية السطح، أما المرمى فهو عبارة عن حَجَرتيْن كبيرتين مطليتين بلون أبيض ناصع. الملعبُ جاهزٌ. أراهم يدعونني لأشاركهم المباراة. وافقتُ نادما، إذ بدت نتائج اللعب وخيمةً مؤسفة. ليس سببها فقرُ معلوماتي عن مهنة «ضارب الكرة» ولا مستوى هؤلاء الرياضيين الذي ليس عاليا، إلا أنني برهنتُ على عجْزي الكامل في التغلّب على السطح الرملي. فكلُّ ضربةٍ للكرة تؤلم قدمي الناعمة. لم أُفِد أعضاءَ فريقي بشيءٍ، فقرروا طرْدي من ساحة اللعب بعد أن راحوا يعلّقون ظلماً على المستوى المتدنّي ـ برأيهم ـ لكرة القدم البولندية.

انسحبتُ من الملعب دون أن أترك زملائي يشعرون أنني قد أُهِنْتُ. رفعتُ رأسي متظاهرا بالكبرياء والتشامخ وأدرتُ ظهري دونما مبالاة ولا اكتراث ثم توجهتُ نحو المدرسة لأودع المدرِّس مارينو. بناءُ المدرسة عصريٌّ بطابق أرضي واحد مربّع الشكل يحوي غرفة الإدارة ومسكنا للمعلم وصالتين للدروس، إحداهما مخصصة لمارينو، أما في الثانية فيُدرِّس القرآنَ واللغةَ العربية معلّمٌ من سكان براك. يشهق وسط فناء المدرسة تمثالٌ بارتفاع مترين ـ رمزُ الفاشية: رزمةٌ من عيدان نبات السوس يعلوها نسرٌ في القمة منجزٌ بكامله من الغصون. كان مارينو مشغولا بسقي المزروعات في الحديقة الصغيرة حيث تنبتُ الأشجارُ المثمرة والخضروات وبعض الورود الجافة. أراه يلعَن الطماطم بحدَّةٍ وبعبارات مصقولة مصرّحا أنّه لو بذل هذا القدر من الجهود في مدينته الأم، ترابانِي البعيدة، لكانت غلة الطماطم ستُجمع بالسلال، بينما هنا لا تريد أن تنمو على الرغم من اعتنائه الكبير بها.

يتعالى خوارٌ مؤلم. تبيّن أن مارينو يربي في المدرسة غزالةً صغيرة يحبُّها كثيرا، إذ راح يترجم خوارها أنها تريد به الإعلان عن وجودها.

ـ المسكينةُ جائعة ـ يصرِّح مارينو بحنانٍ ـ يجب أن يُلبَّى طلبها.

توجَّهْنا نحو الحظيرة. لاحظتُ فيها مِعزًى سمينة كبيرة. أتى بها مارينو كي ترضع الغزالة بحليبها. حاولنا إمساكها ولكن بدا هذا صعبا لأنها كانت تهرب باستمرار وبعناد ماعزي حقيقي. وأخيرا ألقت بنفسها عليَّ بغضبٍ فأمسكتُ بقرنَيْها بثباتٍ وإحكام، أما مارينو فهرَعَ يقود عشيقَتَه الغزالة من حظيرة أخرى صغيرة.

ـ قرَّرتُ عزْلَ صغيرتي في حظيرةٍ مستقلة لأن العنزة لا تطيقها، تريد هذه الخبيثة أن تنطحها دائماً بقرنيْها لتتخلص منها. عليَّ أنْ أشرف على عملية إرضاع غزالتي ـ يؤكد مارينو بقلقٍ.

يُحْنِي مارينو جسمَه الضخمَ، يمسكُ العنزة من رجليها الخلفيّتيْن ثم يُخرج كأسا من جيبه. يملأ الكأس حليبا ويقدّمه لي. شربتُه. ثم يمليه ثانية لنفسه. وأخيرا جاء دور الغزالة. كانت حركاتها تدلُّ أنْ صبرها قد نفد. وثبتْ وثبةً واحدة فور سماعها لمناداة مارينو، تشبَّثتْ بثدْيِ مُرضعتِها وراحت تمصُّ الحليبَ بنَهَمٍ. لاحظتُ عند تجوالي في المقاسم الأخرى للمدرسة أصنافا مختلفة من الدّواجن والأرانب التي تتكاثر بسرعة في صناديق خشبية في مطبخ المدرسة، حيث الهواء الفاسد.

تلقي الشمسُ الدانية أشعَّتَها الحمراء بزاويةٍ حادة على جذوع النخيل ـ آخرَ غروبٍ أشاهدُه في براك. اقترحتُ على المدرّس القيامَ بنزهة قصيرة عبر الواحة. التقينا في طريقنا بثلاثة ضباط صفٍّ. رحنا نتجولُ معاً.

استمر حديثي مع بونجيوانني حتى ساعاتٍ متأخرة من الليل. في الرابعة يأتي أحمدُ بآخر كأس قهوةٍ لي مع إبريق ماء لأغسل وجهي. رفعتُ جسمي من على الكرسي، قمتُ بتغيير لباسي محاولا أن أتبادل بعض العبارات مع أحمد.

ـ أين هو السينيور القائد؟ ـ سألتُه.

ـ لا أعرفُ ـ أجابني.

ـ هل عندك مِنْ جديدٍ؟ ـ سألتُه ثانيةً.

ـ مِنْ أين لي أنْ أعرف هذا ـ أجابني ثانيةً.

أحمدُ إبنٌ شاذٌ عنْ كلِّ أبناء بني قومه وكسولٌ إلى أبعد ما في هذه الكلمة من معنى. يتَّصفُ باللامبالاة المطلقةِ وبالسكوتِ المطلق، لا يهتمُّ بشيءٍ ولا يستفسرُ عنْ أيِّ أمرٍ، لا يسألُ ولا يتدخَّلُ بأيّة قضية. إذا تهدَّم بيتٌ ما على رأس إنسانٍ لن يحاولَ انتشاله، بل سيمشي على الأنقاض دونما اكتراث بما جرى، إذا صادفَ ومات شخصٌ أمام ناظره فلن يحرِّكَ ساكنا ليسعفه. ماتَ ـ فماتَ ـ سيقول. هكذا أرادت السمواتُ. قدرةٌ إلهية. قِسمة!

ها هي السيارة تنتظرني. يخيِّم ظلامٌ قاتم وتهبُّ رياحٌ باردة. كانت السيدة الفرنسية جالسةً بجانب السائق، بينما أنا تسلقتُ فوق جبل من الأكياس المحملة في السيارة مع جنديٍّ برتبة مساعد أول طويلِ القامة نحيفها، بنظّاراتٍ على أنفه.

ـ (Arrivederci a Varsavia, vero di sicuro! إلى اللقاء في وارسو. سآتي بالتأكيد) ـ يودِّعني بونجيوانني بهذه العبارة ويشدُّ على كفِّ يدي بمصافحة أخيرة، بينما «لولو» راحت تنطُّ حول السيارة بمواءٍ مرح.

ليست مقاعدُنا مريحةً. الأكياس غليظة خشنة مُحاكة من سعفِ النخيل ومملوءة بالتمر الجاف. أضفْ إلى هذا رقص السيارة باستمرارٍ على الحجارة التي في الطريق، مما يجعلنا نشعر نحن الاثنين بألمٍ شديد. لا تتوقف زمجرة الرياح وتزداد حدّة البرد. نتشبَّثُ بالأكياس لئلا تنزاح أجسامنا من فوقها، وهذا يمنعُنا حتى من فرْك الأيدي الباردة ببعضها. علينا بهذه الظروف أنْ نتحمَّل متاعبَ السفر عبر مسافة ٦٨٠ كيلومترا التي تفصلنا عن طرابلس.

تُدوِّي قهقهة مرعبة على حين غرة. تخرجُ من خلف الصخور هيئاتٌ ذوات الأربعة قوائم، ثخينةٌ وقوية، برِقابٍ غليظة. لاحظناها تلمع في ضوء السيارة هنيهةً قصيرة وكانت تقطع الطريق ركضا.

ـ ضباعٌ ـ يؤكد الرقيب الأول.

ها هي الشمس تغادر وكرها من وراء سطح خفيف التموّجات مغطى بصخور ضخمة قاتمة اللون. بقيت مقاطعة فزان خلفنا. نقطع الآن حمادة الحمراء، الحمادة الأكبر مساحة في الصحراء. مازالت سيارتنا تدور بحثاً عن طريقٍ مناسب. اهتزازاتُها المرعبة تقذف أجسامَنا يمنة ويسرى، ترتفع حرارة الشمس اللافحة باطّرادٍ، كما في قعر المقلاة، تحيط بنا على مد البصر صخورٌ، صخورٌ، ثم صخورٌ.

ندخل أخيرا في وادٍ طويل تحدُّه من الجهتين جدرانٌ حَجَرِيةٌ ـ قفرٌ موحش لا أثر للحياة فيه إلا شُجَيْرة خرنوب وحيدة سيبقى لغزا مِنْ أين تتزود بالماء الضروري لنموِّها.

نصل ظُهراً إلى حصن يدعى بير فيلونيه. مبنى صغير رابضٌ فوق قمّةٍ يتألف طاقمه من بضعة جنود إريتريين يقودهم «شيلوكباش». يبدو أنهم قد عاينونا من بعيد، إذ كانوا في انتظارنا تحت الحصن مع إبريقٍ مملوءٍ شايا. يلحُّ الرقيب الأول على الدخول إلى الحصن ـ أملا في الحصول على جلود الغزلان التي كنا نريد وضعها على مقاعدنا. نتسلق بصعوبة تحت أشعة الشمس اللافحة، يتصبَّب العرق من أجسامنا. ذَهَبَ تعبُنا هباءً؛ لا أثر لأيِّ جلد، فما علينا إلا أن نرضى بإلقاء جلدنا الخاص المهروس فوق أكياس التمر الملعونة.

حجارةٌ، ثم حجارة. لا شيء آخر غيرها. حرٌّ جهنمي. قفر. فراغ قاتل مميت، البريق الشديد للشمس يُتعبُ الجسمَ ويبعث الملل في النفس ـ أشعر بألمٍ قوي في عيوني. تنغرز فيها حبيباتُ الرمال المجهرية.

راح الرقيب الأول الذي لا زلتُ أجهل اسمه، راح يتحدث عن مغامراته ورحلاته ـ قَطَعَ أفريقيا كلَّها طولا وعرضا، من الجزائر إلى كابشتاد، من السنغال إلى إثيوبيا. استرسل في الكلام عن أفريقيا الجنوبية بغَرامٍ.

أحجارٌ كريمة، ألماس، دراهم، ولكنه نسيَ أنْ يضيف أنَّ الحظَّ يبتسم لشخصٍ واحدٍ فقط بعدما يصاب ألفٌ غيره بخيبة أمل.

ـ هل سمع السيد بإنسانٍ اسمه سيسيل رودس[1] ـ يسألني.

ـ لا ـ أجبته. غايتي الوقوفُ على كنه ما يريد الإدلاءَ به عن رودس.

ـ كيف هذا، ألمْ يسمع السيد اسمَ أولِّ مواطن في أفريقيا الجنوبية! لا يمكن فهم سياسة توسع النفوذ الإنكليزي دون معرفة تاريخ هذا الاستعماري والبرجوازي الكبير. فكلُّ مكان تحت الخط الاستوائي غُرزتْ فيه الشارة الإنكليزية Union Jack مرتبطٌ ارتباطا وثيقا باسم وشخصية رودس. كان واحدا من أبطال الطبقة المتوسطة، وإن كانت يومها فكرةُ البطولة بعيدةً عن التطلعات الخسيسة لهذه الطبقة الاجتماعية ولا تتناسب مع طبيعتها. تدلُّ صفاته الفردية على قدراتٍ تجارية نادرة، فغالبا ما كان يردِّد عبارتَه المشهورة: «المالُ عَظَمَةٌ». اتخذ النظام البرجوازي أساسا وانطلاقة لثورته، أما سلاحه فكان المال وليس غيره. أولَّ انتصارٍ حقَّقه في حياته كان تأسيسه اتحادِKimberley trust de Beers

---

(١) Cecil John Rhodes (٥/ ٧/ ١٨٥٣ ـ ٢٦/ ٣/ ١٩٠٢) ـ رجل سياسة وأعمال بريطاني. كان منذ الطفولة مصابا بمرض السل لهذا لم يُكمل دراسته. في سنة ١٨٧٠ سافر إلى المستعمرة البريطانية في جنوب أفريقيا حيث كان أخوه يدير مزرعة قطن. بعدها بسنة غدا مدير منجم استخراج الماس الذي أسسه أخوه، وفي السنوات ١٨٧٤ ـ ١٨٨٠ صار المدير العام لأكبر منجم استخراج الماس. جو أفريقيا عافاه من مرض السل، إلا أن آثاره تركت عاهة مزمنة في قلبه، كانت سبب عودته إلى إنكلترا. انتسب إلى جامعة الأكسفورد وأنهى دراسته سنة ١٨٨١ وفي نفس السنة اختير عضوا في برلمان مستعمرته. كان يحمل أفكار امبريالية بامتياز. في سنة ١٨٨٩ أجبر السكان الأصليين بالتنازل عن أراضيهم لصالح بريطانيا وكانت مساحة هذه الأراضي تتعدى مساحة كل من بريطانيا وإيرلندا معا. أشرفت عليها الحملة البريطانية الجنوب أفريقية تحت قيادته. بعد ربطه لمناجم الماس سنة ١٨٨٨ بشركة ضخمة غدا رجلا غنيا جدا، ربما الأغنى في العالم. ثم صار عام ١٨٩٠ رئيس وزراء مستعمرته. خطط بناء سكة حديدية تصل كابشتاد بالقاهرة إلا أن تنفيذ مخططه عرقله الهولنديون الذين كانوا يسيطرون على المناطق الشمالية من نفوذه. توفي خلال الحرب على إثر سكتة قلبية. حفظ التاريخ سمعة سيئة له: إدارته لعمليات إبادة جماعية لسكان أفريقيا الجنوبية الأصليين، الاستيلاء على أراضيهم، تأسيس أولى معسكرات الاعتقال والإبادة قبل هتلر. كان من المثليين جنسيا.

يضمُّ كلَّ مناجم الألماس ويشرف على تنظيم وإدارة السوق. ولم يكن هدفُهُ الأول المالُ بحد ذاته، إنما اتَّخذ المال واسطةً ناجعة أمَّنت لإنكلترا فرضَ نفوذها ورفع شأنها وموقفها في أمور تلك البقعة من القارة الأفريقية. عندما قَدِم رودس إلى أفريقيا كانت ذخيرُته الوحيدةُ الحسُّ العلميّ الطفيف ورِئَتَيْن مهترئتين بمرض السل. أعادت أفريقيا عافيته، أعطتْه قوةً دافعة في العمل والنشاطات الأخرى. بعد أن وصل إلى مركزٍ عال وفَرَضَ احترامَه على الآخرين غادر أفريقيا قاصدا جامعة أكسفورد حيث عمَّق معلوماتَه وتجربته التي اكتسبها في سنوات حياته. تشبَّع هناك بالأفكار الرأسمالية على يد معلِّمه روسكين وآمن بنظرية مذهب النشوئية لدارون. راح هناك يحلم بوحدة العرق الأنجلوساسي، باجتياح هادىء للعالم تحت أمرة وقيادة ذوي الشعر الأشقر. ولم تفارقْه الأحلام بالسِّلْم العالمي، لكنه عرَّض حياتَه للخطر في معركته التي تبناها من أجل المصالح الإنكليزية، غزا أراضيَ واسعةً، اجتاح كلا من Matabeleland وMaskonaland اللتين تشكلان اليوم روديسيا الجنوبية[1]، خلَقَ منظمةً صناعية وتجارية ذات نفوذ. هو أول من فهم أهمية ومغزى تقسيم وشقِّ أفريقيا بالنصف من القاهرة حتى كابشتاد بواسطة الممتلكات الإنكليزية. فكان صديقه غوردون[2] سيِّدَ الجزء الشمالي بقوة الجيش، وكان رودس سيِّدَ الجزء الجنوبي بقوة رؤوس الأموال. لم تتحقق أمنية رودس في تأسيس دولة

---

(١) روديسيا تأسست في السنوات ١٨٩٠ ـ ١٨٩٥ كنتيجة الحملة البريطانية الجنوب أفريقية بقيادة Cecil John Rhodes وحملت اسمه كمستعمرة بريطانية. في سنة ١٩١١ قسمت إلى روديسيا الشمالية (حاليا زامبيا) وروديسيا الجنوبية (حاليا زيمبابوه). دخل الشطرين الجنوبي والشمالي في السنوات ١٩٢٣ ـ ١٩٥٣ تحت الانتداب الريطاني وفي السنوات ١٩٦٤ ـ ١٩٨٠ كان الشطر الجنوبي يحمل اسم روديسيا ثم تحول بعد الاستقلال (١٩٨٠) إلى زيمبابوه. بينما الشطر الشمالي فقد اتخذ بعد تحريره سنة ١٩٦٤ اسم زامبيا.

(٢) Charles Gordon (٢٨ / ١ / ١٨٣٣ ـ ٢٦/ ١/ ١٨٨٥) ـ رجل إدارة وعسكري بريطلني جسّد السياسة الاستعمارية للإنكليز في كلٍّ من الصين ومصر والسودان. في السنوات ١٨٧٧ ـ ١٨٧٩ كان واليا على السودان وأرسِل ثانية سنة ١٨٨٤ للقضاء على الانتفاضة التي قادها المهدي. قتل في الخرطوم خلال المعارك.

إنكليزية عُظمى في أفريقيا الجنوبية. أَوْقَفَهُ الموتُ وبتر حياته الغنية عند نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين، إلا أنَّ روحه كانت تعيش في القرن العشرين، فلا غرو أن تُقارن أفكاره وأعماله وحساباته بمستوى سياسيٍّ اليوم.

أنصتُ إلى هذه الحكاية المعروفة وأحدُّق بالرقيب الأول بنظرات ملؤها الحيرة وبعلامات استفسار. ما مصدر هذا التعصُّب والحماس «للوحش الأشقر»، جنديِّ القضية الإنكليزية. مَنْ يكون هذا الرقيب الذي يحادثني؟ قد تعطي ملامحُ وجهه بعضَ الشبه بملامح الأنجلوساسيين، عاما أن حركاته السريعة وإيماءاته وانفعالاته العفوية تُشير إلى كونه إيطاليا أصيلا.

قرأ الرقيب أفكاري فانطلق بضحك عال.

ـ أعرف، أعرف، بماذا تفكر. المهم أنه تجمعنا نفسُ الهواية، الشغفُ بأفريقيا، الهيام باليابسة السوداء، الولع بالروح الأفريقية التي نتحلى بها نحن الاثنين.

تهب رياح «قبلي»، ولحسن الحظ فقد اقتربنا من مجموعة من الخيم المنصوبة عند حافة الطريق المبني جديدا: الشويرف ـ بير قيلونيه. وقفتْ إلى جانب الطريق سيارة شحن معطلة اتجاهها واحةُ براك، محمَّلة بمواد غذائية وعلى متنها ثلاثة رجال يهود. أرى أحدهم ـ معقوف الظهر وضريرا من إحدى عينيه. تسير خلفه معزى خطوة بعد خطوة ـ أراه يركض باستمرار نحو السائق ليسأله عن موعد إزالة العطل الذي أصيبت به السيارة. وبعد حصوله على جواب أنَّ هذا سيتم خلال فترة قصيرة ـ يبتعدُ. وبعد دقائق معدودة يأتي من جديد بنفس السؤال وبرفقة معزاه الملتصقة به كأنه غاندي.

ـ يا سيد، نحن واقفون هنا منذ أربعة أيام، سمعت خلالها عين السؤال عشرات المرات ـ يوضِّح السائق.

يشتد عصف «قبلي». دخلنا نحتمي في الخيمة التابعة للمدير المشرف على أعمال بناء الطريق. تبين رجلٌ عجوز. وجدناه جالسا ومحاطا بثلاثة كلاب من صنف fox - terrier بيضاء الشعر بقوائم سوداء.

- إنها رفاق وحدتي - يبتسم الإيطالي الشائب.

هدأت الرياح نوعا بعد عدة ساعات من الانتظار، فقررنا أن نركب سيارتنا ونستمر في رحلتنا. بعد أن قطعنا أقل من عشرين كيلومترا تواجدنا في وادٍ عريض يدعى البي الكبير. تنمو فيه هنا وهناك بعض أشجار الأكاسيا الكثيرة الفروع والـ «ديس» (dis) الحاد وشجيرات الـ «رَتْم» (rtem) العريضة الشاحبة. فقط الجِمالُ قادرةٌ على بلْع وهضْم هذه النباتات الجافة القارصة الواخزة.

نقف في حصن قديم صغير مهدَّد بالسقوط في كل لحظة. يرتفع بجانبه برجٌ عالٍ فوق بئر ارتوازي. يدعونا قائد الحصن، وهو ملازم صغير العمر من صقلية، يدعونا لنشرب معا فنجاناً من القهوة. نعود إلى السيارة بعد تناول الطعام وحديثٍ قصير، ولكن لم نعثرْ على أثرٍ للسائق. فانطلقتُ أبحثُ عنه في كلِّ مكان - بدون نتيجة. توجهتُ أخيرا نحو مبنى صغير شعرتُ في قرارة نفسي بأنه بيتٌ للملذات الجسدية.

- !Honny soit qui mal y pense أنا متأكد كلَّ التأكيد بأنني هناك سأعثر على التائِهِ.

فعلاً وجدتُه هناك في حالة غضبٍ واهتياج، محمرّ الوجه، يصرخ كالمسعور ويهدد ويطلق التعبيرات العفوية. تبيَّن أنه قد سألَ ضابط الصف المرافق له عن اسم إحدى النسوة، فسمع منه: Mammadua. كان هذا سبب زعلِه وانفجاره.

Mammadua اسمُ أنثى شائعٌ في هذه المنطقة ويشبه في النطق الكلمتيْن الإيطاليتين (Mamma tua تعنيان: والدتُكَ). كان هذا التقارب في اللفظ سببا لأكثر من سوء تفاهم وخلاف حتى بين الأصدقاء ويعطي مجالا لصياغة النكت الثقيلة في وقْعها، من باب المداعبة أو السخرية.

- من أعطاك الحق لتهِين والدتي المسكينةَ - يصرخ سائقُنا الغليظُ بأعلى صوته مندفعا بقبضتين جاهزتين كما في حلبة الملاكمة في محاولةٍ للهجوم على ضابط الصف.

أما مساعد السائق، العجوزُ المسنُّ بقبّعتة الصفراء الملوَّثة جدا المُحاكةِ من الصوف، الذي وصفتْه السيدة دي بيللاو أنه مرتع لكل رائحة كريهة، فراح ـ والحق يقال ـ يمسك مسئوله الغاضب ليمنع اصطدامه بضابط الصف.

بعد محاولة جماعية ناجحة في تهدئة السائق، شرحْنا له أن ضابط الصف كان بعيدا كلَّ البعد عن توجيه أي إهانة من هذا القبيل له، فسَّرْنا أن سبب سوء الفهم أحدثه مدى التقارب بين الكلمتين اللتين نطق بهما وبين عبارة «والدتك» باللغة الإيطالية. بصعوبة أقنعناه ببراءة ضابط الصف وحسن نيّته. بعد أن جرع سائقنا كأس شاي ثقيل مخدر للأعصاب، انطلقنا نتابع رحلتنا. شعرتُ بتعبٍ وعلى الرغم من أنَّ أكياس التمر ليست سريرا مريحا تَسلَّط النوم على عيوني بسرعة. توقظني قشعريرة حقيقية ـ حلَّ منتصف الليل، تحترق النجوم في قعر السماء، اختفت الشجيرات، تحيط بنا من كلِّ الجهات صحراء عارية، تقدح شرارة فضية اللون في ومض الضوء القمري.

نصل إلى واحة القريات حوالي منتصف الليل. تمركزت هنا الفرقة الخامسة للجيش الصحراوي التي عادت من ساحة المناورات صباحَ اليوم. استقبَلَنا الضباط بأريحية. قدّموا عشاءً ساخنا وسريرا مريحا. إلا أن جسمي المنهك رفض الاستسلام للنوم، فنهضتُ عند أول علامة حلول الفجر وخرجتُ أمام الحصن الواقع عند حافة وهدٍ عميق ألمح نخلات خضراء في واحة صغيرة متربعة في قعر الوهد.

يشق الصمتَ نهيقٌ عالٍ ومتزامن لحمارٍ، يوقِظ سكانَ الواحات من نومهم مع أول طلوع الفجر كأنه منبِّهٌ. استيقظَ النائمون. حركة دؤوبة خارج البيوت. أعاين نساءً مسرعاتٍ باتجاه بئرٍ وعلى رؤوسهن أباريق فخارية، أما الرجال فهرعوا بإخراج عدّتهم الزراعية البسيطة. تُسمع تمتمة الأطفال الممزوجة بأصوات الحيوانات البيتية الوديعة.

قررتُ زيارة الواحة، فنزلتُ عبر درب ملتو كالحلزون ورحتُ أتجول حتى لحظة سماعي زمور السيارة يناديني بدون رحمة ولا تفهم.

من جديد اختلق السائق سببا ليتظاهر بالغبْن وعدم الرضى. تبيّن أنه كان قد ترك في السيارة كيسا مملوءا بالطعام التهمتْه الجرذان ولم تترك شيئا للسائق الحريص على تأمين احتاطي من الغذاء لنفسه خلال السفر. أراه واقفا وبيده كيس فارغ ويلعن هذه الحيوانات بغلظة.

ها هي النجوم تفقد رونقها وتزداد شحوبا، أما الأفق فبعيدٌ واسعٌ وناصعُ البياض. وهذا ما يميز الصحراء ويضفي عليها جمالا في الساعات الأولى من النهار. يبدأ الأفق في الاحمرار من الجهة الشرقية، أما قرص الشمس فمازال مطفأً وبسرعة يقفز من وراء النجوم التي تشكل ما يشبه القلعة بلون أزرق.

تزحف سيارتنا عبر سهل واسع مرتفع مقطوع بصدوعات ممزقة الجوانب لعدد يكاد لا يحصى من الأودية. تقودنا الطريق الحجرية عبر مرتفعات ومنخفضات ـ الفرقُ الكبيرُ في الارتفاع الحادُّ يجعل محافظَتنا على التوازن ضربا من الأعجوبة. تَلَتْ هذه التعرجاتِ المخيفةِ كثبانٌ رملية مُعيقة جدا لسيارتنا التي تتغلب عليها بصعوبة كبيرة. وكمْ مِنْ مرَّةٍ أُجْبِرْنا على النزول لندفع السيارةَ المُتْعَبَةَ بأيدينا، لننقذها من الانغراز في الرمال.

بعد ساعات مرعبة من الاهتزاز المستمر للسيارة عبر المسالك الصحراوية الوعرة نصل إلى سهلٍ واسعٍ خالٍ من الأشجار مغطى بالخضار والورود. تتراءى أمامنا بلدة مزده. فيها بعض علامات الحضارة: مقهى إيطالي، مطاعم صغيرة، مقاهٍ عربية مطلة على أرصفة الشوارع، ثكنات عسكرية كبيرة، بيت الضباط وإلخ. أمشي شارد الذهن هائما عبر الأزقة. توقَّفْتُ عند مشهدٍ غريب. لاحظتُ أمام خيمةٍ اتخذها طبيبٌ شعبيٌّ محليٌّ مقرّاً له، لاحظتُ مريضا جالسا على كرسيٍّ. كان الطبيب يفصد دمَ المريض بواسطة جرح في وريد الرقبة ويمصُّه عن طريق أنبوب خشبي حتى يمتلىء فاهُ ثم يبصق الدمَ على الأرض. تجمَّعَ أمام الخيمة حشدٌ من المرضى يراقبون العمليةَ بجلال ووقار. ينتظر كلٌّ منهم دورَه بفارغ الصبر.

عَبَرْنا مزده. مع ازدياد كثافة النباتات يزدادُ كذلك فَرَحُ الرقيب الأول الذي لم يزر هذه الربوع الخضراء الخلابة منذ عدَّة سنواتٍ. كان يقفز مثل الطفل الصغير وينادي باستمرار: ما أجملَ الخضارَ، ما أجملَ الخضارَ!

دَرَجَةُ الخضارِ هنا نسبيّةٌ طبعا. أليست المقارنة أساسَ كلِّ حكمٍ للإنسان! تبدو هذه الربوع للملازم كأنها مروج جنة عدن.

نصل إلى طريق معبّدة واسعة مريحة. يضغط السائق على الغاز. تبلع سيارتُنا المسافاتِ بسرعة ستين كيلومترا في الساعة. تبدو هذه السرعة للرقيب خياليّة، طبعا بالمقارنة مع السرعة على الطرق الصحراوية. أراه متشبثا بأكياس التمر لئلا يطير ويتوسل السائق أن يبطئ السرعة أو أنْ يقف.

نفرغ حمولتَنا من أكياس التمر في غريان ونأخذ ركابا عَرَباً على متن السيارة ونستمر محافظين على سرعتنا الفائقة. تهبُّ نسماتٌ منعشةٌ من جهة البحر. أتنفَّسُ بعمقٍ وخفَّةٍ.

تلمع أضواءُ طرابلس من بعيد.

تريبوليتانيا

لمحة تاريخية، جغرافية، اقتصادية

مدخل إلى الحياة الاجتماعية

[I]

ليبيا الإيطالية بلدٌ في أقصى جنوب البحر الأبيض المتوسط، منحشرٌ مثل الإسفين بين منطقتَيْ النفوذ الإنكليزي والفرنسي. تحدُّه من جهة الغرب والجنوب الغربي تونسُ والجزائرُ وأفريقيا الفرنسية الغربية والمستعمرات الأفريقية لفرنسا وتجاوره من الشرق مصرَ والسودان المصري. تبلغ مساحةُ ليبيا ١٫٦٣٨٫٠٠٠ كم٢، يقدَّر عدد سكانها بـ ٧٠٤٫٤١٣ نسمة حسب الحسابات التقريبية لسنة ١٩٣١[١].

تُقسم ليبيا إداريا إلى مقاطعتَيْن: تريبوليتانيا وسيرينايكا، واقعتَيْن تحت قيادة والٍ واحد يقع مقرُّه في المدينة الليبية الرئيسية ـ طرابلس التي يعيش فيها ٧٣٫٠٠٠ إنسانٍ[٢]. أمور سيرينايكا يديرها نائب الوالي ومقره بنغازي وهي

---

(١) كل البيانات الواردة في هذا الفصل مستمدة من Annuario Statistico Italiano - XII كمصدر أساسي ولكن ليس الوحيد. والبيانات ينشرها معهد الإحصاء المركزي لمملكة إيطاليا (الكاتب). مساحة ليبيا تساوي اليوم ١٫٧٥٩٫٥٤٠ كم٢ ويبلغ عدد سكانها حوالي ستة ملايين نسمة.

(٢) عدد سكان طرابلس يعادل اليوم أكثر من ١٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة.

أكبر مدن المقاطعة بعدد من السكان يساوي ٤٠.٠٠٠ نسمة[١].

تبلغ مساحةُ تريبوليتانيا ٩٠٠.٠٠٠ كم٢ ويسكنها ٦٩٧.٥٤٣ فردٍ. بينما تعادل مساحة سيرينايكا ٧٣٨.٠٠٠ كم٢ بعدد سكان قدره ٧١٦.١٦٠ نسمة.

تُعتبر تريبوليتانيا وسيرينايكا مستعمرَتان مستقلّتان تقريبا، لكلٍّ منهما مراكزُها الإداريةُ الخاصة وقياداتُها العسكريةُ وتربطهما شخصيةُ الوالي، بينما تشكّلان معا مقاطعةً جمركية واحدة[٢].

يتكون سكان ليبيا من البربر، وهم أهل البلاد الأصليين من عِرْق حام، ومن العرب الساميين الذين قَدِموا فيما بعد. اختلط هذان العنصران الأساسيان ببعضهما كثيرا على مرِّ السنين. وتجدر الإشارة أنه في شرق البلاد حيث تعيش القبائل البدوية يغلب العنصر العربي، بينما في غربها حيث تستقر القبائل الزراعية فيغلب العنصر البربري. والعنصر البربري الصافي لغويا وعرقيا ما زال يعيش في جبال «الجبل» الواقعة على بعد مائة كيلومترٍ إلى جنوب طرابلس وكذلك في واحة غدامس التي تبعد ٧٠٠ كم إلى الجنوب الغربي من طرابلس بخطٍّ مستقيم. نجدهم كذلك على طول الشريط الحدودي مع الجزائر وفي واحة زواره المطلة على البحر الأبيض المتوسط بالقرب من الحدود التونسية. في الجزء الجنوبي من تريبوليتانيا (في ما يدعى فزان)، إلى جانب القبائل العربية الرُّحّل (تبو والطوارق)، تسكن أقوامٌ هي هجين من العرب والبربر والزنوج السودانيين تُعرف باسم «فزانيين» وتطغى عليهم الصفات الزنجية. وفي عداد السكان الأصليين يدخل أيضا اليهود وهم يعيشون في أغلبيتهم بالمدن والواحات القريبة للساحل وعملُهم الوحيد هو التجارةُ والمهنُ الحرّة. إلى

---

(١) عدد سكان بنغازي يقدّر اليوم بـ ٦٥٠ ألف نسمة.

(٢) في الآونة الأخيرة صدر مرسوم تشريعي ملكي (بتاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٣٤) يقضي بضم تريبوليتانيا وسيرينايكا بمستعمرة واحدة تحت قيادة وال عام مقره الثابت مدينة طرابلس تحمل اسم «ليبيا». هذا، وقد قُسمت المستعمرة إداريا إلى أربع مقاطعات مع منطقة جنوبية ذات طابع عسكري؛ تُحكم كل مقاطعة بواسطة مفوّض من الدرجة الرابعة، أما المنطقة العسكرية فستكون خاضعة لأمر برتبة جنرال. (للكاتب).

جانب الأقوام المذكورة نجد في ليبيا الأرمنَ والأتراكَ. ومن الأوروبيين يقيم فيها، عدا الطليان، المالطيون واليونانيّون في كلٍّ من طرابلس وبنغازي.

دِينُ السكان الأصليين (باستثناء اليهود) هو الإسلامُ بفرعه السنّي الذي تشرَّب بعناصر من الطقوس والتقاليد الشعبية الدارجة وبالمعتقدات والعادات البربرية القديمة. أما اليهود فهم طبعا على مذهب موسى.

يبدو التركيب السكانيُّ في الأرقام المُطلقة كما يلي: ٨٠٦.٦٥٤ مواطن أصلي و٤٩.٦٠٧ مواطن أوروبي مع الأغلبية الإيطالية[1]. يُقسم السكانُ الأصليون حسب توزيعهم الديني إلى مسلمين: ٧٣٥.٦٢٣ فرد ويهودٍ: ٢٤.٠٠٤ فرد[2]، أما البقية المسيحية فهي تابعةٌ في الأغلب للمذهب القبطي (الجنود الإريتريون).

تم احتلال ليبيا باسم الملك الإيطالي[3] في ٥/ ١٠/ ١٩١١ على يد نائب أدميرال القوات البحرية الإيطالية Luigi Faravelli. وكان أولُّ والٍ عام عُيِّن لها: Ricci d'Olmo، بينما في ١٨/ ١٠/ ١٩١٢ تخلَّت تركيا رسمياً عن حقوقها في ليبيا عملاً بنصِّ معاهدة السلام التي أُبرمت في Ouchy بالقرب من لوزان. واعتبارا من هذا التاريخ تربَّع على ليبيا ثلاثةُ عشرَ والياً إيطاليا ووصيّانِ على العرش[4].

---

(١) أي كانت نسبة الأوروبيين تساوي ٦،٧٪ من مجموع السكان.

(٢) نسبة اليهود إلى المسلمين كانت تعادل ٣،٨٪. هذا وفي سنة ١٩٧٤ أعلن المجلس اليهودي العالمي أنه لم يبق في ليبيا سوى نحو عشرين يهوديا. غادروا إلى إسرائيل ودول أخرى بين عامي ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧.

(٣) فكتور عمانوئيل الثالث. للمزيد عنه أنظر التعليق رقم ٤ في الفصل الرابع.

(٤) طيه قائمة كرونولوجية بأسماء الولاة وفترات حكمهم (من إعداد الكاتب):

ـ الأدميرال Raffaele Borea Ricci d'Olmo (٥/ ١٠/ ١٩١١ ـ ١٣/ ١٠/ ١٩١١)

ـ الجنرال Carlo Caneva (١٣/ ١٠/ ١٩١١ ـ ٢٨/ ٨/ ١٩١٢)

ـ الجنرال Ottavio Ragni (١٢/ ١٠/ ١٩١٣ ـ ٣٠/ ٥/ ١٩١٣)

ـ الجنرال Vincenzo Garioni (١/ ٦/ ١٩١٣ ـ ١/ ١٠/ ١٩١٤)

[II]

كانت الأجزاء الوسطى لأفريقيا المطلّة على البحر المتوسط مسكونةً منذ أبعد الحقَب التاريخية المعروفة من قِبَل قبائلَ «ليب» المتميّزة حينذاك بنفسِ الصفات العرقية وبلغةٍ واحدة ودينٍ واحد. كانوا مِنَ الرعاةِ الرحّل، أيْ مجتمعاً يفتقر لنظامٍ سياسيّ محدد. هذا، وإنَّ بربر اليوم هم بلا منازع الأحفادُ المباشرون لأولئك السكان الأوّلين. على الرغم من إبادة قسمٍ كبير منهم على يد الغزاة العرب تمكنوا ـ كما ذكرتُ ـ من المحافظة على ديمومة عِرْقهم في عدة أمكنة في تريبوليتانيا وعلى الساحل في واحة زْوارَه، مشكّلين ما يشبه الجزيرة العرْقية البربرية وسط العرب المحيطين بهم من كل الجهات.

قَدَّر الفينيقيون، وهو أولُ شعبٍ زاول الملاحةَ وفرض سيطرتَه على البحر

= ـ الجنرال Giorgio Cigliano (١/ ١٠/ ١٩١٤ ـ ١٦/ ١١/ ١٩١٤)
ـ الجنرال Luigi Druetti (١٦/ ١١/ ١٩١٤ ـ ٥/ ٢/ ١٩١٥)
ـ الجنرال Cesare Tassoni Giullio (٥/ ٢/ ١٩١٥ ـ ١٥/ ٧/ ١٩١٥)
ـ الجنرال Giovanni Battista Ameglio (١٥/ ٧/ ١٩١٥ ـ ١/ ٧/ ١٩١٨)
ـ الجنرال Vencenzo Garioni للمرة الثانية (٢/ ٨/ ١٩١٨ ـ ١٦/ ٨/ ١٩١٩)
ـ Vittorio Menzinger (١٦/ ٨/ ١٩١٩ ـ ١٠/ ٧/ ١٩٢٠)
ـ Ugo Niccoli بصفة ولي العرش (١١/ ٧/ ١٩٢٠ ـ ٣١/ ٧/ ١٩٢٠)
ـ الوزير مطلق الصلاحية Luigi Mercatelli (١/ ٨/ ١٩٢٠ ـ ١٦/ ٨/ ١٩٢٠)
ـ Eduardo Baccari بصفة ولي العرش (١٧/ ٨/ ١٩٢٠ ـ ٢٤/ ٨/ ١٩٢١)
ـ الكونت (النبيل) Giuseppe Volpi di Misurata (١٥/ ٨/ ١٩٢١ ـ ٣٠/ ٧/ ١٩٢٥)
ـ الجنرال Emilio de Bono (٣٠/ ٧/ ١٩٢٥ ـ ٩/ ١/ ١٩٢٩)
ـ المارشال Sabotino Pietro Badoglio del (٩/ ١/ ١٩٢٩ ـ ٣١/ ١٠/ ١٩٣٣)
ـ وأخيرا المارشال Italo Balbo (من ١/ ١/ ١٩٣٤)

الأبيض المتوسط، قدَّروا أهمّيَةَ وقيمةَ السواحل الليبية في العصور الغابرة كنقطةِ انطلاقٍ تجارية مع أفريقيا وروما والإغريق، فبنوا عدداً من المراكز التجارية الكبيرة خلال القرنين السابع والسادس قبل ميلاد السيد المسيح، نذكر منها على سبيل المثال ولا الحصر: Grfara، Sabratha، Lepcis وOea (اليوم طرابلس نفسها). كان القرطاجيون قد سادوا على ليبيا كلِّها وعلى التجارة مع أفريقيا الداخلية في فترة حكم Tarquinius Superbus[1] على روما. اعتادت قوافلُهم أنْ ترتاد طرقاً ثابتة تمرُّ مِنْ Tacape (اليوم قابس) إلى Cidamus (غدامس)، ومن Oea (طرابلس) إلى بلاد Garamanti (فزان)، ولعل أكثر الطرقِ المأهولة آنذاك كانت تربط Leptis (وهي Lepcis) بواحة تيبستي.

إلا أنّه سرعان ما جذبتْ ليبيا اهتمامَ روما التي أرادت منافسةَ قرطاجة في سيطرة نفوذها التجاري والسياسي على الساحل الأفريقي. أولُ معاهدةٍ تجارية بين روما وقرطاجة أُبرِمتْ في القرن السادس قبل ميلاد السيد المسيح. أعطتْ بنودُها لروما حقَّ مزاولةِ التجارة الحرَّة فوق الأراضي الليبية. إلا أنَّ قرطاجة أبطلتْ تلك المعاهدة في سنة ٣٤٨ قبل ميلاد المسيح، وبهذا أمّنت لنفسها السيادة الوحيدة على الساحة الليبية. وفي هذه الفترة بالذات شهدت المدن الليبية عصرَها الذهبي الأولَ حيث كانت تنمو وتزدهر.

إبادةُ قرطاجة في سنة ١٤٦م[2] مكّن الرومانيين من فرض سيطرتهم أولاً على الشريط الساحلي المعروف باسم Sirtica، ثم تلته حملاتٌ عسكرية ناجحة باتجاه غدامس وفزان حتى وصول السودان. سُلِّمت ليبيا لهم كاملةً. وفي هذه السنة عينها وُلد في Lepcis أعظمُ رجلٍ عرفَتْهُ ليبيا حتى تاريخ اليوم ـ الإمبراطور

---

(١) كان الملك السابع والأخير لروما وهناك خلاف في تحديد فترة حكمه: (٤٦٥ ـ ٤٥٠ ق.م.) أو (٥٣٤ ـ ٥١٠ ق.م.). وصل إلى الحكم بعد مقتل حماه الذي كان ملكا قبله. كان طاغية بامتياز فقاومه سكان روما وطردوه من المدينة.

(٢) يرى بعض المؤرّخين أن وحشية الرومان إزاء سكان قرطاجة تدخل في إطار الإبادة الجماعية.

سبتيموس سيفيريوس[1]. بعد جلوسه على عرش روما (السنوات ١٩٣ ـ ٢١١) لم ينسَ أَنْ يوجِّه جُلَّ اهتمامه نحو مسقط رأسه وبني جلدته الساكنين هناك. مَنَحَهم امتيازات فخرية وحقوق عالية (نذكر منها "ius italicum") وناضلَ من أجل رفع المستوى الاقتصادي والثقافي لليبيا. لم يدمْ العصرُ الذهبيُّ الثاني لليبيا طويلاً. أفلَ نجمها وانتهت عظمتُها ابتداءً من مطلع القرن الرابع بعد ميلاد السيد المسيح.

للتاريخ جولاته وصولاته. برز في القرن الميلادي الخامس الونداليون[2] الذين أسقطوا روما ولم يوقفوا زحفَهم الناجحَ إلا بعد أنْ دوَّخوا ليبيا سنة ٥٣٣ وضمُّوها إلى الإمبراطورية البيزنطية. أولُ فتحٍ عربي لليبيا تمَّ في سنة ٦٤٧. عجز (جنود محمّدٍ) في بادىء الأمر عن احتلال ليبيا بسبب المقاومة العنيفة لسكانها. استسلم البربرُ لقيادة الإسلام بعد أنْ أبيدوا عن بكرة أبيهم تقريبا وذلك خلال الحملة الرابعة عشرة لجيوش المسلمين. اجتاح النورمانديون[3] ليبيا في عام ١١٤٤ ودام حكمُهم فيها أربعة عشر سنة ثم سلَّموها للعرب ثانيةً.

وقعَ السَّهْبُ الليبي مع رِمالِه في قبضةِ حكومة الإمبراطورية الأسبانية في عام ١٥١٠ وذلك لمدة سنةٍ واحدة، إلا أن ليبيا بقيتْ ـ بإرادة الأسبان ـ تحت تصرُّف الرهبان المالطيين الذين طُردوا منها بعد ثلاثين سنة (في عام ١٥٥١) تحت ضرباتِ الأتراك[4]. أول انتفاضةٍ عارمةٍ ناجحة نظَّمها الشعبُ الليبي

---

(١) انظر التعليق رقم ٢ من الفصل الخامس.

(٢) سمعة الونداليين سيئة جدا في أوروبا. بعبارة «و(ف)انداليزم» يُوصف كل عمل تخريبي يتسم بالهمجية وباللاشرعية. غالبا ما تسمى هكذا أعمال الشغب التي يقوم بها متفرجو مباراة كرة القدم بعد خسارة فريقهم فيحطمون مقاعد الملعب أو زجاج المحلات التجارية والسيارات أو يعتدون على المارّة والخ.

(٣) نسبة إلى مقاطعة نورماندیا الفرنسية المواجهة للساحل الشرقي للجزر البريطانية، وهي موطن النورمانديين الذين اجتاحوا انكلترا عام ١٠٦٦م بقيادة الملك «وليم الفاتح» ثم سيطروا على صقلية ومنها قدموا إلى ليبيا.

(٤) هناك آراء في الأوساط الليبية تقول أن طرابلس بالتحديد بقيت تحت سلطة الاسبان حتى سنة=

كانت في سنة ١٧١١ بقيادة أحمد قَرَه مانلي الذي أعلن نفسه سلطانا على ليبيا. ظلت ليبيا بلدا مستقلا من هذا التاريخ حتى سنة ١٨٣٦، حيث تمكن الأتراكُ طردَ سلالة القَرَه مانلِيين. وانتقلت ليبيا أخيرا تحت هيمنة إيطاليا في يوم ٥/ ١٠/ ١٩١١م خلال الحرب البلقانية.

[III]

لنعدْ الآن إلى الحديث عن تريبوليتانيا. يحدُّها من الشمال والشمال الشرقي البحرُ الأبيض المتوسط (يبلغ طول الشاطئ حوالي ٩٠٠ كم ابتداءً من رأس آغير وانتهاءً بـ بو شيف). أما الحدود الإدارية الشرقية مع سيرينايكا فتمتدُّ على طول طريق بو شيف ـ مرادة ثم تنحرف شرقاً حتى خطِّ الطول o19 وجنوبا حتى خطِّ العرض o22. بينما من الجهة الجنوبية الغربية فإن الحدود تبدأُ من سيرينايكا وتمرُّ بأخيبش acheibesc (فرنسي) إلى نفاش Nefash (إيطالية) (خطّ تمّو ـ فوغاس (فرنسية) ـ سلاسل جبلية تمّو وتاسيلي). يقابلها من جهة الجنوب الشرقي خطٌّ يمرُّ بنفاش وتمّو حتى أفريقيا الفرنسية الأكواتورية. تمتد الحدود الغربية عبر جبال تاسيلي (حيث تنتهي الحدود مع أفريقيا الفرنسية الغربية) ـ غات ـ إينِهوبارتان (Inehobartan) ـ الغار، حتى تبلغ سهبَ تينغرت (قد تكون توغورت؟) (Tinghert) مع الجزائر. بينما الحدود الشمالية الغربية مع تونس فتمرُّ بغدامس ـ مزيزن ـ وازن ـ هضبة جبل ـ العسه ـ رأس اجدير.

تختلف الطبيعة الجغرافية لتريبوليتانيا من منطقة لأخرى. يمكن تقسيمها إلى أربع مناطق واضحة في بنيتها وفي تضاريسها ومناخها:

١ ـ تريبوليتانيا الحقيقية: يحدُّها شمالا شريط ساحل البحر الأبيض المتوسط (من رأس اجدير حتى Tsammed Hassan)؛ من الجنوب الشرقي ـ وادي البي

= ١٥٣٠م ثم تنازلوا عنها للرهبان اليوحانيين الذي طُردوا منها في سنة ١٥٥١م، ومن تاريخه بدأت الهيمنة التركية على ليبيا التي استمرت حتى تحريرها من قبل الطليان سنة ١٩١١م.

الكبير (ينتهي عند شاطىء البحر في Tsammed Hassan) حتى هضبة الجبل؛ من الجنوب ـ حافة هضبة الجبل؛ من الشمال الغربي ـ الحدود مع تونس.

٢ ـ سيرتيكا: يحدُّها شمالا شريط ساحل البحر الأبيض المتوسط (من Tsammed Hassan إلى بو شيف)؛ من الشرق ـ الخط الإداري الحدودي مع سيرينايكا؛ من الجنوب ـ سلاسل الهاروج الأسود وجبل الأسود؛ من الغرب ـ خطٌّ يبدأ من قاعدة الجبل الأسود ثم يمرُّ عبر بو نجيم إلى وادي البي الكبير؛ من الشمال الغربي ـ وادي البي الكبير حتى Tsammed Hassan.

٣ ـ الهضبة الداخلية: تحدُّها من الشمال والشمال الشرقي حافة الجبل؛ من الشرق ـ وادي البي الكبير مرورا بـ بو نجيم حتى قاعدة جبال الجبل الأسود؛ من الجنوب ـ سلسلة جبال الجبل الأسود والحافة الجنوبية لهضبة تينغرت حتى حدود الجزائر؛ من الغرب ـ الحدود مع الجزائر وتونس.

٤ ـ فزان: تحدُّها من الشمال والشمال الشرقي الهضبة الداخلية وسيرتيكا؛ من الجنوب الغربي والجنوب الشرقي ـ أفريقيا الفرنسية الأكواتورية؛ من الغرب والجنوب الغربي ـ أفريقيا الفرنسية الأكواتورية والجزائر.

يتألف السطح الساحلي المسمَّى تريبوليتانيا الحقيقية من سهولٍ مستوية تتخللها أشرطة كثبانية وسبخات مالحة طفيفة ذوات قعر طيني. تشغل السهولُ سبعةَ أعشار مساحة السطح كلِّه ـ فيها عددٌ من الواحات الخضراء. ولعلَّ أكبر السهول هي غاطس؟ (Gattis)، سَواني (Suani) بن آدم، فندق؟ (Fondugh) بن غشير. التربةُ غنيَّةٌ وصالحةٌ سيّما لزراعة الحبوب والبساتين والحدائق، إلا أنَّ العائقَ الأساسيَّ هو نقصُ المياه.

هذا، وتمتد الواحاتُ وفقَ ثلاثة محاور واضحة المعالم: المحور الساحلي، المحور الداخلي والمحور الجبلي.

تبدأ منطقة الواحات الساحلية من الحدود التونسية وتُقسم إلى: زْوارَه،

رغدالين، زلتن، الجميل، المنشا، العجيلات، الشبيان، الجديدة، أم الحلوف، دهمان، الختاتبه، صرمان، الزاويه، غرغوزه، التينه، المَيَّه، سَنَد، جنزور، طرابلس (بمساحة ٥٠ كم٢)، ملاحه، الفرناج، عين زاره، التاجوراء (٤٥ كم٢)، قصر القره بوللي، فندق القياش (Fomdugh el Giasc)، قصر جفاره (Gefara)، الخمس، ساحل الأحامد، زليتن (٥٥ كم٢)، مصراته، مصراته مارينه، تاورغاء وأخيرا قصر جبر (Gser Gebr).

يمتد المحور الداخلي على عمق خمسين إلى سبعين كيلومترا ويشمل الواحاتِ التالية: العسه (el Assa)، بشول (Besciul)، بئر الغنم، الغيران، العزيزية، البن (el Ben).

يليه محور الواحات الجبلية: زيقزَو (Zigzau)، بير دوفان، تيجي، الجوش، شكشوك، قصر الحاج، ربطِه (Rabte)، حنشر الأبيض.

تعزو الواحات وجودها ليس للبنية الخاصة للتربة ومكوِّناتها الكيميائية، إنما لوجود المياه فقط.

النباتات في هذا الجزء من تريبوليتانيا بحرُ أبيض متوسطية بحتة وتشبه كثيرا نباتاتِ صقلية وجنوب إيطاليا.

تنفرد هذه المنطقة بأصنافٍ خاصة من النباتات العُشْبية، عدا المعروفة في أوروبا، مثل "chi" الشيح الأبيض (Artemisia herba alba)، نوع من الشعال السهلي؛ "dis" (الديس، التِّيفا) (Juncus effusus)، نوع من البَردي غليظ الساق مستديره بلون رمادي أخضر تُستخدم أنسجتُه في صناعة الحبال وسجادات الجدار؛ "sparto" (Lygeum spartum) ذو ساقٍ رفيع مستدير ارتفاعه ٣٠ ـ ٥٠ سم، أوراقُه طويله رفيعة بلون أخضر وأزرق، تُستخرج منه أليافٌ مثل القطن تُستخدم في صناعة الحبال؛ "sbet" نوع آخر من Lygeum spartum؛ "ghedam" (Salicornia) ينمو في السبخات؛ "remt" (Haloxylon)؛ "smar" (أحد أصناف Juncus effusus)، يُصنع الفرشُ من

أليافِه؛ (Stipa tenacissima) "halta" بأوراق طويلة غليظة جافة بلون أزرق رمادي مائل إلى الخضرة تُستخدم في حياكة الحبال والحصر. أهم النباتات المزروعةِ الشعيرُ والقمح والتبغ.

ونذكر من الشجيرات الدارجة: "clil" (الكليل، الغار) (Rosmarinus africanus) بارتفاع مترين تقريبا وبأوراق متطاولة منحنية الحواف إلى الأسفل ولحاء خشن بلون بني أحمر، عند نهاية أغصانه تتدلى عناقيدٌ من الورود البيضاء أو البنفسجية ـ يُستخرج من النبات العطرُ؛ (Asphodelus) "belluz"، صنفٌ من السوسن الكثيف الملتف، كثير الأوراق طويلها يستخرج منها الكحول، أما جذوره فتؤكل؛ "zaatar" (الزعتر) (Thymus vulgaris)، يبلغ ارتفاعه ثلاثين سنتيمترا، أوراقه بيضوية اللون ببقعٍ صفراء، ورودُه حمراء أو بيضاء، يُستخدم في صناعة الكحول وزيوت العطر وتستخرج منه مادة طبّيّةٌ تُدعى "timolo" تستعمل في تعقيم الجروح والحروق الجلدية؛ (Zisyphus Lotus) "sedr" ينمو في الأمكنة ذات الحجارة القريبة من البحر، أوراقه متطاولة، أغصانه شوكية، ثماره حمراء ـ يستخدم كوقودٍ وفي بناء السياجات؛ "rtem" شُجَيْرة ضخمة شوكية تستخدم هي الأخرى كوقودٍ وفي صناعة الحناء (Lawsonia internis) المعروفة منذ غابر الأزمنة (عُثر على أوراقها في قبور الفراعنة). لا يتعدى ارتفاع الشُّجَيْرات المزروعة والمعتنى بها بالتقليم المترَ الواحد، بينما التي تنمو برِّيّاً تصل إلى عدة أمتار في الكثير من الأحيان، تقترب إلى هيئة الشجرة الصغيرة الكثيفة الأغصان. عدا هذا فإن الطليان قد جلبوا العنبَ وزرعُوه وتأقْلمَ في ضواحي طرابلس تأقلما ممتازا.

تحتل النخلة (Phoenix dectilifera) مكانَ الصدارة بين الأشجار. تنمو كذلك أشجار الزيتون والبرتقال والليمون والتفاح والكمثرى والأجاص ونبات الهندي (Opuntia Ficus indica) وهذا الأخير ضربٌ من الصبّار الذي تؤكل ثماره. وتميّز عالـمَ النبات شُجَيْرةٌ بحجم شجرة الزيتون (Pistacia vera) "battum"

تؤكل ثمارها وشجرة الخِرْوَع) "talha" ضرب من الأكاسيا) وكذلك "etel" (Tamerix africaca) وهي شجيرة واسعة الانتشار في تجمعات كثيرة بارتفاع ثلاثة أمتار تقريبا، أوراقها صغيرة تشبه السَّرو (من الفصيلة الصنوبرية) بورود صغيرة بيضاء أو بنفسجية اللون. هذا، وقد تأقلمت بنجاحٍ مُدهش كلّ مِنْ الأوكاليبتوس والأكاسيا المجلوبتَيْن من استراليا.

أما عالم الحيوان ففقيرٌ هنا، باستثناء تريبوليتانيا الحقيقية التي تتميّز بتربةٍ أكثر خصوبةً على العموم وبكمياتٍ لا بأس بها من المياه وهذا ما جعلها غنيةً نسبيا بالنباتات وبالحيوانات كذلك. تشمل تربيةُ الحيوانات الأصنافَ التالية (نوردها بالتسلسل حسب عددها): الأغنام، الماعز، الجمال، المواشي القرنية، الحمير والخيول. يُربّى فيها من الطيور الأهلية الدجاجُ والبط والوز والديك الرومي والحمام. بينما تُقسم الثَّدْيِيّاتُ البريةُ إلى: بنات آوى، ضباع، ثعالب، قطط برية، أيايل، ظباء، شياهم، أنياص، قنافذ، أرانب برية، بَنات عِرس، جرذان، فئران، يرابيع وغيرها. وتتمثل الطيور باللقالق والبَلَشونات والنسور والبواشق والبزاة والبطوط والْوَزّ البرّي والحِجال والسَّلْوى والسُّماناة والقَماري والزّرازير. أشهر الزواحف في الصحراء هي الأفعى القرْنيةُ. ونورد من البرمائيات الأكثرَ رواجا: السمادر (السمادل) والعَظايات والعلاجيم والضفادع وغيرها من أنواع الحشرات المختلفة، وفي مقدمتها العقارب. لم يُعطَ عالم الحيوان في تريبوليتانيا حقّه من البحث العلمي، خاصة فيما يتعلق بالحشرات.

تَشغِل الصحارى الرمليةُ مساحاتٍ شاسعة يقع أغلبها في الجزء الشمالي الغربي من البلد؛ نعدّد من بينها شريطَ الكثبان البحرية الممتد من رأس المخبز حتى سيدي سعيد وحزام آخر من الكثبان القارّيّة جنوب طرابلس، ما بين العزيزية وبئر الغنم، لعل أكبرها قاطبة هي تلك القريبة من الحدود التونسية بين الاحيمر "el Ahemer" وطويل حلاب "Tuil Hallab". ولكن ليست النباتات

معدومةً حتى في هذه المناطق، فالنخيل مثلا ينمو في كلِّ مكانٍ تتوفر فيه المياه السطحية.

تغطّي السبخات هي الأخرى مساحاتٍ واسعة؛ تقع أكبرها في أقصى الحدود الغربية والشرقية منها على حدٍّ سواء. فنجد في الغرب على مقربة من الحدود التونسية سبخة المجته "el Magta"، بينما في الشرق سبخة تاورغاء بطول ١٣٠ كم وبعرض متوسط ١٠ كم. هناك أيضا سبخات أصغر مثل سبخة الجدر "el Gedr" وسبخة زواره وسبخة العجيلات.

ندرةُ الأمطار من جهة وهشاشةُ التربة من جهة أخرى سببانِ في عدم وجود ولا نهرٍ واحد ثابت ودائم يمرُّ عبر تريبوليتانيا الحقيقية. ولكن المجاري الجافة للأنهار فعديدةٌ وهي تدعى «وادي» وتسيل فيها المياه في موسم الأمطار فقط. في نهايات بعض الوديان، وبالتحديد عند المصب، تتشكل أحيانا غدران ضحلة تتدفق مياهها من الرمال وأخيرا تصب في البحر.

إليكم أسماءَ أهم الوديان اعتبارا من الحدود التونسية: مجانين "Megenin")يهوي في البحر بالقرب من طرابلس)، سام "Caam" سوف الجين بفرعيه الأيسر (يُدعى مردوم) والأيمن (يُدعى نفيد)، زمزم بفروعه اليمنى غيرزه "Ghirza"، زازمات "Zazemat" (ينهي كلٌّ من سوف الجين وزمزم مسارهما في سبخة تاورغاء)، البي الكبير الذي يعتبر الحدود الفاصلة بين تريبوليتانيا الحقيقية وسيرتيكا. هناك وديانٌ صغيرة أخرى كثيرة تأخذ بدايتها من الحافة الشمالية لهضبة الجبل ثم تتلاشى بدون أثر في وسط السهول.

أساسُ الحياة وسرّ النجاح في تربية المزروعات هي المياه الجوفية. اختفتْ هذه المياه في تريبوليتانيا الحقيقية مستقرةً تحت طبقةٍ مانعةِ الترشيح وغير شفّافةٍ عمقها من ١٠ إلى ٢٠٠ متر تحت سطح الأرض. في الأمكنة التي تقترب هذه الطبقةُ الحاملةُ للمياه نحو سطح الأرض تتدفّقُ عيونٌ عذبة واهبةً الحياة. وللوصول إلى المياه الجارية بعمقٍ طفيف تكفي الآبارُ العادية التقليدية. بينما إذا

كانت المجاري أكثر عمقا حينها من الضروري اللجوء إلى حفر الآبار الارتوازية.

أغنى منطقة بعيون المياه وبعدد الآبار، حيث تقع المياه على عمق متوسط يساوي عشرين مترا، هي العجيلات ـ طرابلس، باستثناء الواحات الأربعة التالية: منشا، الجميل، رأس المخبز وفاروه "Farua" ذوات المياه العذبة الصالحة للشرب. تتميز مياه مجموعة الواحات الأخرى القريبة من الحدود التونسية بالملوحة بسببِ وجود السبخات. بينما تفتقر منطقة الجفره شرق طرابلس لمصادر المياه، إلا أنَّ المياهَ القليلةَ المتوفرةَ فيها عذبةٌ جدا. هذا، وتتوفر المياه بكثرةٍ في الواحات الشرقية الغنية بالينابيع باستثناء ساحل الأحامد. مياه العيون الموجودة بين الخمس وتسامد حسان "Tsammed Hassan" مالحةٌ قليلا.

تملك واحاتُ المنطقة الداخلية والحزام الجبلي مياهاً جيدةً للشرب على العموم، عدا جزأه الواقع جنوب الخمس ـ مصراته الذي يفتقر إلى الينابيع والآبار.

كون تريبوليتانيا الحقيقية تحت تأثير البحر الأبيض المتوسط يجعل مناخَها قريبا لمناخ صقلية. إلا أنَّ معدَّلَ الفروق في درجات الحرارة بين الليل والنهار أعلى ويمتاز كذلك بفترات أطول من الجفاف وبتيارات هوائية أشدّ.

تصل الحرارة القصوى في شهر آب/ أغسطس (هانيبال) في الظلِّ إلى ٤٥ فوق الصفر، أما الحرارة الدنيا في شهر كانون الثاني/ يناير (أي النار) فتهبط إلى درجة واحدة فوق الصفر. معدلات درجات الحرارة القصوى في الأشهر الصيفية الثلاثة تموز ـ أيلول/ يوليو ـ سبتمبر (ناصر ـ الفاتح) ٢٩ فوق الصفر والدنيا ٢١ فوق الصفر. أما أعلى معدَّلٍ سجلته درجة الحرارة في الفصل الأكثر برودةً كانون الأول ـ شباط/ ديسمبر ـ فبراير (الكانون ـ النوار) فكان ١٨ فوق الصفر وأدنى معدَّلٍ ٩ فوق الصفر. بلغ متوسطُ درجة الحرارة السنوية خلال العشرين سنة الفائتة ١٩،٧ فوق الصفر؛ بينما متوسط درجة الحرارة السنوية القصوى ـ ٢٣،٤ فوق الصفر والدنيا ـ ١٦،٠ فوق الصفر. يبدو متوسط

الفروقات في درجات الحرارة الشهرية بين الليل والنهار ثابتا تقريبا، إلا أنها كبيرةٌ بين يوم وآخر. ففي بعضها تقترب وفي البعض الآخر تبتعد، مما يؤثر على النباتات سلبيا.

فصل الصيف من شهر حزيران ـ آب/ يونيو ـ أغسطس (الصيف ـ هانيبال) جافٌ كليا، بينما تهطل الأمطار في فترة شهر تشرين الأول ـ كانون الأول/ أكتوبر ـ ديسمبر (التمور ـ الكانون) وتنهمر أكبر كمية منها في كانون الأول/ ديسمبر (الكانون)، أما في الأشهر الأخرى من السنة فهي نادرة. يساوي معدل كمية الأمطار في تريبوليتانيا الحقيقية ٦٥ ملليمترا في السنة.

غالبا ما تهب الرياح في المنطقة الساحلية، بينما في المناطق الجنوبية التي تليها فهي نادرةٌ. ولهذا السبب يشعر الإنسان في فصل الصيف بوهجٍ قاتل مزعج. تهب في موسم الأمطار رياح شمالية شرقية بسرعة تصل إلى ٦٥ كم في الساعة. بينما تغلب في فصل الجفاف الرياح الشمالية الغربية. تعصف بين فترة وأخرى رياح سيروككو المعروفة هنا باسمها العربي «قبلي» (جنوبية غربية). هي جافَّةٌ كليا وتحمل سحاباتٍ من الرمال مسببةً شتى الأضرار، وإن كانت هنا أقل هولاً من تلك التي تحدث في عمق الصحراء. تلي سيروككو دائما ريحٌ شمالية تنظِّف الهواءَ والجوَّ حاملةً بعضَ الرطوبة.

يطيق الإنسان الأوروبي مناخَ تريبوليتانيا الحقيقية وهو قادر ليعيش فيه. ولعل خيرَ دليلٍ تجربةُ الجنود الطليان الذين نادرا جدا ما يقعون في حالة مرضية أو غثيان بسبب الطقس. ولكن تحت شرط الابتعاد الكلي عن تعاطي المشروبات الكحولية واختيار اللباس الملائم للحرارة الدارجة في مختلف فترات اليوم.

شطُّ البحر الممتد بين رأس اجدير والعجيلات رمليٌّ وكلما ابتعد عن البحر كلما زادت الصخور. تمتد الصخور حتى خارج حدود طرابلس ثم يحلُّ محلَّها شريطٌ طويل من الكثبان الساحلية المفصولة عن بعضها بالواحات حتى الوصول إلى تسامد حسان "Tsammed Hassan".

لو انطلقنا من الحدود التونسية واتجهنا غرباً سنمرُّ بالموانىء التالية: بو خمّاش (ترسو فيها القوارب فقط وسفن الصيد الصغيرة)، زْوارَة (مرفأ يستقبل السفن المتوسطة الحجم، ترسو ذوات الحمولة الكبيرة بالقرب من الشاطىء)، مرساة زواقة "Marset Zuaga" (مرفأ صغير للسفن الراسية بقرب الشط)، مرساة المدينة (مرفأ صغير لقوارب صيادي السمك)، طرابلس (أكبر ميناء في تريبوليتانيا بأجهزة تقنية حديثة لأكبر السفن)، زليتن (مرفأ متوسط الحجم لقوارب صيادي السمك) وأخيرا مصراته مارينا (ميناء للسفن ذوات الحمولة المتوسطة). كلُّ هذه الموانىء باستثناء طرابلس غير معدةٍ لاستقبال السفن الكبيرة. ليست مضمونةً بسبب قعرها الرملي المتحرك.

المحطة المركزية للقطارات تقع في طرابلس. السكة من النوع الضيق وتتألف من الخطوط التالية: ١ ـ طرابلس ـ جنزور ـ الزاوية ـ زوارة (الطول ١١٧،٨ كم)، ٢) طرابلس ـ الغيران ـ العزيزية ـ حنشر الأبيض (٩٢،٨ كم)، ٣) طرابلس ـ الفرناج ـ التاجوراء (٢١ كم) بفرع من الفرناج إلى عين زارة (٣،٥ كم). إذَنْ الطولُ الإجمالي للسكة الحديدية يبلغ ٢٣٥،١ كيلو مترا. يبيِّن الجدول التالي حركةَ السلع والركاب المنقولة بواسطة السكك الحديدية التريبوليتانية:

السنوات	السلع المنقولة بالأطنان	عدد الركاب
١٩٣٠ ـ ١٩٣١	٣٦٠,٤٧٣	١٧٩,٤٠٩
١٩٣١ ـ ١٩٣٢	٢٣١,٩٧٢	١٤٦,٢٦٨
١٩٣٢ ـ ١٩٣٣	١٩١,٦٩٨	١٥١,١٢٨

أما الطرق المسفلتة فهي التالية: ١) طرابلس ـ جنزور ـ الزاوية ـ زواره (١٢٠ كم)، ٢) طرابلس ـ التاجوراء ـ الخمس ـ زليتن ـ مصراته (٢٢٠ كم)، ٣) طرابلس ـ العزيزية ـ بو خيلان ـ غريان ـ تيغرينه (١١٥ كم)، ٤) طرابلس ـ

ترهونة (٩٠ كم). يبلغ الطول الإجمالي للطرق المعبدة ٥٤٥ كيلومترا.

إلى جانب الطرق المسفلتة هناك مسالك ذوات أرضية مرصوصة مدكوكة بالحجارة ودروبٌ خاصة للقوافل.

المسالك المرصوصة المدكوكة: ١) العزيزية ـ بئر الغنم ـ قصر الحاج ـ شكشوك ـ الجوش ـ تيجي (٢٤٠ كم) إلى نالوت فوق هضبة الجبل، ٢) العزيزية ـ ترهونه (٧٠ كم) فوق هضبة الجبل، ٣) مصراته ـ تاورغاء ـ بئر القداحيه "Bir el Gheddahia" ـ بويرات الحسون ـ تسامد حسان "Tsammed Hassan"، ٤) مصراته ـ بئر دوفان ـ بني وليد فوق الهضبة الداخلية وأخيرا ٥) مصراته مارينه ـ قصير "Gser" ـ جِبِر "Geber" ـ بويرات الحسون ـ تسامد حسان "Tsammed Hasan".

أما أهم طرق القوافل: ١) زواره ـ رغدالين "Regdalin" ـ العسه؛ ٢) زواره ـ الأجابريه "el Agabria" ـ الفوتيه "el Votia" ـ بير الحمره ـ جادو؛ ٣) الزاويه ـ الهود ـ الجوش؛ ٤) جنزور ـ بير الخشيب "Bir el Chsceb" ـ بئر الغنم؛ ٥) جنزور ـ صواني بن آدم ـ العزيزية؛ ٦) جنزور ـ بير ترّينه "Bir Terrina" ـ بير مداخم "Bir Mdachem" ـ بير أم الجوابي "Bir Umm el Giuabi" ـ يفرن فوق هضبة الجبل؛ ٧) طرابلس ـ عين زاره ـ ترهونة، ٨) التاجوراء ـ سوق الجمعة ـ ترهونة؛ ٩) الخمس ـ القصبات ـ قصر الدون "Gasr ed Dunn" ـ ترهونه؛ ١٠) زليتن ـ بني وليد؛ ١١) زليتن ـ بير جيمي "Bir Gimi" ـ تاورغاء؛ ١٢) مصراته ـ بير الشريفيه ـ بير دهابيه ـ بني وليد.

أكبر التجمعات السكانية: طرابلس ـ ٧٣.٠٠٠ نسمة؛ مصراته ـ ١٥.٠٠٠ نسمة؛ الخمس ـ ٥٠٠٠ نسمة؛ زوارَه ـ ٥٠٠٠ نسمة؛ والعزيزية ـ ٢٠٠٠ نسمة[1].

(١) عدد سكان العاصمة طرابلس ذُكر في التعليق الأو من هذا الفصل. بينما تورد المراجع المشكوك في صحتها الأعداد التالية لسكان المدن الأخرى: مصراته ـ ٤٠٠ ألف، الخمس ـ (؟) ألف، زواره ـ ٤٥ ألف، العزيزية ـ ٤٠٠ ألف (؟).

تريبوليتانيا الحقيقية ومعها هضبة الجبل (جزء من الهضبة الداخلية) هي الجزء الوحيد في تريبوليتانيا التي تملك مساحات قابلة ـ بدرجة معينة ـ لاستيطان المستعمرين الأوروبيين.

لننتقلْ الآن إلى عرْضِ مقاطعة سيرتيكا. تشمل المناطق السياحية الممتدة من تسامد حسان "Tsammed Hassan" إلى بو شيف مع صحراء سيرتيكا والشريط الجنوبي الواقع عند قدم جبل السوداء والهروج الأسود.

الشطُّ البحري رمليٌّ على الأغلب تقطعه في بعض الأمكنة مساحاتٌ صخرية (رأس السلطان، رأس العويجية) والمحطات الصالحة لرسو البواخر قليلةٌ فيه. المرفأُ الرئيسي في سيرتيكا ألا وهو مرسى زعفران "Marsa Zaafran" (ميناء سرت) محجوب من الجهة الشمالية بكتل صخرية ومجال تطوره غير مضمون بسبب الرياح القوية المتكررة، سيَّما في فصل الشتاء. هناك موانىء أخرى قليلة الأهمية صغيرة تخدم زوارق صيادي الأسماك مثل: مرسة العويجية "Marset el Auegia" ومرسة الإيحودية "Marset el Ihudia".

أرض سيرتيكا فقيرة في الواحات. في شريطها الساحلي نجد ثلاث واحات فقط: مرسى زعفران، سرت والسلطان، علما أن الواحتين الأوليْن تبتعدان عن بعضهما مسافة ثلاثة كيلومترات فقط. باستثناء واحة بو نجيم الصغيرة عند حدود تريبوليتانيا الحقيقية نادرا ما تقع العين في المناطق الأخرى من الصحراء الداخلية على ينابيع مياه في الوادي حيث ينمو النخيل. بينما في الجنوب فنعاين مجموعة واحات الجفرة (سوكنة، هون، ودان) الرابضة عند قدم سلسلة الجبل الأسود مع واحة زله الواقعة في مقدمة الهروج الأسود.

تشق سيرتيكا مجموعة من الوديان. نأتي على ذكر الرئيسية منها ابتداءً من الحدود الغربية: البي الكبير بتفرعاتٍ مختلفة أهمها وأكبرها هي الشائب "Chaib"، تامت "Tamet"، فرانه "Frana"، فَرَس "Faras"Á تجدر الملاحظة إلى تعدد أسماء هذه الوديان، ففي مجراها السفلي تتحول إلى الأجارا"el

"Agar"، كباريت "Cabarit" وفارغ (ينتهي الواديان الأخيران في سبخة مُقطاع الكبير).

أما الآبار فنجدها في الوحات التالية على طول الشريط الساحلي: تسامد حسان "Tsammed Hassan"، جيارف "Giaref"، مرسى زعفران "Marsa Zaafaran"، سرت، بو شناف، بير الزيدة، الرومْيَه، المويلح، السلطان، الأسيلة "el Asela"، مرسى العويجة، مرسى الإيحودية، مختار "Muctar"Á تملك مجموعةُ واحات الجفرة آبارا عديدة، إلا أنَّ مياهَها ليست ذات نوع جيد. فيها بعض الملوحة. بينما نجد المياه العذبة في آبار الحمادة فقط وفي واحة سوكنا.

أكبر المساحات الصحراوية على طول الشريط الساحلي ذوات البنية الحَجَرية المغطاة بالحصي أو بالرمال المتحركة أحيانا هي التالية: تسامد حسان، أتِلِت بو جرادة "Atelet Bu Gerada"، سبخة السلطان، مقطاع الكبريت.

النباتات نادرة. تمثل أصنافا محلية قريبة من التي تنمو في تريبوليتانيا الحقيقية. أما عالم الحيوان فهو الآخر فقير جدا.

المناخ صحراوي بحت برياح شديدة يغلب عليها القبلي (sirocco). الأمطار نادرة وفروقات درجات الحرارة بين الليل والنهار كبيرة.

لا تمثل سيرتيكا كمستعمرةٍ أيةَ قيمةٍ تُذكر. الطرق المعبّدة معدومة فيها، عدا المسالك الترابية التالية: ١) تسامد حسان ـ سرت ـ السلطان ـ مرسى العويجة ـ مرسى الإيحودية ـ مختار، بمحاذاة البحر ٢) تسامد حسان ـ بونجيم ـ بوأتله "Bu Atla" ـ بير تعر ـ واحات جفرة، في عمق البلد. هناك أيضا طرق خاصة للقوافل: ١) سرت ـ الفاطمية ـ بو أتله ـ سوكنة؛ ٢) سرت ـ بئر السوداء ـ النوفلية ـ بئر جوفر عند الحدود مع سيرينايكا؛ ٣) سوكنة ـ هون ـ ودان ـ زله ـ مكرون "Macrun" ـ مراده في سيرينايكا.

يقع أكبر تجمع سكاني في سرت ـ ٣.٠٠٠ مواطن، تليها سوكنة ـ ١.٨٠٠

مواطن، هون ـ ١٥٠٠ مواطن، ودان ـ ١٢٠٠ مواطن ومرسى العويجة ـ ١٠٠٠ مواطن[1].

يمكن تقسيم الهضبة التي تتوسط البلاد إلى شطرين منفصلين: هضبة الجبل والهضبة الداخلية.

تمتد هضبة الجبل على طول الحدود الجنوبية. تبدو للناظر إليها من الجهة الشمال جبالا عارية مقفرة متفتتة بتأثير الرياح، ولكن في الواقع ـ باستثناء حافتها الشمالية ـ هي هضبة متموجة قليلا بطول ٣٦٠ كم وعرض من ٢٠ إلى ٣٠ كم. تطل جهتها الجنوبية الغربية بانحدار نحو الجهة الجنوبية الشرقية. تشمل ـ ابتداء من الغرب ـ مساحات نالوت، جادو، يفرن، غريان، ترهومة، مسلاته وتتساقط فيها كميات لا بأس بها من الأمطار؛ تسيل المياه في العديد من الوديان المؤدية من جهة عبر رمال ارغو "Erghu" التونسية والجزائرية، ومن جهة أخرى إلى تريبوليتانيا الحقيقية وصحراء سيرتيكه.

تزداد تربة الهضبة خصوبة كلما اتجهنا إلى الشرق؛ تنمو المراعي الصخرية في أراضي كلٍّ من نالوت وجادو ويفرن وتتخللها بين مسافة وأخرى حقول الشعير وأشجار الزيتون. أما غريان فهي أغنى جزء في الهضبة بحقولها وبساتين الزيتون وبكميات التبغ المزروع فيها. بينما تفتقر ترهونة إلى الأشجار لكنها غنية بالحقول والمراعي وتلال مسلاّتة التي تضفي عليها أشجار الزيتون خضرةً.

المصدر الرئيسي للمياه في ناحية نالوت هي عين تاله "Ain Tala" وغيرها من الينابيع في انبطاحات بغيغيلة "Bghighila". أما في ناحية جادو نجد عين مسيلغين "Ain Mselghin" وعين تموغت "Ain Tmuget" في واحة غنّاوم "Ghennaum". بينما في ناحية يفرن أفضل مياه تعطيها مجموعة من آبار

---

(١) حسب الإحصائية الجديدة يبلغ عدد سكان سرت ٧٠ ألف نسمة. وقياسا عليه يمكن تقدير عدد سكان المدن الأخرى على النحو التالي: سوكنه ـ ٤١ ألف، هون ـ ٣٥ ألف، ودان ـ ٢٧ ألف، مرسى العويجة ـ ٢٣ ألف.

العوينية وورومية التي تمتد منها قناة إلى واحة يفرن. تتزود غريان بمياه العديد من الينابيع الطبيعية والآبار، لعل أفضلها التُّرك وبوغيلان. تصل المياه إلى ترهونة من عين واحدة فقط تسيل فوق مدرّج صغير يدعى الشرشارة. وهناك آبار على طريق العزيزية أهمها أبيار ميجي "Miggi" (قد تكون تيجي؟). بينما تفتقر ناحية مسِللاتَه إلى الآبار؛ آبار الزعفرانية وفاراون "Faraun" وفاجهين العمامرة "Fagghin el Amamra" غير كافية.

الشجرة الرئيسية في هذه المناطق هي الزيتون. وتأتي في الدرجة الثانية أشجار التين التي تحلُّ فواكهُها محلَّ التمور. تتواجد هنا وهناك مجموعات بسيطة من النخيل، سيّما في الأمكنة التي لا تطالها الرياح متشكلة ما يشبه الواحات الصغيرة حيث يزرع ما هب ودب من شتى الأشجار المثمرة والخضروات. كروم العنب نادرة، لكنها موجودة أحيانا.

تمركزت التجمعات الكبيرة للنخيل في الواحات التالية: بغيغيلة، نالوت، حصيان نالوت (في ناحية نالوت)؛ البراهمة وغنّاون "Ghennaun" (ناحية جيدو)؛ خيكلة "Chicla"، السوادنة، الرومية، الخلَيفة، الرياينة (ناحية يفرن)؛ بوغيلان، عين التُّرك، ميشا (ناحية غريان)؛ ترهونة، القصبات (ناحية مسِللاتَه).

الحبوب الرئيسية المزروعة هي الشعير. وأحيانا يُزرع كل من القمح والجاودار أيضا. تتوفر أفضل تربة لها في ناحية مسِللاتة وترهونة وغريان. وتختفي هذه الحبوب كلما اتجهنا غربا، إذ تنمو فوق الأراضي المنخفضة فقط المحمية من تأثير الرياح القوية. وبدلا عنها تكتسب تربية الحلفاء (Stipa tenacissima) أهمية كبيرة في الأراضي التي لا تصلح لزراعة الحبوب وكذلك نبات سبارتو (Lygeum spartum)؛ لا يحتاج هذان النباتان لرطوبة عالية، يقاوِمان الرياح. تُزرع بهما مساحة شاسعة في القصبات والزنتان.

الجزء الداخلي ذو العدد الضئيل من الأمكنة المسكونة، وهو منطقة القبائل الرحل، يشمل أراضي غدامس عند الحدود التونسية ومزده وبني وليد.

تختلف طبوغرافية الجزء المتوسط من تريبوليتانيا من مكان لآخر. الحزام العريض الموازي لهضبة الجبل (المعروف باسم غيبلة "Ghibla") يشكل عددا من السطوح المستوية المفصولة عن بعضها بمرتفعات متموجة أحيانا وتمتد في اتجاهات مختلفة. وإذا تابعنا السير نحو الجنوب سنجد هضبة الحمادة الحمراء الصخرية المائلة من الناحية الشمالية الغربية باتجاه الجنوب الغربي المغطاة بكثافة بجدران حجرية وحصي حادة النهايات. هي أكثر وحشة وأصعب مسلكا من كل الأراضي الصحراوية في تريبوليتانيا قاطبة. تنتشر شرق الحمادة الحمراء سلسلة جبل السوداء الصخرية والقفر بارتفاع متوسط يقارب ٨٠٠ م، أحيانا يتعدى علو قمم ١٠٠٠ م. امتداد جبل السوداء هي جبال الهروج الأسود الواقعة في فزان. تُفصل إلى شريطين متوازيين. وإذا توغلنا جنوبا نحو فزان فسنجد على مقربة من الحدود سهب تنغِرت بدايته موازية للحمادة الحمراء ثم يلف متجها نحو الجنوب.

المساحات الداخلية للهضبة صحراوية بحتة. تتشكل سطوحها من «حمادة» (جدران حجرية)، «سرير» (حصي حادة أو ملساء) و«رملة» (رِمال متحركة). الواحات الوحيدة الموجودة هنا هي التالية: غدامس، درج، القريات، مزده، بني وليد. يزرع الشعير في بعض الأمكنة (وادي زمزم، وادي بيه). النباتات الأخرى مثل الحلفاء، رتيم، سبارتو وطلحة نادرةٌ. تدل كثرة الآثار الرومانية بأن المنطقة كانت خصبة يوما من الأيام. تقطع الهضبة الوديان الأساسية التالية: سياح مسكد منصور"Siah Mesced Mansur"؛ تاناروت المتجه من الجنوب نحو الغرب؛ سوف الجين المنحدر شرقا حتى يصب في سبخة تاوغاء في تريبوليتانيا الحقيقية.

مناخ هضبة الجبل قريب لمناخ تريبوليتانيا الحقيقية. كون الجبل بعيدا عن البحر يجعله مُعرّضا للرياح الصحراوية الجنوبية «قبلي» التي لا يعرقلها أي عائق أو سد في طريقها. غالبا ما تهب أيضا رياح غربية جافة، أما الشرقية التي تحمل معها بعض الرطوبة فنادرة. شتاءً تهطل أحيانا بعض الثلوج.

في الجزء الداخلي للهضبة الطقس صحراوي قطعا. لا ترحمه الرياح القوية الجافة الهدامة. الأمطار نادرة جدا. الفروقات في درجات الحرارة بين الليل والنهار كبيرةٌ. يقفز مقياس الحرارة إلى ٣٠ ـ ٤٠ درجة في النهار، وأحيانا كثيرة إلى تحت الصفر ليلا.

المسالك الرئيسية: ١) غريان ـ يفرن ـ الزنتان "es Zintan" ـ جادو ـ نالوت: ٢) ترهونة ـ بني وليد؛ ٣) غريان ـ مزده ـ القريات ـ القرية الشرقية ـ الشويرف ـ بير قيلونية"Bir Ghelonia" ـ براك في فزان (٥٨٠ كم).

دروب القوافل: ١) نالوت ـ سيناون ـ درج ـ غدامس؛ ٢) جادو ـ سانية الرجل "Saniet el Regel" ـ سيناون؛ ٣) الزنتان ـ حريز الفوقي "Hariz el Foghi" ـ سيناون؛ ٤) الزنتان ـ بير تلاشين ـ بير علاق ـ بير أم الفرت ـ درج ـ غدامس؛ ٥) الزنتان ـ عقلة القفيرات ـ مزده؛ ٦) غريان ـ ترهونه؛ ٧) مزده ـ بير الكلاب ـ بن نُصيره ـ درج ـ ماترس ـ غدامس (يشق هذا المسلك صحراء قبله ـ غيبله)؛ ٨) مزده ـ كرمة غداميه "Chormet Ghaddamia" ـ الغربْيه "el Garbia" ـ التابونية ـ دويره ـ وهد الباب فوق هضبة تنغرت ـ برقن في فزان (٧٠٠ كم)؛ ٩) بني وليد ـ بير تاله ـ الفسخية "el Faschia" ـ أم الغربال ـ بونجيم في سيرتيكه؛ ١٠) الشويرف ـ سينْيِة عرجلات "Seniet Argalat" ـ واحة سوكنه في سيرتيكه.

أهم الأحياء هي التالية: غريان ـ ١٠.٠٠٠ نسمة؛ غدامس ـ ٤.٠٠٠ نسمة؛ يفرن ـ ٥٠٠ نسمة؛ ترهونه ـ ٥٠٠ نسمة.

جميلة تقليدية وفولكلورية هي قرى القبائل الرحّل التي تزاول حياة الرعاة في أراضي غيبلة (قبله) والحمادة الحمراء وتنغرت. تُعتبر هذه القرى بمثابة مركز من مراكز الحياة القبلية وتستخدم أيضا لخزن المواد، فهي في أغلبية فصول السنة فارغة غير مسكونة. نذكر منها التالية: بغيغيلة لقبيلة حَرَب "Harab"؛ الجوش في تريبوليتانيا الحقيقية لقبيلة سيّان "Siaan"؛ قصر الحج لقبيلة روقبان

"Rogeban"؛ الزنتان لقبيلة الزنتان، مزده لقبيلة ولاد بو سيف، وأخيرا بني وليد لقبيلة أورفلله "Orfella".

فزان أكبرُ مقاطعة من المقاطعات الأربعة في تريبوليتانيا بمساحة قدرها ٥٥٠٠٠٠ كم٢. هي هضبة ضخمة متعالية تدريجيا في الإتجاه الجنوبي نحو السلاسل الحدودية الجبلية تاسيلي وتمّو. تقطعها عرضا من الشرق إلى الغرب ستة سهول؛ ثلاثة منها كبيرة وثلاثة صغيرة. فيها تتمركز الحياة.

السهول الكبيرة (من الشمال): ١) وادي الشاطىء بطول حوالي ١٥٠ كم؛ ٢) وادي الآجال بطول قدره حوالي ٢٢٠ كم (يحمل جزءه الشرقي اسم وادي الشرقي، الغربي ـ وادي الغربي؛ ٣) وادي برغيوش ووادي عِتّبَه "Etba" بطول إجمالي حوالي ٣٨٠ كم. أما السهول الصغيرة فهي التالية: ١) وادي زلاف (الفرع الأيمن لوادي الشاطىء)؛ ٢) وادي انجيارن "Engiaren" (الفرع الأيمن لوادي الشرقي)؛ ٣) وادٍ يمتد من قبل مرزق وينتهي عند واحة تمسّه "Tmessa" بطول حوالي ١٢٠ كم. ينتشر من الاتجاه الشمالي الشرقي نحو الجنوب سهل عريض يضم كلَّ السهول المذكورة وسهلٌ آخر يدعى تانزِروفت "Tanzeruft" متجه نحو واحة غات.

تمتد في الجزء الشمالي الغربي من فزان، من الشمال إلى الجنوب، تمتد نحو جبال تاسيلي سلاسل جبل اكاكوس ومساك ملات. بينما تشهق في الجزء الجنوبي الشرقي باتجاه تمّو، تشهق سلسة جبل بن غنيمه كأنها تمديد لجبل آتي "Ati".

المساحة بين وادي الشاطىء ووادي الآجال مغطاة بالرمال المتحركة المعروفة هنا باسم عديدن "edeiden". أما الشريط الفاصل بين وادي الآجال ووادي برقيوش "Bergiusc" فهو مكسو بطبقات من الجدران الحَجَرية والصخور التي تشكل حماده. تهيمن جنوب وادي برقيوش رمال متحركة؛ تحمل هذه الصحراء اسم ادهان. المساحات الباقية من فزان هي عديدن رملية وحماده حجرية.

تشغل الصحراء تسعة أعشار مساحة فزان. النباتات الوحيده هي الأعشاب الجافة والأكاسيا الصحراوية (طلحة).

بينما أراضي السهول فعلى الرغم من مياهها المالحة قليلا، هي بصورة عامة خصبة. يُزرع فيها الشعير والذرة وفي الواحات تنمو الأشجار المثمرة والخضروات، سّيما الفاصولياء - أهمها وأكثرها انتشارا، إنْ لمْ نقلْ الوحيدة. يعطي النخيل الفزاني أفضل أنواع التمور في تريبوليتانيا كلها.

تتربع في سهل وادي الشاطىء ابتداء من الغرب الواحات التالية: أدري، تميسّان، ونزريك "Uenzerich"، هاتيه "Hatia"، القرضه، آقار، تِمزاوه، براك، اشكده. بينما في سهل وادي الآجال نجد الواحات التالية: أوباري، الديسه، الهاتيه، الغريفة "el Grefa"، جرمه، تاخرتيبه "Techertiba"، خسّير "Chessir"، قصر لاروكو "Gasr Larocu"، قصر بنت بيه، الأبيض. إذا توغلنا على عمق ثلاثين كيلومترا سنجد الواحات التالية: جديد (مع حصن سبها المبني على مقربة منها)، تامن هند "Tamenhind"، سمنو، الزيغن. يفتقر سهل وادي برقيوش إلى الواحات، إلا أنه غني بالمراعي. أما سهل مرزق فيحوي الواحات التالية: تساوه، أقّار، مرزق، تراغن، أم الأرانب، البدير، زويله، حارشة "Harescia"، تمسّه. تقع جنوب مرزق في سهل وادي حكمة واحة "Hecma" واحتان: القطرون وتجرهي.

هناك مجموعة من الواحات في ناحية غات عند الحدود الجزائرية، مثل واحة واو الكبير التي تبعد ٣٠٠ كم تقريبا شرق مرزق ثم واحة الفقهاء على طريق سبها - زلّه في سيرتيكا.

يتميز مناخ فزان بفروقات كبيرة في درجات الحرارة بين الليل والنهار. تتراوح الحرارة صيفا بين ٥٢ فوق الصفر (في النهار) إلى ١٥ فوق الصفر (في الليل). أما في الشتاء فتهبط ليلا إلى ٨ درجات تحت الصفر. الأمطار معدومة. أساس حياة النباتات هي الندى الذي يتساقط ليلا. الجو جاف جدا

خلال ساعات النهار وتهب رياح قوية: في الصيف تغلب الجنوبية وفي الشتاء - الشرقية والشمالية.

مناخ فزان خشن ولا يتحمله الإنسان الأوروبي، خاصة في المناطق التي تنتابها عدوى الملاريا. تُعتَبر البحيرات الطينية الصغيرة في سهل مرزق وواحة غات وسهل وادي الشاطىء مرتعا صالحا لحشرات الملاريا. لا تجف هذه البحيرات المموّلة بالينابيع الدائمة على الرغم من الحرارة العالية.

الدروب: ١) سبها - أم العبيد - سوكنه في سيرتيكه (٤٥٠ كم)؛ ٢) أم العبيد - براك - أدري؛ ٣) سبها - أوباري - العوينات - غات (٦٦٠ كم)؛ ٤) سبها - جدُّوه "Goddua" - مرزق.

المسالك الأساسية للقافلات: ١) زله في سيرتيكه - الفقهاء - زويلة - القطرون - تجرهي - تمّو؛ ٢) براك - سبها - مرزق؛ ٣) مرزق - دوقيال "Dugial" - تاكرتيبه "Tachertiba" - ونزيرك "Uenzerich"؛ ٤) غات - العوينات - ايراون - تِساوّه - مرزق - تراغن - البدر - أم العدم - واو الكبير - واوالناموس - بير مرفوف (على المسلك الكبير للقوافل من الجزائر إلى سيرينايكا)؛ ٥) غات - العوينات - بئر تاغري "Bir Tagheri" - تين إيحِدان "Tin Ihedan" - الغار - تمِد تِماسيت "Tmed Temasit" - تْمِد - غدامس (٦٥٠ كم).

الأحياء السكنية الرئيسية: مرزق (عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ فرد)، غات (١٦٠٠ فرد)، جديد (١٠٠٠ فرد)، براك (١٠٠٠ فرد).

[IV]

مازال نبض الحياة الإقتصادية في تريبوليتانيا بطيئا على الرغم من الأموال الطائلة والجهود الفائقة التي بذلتها الدولة الإيطالية. يرتكز الإقتصاد على تربية الحيوانات والزراعة والحرَف المهنية والصناعات المتأخرة في النمو.

تربية الحيوانات من اختصاص السكان الأصليين. يمكن حصر واقع تربية الحيوانات بالاعتماد على معطيات حوليات الدراسات الإحصائية "La Tripolitania" الصادرة في تريبوليتانيا عن غرفة التجارة والصناعة والزراعة. يمكن حصرها في أرقام مطلقة كما يلي: الأغنام ـ ٣٢٠٠٠٠ رأس، الماعز ـ ٢٠٠٠٠٠ رأس، الجمال ـ ٣٥٠٠٠ رأس، الأبقار ـ ٢٠٠٠٠، الحمير ـ ٢٠٠٠٠، الخيول ـ ٣٠٠٠ رأس. هذا وتجدر الإشارة إلى تطور صيد سمك الطون واستخراج الاسفنج. يدرّ هذا العمل النامي على الشاطىء التريبوليتاني دخلا يُقَدَّر بعشرة إلى عشرين مليونا من الليرات الإيطالية. يزاول صيد سمك الطون المهاجرون من صقلية، أما صيد الاسفنج فهو مهنة اليونانيين. يعطي الجدول التالي كميات صيد الأسمال والاسفنج خلال السنوات الثلاثة الأخيرة:

السنوات	القيمة بالليرات الطون والأسماك الأخرى	الاسفنج
١٩٣١	٣,٩٠٠,٠٠٠	٣,٥٧٩,٠٠٠
١٩٣٢	٤,٦٨٤,٠٠٠	٣,٥١٧,٠٠٠
١٩٣٣	٣,٦٥٣,٠٠٠	٩٣٦,٠٠٠

تتمركز الزراعة في الواحات وعلى الرفوف المزروعة بالشعير المسروقة من السُّهُب أينما كان هذا ممكننا. نجدها كذلك في العقارات التابعة لأصحاب الامتيازات من الطليان. مساحة المساحات المزروعة في تريبوليتانيا الحقيقية (الجزء الوحيد من المستعمرة الواقع خارج هضبة الجبل الممكن استغلاله للزراعة على نطاق أوسع) تساوي ٣٣٥٠٠٠ هكتارا، ثلثها (١١٠٠٠٠ هكتار) تابعٌ لأصحاب الأملاك الطليان وتدل حسابات مكتب إدارة المستعمرة أنه يجري الآن استصلاح حوالي ٩٠٠٠٠ هكتار آخر تمهيدا لزراعتها مستقبلا. تشمل الزراعة بصورة رئيسية النخيلَ والزيتون والعنب والشعير والقمح والتبغ

وشجيرات الأحراش والنباتات الطبيّة والخضروات وغيرها.

النخلةُ ملكةُ النباتات الوطنية في ليبيا وأساس المحصولات الزراعية. تُعتبر التمور إلى جانب دقيق الشعير ولحوم الأغنام المصدرَ الأولَ في تغذية السكان الأصليين وتدخل أيضا في عداد البضاعة المُصدَّرة إلى الخارج بمقدار حوالي ١٠٪ من مجموع الانتاج المحلي. يستخدم الخشب وسعف النخيل كمادة بناء ووقود والإنتاج الإجمالي للتمور يساوي حوالي ٢٥٠٠٠ طن.

تُستغل التمور في معامل التكرير للحصول على الكحول؛ بينما يستخرج السكان المحليون من عصير النخلة مشروبا روحيا «القمي»، أي خمرا نخيليا.

أفضل منطقة لزراعة أشجار الزيتون هي الشريط الساحلي طرابلس ـ الخمس وهضبة الجبل. يقدر إنتاج زيت الزيتون بحوالي ١٠٠٠٠٠٠٠ ليتر. الزيتون مادة غذائية شائعة عند السكان الأصليين وتُنقل بعض كمياته إلى سيرينايكا. زراعة الداليات في الأراضي التي وُضعت تحت تصرّف الإيطاليين بوشرت اعتبارا من سنة ١٩٢٦ وفقاً لسياسة الامتيازات وبدت هذه التجربةُ ناجحةً جدا، فزراعة الداليات في تطوُّر مستمر وتعطي ثمارا جيدة. إلى جانب أشجار التين المحلية فقد اعتمد أصحاب الامتيازات زراعةَ أشجار اللوز والبرتقال والليمون والخوخ والمشمش والرمان والتفاح والكمثرى. هذا، وقد أعارت دائرةُ الزراعة أهميةً خاصة لزراعة أشجار المشمش وتربية دود القز وكذلك لشجيرات الخروع التي تُزرع في ضواحي المدن وتنمو كذلك تلقائيا (بريّا). بزْرُ الخروع غنيٌّ بالزيت ـ حوالي ٥٠٪.

يحتلُّ الشعيرُ المكانةَ الأولى بين الحبوب الوطنية ونراه في كل مكان صالح للزراعة في تريبوليتانيا. تزداد مساحة الأراضي المزروعة بالشعير من عام إلى عام ويتحسن مردوده وترتفع كميات إنتاجه باطّراد. لم تكن كميات الشعير كافيةً خلال طول السنوات الفائتة (في ١٩٢٤ تم استيراد ١٦٠٠٠ طن بقيمة قدرها ١٦٠٠٠٠٠٠ ليرة إيطالية)، بينما الآن يغطّي كامل الاحتياجات الاستهلاكية

للمواطنين. تشاهد زراعة القمح أيضا نموا سريعا في عقارات أصحاب الامتيازات وكذلك الذرة، ولكن بدرجة أقل.

تكتسب زراعة التبغ هي الأخرى أهميةً خاصة. كانت زراعتُه محصورةً بالسكان الأصليين، إلا أنها جذبت في الآونة الأخيرة اهتمامَ المستعمرين الإيطاليين الذين راحوا يزرعونه بأنفسهم. تتمركز زراعة التبغ في الواحات الساحلية على الأغلب: جنزور، الزاوية، سبراته، حيث تنمو أصنافُه المحلية التقليدية دون استنباط أصناف جديدة. بينما أوتيت بعض الأصناف الخاصة بالمناطق الشرقية للبحر الأبيض المتوسط ونجحت زراعتها نجاحا نادرا على سطوح هضبة الجبل في ضواحي غريان ومسلاّتة. يبلغ إنتاج هذه الأصناف الممتازة أكثر من ٥٠٠٠٠ كغ. وتقوم وكالة خاصة خاضعة لمكتب الشركات الاحتكارية في تريبوليتانيا بحملات تشجيع زراعة التبغ.

من الأعشاب البرية ذات الأهمية الإقتصادية الكبيرة نذكرالحلفاء (Stipa tenacissima) وسبارتو (Lygeum spartum). يغطيان مساحاتٍ واسعة تساوي ٥٠٠٠٠٠ هكتار سيّما في مناطق سيناون ونالوت والجوش وزوارة وغريان وترهونه والقصبات والخمس وأورفِيلله. لنباتِ الحلفاء قيمةٌ صناعية عالية، يحوي ٥٪ من ألياف السيليلوز. كانت صادراته في السنوات ١٨٨١ ـ ١٨٨٧ تبلغ ٧٠٠٠٠ ـ ٨٠٠٠٠ طن، بينما المستورِد الرئيسي في سنة ١٩١٨ فكانت انكلترا. تقلَّص تصدير الحلفاء بسبب المنافسة مع تونس والجزائر، مما أدى إلى إهماله من قبل السكان وبعضهم تخلى عن جمعه نهائيا. لا تنفك إيطاليا تعير اهتماما كبيرا لهذا النوع من الإنتاج الزراعي المحلي رغبةً منها في جعل ليبيا بلدا ذا اكتفاء ذاتي من الصناعات الورقية. ربما سيساهم نموُّ شبكة الطرق في المستعمرة في زيادة غلال الحلفاء تلقائيا. إلى جانب الحلفاء يتم جمع السبارتو أيضا، لكن قيمته التجارية لا تنافس قيمة الحلفاء. تُستخدم ألياف كلٍّ من الحلفاء والسبارتو في صناعة الحبال والشبكات وأدوات منزلية وسلال وغيرها.

تدخل الحناء (Lawsonia inermis) ضمن قائمة الزراعات الوطنية الأخرى المتميزة المتمركزة بالقرب من طرابلس وضواحي سوق الجمعة والتاجوراء. تغطي حقولها مساحة تقارب ١٧٥ هكتارا، أما إنتاجها فيبلغ حوالي ٢٠٠ ـ ٢٥٠ طن سنويا. يتم جمع الحناء ثلاث مرات في السنة: في شهر حزيران/ يونيو (الصيف) وشهر آب/ أغسطس (هانيبال) وشهر كانون الأول/ ديسمبر (الكانون). هذا، وتجد الإشارة أن أفضلها نوعيةً ما يُجمع في شهر حزيران/ يونيو (الصيف). تُستخدم الحناء في صناعة العطور والدباغة والصناعات الصيدلية ـ تُصدر أغلبها إلى الجزائر وتونس ومالطا.

منذ بداية استعمار تريبوليتانيا تشكلت إرساليةٌ زراعية خاصة تحت إدارة فرانتشيتي لفحص الإمكانيات الإقتصادية للمستعمرة التي بوشر باستغلالها منذ سنة ١٩١٤. وتم اعتماد قاعدة تقتضي شمول أراضي المواطنين الأصليين ذوي الملكيات القانونية العترف بحقهم فيها استنادا إلى قرارات السلطات المحلية أو بالاعتماد على الأوراق التركية. وتقتضي هذه القاعدة ضم المساحات الزراعية لشركات خاضعة لإدارة المستعمرة. قامت بهذه المهمات دائرةٌ خاصة انبثقت في نهاية سنة ١٩٢٢م حيث أُجريتْ عملية جردٍ شاملة للأراضي ثم قُسمتْ ووزعتْ على ثلاث شرائح من المزارعين: أصحاب الملكية الصغيرة (٧٥ هكتارا كحدٌ أقصى)، أصحاب الملكية المتوسطة (٧٥ ـ ٤٠٠ هكتار) والملاّك الكبار (٤٠٠ ـ ١٠٠٠ وأكثر). بلغت تكاليف إصلاح الأراضي للملكيات الصغيرة ٣٠٠٠ ـ ٣٥٠٠ ليرة لكل هكتار واحد، بينما للملكيات الكبيرة ١٢٠٠ ـ ١٥٠٠ ليرة. هذا، وقد تأسس بموجب مرسوم صادر بتاريخ ١٢ تموز/ يوليو (ناصر) سنة ١٩٢٣ ما يدعى Cassa di Risparmio della Tripolitania صندوق توفير تريبوليتانيا) برأس مالٍ قدره ٣.٠٠٠.٠٠٠ ليرة. كانت إحدى مهماته الأساسية منحَ قروضٍ لأصحاب الامتيازات الزراعية (خُصِّص لها مبلغا قدره ١٠٠٠٠٠٠ ليرة قدَّمتهُ الدولة). كانت مساحة الأراضي المستصلحة في سنة ١٩٢٣ تساوي ٨٢٧.٢٠٢ هكتارا، قدِّمت منها لأصحاب الإمتيازات

١٣٢ . ٨٦٤ هكتارا (حاليا حوالي ١٣٠٠ عائلة إيطالية مستوطنة)، أما المساحات المزروعة فعلا فكانت تساوي ١٠٩ . ٨٥٨ هكتارا. تُلاحظ منذ سنة ١٩٢٦ حركة دؤوبة ونشاط متزايد في تطبيق سياسة استصلاح الأراضي واستغلالها في الزراعة، أي منذ أنْ قويَ عود الطغمة الفاشية، مع العلم أنَّ جلَّ الاهتمام موجهٌ الآن نحو سيرينايكا.

واقع استثمار الأراضي (حسب "Annuario Statistico Italiano" لسنة ١٩٣٤):

الملكية الصغيرة، هكتار		الملكية المتوسطة، هكتار		الملكية الكبيرة، هكتار		الإجمالي
٠،٠١-٢٥	٢٦-٧٥	٧٦-٢٠٠	٢٠١-٤٠٠	٤٠١-١٠٠٠	فوق ١٠٠٠	هكتار
عدد المُلاك						
٢٢٤	١١٩	٦١	٣٨	٤٢	٢٩	٥١٣*

. يشمل هذا الرقم ٤٣١ ملكيةً تابعة لمالك واحد و ٨٢ ملكية تابعة لأكثر من مالك واحد.

قيمة المباني والأجهزة والآلات والمعدات الزراعية

نوع الاستثمارات	القيمة بالليرات
مباني	٤٣,٠٠٠,٠٠٠
إِشيِجة	٧٩٠,٠٠٠
أجهزة هيدرولوجية وكهربائية وما يشابهها	٤٨,٤٠٠,٠٠٠
آلات ومعدات زراعية	٣,٦٠٠,٠٠٠

البستنة

صنف الأشجار	المساحة هكتار	الكمية	القيمة بالليرات
زيتون	٥٤,٧٤٢	١,٧٨٩,٧٠٠	٣٥,٧٩٤,٠٠٠
لوز	١٤,٢٧١	٢,١١٢,٠٠٠	٢٢,٥٠٠,٠٠٠
عنب	٦,٠٤٠	١٨,١٢٠,٠٠٠	٥٤,٠٠٠,٠٠٠
توت	٥٧٩	٥٧,٩٠٠	٢٩٠,٠٠٠
أخرى	٤٣٨	٦٧,٩٠٠	٦٨٢,٠٠٠
الإجمالي			١١٣,٢٦٦,٠٠٠

القروض الزراعية والأسقف المستهلَكة في "Cassa di Risparmio della Tripolitania"

السنوات	القروض الزراعية		المستهلكات (في ٣١/ ١٢)
	عدد القروض	حجم القروض	
١٩٢٤ ـ ١٩٢٩	١٢,٥٨٥	٣٥,٣٧٣,٠٠٠	-
١٩٣٠	٤,٥٣٨	١٢,٧٣٤,٠٠٠	
١٩٣١	٣,٣٧١	١٧,٠٣٥,٠٠٠	١٥,٣٣٢,٠٠٠
١٩٣٢	٨,١٤٣	١١,٦٦٥,٠٠٠	١٦,٦٥٧,٠٠٠
١٩٣٣	٣٦٥	٨,٦٧٣,٠٠٠	٢٠,٦٥١,٠٠٠
الإجمالي	٢٩,٠٠٢	٨٥,٤٨٠,٠٠٠	-

يمكن الحكم بالاعتماد على معطيات نتائج التنقيبات الجيولوجية بأن تريبوليتانيا فقيرةٌ جدا إلى ثروات المناجم. تورد الإحصائيات في أحسن الأحوال خاماتِ ثلاثة معادن فقط: الملح، النَّطْرُون، الكبريت.

أغنى طبقات الأملاح موجودةٌ في ملاحة (١٤ كم إلى الشرق من طرابلس)

وتاورغاء والزاوية وبو كماش، علماً أن أعمال تنظيم الورشات الميكانيكية في ملاحة والإدارة الهندسية بوشر بها في سنة ١٩١٤ واستغرقت حتى سنة ١٩٢٣. يساوي متوسط الانتاج السنوي ١٥.٠٠٠ ـ ١٧.٠٠٠ طن من الملح. أما الانتاج الفعلي في مناجم بو كماش فقد بدأ في سنة ١٩٢٤. يقع على بعد تسعة كيلومترات منها منجمان طبيعيان: ملاحة البو نومة "Bu Numa" وملاحة البريق "el Brigh" مساحتهما الإجمالية ٥٠.٠٠٠ كم٢. يُغطَّى سطح هذه المساحات في فصل الصيف بطبقةٍ بللورية من الملح سمكها ٦ ـ ٨ سم. هذا، وقد أنشئت محطاتٌ في بو كماش بدأت باستخراج كبريتات المغنيزيوم وكبريات البوتاسيوم.

أما النطرون فهو محصور في بحر الترونة بفزان "Bahr el Trona" بالقرب من مرزق. كثافة ثاني صوديوم الفحم (Na2CO3) فيه عالية جدا ٩٤٪، إلا أن استثمار هذا المركب الكيميائي غير اقتصادي بسبب البعد الكبير عن المرفأ وتكاليف النقل عن طريق القوافل أو بالسيارات الشاحنة. بينما نجد خامات الكبريت في الجزء الشرقي من سيرتيكا، عند حدودها مع سيرينايكا. تتوفر طبقات غنية منه كذلك في الساحل بالقرب من سبخة المجته (el Magta) حيث تتراكم فوق السطح وتحوي حوالي ٥٠٪ من الكبريت النقي.

يزاول السكان الأصليون العديد من الحرف المهنية والصناعات اليدوية. على الرغم من استخدامهم تقنيات بدائية تتميز منتجاتهم بمستوى عال من الجودة والدقة. نذكر من هذه المنتجات سجاداتِ الجدار الصوفية (مركزها مصراته) ومصنوعاتٍ ومجوهرات من الفولاذ والفضة والذهب والعاج المحفور بذوق فني وخبرة عالية والخشب والجلد المستخدمين في صناعة العديد من القطع الجميلة المزخرفة المطلوبة في البيت والسوق معا. هناك أيضا صناعات الغزل والنسيج من الصوف والحرير مثل الأقمشة والطرابيش والبرانس (تغطي هذه الأخيرة حاجة السكان المحليين)، بالإضافة إلى مختلف الأدوات المصنوعة من الفخار.

أما الصناعات العصرية بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة فلا وجود لها في تريبوليتانيا. تتمثل بالشركات التالية: ١) Distilleria della Tripolitania (تستخرج الكحول من التمر والتين)؛ ٢) مصنع التبغ التريبوليتاني الاحتكاري؛ ٣) مصنع الورق المستخرج من الحلفاء ومن سبارتو، ٤) معمل كبير لصناعة البيرة من الشعير المحلي ٥) ورشات العزيزية المتخصصة في قطع وصقل الصخور الكالسيومية الشبيهة بالحجر الجيري «الترافرتين».

يبدو مجال الخدمات السياحية فقيرا في تريبوليتانيا إذا قارنّاه بطبيعة حياة الطليان ونمط علاقاتهم الإجتماعية، إلا أنه هناك شركة خاصة تدير عددا من الفنادق من الدرجة الممتازة، مثل: "Grant Hotel" الفخم في طرابلس بفروعٍ له في كلٍّ من الخمس ومصراته وغريان.

أما التجارة الثقيلة فهي محصورةٌ بعددٍ من الشركات الإيطالية ومكاتبها الموزَّعة هنا وهناك. بينما التجارة الخفيفة المتمثلة بالمصنوعات اليدوية المحلية للسكان الأصليين من عربٍ ويهود فهي ناميةٌ.

يتعدى حجم المواد المستوردة قيمة الصادرات. أهم المواد المستوردة: الحيوانات، المنتجات الغذائية والسجاير، المعادن والمواد المعدنية، الأقمشة والألبسة وغيرها من منتجات الغزل والنسيج، مواد خام للصناعات الكيميائية والصيدلية، مواد خام للتعدين، منتجات من الخزف والزجاج، أخشاب ومصنوعات خشبية. بينما يدخل في قائمة المواد المصدرة ما يلي: سمك الطون المملَّح وكونسروه الطون، اسفنج خام، سمن الغنم، جلود خام للغنم والماعز وغيرها من الحيوانات، الحناء، التمور، الحلفاء وسبارتو، الصوف، سجادات وملح الطعام. تساهم إيطاليا بمعدل ٦٥٪ بكامل ما تستورده تريبوليتانيا، أما المواد الأخرى تُستورد من الصين وبريطانيا وفرنسا وتونس وألمانيا ومصر. بينما تساوي الصادرات الليبية لإيطاليا ٥٠٪ من كامل صادراتها وتصدِّر إلى تونس أكثر من ١٠٪ من باقي صادراتها.

بيانات الاستيراد والتصدير في السنوات الأخيرة من وإلى ليبيا

السنة	الاستيراد	التصدير
١٩٣١	١٨٥,٠٨٣,٠٠٠	٢٩,٧١١,٠٠٠
١٩٣٢	١٦٠,٥٦٨,٠٠٠	٢٩,٢٧٧,٠٠٠
١٩٣٣	١٥٣,٠٤٣,٠٠٠	٢٨,٦٠٨,٠٠٠

تتمثل الخدمات المصرفية على الساحة الليبية بالفروع التالية: Banca d'Italia, Banca di Roma, Banca di Napoli, Banca di Sicilia. وبالمراكز المالية: Cassa di Risparimo بفروعها في كل من مصراته والخمس وغريان وكذلك بصندوق القروض Cassa di Piccolo Prestito.

فتحت وكالات الضمانات الاجتماعية فروعا لها في ليبيا مثل شركة Riunione Adriatica di Sicurta (مقرها ترنتو) و La Fondiaria (مقرها البندقية) و Assicurazioni d'Italia (مقرها روما) وInstituto Nazionale Fascita contro Infortuni su Lavoro (مقرها روما).

تقوم لجنة "Fiera di Tripoli" بتنظيم معارض سنوية في ليبيا. بينما لجنة "Enete Turistico" تعمل على تشجيع الحركة السياحية التي تبدو بدون مستقبل بسبب نقص طرق المواصلات التي تنحصر في تريبوليتانيا الحقيقية والجبل وواحة غدامس. تسهر شركة Automobil - Klub التريبوليتانية على إقامة سباق السيارات الذي طبقتْ شهرتُه الآفاق في كلِّ سنةٍ، المربوط بشركة يانصيب تريبوليتانيا؛ أما الدخل الذي يعطيه اليانصيب فيُصرف على الرعاية الاجتماعية.

هناك خطوط بحرية ثابتة لشحن البضاعة ونقل الركاب بين ليبيا والحاضرة روما. تُنظَّم رحلتان نظاميتان أسبوعيا: ١) طرابلس ـ مالطا ـ سيراكوزا ـ نابولي ـ جنوا؛ ٢) بنغازي ـ سيراكوزا ـ نابولي ـ جنوا. بينما الخطوط البحرية

المستخدمة مرة واحدة في الأسبوع فهي التالية: ١) طرابلس ـ تونس ـ كاجلياري ـ كيفيتافيتشا ـ جنوا؛ ٢) طرابلس ـ سيراكوزا ـ نابولي. ومرة واحدة كل أسبوعين: تونس ـ طرابلس ـ بنغازي ـ درنه ـ الإسكندرية.

حركة الشحن والركاب في ميناء طرابلس

السنة	حمولة البواخر، صافي		حجم المشحونات، طن		حركة الركاب	
	الداخلة	الخارجة	الداخلة	الخارجة	القادمون	المغادرون
١٩٢٩	٧٥٩,٨٤٥	٧٥٧,٢٩٠	١٤٩,٨٤٨	٤٣,٢٧١	٢٦,٠١٦	٢٦,٣٩٠
١٩٣٠	٨٩٩,٧٢٣	٩٠٢,١٦٢	١٦٢,١٤٤	٤٦,٤٩٧	٢٥,٠٧٢	٢٣,٤٩٣
١٩٣١	٩٤٨,٧٤٤	٩٤٧,٢٩٤	١٦٨,٥١٧	٤٦,٩٥٣	٢٣,٢٧٩	٢٠,٤٤٤
١٩٣٢	٩٠٦,٨٤٨	٩٠٥,١٤٠	١٦٨,٨٢٣	٣٣,٥١٠	٢١,٨٥٩	١٧,٣٨٣
١٩٣٣	٩٣٥,٦٩٧	٩٣٧,٨٢٣	١٧٢,٩٦٠	٣٣,٠٧٨	٢٨,٣٠٤	٢٤,٢٠٢

تُنظم رحلات جوية ثابتة عبر الخطوط التالي: يومياً ١) طرابلس ـ سيراكوزا ـ نابولي ـ روما؛ ٢) بنغازي ـ سيراكوزا ـ نابولي ـ روما. ومرة في الأسبوع طرابلس ـ بنغازي.

تقع في تريبوليتانيا قنصليات وممثليات الدول التالية بمقرٍ ثابت في طرابلس: انكلترا، فرنسا (تونس مع بقية المستعمرات)، هولندا، اسبانيا، اليونان، ألمانيا، السويد، الدانمارك، النروج.

ليست الصحافة متطورة في تريبوليتانيا مقارنةً بغيرها من المستعمرات. تصدر جريدة واحدة يوميا ذات طابع اجتماعي سياسي "Avvenire di Tripoli" ومجلة أسبوعية اقتصادية "La Tripolitania Agricola" وأخرى نصف شهرية اجتماعية أدبية "Tripolitania" ونصف شهرية ثانية حكومية "Bollettino Ufficiale del

"Bollettino della ونصف شهرية ثالثة اقتصادي Governo della Tripolitania" "Camera di Comercio, Industria ed Agricoltura della Tripolitania". من المجلات الشهرية نذكر: "Archivio Italiano di Scienze Mediche Coloniali")ذات طابع طبي) و "Famiia Christiana" (كاثوليكية). هناك أيضا مجلة فنية أدبية تصدر كل شهرين "Rivista della Tripolitania". أما في اللغة العربية فتصدر مجلتان أسبوعيتان «العدل» و «رقيب العتيد»[١].

مركز الحياة الاقتصادية والاجتماعية والإدارية لتريبوليتانيا محصور بمدينة طرابلس العاصمة التي يبلغ عدد سكانها ٧٣.٠٠٠ نسمة[٢]. تعيش فيها فئات قومية وأثنية مختلفة بنمط حياتها وطابع علاقاتها وتطلعاتها للمستقبل. يتمثل الأوروبيون بالدرجة الأولى بالطليان (٢٠.٠٠٠ فرد)[٣] والمالطيين (٢٠٠٠ فرد، هم مواطنون انكليز رسميا) واليونانيين (٥٠٠ فرد) والفرنسيين (١٠٠ فرد) والأتراك (٦٠ فرد) والاسبان (٤٠ فرد) ومجموعات أخرى صغيرة من البرتغاليين والألمان والروس والهولنديين والبلغار. تسكن في طرابلس عائلة بولندية واحدة تزاول التجارة (كنيتها غاجينسكي)[٤] وهي من إحدى أغنى العائلات في تريبوليتانيا. يتكون السكان الأصليون من خمسة وثلاثين ألف عربي (٣٥٠٠٠) أغلبهم على المذهب المالكي "malechita" مع عدد قليل من

---

(١) يترجم الكاتب عنوان المجلتين إلى اللغة البولندية.

(٢) يعطي الكاتب عدد سكان طراباس للمرة الثالثة.

(٣) أي حوالي ٢٧٪ من مجموع السكان.

(٤) يبدو أن الكاتب البولندي لأسباب نجهلها لم يعر اهتماما لهذه العائلة البولندية ولم يذكر نوع النشاط التجاري أو الاقتصادي التي تزاوله ولم يحاول الاتصال بها. تقديم أي معلومات للقارىء عن هذه العائلة ليست مسألة سهلة، حبذا لو أخذ هذا على عاتقه باحثٌ بولندي. كنية «غاجينسكي» يحملها اليوم العديد من البولنديين، ربما أحدهم هو حفيد لتلك العائلة التريبوليتانية. وليس مستبعدا أنه بعد مغادرة الإيطاليين لليبيا هاجرت لبلد أخر، وهذه ظاهرة ليست غريبة عن البولنديين في الأمس واليوم.

الحنفيين، بالإضافة إلى أربعة عشر ألف من اليهود (١٤٠٠٠) [١]. البقية زنوجٌ سودانيون وآخرون. تتميز حياة سكان المدينة بميزة غياب التوزيع العرقي بين الفئات الأثنية. يلفت النظر الخلاف الحاد بين العرب واليهود.

[V]

الاهتمام بالتعليم عالٍ. تشرف عليه دائرة الشئون المدنية والسياسية، إحدى الدوائر الخمسة التابعة لأمانة الشئون المدنية للمستعمرة. هناك مراحل مختلفة من التعليم بالمدارس: ١) حدائق أطفال، ٢) مدارس ابتدائية ذات مستويَيْن أدنى وأعلى، ٣) مدارس مهنية دنيا، ٤) مدارس متوسطة عامة تجارية وتقنية، ٥) مدارس قرآنية وتلمودية.

ترعى الحكومة المدارس التالية: روضتين للأطفال في طرابلس (إحداهما خاصة للمصابين بمرض التراخوما)؛ أربع وعشرين مدرسة ابتدائية دنيا (خمس منها في طرابلس، اثنتان في الخمس، البقية موزعة في تريبوليتانيا وتقع الأبعد منها في غات ـ ١٧٠٠ كم)؛ عشر مدارس ابتدائية عالية (خمس منها في طرابلس، واحدة في الخُمس، واحدة في مصراته، واحدة في سوق الجمعة، واحدة في زواره، واحدة في غريان)؛ مدرستين مهنيتين دنيَيْن في طرابلس (إحداهما للبنات: خياطة وأعمال بيتية والثانية إسلامية للبنات ـ أعمال بيتية)؛ أربع مدارس متوسطة (اثنتان ثانويتان، واحدة تجارية والرابعة مهنية وفنون تطبيقية للسكان المحليين). لغة التدريس في كل المدارس هي الإيطالية (اللغة العربية إلزامية).

بالإضافة إلى هذا هناك ثمان مدارس خاصة معتمدة على الدعم المالي الحكومي: ستٌ منها في طرابلس (الروضة الكاثوليكية للأطفال؛ بيت اليتامى للبنات على نفقة الاتحاد الوطني الإيطالي لمعاضدة المبشرين؛ بيت اليتامى

(١) حوالي ١٩٪ من مجموع السكان.

على نفقة الراهبات الفرانشيشكانيات؛ مدرسة ابتدائية للبنين للإرسالية الرسولية؛ مدرسة كاثوليكية ابتدائية للبنات ومدرسة ابتدائية للبنات على نفقة الاتحاد الوطني الإيطالي لمعاضدة المبشرين)، مدرستان في الخُمس (ابتدائية للبنات على نفقة الاتحاد الوطني الإيطالي لمعاضدة المبشرين ومهنية للبنات).

يشمل التعليم الخاص الذي لا يحصل على أيِّ دعمٍ مادي من الحكومة أربعَ مدارس في طرابلس: ابتدائية للتجمع اليوناني؛ ابتدائية يهودية "Alliance Israelite Unieverselle"؛ دينية يهودية "Talmud Tora"؛ ابتدائية إسلامية للبنات.

توجد في تريبوليتانيا عشرون مدرسة قرآنية عُليا موزعة في العديد من التجمعات السكانية الكبيرة؛ بالإضافة إلى المدارس الدُنيا الواقعة ضمن كل مسجد تقريبا، شأنها في هذا شأن المدارس التلمودية المتواجدة في كل معبد عبري. نسبة الأميين وسط السكان اليهود ضئيلة جدا، تكاد لا تُذكر.

لا تملك ليبيا أيَّ معهدٍ علمي عالي.

[VI]

تمارس شرائحُ مختلفةٌ من الفئات الاجتماعية حيويتها ونشاطاتها ضمن مؤسسات متمثلة باتحادات سياسية وعسكرية ونقابات مهنية وثقافية ولجان إحسان وأخويات ونواد رياضية ودينية.

نذكر من الاتحادات ذات الطابع الاجتماعي السياسي التاليةَ: Opera Balilla (Balilla, Piccolo, Italiane, Avanguardia, Giovani Italiane), Dopolavoro ederazione Fascita della Tripolitania.. أما نشاطات الحركة الفاشية في تريبوليتانيا Partito Nazionale Fascista فيشرف عليها أمينها الفيدرالي لمقاطعة تريبوليتانيا.

تدخل ضمن الإتحادات العسكرية النقابات التالية: النقابة الوطنية للمقاتلين

القدماء، النقابة الوطنية للمتطوعين بالحرب العظمى، النقابة الوطنية للمعوَّقين Assoziazione Nastro Azzuro والنقابة الوطنية لأمهات وأرامل المقتولين.

تشمل النقابات الثقافية ما يلي من التنظيمات: فرع لجمعية "Societa nazionale Dante Alighieri"؛ جمعية مسرح الهواة "Ars Electa"؛ المسرح العسكري للهواة؛ المسارح اليهودية للهواة "Makkabi" و "Gioventu Israelitica Tripolitana".

المنظمات الاجتماعية والخيرية محصورة بالصليب الأحمر الإيطالي"Societa Tripolina I mutuo Soccorso" والجمعية الإيطالية للأعمال الخيرية و «نقطة حليب» والجمعية اليهودية لمساعدة المرضى "Bekor Holim" والبيت اليهودي للعجزة.

تتضمن الإتحات ذات طابع الأخويات الناديَ العسكري المدني ونادي "Cannottieri" ونادي "Makkabi" اليهودي ونادي الشبيبة اليهودية "G.I.T.".

الحركة الرياضية مزدهرةٌ في تريبوليتانيا كما هو الحال في إيطاليا. تُقسم النقابات الرياضية إلى: النادي التريبوليتاني للسيارات"Circolo di Tiro al Piccione"; "Societa Tripolitana per l'incremento delle razze equine" (تُنظِّم السباقات السنوية للخيول) و"Moto - Klub" و""Tennis - Klub" ونادي الصيادين ونادي التجديف بالإضافة إلى عدد كبير من نوادي كرة القدم. يوجد أيضا ناد يهودي "Makkabi" (يتضمن كل الألعاب الرياضية). ويتناسب مع النشاطات الرياضية في طرابلس عددُ الملاعب المُهيَّئة بالأجهزة المطلوبة وساحات التدريب ومدرجات المتفرجين. تحوي طرابلس مسبحا بحريا أنيقا، أيْ ما يُعرف بـ «ليدو» ويدرّ عليها مكاسبَ باهظةً وفوائدَ ماديةً عالية.

تنحصر النقابات الدينية الكاثوليكية في نقابة الرجال الكاثوليكيين ونقابة النساء الكاثوليكيات ونقابة الأطفال الكاثوليك واتحاد الفرانشيشكانيين.

كذلك للشعب المسلم منظماته الدينية «زاوية» التي تمارس نشاطاتها ضمن المساجد.

توجد في طرابلس خمس كنائس كاثوليكية، أجملها هي الكاتدرائية وكنيسة الأخوات البيضاء وكنسية يونانية (الطقس الشرقي) وفيها عددٌ من المساجد أهمها القره منلية والكورجية ومعبدان يهوديان. نجد الكنائس الكاثوليكية كذلك في صبراته والخمس ومصراته وغريان وبراك.

[VII]

صاحبُ أعلى سلطة في المستعمرة هو الوالي. يخضع له مباشرةً كلٌ من نائب الوالي لسيرينايكا والأمين العام للشئون المدنية وقائدا القوات المسلحة في تريبوليتانيا وسيرينايكا.

تقسم أمانة الشئون المدنية إلى خمس دوائر: ١) دائرة الشئون المدنية والسياسية، ٢) دائرة الشئون الاقتصادية والمالية، ٣) دائرة الزراعة، ٤) دائرة المحاسبات، ٥) دائرة الأمور الذاتية والعامة.

هذا، وتتبع دائرة الشئون المدنية والسياسية المؤسسات التالية: الشرطة، البريد، الخطوط الحديدية، الإضاءة، السجون، المستشفيات، المرافق الصحية العامة والتصليحات، الملكية الأرضية، المدارس، حماية الآثار. ليبيا غنية جدا بالآثار الرومانية النادرة التي تقع في كلٍ من لابتيس ماغنه وصبراته وسيرين وفي أماكن أخرى كثيرة.

تقسم المهام التابعة لدائرة الشئون الاقتصادية المالية إلى: الضرائب الجمركية، الضرائب الفردية، الشركات الاحتكارية، المالية، صناديق التوفير، المؤسسة الوطنية للضمانات الاجتماعية، الصندوق الوطني للضمانات ضد الحالات الطارئة والإصابات الخطرة، غرفة التجارة، الموانىء، قسم الفنون التطبيقية.

تدخل في نطاق وظائف دائرة الزراعة كل الأمور الإدارية المرتبطة بالزراعة وتربية الحيوان والملكية والعقارات ومكتب قضايا المستعمرة ومركز الأبحاث والتجارب الزراعية ومكتب علم الحيوان والمكننة وقسم الأرصاد الجوية.

المجالات العائدة لدائرة المحاسبات هي التالية: المحاسبة والمراقبة المالية لكل الدوائر وأملاك المستعمرة.

بينما أنيطت بدائرة الشئون الفردية والعامة مسائل الأمور الشخصية والعامة والأرشيف والمكتبات ومكاتب الترجمة.

كانت تريبوليتانيا حتى فترة العمل بالمرسوم الصادر بتاريخ ٣/ ١٢/ ١٩٣٤ تُقسم إداريا إلى ثلاث عشرة ولاية (مفوضيات، مندوبيات) هي: طرابلس (مقر المفوض طرابلس)، الزاويه (مقر المفوض الزاويه)، ولاية الحدود الغربية (المقر في زواره)، الجفره (المقر في سوق الجمعة)، لابتيس (المقر في الخمس)، الولاية الشرقية (المقر في مصراته)، غريان (المقر في غريان)، يفرن (المقر في يفرن)، نالوت (المقر في نالوت)، الولاية الجنوبية (المقر في مزده)، فزان (المقر في سبها)، سيرتيكه (المقر في سرت)، غدامس (المقر في غدامس). يؤدي المفوض في بعض الولايات مهام قائد القوات المسلحة.

تشرف على تنظيم الأمور العدلية المؤسسات التالية: المجلس القضائي الأعلى للمستعمرة والمحكمة القضائية والمجلس القضائي الفرعي في طرابلس ووكلاء النيابة العامة وكُتّاب العدل وفرع المجلس القضائي الأعلى في مصراته والمحاكم الفرعية. بالإضافة إليها يوجد في طرابلس مجلس كنسي روم كاثوليكي ومجلس إسلامي (مع محاكم شرعية تابعة له) ومجلس الرابين اليهودي.

يقع في طرابلس مقرُّ غرفة التجارة والصناعة والزراعة واللجنة المستقلة المذكورة أعلاه "Fiera di Tripoli" و "Ente Turistico".

والي ليبيا، كما ذكرنا سابقا، هو المارشال إيتالو بالبو، أما الأمين العام فهو الكوماندور بروني، بينما قائد القوات المسلحة في تريبوليتانيا هو الجنرال سيسيلياني. يقوم بمهام نائب الوالي في سيرينايكا (أي القائم بالأعمال) الجنرال نازي. اسم أمين بلدية طرابلس الكوماندور بيروجيني، مطران الكنيسة الرومانية

الكاثوليكية هو المونسنيور تونيززا وقائد المواطنين العرب هو الأمير قره منلي.

[VIII]

تملك تريبوليتانيا جيوشا برّيّة وبحرية وجوية.

تقع قيادة الطاقم المَلَكي للجيوش البرّيّة التريبوليتانية في طرابلس. تتألّف وحداته من المتطوعين الطليان (الخدمة العسكرية إلزاميةٌ للطليان الساكنين في ليبيا) ومن السكان المحليين والإريتريين المنخرطين في صفوف الجيش بتطوّعٍ ذاتيّ. تُقسم كلُّ مجموعةٍ إلى وحدات مستقلة. يشرف على إدارة الجيش قائد القوات المسلحة، يليه مفوَّض المقاطعة ثم آمر مسئول عن فرَق الجيش طبقا لنوع السلاح.

تدخل في تركيب صفوفِ الجيوش البرية في تريبوليتانيا في أيام السِّلْم القطعاتُ التاليةُ: المشاة، الخيالة، المدفعية، الوحدات الهندسية والدَّرَك. تُقسم قطعات المشاة إلى: كتيبة الدَّرَك الاستعمارية الفاشيستية وكتيبتَيْن من المشاة الطليان "Cacciatori" وستِّ كتائب عربية "libici" وستِّ كتائب إريترية "eritrei". أما قطعات الخيالة فتتألف من سرايا السّباهيين (فرسان الجيش العثماني الخاص) وسبع سرايا من الفرسان العرب "savari" وسبع سرايا صحراوية (جِمال) وسرية واحدة من الدَّرك وكتيبتَيْن مدفعية وسرية ألغام وسرية اتصال وسرية سلكي ـ لاسلكي وفوج سيارات وكتيبة سكك حديدية وكتيبة رقابة وإشراف وفوج خاص للرعاية الصحية وسرية دَرَك.

تم تشكيل قيادة القوات البحرية في يوم ١/ ٦/ ١٩٢٤. تدخل في مهامها خدمة الاستخبارات وحراسة الشواطىء الليبية.

بينما قيادة القوات الجوية فهي تخضع هندسيا لوزارة الطيران. يدخل في تركيب مجموعات السلاح الجوي سربٌ من الطائرات الحربية نوع "SÁVÁA" وأسطولٌ من الطائرات الثقيلة "Caproni" ـ حاملات الطوربيدات وكتيبة هندسية وورشات وغرفة التصوير الجوي. يقع المطار الرئيسي في ملاّحة قرب طرابلس. هناك أيضا مطاراتٌ ثابتة في كلٍّ مِنْ الخمس وزواره وترهونه

ومصراته وغدامس وهون وفي سبها. وتجدر الإشارة أنّه توجد العديد من الأمكنة التي هُيِّئت فيها مطارات احتياطية مؤقتة.

تُقسم تريبوليتانيا إداريا من الناحية العسكرية إلى أربع مقاطعات حربية: طرابلس، الجبل، سيرتيكا، فزان. هذا، وتُقسم المقاطعات الثلاثة الأخيرة بدورها إلى شبه مقاطعات: الجبل (مقر القيادة في غريان)، مزده، غريان، غدامس. أما سيرتيكا فتشمل سيرتيكا (القيادة في سرت) وسرت وهون. بينما تتألف المقاطعة الثالثة من فزان (القيادة في سبها) وغات ومرزق وبراك.

[IX]

كانت هذه صورة مصغَّرة قدَّمتُها لكم عن المستعمَرة الإيطالية غير المعروفة في بولندا. الحقُّ مع الطليان عندما قالوا في هذا الصدد: «نملك الكثيرَ، إلا أننا في الواقع لا نملك شيئاً». مساحاتٌ شاسعة من الصحارى الرملية والحجرية والصخرية. لم تعطِ حملاتُ التنقيبات الجيولوجية عن المعادن نتائجَ إيجابيةً ولا توجد مؤشراتٌ تفاؤلية للمستقبل. إمكانياتُ زيادة تربية الحيوان وتوسيع رقعة الأراضي الزراعية محدودةٌ جدا. الشعب فقيرٌ عدداً وعدّةً. فهيهات أنْ تأخذ الحاضرة الإيطالية بعين الاعتبار والجدُّ تأمينَ الإمدادات التي تحتاجها صناعاتها وتمويل مواطنيها بالمحاصيل والمواد الغذائية.

تحتاج إيطاليا كبلدٍ ذي كثافة سكانية عالية لمساحاتٍ. إلا أنه على الرغم من قلّة كثافة سكان تريبوليتانيا وسيرينايكا، لا تصلح هذه الأراضي كمستعمرةٍ فهي تُمثّل أدنى ما تتطلبه إيطاليا. مارست إيطاليا حملة استيطانٍ واستعمارٍ واستغلالٍ لليبيا بصبرٍ ومثابرةٍ وعزم، باذلةً جهودا خارقة ومستنفرةً العدّةَ اللازمة في تقدم الزراعة ومكننتها على أعلى مستو. إلا أنّه لم تعطِ كلّ هذه الجهود إلا نتائج متواضعة جدا ولا توجد أية علامات تشير إلى ديناميكية النمو وإسراعه كمّاً وكيفاً في المستقبلَيْن القريب والبعيد. باستثناء تريبوليتانيا الحقيقية وهضبة الجبل والشريط الساحلي لسيرينايكا ستبقى المناطق الأخرى خارج نطاق التأثير الحضاري الفعلي لإيطاليا ولا تدخل في الحسبان. تُخفي هذه الأراضي ذات

الخصوبة النسبية في داخلها كمياتٍ من المياه الجوفية - فهي ليست فارغة، بل محجوزة من قبل السكان المحليين حجزا تاما. على الرغم من الاستثمارات الضخمة والأموال الطائلة فإنَّ واقعُ أصحاب العقارات من الطليان مرٌّ. يعيشون في مأزق وعلى حيرة من أمرهم. يقتصر التوسع الإيطالي في عمق البلد على بناء الطرقِ الإستراتيجية والحصون العسكرية. تكمن أهمية ليبيا للدولة الإيطالية على الأرجح كونها نقطة انطلاق للتوسع الاستعماري. كانت هذه الدوافع أساس فكرة مشروع الخط الحديدي العابر للصحراء من طرابلس إلى بحيرة تشاد. وقد تجسَّد شعارُ هذا التوسّع في كلمات الصيغة الليبية لأنشودة "giovinezzy": Dunque muovan gli sahariani, con l'indomito furore, s piantar il tricolore, oltre Tummo, fino al Ciad (يتحرك الصحراويون باندفاع عارم كي يغرزوا راية الألوان الثلاثة خلف تمّو وحتى فوق تشاد).

تملّكِ إيطاليا لليبيا يحمل أهميةً استراتيجية قبل أيةِ أهمية أخرى. تكمن في خلق قاعدة ضرورية لمناورات وعمليات القوات البحرية الإيطالية في محاولةٍ لرفع قدراتها الكيفية في البحر الأبيض المتوسط. إلا أن الطريق من صقلية إلى ليبيا ليس مفتوحا لإيطاليا فقط. تقع في وسطه مالطا الإنكليزية. ينظر الإيطاليون لمالطا كونها رقعة إيطالية الأصل تاريخاً ونسَباً. لهذا يتجاوب الرأي العام الإيطالي باهتياج إزاء الوضع الراهن للجزيرة. يتألمون بسبب احتلالها من قبل بريطانيا ويعتبرون هذا إسفينا مدقوقا في الجسم الإيطالي الحي. وبالإضافة إلى هذا يرى المجتمع الإيطالي أن الحصول على مالطا سيزيد دولتهم قوةً وسيرفع دورها وأهميتها في حوض البحر الأبيض المتوسط.

نظرا لموقعها الجغرافي الشبيه بالإسفين المغروز في منطقة التأثير الفرنسي والإنكليزي تفسح ليبيا المجال لإيطاليا لتكون دولة مشاركة فعلية ثالثة في مدار لعبة المصالح الاستعمارية في أفريقيا الشمالية. ويجب ألا يغيب عن بالنا بأن الدوائر الحكومية الإيطالية، مثلها مثل كامل قطاعات المجتمع الإيطالي، يجمعهم رأيٌ واحد ونظرةٌ واحدة مفادها أن توسيع المستعمرات الإيطالية هو من المصالح الحيّة والضروريات الملحّة للشعب والدولة معا، وأنَّ معاهدة

فرساي ظلمتْ إيطاليا ظلماً خارقاً ملحوظاً. ليست محاولات لجوء إيطاليا إلى التوسّع في تونس و«الوصول إلى اتفاق من أجل رسْم» الحدود الليبية والتشاد والكاميرون ـ ليست إلا مراحل متتالية لأهداف إيطاليا الاستعمارية. باختصار: «إعادة النظر بمسألة الانتداب وتوزيع المناطق المستَعمَرة وفق معيار أكثر عدالة بالنسبة لبلدنا الذي يتميز بحبِّه للعمل ويشهد انفجاراً سكانياً (متقطفات من خطاب Palazzo Chigi بمناسبة Decennale della Rivoluzione Fascista».

لم تعدْ سياسة الاستعمار الفاشي مسألة داخلية في إيطاليا فقط، بل خرجتْ من قوقعتها في الربع الأخير من سنة ١٩٣٤ وتبلورت كاشفةً عن أهدافها خلال ثلاث وقائع متتالية في فترة قصيرة من الزمن: الزيارة الملكية إلى الصومال والخلاف على الحدود بين إيطاليا وإثيوبيا وأخيرا الحديث حول مواضيع أفريقيا عند زيارة لافاللا إلى روما.

انتهت المناقشات الإيطالية بنجاحاتٍ استعمارية واضحة. فقد تم تمديدُ الحدود الجنوبية لليبيا عمقاً نحو الجنوب. تبدأ الحدود الجديدة الآن من تمّو التي ضُمَّت مؤخرا إلى الأراضي الليبية وهي آخر نقطة حدود تم الاتفاق عليها في معاهدة باريس يوم ١٢/ ٩/ ١٩١٩. توصلتْ إيطاليا كذلك إلى رسمِ الحدود الغربية للسودان الإنكليزي ـ المصري تحت خطِّ الطول الشرقي ٢٤ من غرينيتش وخطِّ العرض الشمالي ٤٥. ١٨، وبهذا فقد اكتسبت ليبيا الإيطالية كلاً من أوزو وجبِّي (Jebbi) وسومه (Suma) وجنزنتي (Gueyenti) وأوري (Ouri)، أي مساحةً إجمالية تعادل ١١٤. ٠٠٠ كم٢.

هذا، وقد أحرزت السياسة الاستعمارية الإيطالية نجاحاً هاما في تونس أيضا. تم توقيع معاهدة تسوية الخلاف حول مسألة المهاجرين الإيطاليين المقيمين في تونس. تنص المعاهدة على احتفاظ أطفال المواطنين الطليان المولودين في تونس حتى سنة ١٩٤٥ بمواطنيتهم الإيطالية إلى جانب الفرنسية، بينما يخوَّل الأطفال المولودون في السنوات ١٩٤٥ ـ ١٩٦٥ حقَّ اختيار المواطنة التي يرغبون. أما المولودون بعد سنة ١٩٦٥ فسيحملون الجنسية الفرنسية فقط. وكذلك الأمر بالنسبة للتعليم: ستعتبر المدارس الإيطالية مدارسا

خاصة خاضعة للإدارة الفرنسية اعتبارا من سنة ١٩٥٥ . واحتفظت إيطاليا ـ بموجب الاتفاقية ـ بأملاكها في تونس لمدة ثلاثين سنة بعد أن عملت على ربط تونس مع ليبيا اقتصاديا.

فَرْضُ النظام على ليبيا بأسلوبٍ إيطالي بتأنٍّ وصمودٍ وبجهودٍ فائقة وأموالٍ طائلة وبدرايةٍ حكيمة هو معيارٌ ومقياسٌ للقدرات الاستعمارية التي تملكها الدولة الإيطالية وهو مدرسةٌ لتحقيق مهماتها الاستعمارية في المستقبل ورمزُ عَظَمَتِها وقوتها، وقبل أيِّ شيء آخر ـ هو تحقيقٌ لطموحات الفاشية التي تحلم أن تخطو يوما على أثر الإمبراطورية الرومانية الضخمة في العصور الغابرة.

الخلاصة ـ تمثل ليبيا أهميةً استراتيجيةً وسياسيةً ومعنويةً لإيطاليا، ترفع مكانتَها في المجتمع الدولي. لهذا عُيِّن المارشال إيتالو بالبو ـ الرجلُ الثاني بعد موسولوني، وهو بطلُ إيطاليا الفاشية ـ والياً على ليبيا. لتعيينه هو نفسه وليس غيره أهميةٌ عظيمة. فهو للمجتمع الإيطالي علامةٌ بأن الفاشية تحقق أهدافها ووعودها الاستعمارية وللعالمِ تأكيدٌ على الأهمية التي تربطها إيطاليا بالتوسع الاستعماري في أفريقيا.

قمتُ برحلتي إلى تريبوليتانيا في عام ١٩٣٤ . استغرقت أربعة أشهر: من كانون الثاني/ يناير (أي النار) إلى نيسان/ أبريل (الطير). عندما كنت أعدُّ كتابي الذي نُشرتْ أجزاءٌ منه على صفحات "Kurjer Poranny" لم أتوقعْ أنَّ ملاحظاتي الخفيفة وتكهُّناتي بخصوص طابع وميول السياسة الاستعمارية لإيطاليا ستتحقَّق بهذه السرعة على اليابسة الأفريقية من حيث انفجار الأوضاع ذات الأهمية العالمية الكبيرة[١].

في تشرين الأول/ أكتوبر (التمور) ١٩٣٥

---

(١) بعد الانتصار على دول المحور سنة ١٩٤٥ واندحار كلٍّ من ألمانيا وأيطاليا وُضعت ليبيا تحت إدارة بريطانية ـ فرنسية مشتركة حتى سنة ١٩٥١م. ويعتبر يوم ٢٤/ ١٢/ ١٩٥١ عيد استقلال ليبيا الرسمي.

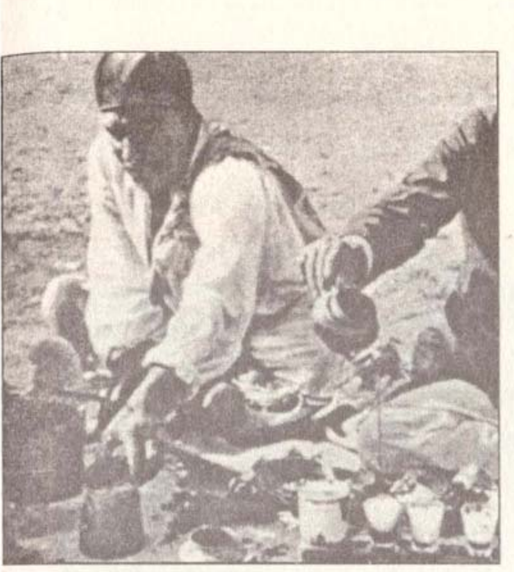
ملحق صُوّر

تحيط بالباخرة قوارب تشبه غناديل البندقية

شخصية إيتالو بالبو المشهورة والمحبوبة لدى الطليان



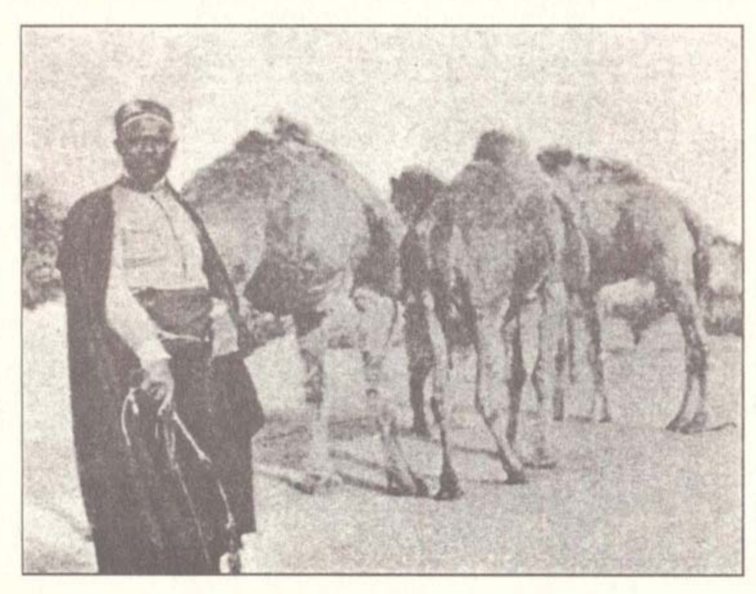
ندخل الحيَّ العربيَّ



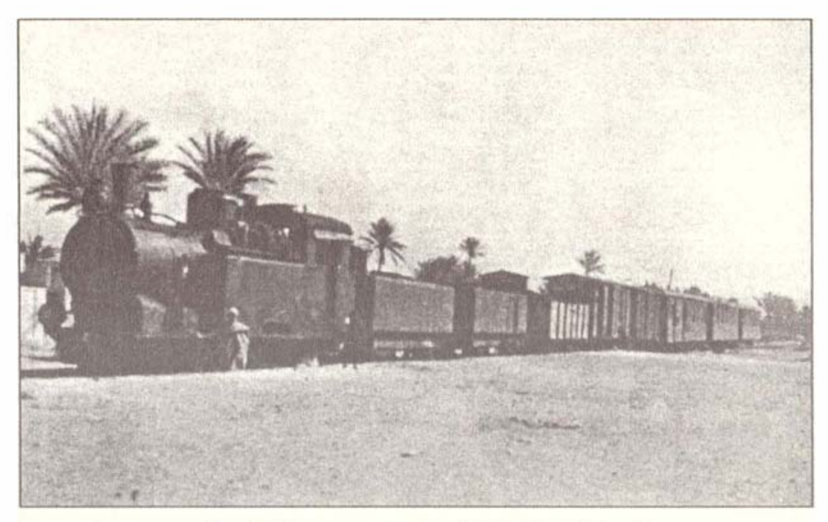
طريقة تحضير الشاي هنا فيها أصالة

أمام المسجد (مارسيللو مع الكاتب)

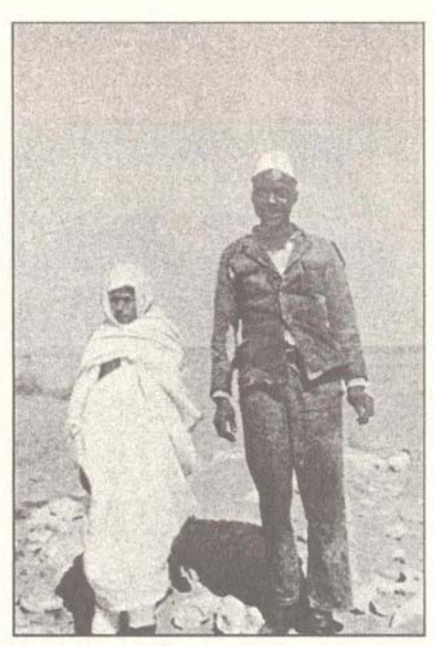
الفتحات في الأسفل تؤدي إلى الكهوف المحفورة بالأرض الطينية



على الأرجح هكذا كانت تبدو هيئات تجار العبيد



نصل إلى المكان الذي تنتهي فيه سكة القطار



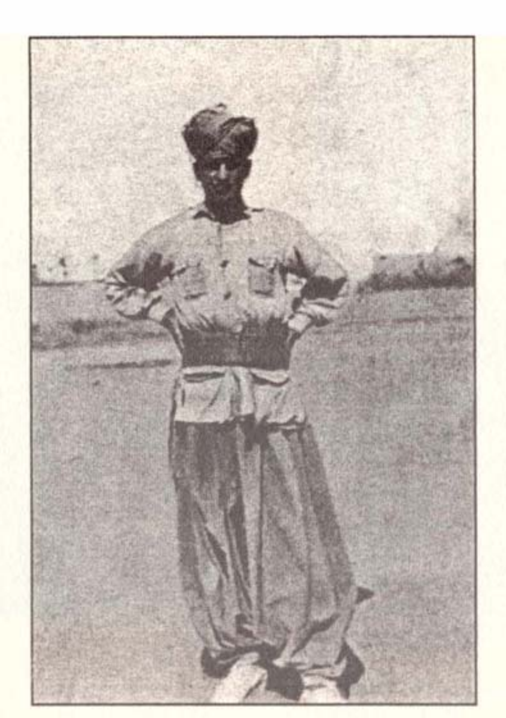
سبب الاستهزاء بسلامه (الزنجي) هو أخوه صاحب التسع سنوات
وذو البشرة البيضاء

حوالي الحادية عشرة نصل إلى حصن بير غداغية

ندحرج البرميل إلى داخل السيارة

قلعة تركية من القرن السادس عشر في مرزق

سكوبسي، مارنزانو، أوتافيانس و باسكواليني أمام حصن في مرزق



محمد بن علي ، عربي ضخم يسهر على خدمتي

نقف عند مبنى المديرية في رقيبة

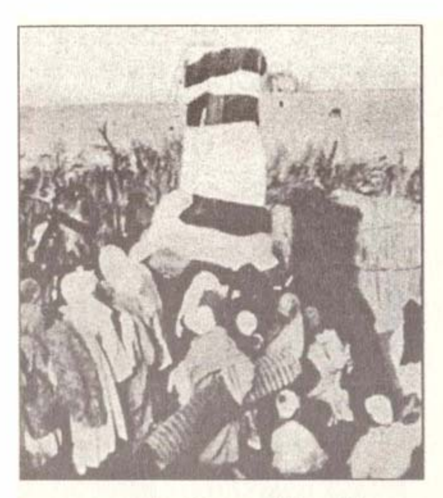
إلى المناورات، تحرَّكْ!



ضريح سيسيلي بتاوتيللي



جندي إريتري في سبها يعزف على
الـ "مَسُنْكو"



تتربع (العروس) في الهودج
على ظهر جمل

في طريقنا عبر الصحراء كثبان متموجة



مع هذا الجندي المرح ربطتني صداقة حميمة



منذور ، مرابض من السكان المحلّيين

السيدة ليو ده بيللاو والملازم بونجوانني

دخل الموكبُ صحنَ الحصنِ

حَلبْتُ الماعزة



نسوة مسرعات إلى البئر وعلى رؤوسهن جِرار

وجبة غداء بين جريات و ميزدا

هذا الكتاب

«جوابا على رسالتك الموجّهة يوم ٣١ كانون الأول/ ديسمبر من العام الفائت لا يسعنا إلا أن نشكرك جزيل الشكر على تبادلك معنا ببعض التكهنات، إذ المعلومات المتوفّرة حتى تاريخه في حوزة هيئة حماية ذكرى المعارك والشهادة المتعلّقة بالملازم برونيسواف فيجايسكي محدودة جدا. في لائحة سَوق الضبّاط من معسكر كوشيلسك المعدّة بتاريخ ١/ ٤/ ١٩٤٠ كان في الإمكان التأكّد فقط من تاريخ ولادته: سنة ١٩١٠ وإسم والده: فيتولد. بينما عند النبش في المقبرة الجماعية في غابة كاتين سنة ١٩٤٣ تم العثور على جثّة الملازم وإلى جانبها جواز سفره وبصعوبة تمّ قراءة إسمه: فيج ـ. . . برونيسواف كريستين».

